غونتر غراس

مئويتي

ترجمة
جيزلا فالور حجّار

منشورات الجمل

غونتر غراس

الأعمال الكاملة

٣- مئويتي

باشراف خالد المعالي

غونتر غراس

مئويتي

ترجمة عن الالمانية

جيزلا فالور حجّار

منشورات الجمل

ولد **غونتر غراس** في ١٩٢٧ بضاحية **لانغفور** التابعة آنذاك إلى **دولة دانسغ الحرّة**. والتحق في ١٩٤٤ بالجيش الألماني جندياً في سلاح الجوّ ثم في صنف الدروع، وقد جرح ووضع في الأسر الأمريكي. بعد إطلاق سراحه مارس العديد من المهن في الزراعة والمناجم والمقالع قبل أن يبدأ بتعلّم الحفر على الحجر ومن ثم النحت والطباعة الفنيّة (الغرافيك) في أكاديمية الفنون بدوسلدورف من ١٩٤٨ إلى١٩٥٢، وتابع دراسته في كليّة الفنون ببرلين. وفي ١٩٥٥ بدأ بنشر أولى قصائده، وبعد ذلك بعام واحد رحل إلى باريس، حيث أقام حتى ١٩٦٠ وأنجز كتابة روايتة **الطبل الصفيح** التي جلبت له شهرة واسعة، لتتبعها أعمال مهمة أخرى مثل **القطّ والفأر** و**أعوام الكلاب** التي أصطلح عليها باسم ثلاثية دانسغ. ويعتبر غراس من الكتّاب الغزيريّ الإنتاج؛ إذ أصدر حتى الآن سبعة عشر مجلّداً، ضمّت إلى جانب أعماله الروائية والمسرحية والشعرية، الكثير من المعالجات النقدية والفكرية والخطابات السياسية. وحظيت أعماله الإبداعية والفكرية باهتمام الرأي العام الألماني والعالمي منذ عشرات الأعوام، وقد توّجت أخيراً بجائزة نوبل للآداب في العام ١٩٩٩.

ولدت **جيزلا فالور حجار** عام **١٩٥٣** في مدينة لايبتسغ/ ألمانيا. درست الألسنية وعلوم الشرق الأوسط في جامعة (كارل ماركس)، حيث حصلت على الماجستير. عملت مترجمة حرّة لعدد من المؤسسات الثقافية والاجتماعية في كلّ من ألمانيا، العراق ولبنان. كما ساهمت (الى جانب الدكتور موسى وهبة) في ترجمة «نقد العقل المحض» لعمانوئيل كنط. كما ساهمت في تحرير ملحق «نهار الكتب» في بيروت، تقيم اليوم في بريطانيا. من ترجماتها المنشورة: **نيتشه: ماوراء الخير والشر** (بيروت ١٩٩٥)، **هيرمان هيسه: سدهارتا** (دمشق ٢٠٠٠).

غونتر غراس: مئويتي؛ ترجمة: جيزلا فالور حجّار

الغلاف: رسمة **لغونتر غراس**

Günter Grass: Mein Jahrhundert

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

ساهمت مؤسسة انتر ناسيونس في بعض تكاليف هذه الترجمة

١٩٠٠

أنا الذي أُبدلتُ بما لي من ذوات اخرى، كنتُ من المشاركين عاما بعد عام. صحيح انّي لم اقف في الخطوط الامامية دائما، فالواحد منّا، والحروب متوالية، كان يُؤثر الانسحاب الى ما خلف الجبهة، لكنّي سرت في مقدمة الكتيبة الوسطانية، اولّ ما استعدّوا للحملة على الصينيين واحتشد فيلقنا في بريمرهْافن. تألّفت غالبيته من المتطوّعين، وانا بينهم الوحيد الذي تطوّع من بلدة شتراوبْينغ، على الرغم من انّي كنتُ مخطوبا من تيريزتي منذ امد قصير.

استعدادا للابحار كانت شركة البواخر لويدْ الالمانية الشمالية ناحية ظهورنا، والشمس على وجوهنا. وعلى منبر عالٍ مرفوع أمامنا، يخطب القيصر بنبرة مقدامة فوق رؤوسنا، المحمية من أشعة الشمس بقبعات جديدة ذات حواش عريضة، لُقّبت يومها بـ"الشمالية الغربية." فبدا الواحد منّا في هيئة مرتّبة. أما القيصر فاعتمر خوذة خاصة، يتلألأ عليها النسر على خلفية زرقاء. تكلّم عن مهام خطيرة وعدو وحشي. واوقد خطابه الهمم. قال: "بعد وصولكم، فاعلموا: لا مهاودة ولا أسرى..." ثم تكلّم عن الملك آتيلا وجماعات الهون التابعة له. كان يمدح الهون، رغم انهم، على حدّ قوله، عاشوا في البلاد عيثا مروّعا. لذلك عمدت "الاشتراكية" فيما بعد الى طباعة رسائل هونية وقحة مجدّفين فيها على القيصر وخطابه الهوني تجديفا مبرما. في ختام خطابه اعطانا القيصر أمره بخصوص الصين: "فلتشقوا الطريق للحضارة نهائيا والى غير رجعة!" فهتفنا هتاف التهليل الثلاثي.

جرت الرحلة البحرية الطويلة بالنسبة لي، القادم من بلاد بافاريا الدنيا، على نحو يرثى له. وعندما وصلنا اخيرا الى تينْسن، كان الجميع هناك: البريطانيون، الامريكيون، الروس، وحتى بعض اليابانيين الحقيقيين وزمر من بلاد صغيرة. وكان البريطانيون في الواقع هنودا. في البداية قلّت اعدادنا، لكنّنا كنّا، لحسن

الحظ، مزوّدين بمدافع سريعة الطلقات عيار خمسة سينتمترات من انتاج كرُوب. أما الامريكيون فجربّوا رشاشاتهم المسمّاة ماكْسيم - بضاعة شيطانية فعلا! وهكذا أقتُحمت بيكينغ سريعا. فحين دخلت كتيبتنا، بدت القصة منتهية، وهو امر مأسوف عليه. لكن مع ذلك، اصرّ بعض الملاكمين على الشغب والمناوأة. وهم لُقّبوا بهذا اللقب لانتمائهم الى جماعة تاتاوهْواي السريَة، مما يعني في لغتنا "الذين يقاتلون بقبضاتهم." لذلك تكلم اول الامر الانكليز، وثم الجميع، على انتفاضة الملاكمين. كان الملاكمون يكرهون الاجانب، لان هؤلاء يتاجرون مع الصينيين ويبيعون لهم شتى البضائع والسقط. وآثر البريطانيون بيع الافيون. وهكذا صار ما صار وجرت الامور كما أمر القيصر: لا اسرى.

من اجل الحفاظ على النظام، حُشر الملاكمون في الساحة، قرب بوابة تشينْمن، لصق الحائط الذي يفصل مدينة ماندشو المحرّمة عن احياء بيكينغ العادية. كانت جدائلهم مربوطة بعضها ببعض، فبدا المنظر مثيرا للضحك. ثم أُطلق عليهم الرصاص جماعات جماعات او قُطعت رؤوسهم فردا فردا. لكني كتمتُ عن خطيبتي أخبار الفظاعة ولم اذكرها بكلمة، بل اكتفيت في مراسلاتي بذكر بيض عمره مئة عام وكبّة حيلة مطبوخة بالبخار على الطريقة الصينية. كنّا نحن الالمان -- والبريطانيين كذلك - نفضلّ الإجهاز عليهم سريعا بالبنادق، في حين ان اليابانيين اتبعوا في قطع الرؤوس تقليدهم الوقور. لكن الملاكمين فضلوا الموت رميا بالرصاص، لانهم كانوا يخافون من التيه في الجحيم متأبطين رؤوسهم. اما فيما عدا ذلك فلم يخافوا من اي شيء. وقد رأيت واحدا منهم، يلتهم نهما، قبيل رميه بالرصاص، كعكة ارز منقوعة في القطر.

على ساحة تشينْمن هبّت رياح آتية من الصحراء تبعثر بلا انقطاع غيوما صفراء من الغبار. فبدا كل شيء اصفر، بما في ذلك نحن ايضا. وهذا ما كتبته لخطيبتي، واضعا لها قليلا من الرمل الصحراوي في ظرف الرسالة. لكن، بما ان الجلادين اليابانيين عمدوا الى تقليم الملاكمين. وكانوا شبّانا مثلنا في اول العمر. بقصّ جدائلهم الطويلة المربوطة عند الرقبة، ليتمكنوا من فصل الرؤوس بضربة

واحدة نظيفة، فقد امتلأت الساحة احيانا كثيرة بكومات من الجدائل الصينية المقطوعة الغبراء. فاخذتُ واحدة منها معي وارسلتها تذكارا الى دياري. وبعد عودتي الى الوطن كنت اتزيّن بها، لفرحة الجميع، في اعياد الكارنيفال، الى ان احرقت خطيبتي هذا التذكار. "إن غرضا كهذا يجعل البيت مسكونا"، قالت ريزي قبل زواجنا بيومين. لكن، هذه قصة أخرى.

ضد الصينيين: عام ١٨٩٨ احتل الرايخ الالماني منطقة في الشمال الشرقي للصين. في الوقت عينه نادت فئة من الصينيين (الملاكمون) بالكفاح ضد القوى الاجنبية التي حولت الصين الى شبه دولة مستعمرة. عام ١٩٠٠ زحفت هذه القوات الصينية على بيكينغ حيث احتلت الحي التجاري وقتلت عددا من الاجانب، بينهم المبعوث الالماني. في خريف العام نفسه تم احتلال المدينة من قبل جيش دولي (الى جانب المانيا: بريطانيا، فرنسا، اليابان، روسيا، الولايات المتحدة) ووُضع حدّ لانتفاضة الملاكمين.

شركة البواخر لويدْ الالمانية الشمالية: في مدينة بريمرهْافن كان المقر الرئيس للشركة التي ارسلت بواخرها الى امريكا الشمالية وآسيا الشرقية.

...يخطب القيصر: فِلْهَلْم الثاني (١٨٥٩- ١٩٤١)، بين ١٨٨٨ و١٩١٨ القيصر الالماني وملك بروسيا. ادلى في ١٩٠٠/٧/٢٧ بـ خطابه الهوني الذي طالب فيه بالكفاح ضد المتمردين الصينيين بلا هوادة.

أتيلا... الهون: قبيلة بدوية ظهرت في القرن الرابع في اوربا الشرقية وأخضعت عددا من القبائل الجرمانية لسيطرتها. بعد موت الملك أتيلا عام ٤٥٣ تفتّتت المملكة الهونية. تُنسب الى أتيلا في الاساطير القديمة صفات تتراوح بين الوحشية والطيبة.

الرسائل الهونية: كتب الجنود الالمان رسائل الى أهلهم في الوطن يخبرونهم فيها عن الفظائع التي ارتكبت بحق المتمرّدين الصينيين. عمدت الصحف الديمقراطية الاجتماعية والليبرالية الى نشر هذه "الرسائل الهونية."

تيِنْسن: مدينة ومرفأ في الشمال الشرقي للصين. كانت مركز التمرد وأُلحقت بها اضرار جسيمة اثناء القتال.

كروب: شركة أسسها فريدْرِش كروب عام ١٨١١. تطورت لتكون اكبر مصنع لصبّ الصلب في العالم. ازدهرت اثناء الحربين العالميتين لانتاجها مختلف الاسلحة.

الملاكمون... تاتاوهْواي: اطلقوا على انفسهم حرفيا: "قبضات من اجل العدالة والسلام."

...السقط... الافيون: منذ عام ١٨٤٤ فقدت الصين سيادتها الجمركية وبعد حرب الافيون عام ١٨٤٢ امست تجارة الافيون (البريطانية) تجارة مشروعة.

... في الجحيم متأبطين رؤوسهم: عبارة واردة في تقارير الجنود الالمان.

١٩٠١

من يبحث يجد. كنت من زمان من هواة التنبيش في الاغراض العتيقة. على ساحة شاميسو، وتحديدا عند تاجر تبشّر لافة محله، بالابيض والاسود، ببيع الانتيكات، ولا تعثر عنده على قطع ثمينة إلاّ وهي محجوبة عن العين تحت اكوام من الكراكيب، ويجذبني اليه مع ذلك ما يحويه من طرائف تثير فضولي، هناك انن، اكتشفتُ في أواخر الخمسينيات ثلاث بطاقات بريدية مصورة، مربوطة في رزمة، تلوح مناظرها باهتة: مسجد الاقصى، كنيسة الضريح، حائط المبكى. خُتمتْ البطاقات الثلاث في كانون الثاني عام خمسة واربعين في القدس، والمرسل اليه دكتور من عائلة بنّ ساكن في برلين. لكنها لم تجد سبيلها البريدي اليه، لان العثور على المرسل اليه بين انقاض المدينة تعثّر يومها، في اشهر الحرب الاخيرة – ويصدق على ذلك ختم بريدي مطبوع عليها. يا للحظ انّ محلّ كُورت مولنْهاوبت، الزاخر بالخبايا، الواقع في حي كرويتْسبرغ، وفّر لها ملجأ أمينا!

صَعُبَ فك الرموز المدوّنة وهي تكوّن نصّا متواصلا من بطاقة الى اخرى، تتخلّل نسيجه رسومٌ لاشخاص ومذنّبات. وجاء فيه: "يا له من زمن مقلوب رأسا على عقب! اليوم، في اولّ أيام آذار، والقرن المتفتّحة براعمه للتو يتزيّن مفتخرا بالرقم واحد الاشبه برجل مستقيمة، اليوم وانت، يا بربريّ ونمري، تشتهي اللحم في ادغال بعيدة، اليوم وضع ابي شولر يده الخفيفة المتندرة في يدي، ليصحبني وقلبي الزجاجي في رحلة بتولة الى التليفريك من بارمن الى الْبيرفْيلد، فوق نهر فبر الاسود! انه تنين صلب صلابة الحديد، يلتفّ ويتعرّج بالف قدم وقدم فوق النهر، الذي يسوّده الصباغون الاتقياء، مقابل اجور متواضعة، بما تخلّفه أصباغهم من مياه سوداء كالحبر. بلا انقطاع وبجلبة مجلجلة، تطير المركبة المعلقة في الهواء، في حين ان التنين يتخطى على اقدام ثقيلة. يا ليتك، يا جيزلهر، الذي ارتشفتُ من فمه اللذيذ متعا جعلتني ارتعش، استطعتَ ان تحلّق معي، أنا شولاميط التي لك – ام تراني اكون الامير يوسف؟ – فوق نهر الاموات أسطُقس، وهو نهر فوبر الاخر، الى

ان نهوى معا ونفنى مشتعلين، مجددين. لكن، لا. انّي في آمان، على أرض قديسة اعيش موعودة للمسيح، في حين انك في هلاك، ايها البربري والخائن، القاسي الملامح، المتخلّي عني. ولولة ونحيب...! أترى البجعة السوداء على النهر الاسود؟ أتسمع أغنيتي الشجية، المعزوفة على البيانو الازرق؟ – لكن الآن حان وقت النزول، يقول الاب شولر لابنته الزه... وعلى هذه الارض كنتُ له غالبا طفلة مطيعة... "

صحيح، اننا نعرف ان يومَ افتُتح القسْمُ الاول للتليفريك والممتد على اربعة كيلومترات ونصف فوق وادي الـ فوبر، لم تكن الزه شولر طفلة، بل كانت امرأة جاوزت الثلاثين، متزوجة من برتولد لاسكْر، ومنذ سنتين أمّا لصبي واحد. الا أن العمر كان على الدوام طائعا لرغباتها. لذلك جاءت السلامات الثلاثة، المزودة بالاختام والطوابع، والمرسلة من القدس الى الدكتور بن قبيل موتها، لتكون لها، باي حال، الكلمة الاخيرة في الموضوع.

لم اساوم طويلا، بل دفعت مقابل رزمة البطاقات سعرا مشرّفا لهاوي النوع، وكورْت مولنْهاوبْت، صاحب البضائع المميزة، يغمزني من عينه.

الدكتور بن: غوتْفريد بن، (١٨٨٦–١٩٥٦)، شاعر وطبيب. أيّد في البداية الايديولوجيا النازية، ثم اعرض عنها. عام ١٩٣٤ مُنعت كتاباته وعام ١٩٣٨ طُرد من غرفة الاطباء. عاد بعد الحرب العالمية الثانية الى عمله كأديب وطبيب في برلين. كان على صداقة بـ الزه لاسكْر–شولر تعود الى ما قبل الحرب العالمية الاولى.

الاب شولر: والد الأديبة الزه لاسكْر–شولر التي ولدت عام ١٨٦٩ في فوبرتال عن عائلة يهودية ميسورة. هاجرت عام ١٩٣٣ الى سويسرا واستقرت عام ١٩٣٧ في القدس حيث عاشت في حالة فقر ووحدة حتى وفاتها في عام ١٩٤٥. للعديد من اعمالها طابع السيرة الذاتية، إلا انها مالت فيها الى ابهام وقائع سيرتها.

التليفريك من بارمن الى الْبيرفْيلد: امتد آنذاك بين المدينتين المستقلتين مجاوزا نهر فوبر الصغير. بعد دمج المدينتين سُميت المدينة الكبيرة فوبرتال، اي "وادي فوبر".

أسطُقس: في الميثولوجيا اليونانية الرومانية نهر في العالم السفلي. عنوان لقصيدة بقلم لاسكْر–شولر.

١٩٠٢

ان امرا كهذا أحدث يوما في لوبيك ضجة، اعني، حينما قررتُ، او قرر فيّ التلميذ الثانوي، ان اشتري، كرمى التنزه بجوار بوابة الطاحونة او على ضفاف نهر ترافيه، قبعة قشية. فلم أختر الطراز المعهود من اللباد الناعم، ولا "البطيخة" المستديرة السوداء، بل قبعة قليلة الارتفاع من القش المتفاخر بلون زهور الربيع الصفراء، من النوع الذي ادرجته آخر الموضة وسمّاه اللسان الارستقراطي كانوتيه، والشعبي "المنشار الدائري." كانت السيدات، هي الاخرى، يلبسن قبعات قشية مزينة بشرائط ناعمة، مع انهن ظللن يرتدين، ولزمن طويل بعد، مشدّ الكورسي الملاصق للجسم المتكئ على حدائد كحسك السمك؛ وقليلات منهن تجرأن على اظهارهن امام مبنى الكتاريناريوم في الفساتين الجديدة الشفافة التي تسمح للهواء بالتلاعب، فيثرن بذلك تهكمنا، نحن تلاميذ صفوف الثانوية الاولى.

يومذاك جاءتنا أشياء جديدة كثيرة. وعلى سبيل المثال، أصدر بريد الرايْخ طوابع موحدة تصور جيرمانيا في منظر جانبي بصدر يلمع معدنيا. وبما ان التقدم أعلن اينما كان، تطلّع جيش من اصحاب القبعات القشية بفضول الى الازمنة القادمة. اما قبعتي فعاشت مغامرات كثيرة. دفعتُها نحو الرقبة حينما شاهدت مدهوشا منطاد زبلن الاول. وفي مقهى نيدرأغر وضعتها لصق رواية بودنْبروكس الحديثة الطبع والخادشة حياء المواطن. ثم نزّهتُها وانا طالب، في حديقة الحيوانات هاغنْبيك، التي افتتحت يومها، فشاهدت في هذا الزي الموحّد، الحامي الهامة، قرودا وجمالا في الهواء الطلق، بينما نظرتْ اليّ الجمال والقرود نهمةً وانا اعتمر قبعتي القشية متفاخرا.

في قاعة التجمع بدّلتُها أحيانا بقبعة احد الرفاق، وفي مقهى الستر بافيليون نسيتها أحيانا اخرى. عانت بعض القبعات من عرق الامتحانات. فكان عليّ شراء قبعة جديدة من مرة الى اخرى. كنت ارفعها امام السيدات، بحماس حينا، وبلباقة باردة حينا اخر. ثم عمدت الى ترتيبها على رأسي من جهة واحدة، مقلدا باستر

كيتون في الافلام الصامتة، مع الفرق الوحيد ان لا شيء احزنني حزن الموت، بل ان كل شيء كان لي مدعاة للضحك. فحين تركتُ جامعة غوتينغن بعد الامتحان الثاني كصاحب نظارات، كنتُ قريب الشبه بـ هارولد لويد المتعلّق – بعد ذلك بسنوات –بعقرب الساعة، مرتديا قبعته القشية، ومتأرجحا على ارتفاع ابراج عالية بطريقة تلائم الافلام الهزلية.

بعد العودة الى هامبْورغ كنتُ واحدا من رجال القبعات القشية الكثار الذين احتشدوا للاحتفاء بافتتاح نفق نهر ألبيه. كنا نهرع بـ"مناشيرنا الدائرية" من المكتب التجاري الى حي المخازن، من المحكمة الى مكتب المحاماة، نلوّح بها حين ابحرتْ من المرفأ اكبر سفينة في العالم، الباخرة امبراطور الشمال الاطلسية السريعة، في رحلتها البتولة.

كثيرا ما وجدنا مناسبة للتلويح بالقبعات. ومرة، حين تنزّهت برفقة ابنة قسيس، تزوجت فيما بعد من حكيم بيطري، على ضفة نهر البيه في جوار بلانْكنيزيه – ما عدتُ اتذكر اذا كان في الربيع ام في الخريف –، خطفت هبة هواء زينةَ رأسي الخفيفة الوزن. فدرجت وتدحرجت وطارت وانا اركض خلفها عبثا. رأيتها تنحدر ناحية منبع النهر، ولم اتعزّ، مهما اهتمت بي اليزبيت التي كانت موقتا نائلة حبّي.

لم اشتر قبعات قشية من نوع ارقى الا لما صرت متدرجا قضائيا ومن ثم قاضيا مساعدا. فابتعت النوع الذي يحمل اسم صانع القبعة في شريط العرق الداخلي. وظلت الموضة دارجة الى ان تزاحم آلاف من رجال القبعات القشية في المدن والبلدات – وانا منهم في مدينة شويرين عند محكمة الاستئناف – والتفت كل جماعة منهم حول شرطي يدلي عليها، في عرض الشارع وفي وضح نهار صيفي متاخر، قارئا من صفحة بين يديه، اعلان حالة الحرب باسم جلالته. اذ ذاك القى الكثيرون "مناشيرهم القرصية" في الهواء وابتهجوا لانعتاقهم من الحياة المدنية البائخة واستبدلوا قبعاتهم القشية اللامعة بلون الزهر الاصفر عن طيب خاطر – والعديد منهم نهائيا – بخوذات عسكرية رمادية، لُقّبت بالخوذات المسننة.

القبعة القشية... المنشار القرصي: درجت منذ ١٩٠٠ في الموضة الرجالية وفيما بعد للسيدات.

الكتاريناريوم: مدرسة ثانوية في لوبيك كان من تلاميذها ايضا الاديب توماس مان.

الفساتين الجديدة: ملقبة بـ"فساتين الاصلاح"، طويلة وواسعة وتُلبس على خلاف الموضة المعهودة من دون مشدّ.

الطابع البريدي: في اوائل عام ١٩٠٢ انضمت مملكتا بافاريا وفورتمْبرغ الى بريد الرايخ. فتصوّر الطوابع الاولى الموحّدة شخصية جرمانيا المكللة بالتاج والتي تمثل البلاد الجرمانية وفيما بعد ألمانيا.

زبلن: سفينة هوائية من تصميم فرْدينانْت فون زبلن (١٨٣٨ – ١٩١٧). حلّق الطراز الاول منها عام ١٩٠٠.

مقهى نيدرأْغر: مقهى تقليدي شهير في لوبيك.

بودنْبروكْس: "بودنْبروكس. انحطاط عائلة"، رواية لـ توماس مان صادرة عام ١٩٠١، حاز عليها الاديب المولود في لوبيك جائزة نوبل الادبية.

حديقة الحيوانات هاغنْبيك: عام ١٩٠٧ أسس كارل هاغنْبيك قرب هامْبورغ حديقة الحيوانات المسمّاة على اسمه. اثارت الحديقة يومها دهشة لان الحيوانات لم تكن مسجونة في اقفاص، بل امكن التفرج عليها في الهواء الطلق.

قاعة التجمع: قاعات خاصة بتجمعات ورابطات طلابية واكاديمية تعود مبادئ تنظيمها ونشاطها وقواعدها الى تقاليد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

باستر كيتون: (١٨٩٦–١٩٦٦)، ممثل ومخرج امريكي، مثل في الغالب ادوارا هزلية.

هارولد لويد: (١٨٩٣–١٩٧١)، من اشهر الممثلين الهزليين في الافلام الامريكية الصامتة، هنا في مشهد من الفيلم "سافْتي لاسْت." (١٩٢٣).

نفق نهر ألبيه: نفق طوله ٤٤٨ متر بين سانت باولي وميناء هامْبورغ أفتُتح في خريف ١٩١١.

حي المخازن: جزء من ميناء هامْبورغ.

اعلان حالة الحرب: الحرب العالمية الاولى.

الخوذات المسننة: خوذة من اللباد او الجلد يعلوها سنّ معدني.

١٩٠٣

قبل عيد العنصرة بدأت بعيد الساعة الرابعة ونصف المباريات النهائية. نحن، القادمين من لايبْتسغ، ركبنا قطار الليل: المنتخب المؤلف من أحدَ عشرَ شخصا، وثلاثة لاعبين احتياط، ومدرب الفريق وسيدين من الرئاسة. وعدونا قبل السفر بعربة خاصة للنوم، لكن، هيهات...! اكيد، كنا نسافر كلنا في الدرجة الثالثة، لاننا للمنا حق التذاكر بشق النفس. لكن شبابنا استلقوا بلا تذمر على المقاعد القاسية وسمّعوني، حتى وصلنا الى أولْتسن، حفلة شخير حقيقية.

على هذا المنوال وصلنا الى ألتونا: مكسّرين، انما بروحية عالية. وجدنا هناك، كما في غير محل ايضا، ساحة تدريب عادية تقاطعها طريق مليئة بالبحص. وما أفادنا الاحتجاج. كان السيد بير الحيادي من نادي ألتونا، قد احاط الملعب الرملي، المنبسط بلا شوائب، بِحبلةٍ وعلّم خط النصف ومناطق الجزاء شخصيا بالنشارة.

كنا ندين بحضور خصومنا، الشباب من براغ، للسادة المهملين من رئاسة نادي كارلسْروهه، الذين وقعوا ضحية حيلة خبيثة مصدقين برقية زائفة، فلم يشتركوا بمنتخبهم في دورة التصفية التي جرت في ساكسونيا. لذلك ارسل اتحاد كرة القدم الالماني بدلا عنهم نادي براغ الى المباراة النهائية. وجرى هذا اللقاء الذي كان، على فكرة، الاول للدورة، في اجمل طقس، فاستطاع السيد بير ان يقبض من المتفرجين الالفين تقريبا مبلغا محترما لتذاكر الدخول يجمعه في طشت من التنك. رغم ذلك لم تكن الخمسمائة مارك كافية لتغطية التكاليف كلها.

منذ البداية حصلت غلطة: قبل افتتاح اللعب بالصفير ضاعت الكرة. احتج اللاعبون من براغ فورا. لكن المتفرجين كانوا اقرب الى الضحك من التذمّر. وجاء التهلّل شديدا حين استقرت الكرة أخيرا على خط النصف وجاء دور خصومنا، والريح والشمس على ظهورهم، ببدء اللعب. بعد قليل صاروا امام مرمانا، مصوبين عليه من ناحية اليسار، ولم يستطع رايت، حارس المرمى الطويل

كالشجرة، انقاذ لايبتْسِغ من خسارة باكرة الا في اللحظة الاخيرة. بعد ذلك بدأنا بالمقاومة، لكن التمريرات من اليمين جاءت شديدة الحدة علينا. فافلح البراغيون وسط الزحام في منطقة الجزاء، في تصويب هدف، ولم نستطع ان نتعادل معهم الا قبيل نهاية الشوط الاول، بعد عدد من الهجومات العنيفة على نادي براغ الذي اعتمد على حارس مرماه الأمين بيك.

بعد تبديل المواقع كنا لا نهدأ. خلال ما يقل عن خمس دقائق استطاع ستاني وريزو ان يصوبا ثلاث مرات، بعد ان سدّد فريدرش هدفنا الثاني وستاني، قبل بركة الأهداف، هدفه الاول. صحيح ان الشباب من براغ حصلوا على هدف آخر بعد تمريرة خاطئة من قبلنا، لكن – كما ذكرت – بدأ اللعب الآن واشتدّ تهلّل الجمهور وحماسه. حتى روبيتسك، اللاعب القوي في قلب الدفاع، الذي خطّأ ستاني على نحو مفضوح، لم يستطع ايقاف رجالنا او عرقلتهم. وبعد ان انذر السيد بير روبي المذنب، سجّل ريزو قبل تصفير النهاية الهدف السابع.

كان شباب براغ – الذين مُدح من قبل كثيرا – خائبين للامل، وخاصة لاعبي خط الهجوم. افرطوا في تمرير كرات الى الوراء، وكانوا رخوين في منطقة الجزاء. فيما بعد قيل ان ستاني وريزو كانا بطلي النهار. لكن هذا غير صحيح. فالمنتخب كله ناضل وكأنه رجل واحد، مع ان برونو ستانيشفسكي الذي كنا نناديه ستاني، بشّر منذ ذلك الوقت بقوة اللاعبين من اصل بولوني واسهاماتهم المهمة المقبلة في تطوير كرة القدم الالمانية. وبما اني بقيت ناشطا في رئاسة نادينا لزمن طويل بعد – في سنواتي الاخيرة كامين صندوق – وحضرت العديد من المباريات الخارجية، ورأيت لعب فريتس تشيبان وسِلْفه ارنست كوتسورا، لاعب نادي شالكه الماهر الشهير، وانتصارات النادي الكبيرة كلها، فاني استطيع ان اقول مرتاح البال: بدءا بمباريات ألتونا شاهدت كرة القدم الالمانية ازدهارا مطردا، وخاصة بفضل اللاعبين البولونيين المتألقين وما لهم من حماس في اللعب يهدد مرمى الخصم باستمرار.

لنعد الى التونا: كان اللقاء جيدا، وان لم يكن عظيما. لكن حتى يومها، حين

اعتُبر نادي لايبتْسِغ بطلا المانيا أكيدا، ربّ صحفي حاول ان يسخّن شربته في مطبخ الاساطير. لكنه اتّضح بأي حال أنّ الاشاعة القائلة إنّ شباب براغ قد قضوا الليلة قبل اللقاء في ملاهي ريبربان سانكت باولي في صحبة النسوة، فكانوا لذلك، وبخاصة في الشوط الثاني، ضعافا في الهجوم، اشاعةٌ رُوّجت للتستّر والتذرّع بالاعذار. فالسيد بير غير المنحاز كتب لي بذات يده: "إن الافضل قد فاز!"

شباب براغ: نادي براغ الالماني لكرة القدم.

فريتْس تشيبان... ارنْست كوتسورا: من اللاعبين الاسطوريين في نادي شالكه اثناء الثلاثينيات والاربعينيات.

ريبرْبان سانكْت باوْلي: حي الملاهي الشهير في هامبْورغ.

١٩٠٤

"عندنا في هيرنْه بدؤوا قبل أعياد الميلاد "...

"نعم، في المناجم التي يملكها هوغو شتْينس...."

"لكنهم يصفّرون العربات في محلات اخرى ايضا، في مناجم هاربن مثلا... عندما تكون العربات غير مليئة تماما او فيها كمية من الفحم غير النقي..."

"وفي هذه الحالة يجب ايضا دفع غرامة مالية..."

"بالتأكيد، يا حضرة المفتش. لكن احد الاسباب لاضراب عمال المناجم، المسالمين عموما، قد يكون مرض الديدان الذي انتشر في المنطقة كلها واصاب خمس العمال... وتحاول ادارات المناجم التخفيف من خطورته..."

"اذا اردت رأيي... اعتقد ان احصنة المنجم ايضا مصابة بمرض الديدان..."

"ما هذا الكلام! أصل المصيبة من البولاكس... جلبوها معه..."

"لكن الجميع مشتركون في الاضراب، العمال البولونيون ايضا. وكما تعرف، يا حضرة المفتش، ممكن تهدئتهم عادة بسهولة ..."

"بالخمر!"

"كلام سخيف! الجميع يسكرون هنا..."

"على كل حال، تعتمد ادارة الاضراب على بروتوكول السلام البرليني من عام تسعة وثمانين، اي الدوام العادي ثماني ساعات..."

"الدوام هذا غير موجود على الارض. في كل مكان يُطيلون النزول..."

"عندنا في هيرنه، نبقى عشرة ساعات تقريبا تحت الارض..."

"لكنْ اذا اردت رأيي... اعتقد ان تصفير العربات يكثر في الوقت الحاضر..."

"الان يضربون عن العمل في اكثر من ستين منجما..."

"واضافة الى ذلك، رجعوا الى القوائم السوداء..."

"وفي فيزل هيّؤوا كتيبة المشاة... ٥٧ وبنادقهم في حالة تأهّب..."

"غير صحيح، يا جماعة... لغاية الآن، استخدموا في المنطقة كلها الشرطة

فقط..."

"لكن عندنا في هيرنْه، سلّحوا الموظفين – مثل حضرتك – بالهراوات... ويستعملونهم كشرطة مناجم...."

"يسمّونهم بينكْرتونز، لان الامريكي بينكْرتون هو اول من خطر على باله استعمال هذه الحيلة البشعة..." "وبما ان الاضراب العام منتشر الآن، يغلق هوغو شتينس مناجمه..."

"لكن في روسيا يحدث الآن ما يشبه الثورة..."

"وفي برلين... الرفيق ليبكْنشتْ..."

"لكن العسكر جاؤوا فورا وبدؤوا يصوّبون يمينا وشمالا..."

"مثلما يحدث في الغرب الجنوبي. هناك يتخلّص رجالنا دفعة واحدة من كل البدو..."

"على كل، في المنطقة الان اكثر من ٢٠٠ منجم في حالة اضراب..."

"حسبوها... يعني خمسة وثمانين بالمئة..."

"لكن كل شي هادىء نسبيا ومنظم، يا حضرة المفتش، لان ادارة النقابة نفسها..."

"لا يشبه الوضع حالة روسيا، محل ما تشتد الثورة يوما عن يوم..."

"ولذلك، يا رفاق، وقفنا في هيرنه لاوّل مرة بوجه غير الملتزمين بالاضراب..."

"لكن، بما أن شتينس يرفض اي اتفاق، يُخشى أن..."

"وفي روسيا الآن حالة الحرب..."

"لكن شبابنا طردوا الـ هيريرو والبدو كلهم وقذفوهم في الصحراء..."

"على كلٍّ... ليبكْنشتْ قال عن العمال في بيترسبْورغ وفي منطقتنا انهم ابطال البروليتارية..."

"لكن الروس غير قادرين على التخلص من اليابانيين بسرعة..."

"وعندنا في هيرنْه بدؤوا الآن بالرمي..."

"لكن، في الهواء فقط..."

"على كل، صرنا جميعنا نهرب..."

"ابتعدنا عن بوابة المنجم وعبرنا الباحة..."

"لا، يا سيد المفتش، ما اشترك العسكر، الشرطة فقط..."

"لكن، مع ذلك ركضنا..."

"قلت لـ أنتون: هيّا، دعنا نهرب من هنا..."

هوغو شتينس: (١٨٧٠ - ١٩٢٤)، صناعي كبير، تولى ١٨٩٣ ادارة المناجم التي كانت في حوزة عائلات غنية وكوّن منها شركة صناعية كبرى.

تصفير العربات: خصمت ادارة المناجم من اجور العمال كل عربة غير مليئة تماما او محتوية على فحم غير نقي، اي انها امتنعت عن الدفع مقابل هذه العربات او "صفرّتها." واشتكى العمال من "التصفير" الاعتباطي.

الاضراب: بدأ في شهر كانون الاول احتجاجا على قرارات شتينس بإطالة ساعات العمل من دون زيادة في الاجور. ثم طالب المضربون باعتماد دوام لا يزيد عن ثماني ساعات يوميا وبدفع زيادة للعمل في ايام الآحاد. شمل الاضراب ايضا مناجم غير تابعة لـ شتينس.

المنطقة: منطقة مناجم الفحم قرب نهر راينْ.

البولاكس: اسم لتحقير البولونيين الذين استوردتهم الادارات بالآلاف للعمل في مناجم الفحم.

بروتوكول السلام البرليني: في ربيع ١٨٨٩ قام مئة ألف عامل في مناجم الفحم بالاضراب. ضمّ بروتوكول السلام الذي انهى الاضراب مادة تنص على تحديد دوام العمل لمدة ثماني ساعات يوميا.

بينْكرْتون: ألن (١٨١٩ - ١٨٨٤)، جنائي أمريكي، أسّس في شيكاغو مكتبا للتحرّيات الخاصة اشتهر خارج الولايات المتحدة.

في روسيا: ...الثورة الروسية الاولى. في أوائل عام ١٩٠٥ تظاهر في بيترسبْورغ مئة واربعون الف عامل من اجل دوام الثماني ساعات. بعد ان اطلق حراس القصر النار على المتظاهرين المسالمين، اندلع في البلاد عدد من الانتفاضات الثورية التي هزّت الامبراطورية الروسية.

الرفيق ليبكْنشْت، كارل: (١٨٧١ - ١٩١٩)، محامٍ وسياسي يساري، شارك في تأسيس الحزب الشيوعي الالماني. كان في عام ١٩١٤ النائب الوحيد الذي رفض القروض الحربية. اغتاله والسيدة روزا لوكْسمبْورغ ضباطٌ من كتيبة المتطوعين.

الغرب الجنوبي: ناميبيا، بين ١٨٨٤ و١٩١٩مستعمرة المانية اطلق عليها افريقيا الغربية الجنوبية الالمانية.

البدو: قبائل بدوية من قوم في ناميبيا يدعى ناما.

هيريرو: قبيلة بدوية في شمال ناميبيا ووسطها. قاومت الاستعمار الالماني. عام ١٩٠٤ دارت معارك عنيفة بينها وقوات الاستعمار ادت الى تهجير القبيلة ودفعها الى صحراء كالاهاري.

١٩٠٥

كان السيد والدي يعمل، هو الآخر، وكيلا لشركة بواخر من بريمن في مراكش وطنجة والدار البيضاء. وذلك، قبل ازمة المغرب الاولى بكثير. كان رجلا دائم الهموم، تعكّر عليه السياسة، وبخاصة الرئيس بويلو في الحكومة البعيدة، موازينه التجارية. أما انا، ابنه الحريص على حماية الدار التجارية من الغرق بسبب المنافسة الفرنسية والاسبانية القوية، لكن المزاولِ للصفقات اليومية بالزعفران والتين، بالتمر وجوز الهند، بلا شغف حقيقي، والميال بالاحرى الى ابدال المكتب التجاري بالمقهى والى مراودة الاسواق طلبا للتسلية والترفيه، فكنت احسب ما يجري في النادي وعلى مائدة الطعام من حوارٍ مستمر حول تأزّم الوضع مهزلةً. لذلك راقبت زيارة القيصر المرتجلة للسلطان بعوينات التهكم ومع الحفاظ على مسافة تسمح بالسخرية، وخاصة، لان عبد العزيز اتقن الاستجابة لاي زيارة رسمية، ومهما جاءت مفاجئة، بأبّهة مدهشة. احاط الضيف العالي بحرس خاص، فخم المظهر، وبجواسيس انكليز، بينما يسعى في السر الى ضمان حظوة فرنسا وحمايتها.

رغم الهفوات التي اثارت ابتسامات خلال الانزال – اذ كاد ينقلب مركب جلالته – بدت طلعة القيصر مؤثرة جدا. على صهوة جواد ابيض مستأجر وظاهر العصبية، دخل مدينة طنجة جالسا في سرجه بثقة فارس. ورحّبته الجماهير بالتهلل. لكن اكثر ما اثار اعجابا تلقائيا هو خوذته التي ارسلت اشارات ضوئية الى المتفرجين تتناغم مع اشعة الشمس.

فيما بعد تداولت الايدي في المقاهي، وفي النادي ايضا، رسوما كاريكاتورية تصوّر الخوذة المزينة بالنسر في حوار حيوي مع شاربي جلالته، وتغفل سائر ملامح الوجه. اضف الى ذلك ان الرسام – لا، لم اكن مرتكب الجرم، بل كان فنانا يعاشر معشر الفنانين في وورپسفيده واعرفه من بريمن –، نجح في تصوير الخوذة والشاربين المقوسين امام الكواليس المغربية على نحو يظهر التناغم بين قبب

الجوامع ومآذنها واستدارات الخوذة الغنية الزركشة وسنّها الطويل على اجمل وجه واجلاه.

لكن الاستعراض المصطنع لم يجدِ نفعا، سوى انه ادى الى تبادل مكاتيب معبرة عن الهموم. وبينما القى جلالته خطابات مقدامة، اتفقت انكلترا وفرنسا في صدد المغرب ومصر. في نظري كانت القصة كلها، باي حال، مهزلة. وبعد ذلك بست سنوات حصلت مهزلة مشابهة حين وصلت سفينتنا المدفعية بانتر الى شواطيء أغادير. الامر الذي افضى الى زمجرة مسرحية ظل صداها يدوّي امدا، لا غير.

لكن الانطباع الوحيد الذي كُتب له دوام كان ذلك الذي تركته خوذة القيصر المتلألئة في بريق الشمس. عمد النحّاسون المحليون الى تقليده مجتهدين والى غرق الاسواق كلها بنسخ لها. لزمن طويل بعد – اطول، على كلٍّ، من زمن استمرار تصديرنا واستيرادنا – كان يمكن لزائر اسواق طنجة ومراكش ان يشتري الخوذات البروسية المسننة في نسخ منمنمة او مكبرة كتذكار او كمبصقة مفيدة؛ واني استفيد الى اليوم من خوذة كهذه غرزتُ سنها في صندوق رملي.

لكن ابي، الذي يتحلّى ببعد نظر يتعدّى التجاري ويحثّه دائما على توقع الاسوأ، والذي يسمي ابنه بين حين وآخر، وليس بلا سبب وجيه، "ملك الخفّة والتغفّل"، امتنع عادة عن تمرين عضلة الضحك ولم يغتبط لاكثر افكاري فكاهة، بل وجد مدعاة متزايدة للادلاء بتشخيصه المقلق "إنّهم يطوّقوننا... البريطانيون والفرنسيون في التحالف مع الروس..." في كل مناسبة وليس على المائدة وحسب. واحيانا كان يقلقنا بالتذييل: "صحيح ان القيصر يتقن التصلصل بالسيف، لكن السياسة الحقيقية، يمارسها الآخرون."

ازمة المغرب الاولى: عام ١٩٠٤ اتفقت انكلترا وفرنسا على مصالحهما الاستعمارية. بموجب هذا الاتفاق أُعلن المغرب منطقة نفوذ فرنسية. اما القيصر الالماني فسافر عام ١٩٠٥ الى طنجة للتأكيد على المصالح الالمانية في المنطقة وعلى سيادة سلطان المغرب، الامر الذي اثار سخطا في فرنسا. فيما بعد طالب الرايخ الالماني باقامة مؤتمر دولي في صدد المسألة المغربية واعادة ترتيب موازين القوى، لكن المانيا ظلت معزولة سياسيا.

الرئيس بويلو: بين ١٩٠٠ و ١٩٠٩رئيس الرايخ ورئيس وزراء بروسيا، مسؤول عن ازمة المغرب.

١٩٠٦

ادعوني القبطان سيريوس. مبتكري هو السير أرثر كونان دويل، المؤلف الشهير لقصص شرلك هومز المنتشرة عالميا، والتي يمارس فيها علم تحليل الجريمة على نحو علمي صارم. الى جانب ذلك، حاول المؤلف ان يحذّر الجزيرة الانكليزية من خطر محدق، حين نشر – ثماني سنوات بعد انزال غواصتنا الاولى الصالحة للابحار – قصةً له بعنوان داينْجر! وفي العام الحربي ١٥ صدرت لها ترجمة المانية بعنوان حرب الغواصات –كيف قهر القبطان سيريوس انكلترا، واعيد طبعها حتى نهاية الحرب ١٨ مرة وتبدو القصة الان، للأسف الشديد، منسية تماما.

وفقا لهذا الكتيّب المتكهّن بالمقبل استطعتُ، بصفتي القبطان سيريوس، ان اقنع ملك بلاد نور، أي رايخنا، بنجاح عملية قد تبدو جريئة، انما ممكن التدليل عليها: ان نحاصر الجزيرة الانكليزية بثماني غواصات فقط – لم يكن لدينا اكثر – ونقطع عليها الامدادات الغذائية فنجوّعها. كانت أسماء غواصاتنا: ألفا، بيتا، غاما، تيتا، دلتا، ابسيلون، يوتا، كابا. وضاعت الاخيرة، للاسف، خلال مجرى الحملة في القناة الانكليزية والناجحة في سائر مراحلها. كنتُ قبطان الـ يوتا وقائد الاسطول باكمله. استطعنا ان نسجل اولى النجاحات في جوار مصب نهر تامز قرب جزيرة شيرنس: اصابت طوربيداتنا بالتّوالي أديلا، الباخرة المحملة بلحم الغنم من نيو زيلاندا، والسفينتين مولدافيا من الشركة الشرقية وكوسكو المحملتين بالقمح، وأغرقتها كلها بفضل الاصابات المباشرة. بعد ان احرزت غواصات الاسطول نجاحات اخرى امام شواطيء القناة وأغرقت مجتهدة، فرقا ام فرادى، المزيد من السفن، وصولا الى البحر الارلندي، بدأت الاسعار ترتفع اولا في لندن ومن ثم على الجزيرة كلها: صار سعر رغيف الخبز الذي يكلف عادة خمسة بينسات شيلينغا ونصف. من خلال المحاصرة المنظمة لموانيء الاستيراد كلها دفعنا الاسعار الفاحشة نحو المزيد من الارتفاع، مسببّين مجاعة على طول

البلاد وعرضه. احتج الشعب الجائع، المحروم، وقام على الحكومة. واقتُحمت البورصة، معبد الامباير المقدس. من انتمى الى الفئات الميسورة او كان ميّسر الحال، هرب الى ايرلاندا حيث توافرت البطاطا على الاقل بكميات كافية. واخيرا اضطرت انكلترا الشامخة ان تعقد مذلولة سلاما مع بلاد نور.

في القسم الثاني للكتاب يعبّر الخبراء في شؤون البحرية وغيرها عن ارائهم ويؤكدون جميعا ما ابداه المؤلف كونان دويل من قلق محذرا من خطر الغواصات. ويعطى احدهم – وهو في الظاهر نائب ادميرال متقاعد – نصيحة تقول ببناء مخازن للقمح في انكلترا – كما فعل يوسف في مصر، آنذاك – وبحماية منتوجات الزراعة المحلية بالجمارك. وطلب الخبراء بالحاح الابتعاد عن التفكير الانعزالي الدغمائي وحفر القناة الى فرنسا فورا. واقترح نائب ادميرال آخر ألاّ يُسمح بابحار السفن التجارية إلاّ ضمن قوافل بحرية محمية وان تُجهّز سفن حربية سريعة الحركة لمطاردة الغواصات –. وفي ذلك كله إلماعات ذكية، اثبتت، للاسف، فعاليتها ومنفعتها خلال مجريات الحرب الحقيقية. ويمكنني ان اردّد موّالا خاصا حول مفعول القنابل المائية.

مع الاسف الشديد تناسى مبتكري، السير أرثر، ان يقصّ فيما قصّ اني كنتُ ملازما شابا في مدينة كيل، حين انزلت رافعة الترسانة البحرية جرمانيا غواصتنا الاولى الى الماء. وذلك في الرابع من آب ١٩٠٦ وفي ظل تغطية صارمة لسرّية المشروع. الى يومها، كنت ضابطا ثانيا في سفينة طوربيدات، لكني تطوعتُ لاختبار سلاحنا المائي غير المتطوّر. خبرتُ كواحد من طاقم الغواصة أو إنزالها الاول الى عمق ثلاثين مترا ومن ثم انطلاقها بقوتها الخاصة الى عرض البحر. لكن عليّ ان اذكر ان شركة كروب اعتمدت قبل ذلك تصاميمَ مهندسٍ اسباني وانجزت بناء غواصة طولها ١٣ مترا، تقدر على الابحار تحت الماء بسرعة خمس عقد ونصف. واثارت فوريله حتى اهتمام القيصر. واشترك الامير هاينرش شخصيا في رحلة غوص على متنها. للاسف، ماطلت ادارة بحرية الرايْخ في تطوير الغواصة فوريله. اضافة الى ذلك ظهرت مشاكل في محركها الدائر على البترول. لكنْ حين صارت

او، بعد سنة من التاخير، جاهزة للابحار من اكرنفويرده، انفتح الطريق امام تطور لا مرد له. وإن اتفقوا فيما بعد على بيع غواصتين للروس: فوريله وكمْبالا، غواصة اخرى طولها ٣٩ مترا ومسلحة بثلاثة طوربيدات. يومها وجدت نفسي في الوضع المحرج ان اكون مكلفا بحضور حفل التسليم. بارك الغواصتين زمرة من القساوسة الذين جاؤوا خصيصا من بيترسبْورغ، فرشّوهما بمياه قدسية مباركة من المقدمة الى المؤخرة. وبعد نقل برّي شاقّ، أنزلت الغواصتان في فلاديفوستوك الى البحر... بعد فوات الاوان، لاستعمالهما ضد اليابانيين.

لكن حلمي تحقّق مع ذلك. بالرغم ان كونان دويل برهن في قصص لا تحصى على ان له حساسية التحري الماهر، لم يكن بامكانه ان يستشفّ كم من الشباب الالمان شاطروني حلمي: الغوص السريع، حركة المنظار البانورامية، الغواصات الساعية وراء هدفها، الامر "اطلقوا الطوربيد!"، الاحتفال بكثرة الاصابات، الزمالة والصداقة الوثيقة في مكان ضيق، العودة الى الوطن المزينة باعلام الفرح... وانا الذي اشتركت منذ البداية، وصرت الان جزءا من الادب، لم استطع ان استشفّ ان عشرات الالآف من شبابنا لن يصحوا من احلامهم تحت الماء.

بفضل تحذير السير أرثر فشلتْ، للاسف، محاولاتنا المتكررة لقهر انكلترا. وكم اوقعت ضحايا! وحده القبطان سيريوس اطاع الحكم الصادر بحقه: انْ يطفو سالما الى سطح الماء بعد كل غوص الى عمق البحر.

السير أرثر كونان دويل: (١٨٥٩ – ١٩٣٠)، طبيب وكاتب انكليزي.

يوسف في مصر: أوّل يوسف في مصر احلام الفرعون فتنبأ بسبع سنين مثمرة وسبع سنين قاحلة. اثناء فترة القحط عمد الى بيع القمح المخزون.

الامير هاينْرِش: شقيق القيصر فلْهَلْم الثاني، امير البحر الاكبر.

غواصة اخرى طولها ٣٩ مترا: في حزيران ١٩٠٤ طلبت روسيا شراء ثلاث غواصات من المانيا للحرب ضد اليابان.

١٩٠٧

في اواخر تشرين الثاني احترق في شارع سيلر معملنا: الاضرار شاملة... وذلك في وقت كان يدور فيه الشغل بشكل ممتاز. بلا كذب: كنا ننتج يوميا ٣٦ الف اسطوانة. نبيعها مثل الخبز الساخن. ارتفع الربح من تشكيلة الغراموفون الخاصة بنا الى ١٢ مليون مارك سنويا. ونجحت هذه التجارة بشكل خاص، لاننا كنا نصنع في هانوفر منذ سنتين اسطوانات مسجّلة على الوجهين ... تكنولوجيا غير موجودة إلاّ في امريكا... الكثير من الطنطنة العسكرية... والقليل اللائق بذوق رفيع. لكن بعد فترة نجح رابابورت، اي شخصي المتواضع، في اقناع نيلي ملْبا، ملْبا الكبيرة، بتسجيل اسطوانة. في البداية تغنّجت كثيرا مثلما تغنّج فيما بعد شلْيابين الذي خاف خوفا كافرا من ان يفقد صوته العميق الرخيم، بسبب هذا الاختراع الشيطاني، كما سمّى تكنولوجيتنا الحديثة. في صباح جميل جاء اليّ يوسف برلْينر، الذي قد أسس مع شقيقه، قبل نهاية القرن، شركة غراموفون الالمانية في هانوفر، ونقل مقرها من ثم الى برلين، وتحمل خطرا كبيرا مع راسمال تاسيسي بلغ ٢٠ الف مارك فقط، وقال لي: "هات حقيبة السفر، يا رابابورت، يجب أن تذهب فورا الى موسكو وتقنع شالْيابين. ولا تسألني كيف!"

بلا كذب! من دون تحضير حقائب كثيرة ركبت اولّ قطار، لكني اخذت معي هديةً اسطواناتنا الاولى، التي عليها صوت ملْبا. أية سفرة كانت! تعرفون المطعم يار؟ ممتاز! قضيت فيه ليلة طويلة في الـ شامبره سيباريه. في البداية شربنا فودكا من كؤوس الماء، ثم صلّب فيدور على نفسه وبدأ يغني. لا، ما غنى نمرته الشهيرة بورس غودونوف، بل التراتيل التقية التي يدمدمها القساوسة باصواتهم العميقة عمق الهاوية. بعد ذلك انتقلنا الى شرب الشامبانيا. لكنه لم يمضِ إلاّ مع طلوع الفجر، متباكيا ومصلّبا على نفسه بلا انقطاع. فحين الححتُ عليه بالتوقيع، راى فيَّ، ربما، الشيطان لاني أعرج منذ طفولتي. وهو لم يوقع إلاّ لاننا اصطدنا قبله التينور الكبير سوبينوف وعرضتُ عليه عقده نموذجا. على كلٍّ صار شالْيابين نجمنا الاول الحقيقي على الاسطوانات.

بعده كرّ الجميع: ليو سليزاك واليساندرو موريشي، آخر الطواشية الذي سجلنا صوته على اسطوانة. بعد ذلك نجحتُ في الفندق دي ميلانو، وفي الغرفة التي تعلو بطابق عن غرفة وفاة فيردي – امر لا يُصدّق، اعرف ذلك –! في ترتيب العقد الاول لتسجيل صوت انْريكو كاروزو... عشرة اغانٍ...! بالعقد الحصري طبعا... وبعد مدة صارت اديلينا باتي تغنّي لنا، وكثيرون غيرها... وزّعنا الى بلدان لا تعدّ ولا تحصى. وكانت العائلتان الملكيتان، الانكليزية والاسبانية، من زبائننا الدائمين. ونجح رابابورت، بفضل بعض الحيل، ان يفوز على المتعهد الامريكي لدار روتْشيلد الباريسية. رغم ذلك كنت ادرك كتاجر اسطوانات: علينا الا نهتم بالجمهور الراقي حصرا، لان الكم الكبير وحده مربح، وعلينا بالتاليَ ان نتجه من المركز نحو الهوامش ونؤسس فروعاً في برشلونا وفيينا – وبلا كذب – في كالكوتا، كي نبقى قادرين على المنافسة في السوق العالمية. لذلك لم يكن الحريق في هانوفر كارثة شاملة. لكننا زعلنا، لاننا قد بدأنا في شارع سيلر مع الاخوين برلينر من نقطة الصفر. صحيح ان الاثنين كانا عبقريين وانا مجرد تاجر اسطوانات، لكن رابابورت كان يعرف دائما: مع الاسطوانة والغراموفون يخترع العالم نفسه من جديد. مع ذلك ظل شاليابين، لأمد طويل، يصلّب على نفسه كذا مرة قبل كل تسجيل.

اسطوانات مسجلَة على الوجهين: منذ عام ١٩٠٤، مدة كل وجه خمس دقائق.

ربابورت: تاجر اسطوانات، كان مسؤولا في شركة غراموفون الالمانية عن توقيع العقود مع الفنانين.

نيلي ملْبا: مغنية اوبرا اوسترالية، منذ ١٩٠٤ مع شركة غراموفون الالمانية.

شاليابين: فيودور، مغنٍ روسي، اول من صار نجما من خلال تسجيل الاسطوانات، مع الشركة المذكورة منذ ١٩٠٢.

برلْينر: أسّس الشقيقان برلينر الشركة في اواخر عام ١٨٩٨ في هانوفر. عام ١٩٠٠ انتقل مقر الشركة الى برلين، وبعد الحرب العالمية الثانية الى هامبْورغ.

نمرته الشهيرة "بورس غودونوف": اوبرا من تأليف مودست مُسوركْسكي.

ليو سليزاك: مغنٍ وممثل نمساوي. منذ ١٩٠٢ مع شركة غراموفون.

اليساندرو موريشي: مغنٍ سُبرانو، مع شركة غراموفون منذ ١٩٠٢.

اديلينا باتي: مغنية سُبرانو ايطالية، مع شركة غراموفون منذ ١٩٠٥.

١٩٠٨

هكذا تجري العادة في عائلتنا: الاب يصحب الابن. كان جدي، العامل في سكة الحديد والمنظم نقابيا، يصحب، هو الآخر، ابنه معه حين كان ولْهلْم ليبكْنشت يخطب في هارزنْهايْده. وابي الذي عمل ايضا في سكة الحديد وكان رفيقا، أخبرني عن التظاهرات الضخمة، التي مُنعت في عهد بِسْمارك، وطبّل رأسي بجملة سمعها ولقفها بمثابة تنبّؤ: "ان احتلال الزاس لوترينغن لن يقربنا من السلام، بل من الحرب!"

ثم صحبني، وانا ابن التسع او العشر سنين، حين يتكلم الرفيق كارل ليبكْنشت، ابن فلْهلْم، إما في الهواء الطلق، وإما – اذا امتنع ذلك – في حانات مليئة بالدخان. سافر معي كذلك الى شبانْداو، لان ليبكْنشت ترشح هناك للانتخابات. وفي العام صفر خمسة (١٩٠٥) سمح لي ان اركب القطار الى لايبْتسِغ، وهو يحصل على تذاكر مجانية كقائد قطار، لان ليبكْنشت يتكلم في حانة فلْزنْكلر في حي بلاغْفيتس عن الاضراب الكبير في منطقة رور الذي ملات اخباره يومها الصحف كلها. لكن ليبكْنشت لم يتكلم عن عمال المناجم ولم يقم بالتحريض للقيام على أمراء اللفوف والمداخن البروسيين وحسب، بل استرسل، بالدرجة الاولى وبقدرة التنبّؤ، في الكلام عن الاضراب العام، بوصفه وسيلة النضال المستقبلية للجماهير البروليتارية. تكلم بلا تحضير وهو يستمد الكلمات من الهواء. ثم انتقل سريعا الى الثورة في الروسيا والقيصرية الروسية الملطخة بالدماء.

اثناء الخطاب سُمع تصفيق متكرر. وفي الختام اتُّخذ بالاجماع قرار تضامن فيه المجتمعون – اكثر من الفين، على قول أبي – مع المناضلين الابطال في منطقة رور وفي روسيا.

زاد عدد المحتشدين في الـ فلْزنْكلر الضيق عن ثلاثة آلاف، على الارجح. فاني كنت ارى اكثر من ابي، وهو يحملني على كتفيه، كما فعل ابوه سابقا، حين تكلم فلْهلْم ليبكْنيشت او الرفيق ببيل حول وضع الطبقة العاملة. فهكذا تجري العادة

عندنا. على كلٍّ، كنت ارى واسمع الرفيق ليبكنيشت،

وانا ولد صغير، من مرصدي العالي الرفيع. كان خطابا جماهيريا. لم تعيه الحيلة او الكلمة يوما. وكان يحب على نحو خاص تحريض الشباب. في الهواء الطلق، في حقل فسيح، سمعتُه ينادي فوق رؤوس آلاف مؤلفة: "من يكن معه الشباب، يكن معه الجيش!" وكان هذا الكلام تنبّؤا ايضا. على كل، خفتُ فعلا وانا على كتفي ابي حين نادى بنا: "ان الميليتارية هي جلاد الرأسمالية الوحشي وسدّها الحديدي الدموي!"

وما زلتُ اذكر تماما، كم اثار فيّ الخوف ما إن تكلم عن العدو الداخلي الذي يجب قهره. على الارجح، احسستُ لهذا السبب يومها بحاجة ملحة في التبوّل، فصرت اتزحزح على كتفي ابي يمينا شمالا. لكن ابي المتحمس لم ينتبه لحاجتي، وانا غير قادر على كبت نفسي في مرصدي المرتفع، فبلت في بنطلوني وعلى رقبة ابي –. حدث ذلك في العام صفر سبعة (١٩٠٧). وبعد ذلك بامد قصير أُعتُقل الرفيق ليبكنيشت وكان عليه ان يقضي في العام ١٩٠٨ سنةً كاملة واكثر في سجن قلعة غلاتس، بعد ان حكمت عليه محكمة الـ رايخ بسبب كتابه النضالي ضد الميليتارية.

لكن، حين بلتُ على ظهر أبي في لحظة الضيق القصوى، رفعني أبي عن كتفيه وبدأ، والتظاهرة جارية والرفيق ليبْكنشت يحرض الشباب، يوسعني ضربا مبرما، فظللتُ اشعر بقوة يده لأمد طويل. لهذا السبب، ولهذا السبب وحده، هرعتُ فيما بعد، حين بدأت الحرب، الى مكتب التسجيل وتطوعت، ونلت اوسمة لبسالتي وترقيت، بعد اصابتين في المعارك الدائرة قرب اراس وامام فردون، الى ضابط ثان. مع العلم اني كنت متيقنا دائما – حتى كقائد فرقة اقتحام في فلاندرن – مر ان الرفيق ليبْكنشت، الذي قتله فيما بعد، زملاء من المتطوعين رميا بالرصاص.. هو والرفيقة روزا... ورموا جثة احدهما في قناة لاندفْير، كنت متيقنا من انه كان مئة مرة على حقّ، حين حرّض الشباب.

فِلْهَلْم ليبكْنيشت: (١٨٢٦ – ١٩٠٠)، سياسي، نائب في برلمان الرايخ، على علاقة وثيقة بـ ماركس وأنغلس، أسّس عام ١٨٦٩ مع أوغست بيبل حزب العمال الديمقراطي الاجتماعي.

هازنْهايْده: حرفيا "مرج الارانب"، حديقة عامة في برلين.

... مُنعت في عهد بِسمْارك: (١٨٧١ – ١٨٩٨)، رئيس الرايخ، وزير الخارجية ووزير الداخلية لـ بروسيا. اصدر عام ١٨٧٨ "قانون الاشتراكية" الذي ينصّ على منع التجمع والتنظيم والنشر ويهدف الى تحطيم التنظيم الحزبي الديمقراطي الاجتماعي.

احتلال الزاس لوترينغن: عام ١٨٧١ بعد الحرب الالمانية الفرنسية.

كارل ليبكْنيشت: انظر هوامش ١٩٠٤.

شباندْاو: حي عمالي في برلين.

أمراء اللفوف والمداخن البروسيين: اصحاب المزارع والمعامل الكبار.

الرفيق بيبل، أوغْست: (١٨٤٠ – ١٩١٣)، معلّم خراطة، منذ ١٨٦٧ نائب في برلمان الرايخ، رئيس الحزب الديمقراطي الاجتماعي منذ تأسيسه.

أُعتقل الرفيق ليبكنيشت: في خريف ١٩٠٧ بسبب كتابته "المادية ومعاداة العسكرية مع مراعاة خاصة لحركة الشبيبة الدولية." أُطلق سراحه في صيف عام ١٩٠٩.

قرب اراس وامام فردون: موقعان لمعارك مريرة خلال الحرب العالمية الاولى. اوقعت معركة فردون اكبر عدد من الضحايا وامست رمزا لقوة المقاومة الفرنسية.

قائد فرقة اقتحام: فرقة عسكرية مجهزة لتنفيذ مهمات خاصة.

زملاء من المتطوعين: للحفاظ على الامن العام وردا على اضطرابات عام ١٩١٩ شكلت الحكومة عددا من الوحدات المتطوعة. وقيادتها في ايدي ضباط سابقين، كانوا في الغالب من أعداء الثورة الجمهورية.

روزا لوكْسمبْورغ: (١٨٧٠ – ١٩١٩)، اقتصادية، سياسية، استاذة محاضرة في معهد الحزب الديمقراطي الاجتماعي، وضعتْ خطوط برنامج الحزب الشيوعي الالماني.

١٩٠٩

بما اني كنت اقطع طريقي الى مستشفى أوربان يوميا على دراجتي وكنت عموما هاوي دراجات متحمسا، صرت مساعد الدكتور فلْنر اثناء سباق الايام الستة، الذي جرى في الحلبة الشتائية بجوار حديقة الحيوانات. ولم يكن هذا السباق، على فكرة، الاول في برلين والرايخ وحسب، بل كان الاول من نوعه في اوربا اجمعها. كانت مثل هذه السباقات الشاقة معروفة في امريكا وحدها، حيث يجذب كل ما هو هائل وضخم جماهير المتفرجين. لذلك حسب الهواة فائزي الموسم الماضي في نيويورك، فلويد مكفرلاند وجيمي موران، افضل مرشحين بالفوز. يا للاسف، ان السائق الالماني رويت، الذي فاز قبل ذلك بسنتين مع شريكه الهولاندي ستول في السباق الامريكي، لم يتمكن من الاشتراك في برلين، فهو الذي فرّ من جندية الرايخ، ارتكب بذلك جريمة تمنعه من العودة الى وطنه. لكن ستول، هذا الشاب الوسيم، صار فورا محبوب الجمهور المحتفل به في الحلبة. كنت آمل بالطبع، ان يمثل كل من روبل وشتلْبرينك وفيلي آرنت، نجمنا على الدراجة، الالوان الالمانية بافضل ما لديهم من طاقة.

كان الدكتور فلْنر يدير العيادة الطبية لسباق الايام الستة على نحو مستمر، اي على مدار الساعة. فكان علينا ان نقيم موقتا، شأننا شأن السائقين، في غرف بحجم خصّ الدجاج، مصنوعة على امتداد الطرف الطويل للحلبة من الجهة الداخلية، لصق ورشة الميكانيك الصغيرة والعيادة الطبية المفصولة بقدر المستطاع عن سائر المرافق. كثرت أعمالنا. في اليوم الاول للسباق سقط بولين عن دراجته وجرف معه سائقنا ويلي آرنت. واشترك بعد الحادث بدلا عن الاثنين، اللذين اضطرا للتوقف لعدة دورات، جورْجيه وروزنْلويشر، واضطر الاخير فيما بعد للاستسلام منهك القوة.

وفقا لخطتنا الطبية قد امر الدكتور فلنر قبل البدء بالسباق بتسجيل وزن المشتركين كلهم، واعيدت العملية بعد مرور الايام الستة. الى جانب ذلك عرض

الدكتور للسائقين جميعا، وليس للالمان وحسب، استنشاقا للاكسيجين. وهو اقتراح استفاد منه معظم المتنافسين. فاستهلكنا في عيادتنا يوميا ست او سبع زجاجات من الاكسيجين.

الامر الذي يشهد على مشقة هذا السباق المرهق. تغيّر المظهر الخارجي لمدار المائة والخمسين مترا في قاعة السباق بعد ان انجزت، في آخر لحظة، اعادة البناء والتعبيد والصبغ باللون الاخضر. في المحلات المخصصة للمتفرجين الواقفين ازدحم الشباب. أما المقصورات والمقاعد المحجوزة فجلس عليها السادة من برلين في البذلات السوداء والاوشحة البيضاء. وحجبت السيدات بقبعاتهن الضخمة رؤية من جلس خلفهن. صحيح ان الامير اوسكار زار مع حاشيته المقصورة البلاطية في اليوم الثاني للسباق، حين كان سائقنا فيلي آرنت متأخرا بدورتين. لكن، في اليوم الرابع، حين حصلت صراعات عنيفة بين الثنائيين المرشحين للفوز، مكفارلند - موران وستول - برتيه، واستمرت خلال خمس وعشرين دورة، وصفع الفرنسي جاكلين سائقنا شتلبرينك، مما اثار ضجة على الشرفة ودفع الجمهور الى تهديد جاكلين، فاوقف السباق لامد قصير واستبعد الفرنسي، حينذاك ظهر جلالته القيصرية، ولي العهد، برفقة حاشية فخمة الزينة، ومكث متفرجا في افضل مزاج الى ما بعد منتصف الليل بكثير. سُمع تهلل شديد عند ظهوره. تصاحبه موسيقى عسكرية حماسية والحان شعبية لجمهور المتفرجين المتحمسين على الشرفة. حتى خلال الدورات الهادئة، حين سار السائقون مسارهم بخفة ونعومة، علت موسيقى مقدامة تمنع الجميع من الاغفاء. ولم يستطع شتلْبرينك، الشاب الصلب العود، الذي كان يركب دراجته ساعتها حاملا المندولين، ان يتنافس مع دوّي المارشات العسكرية.

كثرت اشغالنا حتى في ساعات الصباح الاولى التي خلت عادة من احداث مثيرة. كانت عيادتنا، بفضل كرم الشركة الكهربائية سانيتاس مزودة باحدث اجهزة الاشعة الدوّارة. فاستطاع الدكتور ولْنر ان يصور ستين صورة للسائقين المشتركين او المعتزلين، قبل ان يحضر الرائد الطبيب، البروفيسور الدكتور

شيرنْينغ للتفتيش، فعرضها عليه. ونصح البروفيسور الدكتور فلنر بنشر هذه المادة وغيرها في مجلة مختصة. وحصل ذلك فعلا، اذ نشرتها مجلة مهمة، انما من دون ذكر نشاطي المتواضع.

لكن زائرنا العالي المرتبة تكرم كذلك على متابعة السباق بفضول. فشاهد البروفيسور كيف تفوق المرشحان الامريكيان في اليوم الخامس على الثنائي ستول – برتيه الذي كان الى ذلك الحين في الصدارة. وفيما بعد، حين عرقل بروكو برتيه اثناء التسرّع، ادعى الاخير ان شريكه ستول قبل رشوة من الثنائي مكفرلاند – موران، من دون ان يستطيع البرهنة على تهمته امام ادارة السباق. وهكذا ظل ستول، وإن بقيت الشبهة تحوم حوله، محبوب الجمهور.

نصح الدكتور فلْنر سائقينا بتناول مواد غذائية مقوّية على غرار بيوتسيتين وبيومالتس، والبيض النيء ولحم البقر المشوي، والارز والباستا والكاستارد. أما روبل، الرياضي المتوحد المعكر المزاج، فكان يتبع نصيحة طبيبه الخاص، ويلتهم بالملعقة الكبيرة كميات من الكافيار. وكان معظم السائقين يدخنون ويشربون الشامبانيا وثابر جاكلين على تناول النبيذ حتى اعتزاله. وحسبنا ان لنا سببا وجيها للتوجس ان بعض السائقين الاجانب يستعملون موادا مهيّجة، سموما قليلة الخطر او كثيره. واشتبه الدكتور فلنر بمواد مشتقة من الكوفيين او الإستركنين. وأُتيح لي ان اراقب برتيه، ابن المليونير ذا الخصلات السوداء، وهو يعلك في ركنه مدمنا جذور الزنجبيل.

رغم ذلك تأخر الثنائي ستول – برتيه عن متنافسيه، وفاز عليهما فلويد مكفرلاند وجيمي موران في اليوم السابع، في الساعة العاشرة مساء. فاستطاعا ان يقبضا مبلغ الجائزة البالغة خمسة آلاف مارك. بالطبع خيّب سائقنا فيلي آرنت اكثر انصاره وفاءً، اذ تخلف عن الاوائل بـ ١٧ دورة. لكن قاعة السباق ظلت، رغم تضاعف سعر التذاكر قبل الختام، مليئة بالجمهور حتى الواحد والعشرين من آذار. صمدت من أصل الازواج الخمس عشرة تسعة ازواج فقط حتى نهاية السباق. وعلت عاصفة من التصفيق لحظة تصفير الختام. حتى لو حصل ستول

الوسيم على تصفيق خاص، صفّق الجمهور للامريكيين خلال دورة الشرف تصفيقا شديدا وعادلا. بالطبع شغل ولي العهد، وامراء تورن وتاكسيس ونبلاء خرون المقصورة البلاطية. وخصّص هاو من هواة الدراجات الهوائية الاغنياء لسائقينا، آرنت وروبل، جوائز ترضية لا يستهان بها لكل دورة يسبقان فيها. واهدى لي ستول تذكاراً واحدة من مضخاته المصنوعة في هولاندا. أما الدكتور فلْنر فأثار اهتمامه اننا لاحظنا خلال سباق الايام الستة عند المشتركين كلهم افرازات غزيرة للزلاليات.

سباق الايام الستة: سباق للدراجات الهوائية له طابع الاحتفال الشعبي. يتألف كل فريق من سائقين يتناوبان بحيث يظل السباق مستمرا بلا انقطاع. اقيم السباق السابق عام ١٨٩٣ في نيو يورك.

الامير أوسكار: ابن من أبناء القيصر فلْهلْم الثاني.

امراء تورن وتاكسيس: عائلة ارستقراطية، كان لها بين ١٦١٥ و ١٨٦٧ امتياز البريد.

١٩١٠

دعوني احكي لكم، لماذا لقّبني الشباب بلقب هزلي، وانا اسمي برتّا وكل ما في الامر هو ان جسمي بدين قليلا. يومها كنا نسكن في مجمّع، تابع للمعمل، وقريب من الشغل. لذلك كان يأتي علينا كل الدخان. لكن، عندما بدأتُ اشتم لانّ لون الغسيل صار رماديا على الحبل، والاولاد ما توقفوا عن السعالة، كان زوجي يقول: لا عليك، يا برتا، اذا اردنا ان نشتغل على القطعة عند كْروب، علينا ان نصل الى الشغل بسرعة.

وهكذا مشت الامور طيلة هذه السنين... مع ان البيت صار ضيقا، عندما كان علينا ان نعطي الغرفة الخلفية المطلة على حظيرة الارانب، لشخصين بلا عائلة – وسمّوهم عندنا نزلاء – فما كفّى المكان لماكينة التريكو التي اشتريتها مما ادّخرته بشقّ النفس. لكن كويبْس، وهو زوجي، كان يقول لي دائما: لا عليك، يا برتّا، المهم انه ما يمطر علينا.

كان يشتغل في مسبك. يصنعون فيه مواسير المدافع، وكل ما يلزم. وهذا قبل الحرب بكم سنة، فكثر الشغل. يومها سبكوا ماسورة افتخروا بها كلهم، لانها كانت ضخمة ولا مثيل لها في العالم. وبما ان كثيرين من الذين سكنوا في المجمّع كانوا يعملون ايضا في المسبك، فانهم ما توقفوا عن الكلام عن هذه الماسورة، مع ان القصة كانت سرّية. لكن الشغل عليها ما كان ينتهي. بالاساس كان من المفروض ان تصير مثل مدفع الهاون. اقصد مثل المدافع التي لها مواسير قصيرة. وقالوا ان قطر دائرتها سيكون اثنين واربعين سنتمترا. لكن عدة مرات لم ينجح السبك. والعملية كلها طالت. اما زوجي فكان يقول دائما: اذا اردت رأييّ، سنرتّب الوضع قبل ان تحمى. او يمكن لـ كروب ان يبيع القطعة للقيصر في روسيا.

لكن، عندما حميت بعد ذلك بكم سنة، ما باعوها، بل قصفوا بها من بعيد على باريس. فصاروا يسمّون هذا المدفع اينما كان برتا البدينة، حتى محل ما كنتُ غير معروفة. وعمال المسبك الساكنون عندنا في المجمّع، هم الذين سمّوه لاول مرة على

اسمي، لاني كنت اكثر واحدة بدانة عندنا. وما كنت مرتاحة بان الكل صاروا يحكون عليّ، وان قال لي كويبْس: ما قصدهم الاساءة. والحقيقة، اني ما كنت احب المدافع اصلا. حتى لو عشنا على حساب كروب ومدافعه. وعيشتنا ما كانت سيئة، اذا اردتم رأييّ. فالدجاج والوزّ كان يتنزّه عندنا في المجمّع. وكل واحد منا تقريبا، كان عنده خروف في الحظيرة. وفي الربيع كثرت الارانب...

لكنهم قالوا ان برتّا البدينة ما فادتهم كثيرا في الحرب. وان الفرنسيين انفجروا ضحكا، عندما كانت تخطئ الهدف. وقبل النهاية بقليل جنّد لودنْدورف زوجي للمشاركة في فرق الهجوم البري، فرجع وله عاهة... فما عاد بامكاننا السكن في المجمّع، فاستأجرنا كوخا ونعيش فيه من مدّخراتي... لكن زوجي كويبْس يقول لي دائما: لا عليك يا برتا. ما عندي مشكلة اذا زاد وزنك بعد، المهم، انك تبقين بعافيتك...

مجمّع: احياء سكنية انشأها الصناعيون في مناطق شبه ريفية لتأمين المساكن للعمال. كانت البيوت في معظم الحالات متلاصقة ولها حدائق خلفية صغيرة يزرع فيها السكان الخضروات ويربون فيها الدواجن والارانب.

كروب: انظر هوامش عام. ١٩٠٠

"برتا البدينة": مدفع هاون محمول على قاعدة لها دواليب من صنع شركة كروب، مداه ١٥ كيلومترا. سُمّي على اسم السيدة برتا كروب من بولن وهالْباخ.

لودنْدورف، أريش: (١٨٦٥–١٩٣٧)، منذ صيف عام ١٩١٤رئيس اركان حرب الجيش في عهد هنْدنْبورغ. منذ عام ١٩١٦ مسؤول عن الادارة العسكرية للحرب. فرض على الجيش حرب الغواصات الشاملة.

"الهجوم البري": وحدة لغير المدربين عسكريا وغير المنتمين الى الجيش النظامي بسبب تقدم العمر او ضعف الصحة.

عزيزي أُويلْنبورغ، لو سمحت لي بهذه المخاطبة، بعد ان دنّسنا الحقير هاردْن بافتراءاته الصحفية ايما تدنيس، فرايت نفسي مضطرا، على مضض، ان أنصاع لواجب الدولة، واتخلى عن مرافقي الوفيّ المخلص لي، عن صديقي الجازل عليّ بالنصائح. ومع ذلك، ايها الامير الكريم، ارجو ان تنضمّ اليّ الآن مغتبطا: لقد آن الاوان! اليوم عيّنتُ تيربِتْس، وزيري لشؤون البحرية، الذي برعَ في تقريع الليبراليين اليساريين في برلمان الرايخ، اميراً اكبر للبحر. أتذكر تصاميمي لقطع البحرية، التي كنتَ تلومني على دقتها المفرطة لوما حليما، وانا اوظّف ساعات اكثر الجلسات ضجرا لازاول بلا كلل هوايتي الصغيرة، فأزيّن برسومي اغلفةَ المجلدات، وصفحات الملفات المهمة، مخططًا -تذكيرا وتنبيها لنا – الاسطولين الفرنسي والروسي بمدافعهما، ومنها: شارل مارتْل الفرنسية والطرّادات المدرّعة من الدرجة الاولى، واولّها جان دارك، ثم السفن الروسية الجديدة، واولّها الطرادات بتروبافلُوفسك وبولْتافا وسيفاستُوبول، مصورًا هذه القطع كلها بوصفها قوة بحرية متكتّلة. فلم يكن لدينا، قبل اصدار قوانين البحرية التي اعطتنا تدريجيا حرية التصرّف، ما يضاهي الـ دريدنْوتس الانكليزية! باستثناء الطرّادات الاربع من فئة براندْنبورغ، في احسن الاحوال... لكن عملي التصميمي الذي يحسب حسابا لقوة العدو المحتملة، يجد الان، كما يمكنك ان تستخلص من المواد المرفقة، صدى واستجابا في صفوفنا، فلا يعود مجرد حبر على ورق، بل يمخر بعضه البحرين الشمالي والبلطيقي، ويرسو في كيل وفلْهلْمْسهافن ودانْتسغ منتظرا الابحار.

اعرف بان سنين راحت سدى. فاصحابنا، للاسف الشديد، غير ملمّين بشؤون البحرية. ووجب علينا ان نوقظ في صفوف الشعب حركة شاملة، لا بل حماسا لشؤون الاساطيل البحرية. وكان بنا حاجة الى اتحاد للبحرية والى قانون للاساطيل. واسعفني الانكليز – ام يجدر بي القول، ابناء خالاتي الانكليز الكرماء

– رغم ارادتهم، بانجاز المطلوب، حين دمّروا، مخالفين القوانين كلها – أتذكر ايها الصديق –، باخرتين من بواخرنا، اثناء حرب البوير امام الشواطيء الافريقية الشرقية. فاثار الحادث استياء واستنكارا شديدين في الرايخ. مما دعم قضيتي في البرلمان. مع العلم انّ قولي "إنه علينا، نحن الالمان، ان نواجه الـ دريدنْوتس الانكليزية بطرّاداتنا المدرّعة الباسلة!" اثار ضجة بالغة. (اجل، ايها العزيز اويلنبورغ، أعلم: ان اكبر اغراء لي هو مكتب وكالة الانباء فولف.)

لكن الآن تمخر اولى احلامنا المتحققة البحار. والباقي؟ سيدبّره تيربْيتس. امّا أنا فيبقى لي نشاطي التخطيطي للسفن والطرّادات ملذّة سامية. اطلبها، من الان فصاعدا، بِجدٍّ على طاولة مكتبتي، التي اجلس امامها، كما تعلم، على سرج، مستعدّ للهجوم في اية لحظة. بعد الجولة المعهودة على صهوة الجواد، انكب اذن على واجبي الصباحي وأعهد الى الورق تصاميم جريئة لاسطولنا الطري العود في مواجهة قوة العدو الفائقة، وانا اعلم تماما ان تيربْيتس يراهن مثلي على السفن الكبرى. علينا ان نصير اسرع واكثر تحركا واقوى قصفا. لا تنقصني الافكار الملائمة. ومرات كثيرة أحسّ وكأنّ السفن الكبرى تقفز من رأسي افواجا خلال عملية الولادة الابداعية هذه. بالامس رأيتُ في مخيلتي عددا من السفن الثقيلة، منها زايدْليتس، وبلوْيشر، ثمّ انسابت هذه السفن من يدي الى الورقة. ارى اُساطيل كاملة تتلاحق في الاطلال. لا يزال بنا حاجة الى سفن حربية كبرى. ولذلك وحده يجب تأجيل صنع الغواصات، على ما يرى تيربْيتس.

آه، يا صديقي العزيز وهاوي الآداب والفنون، يا ليتك كنتَ في مقربتي كما في ماضي الايام! لكم كان حديثنا جريئا ومشرقا وثاقب النظر. وباي اجتهاد كنت سابدّد مخاوفك. اجل، يا اعز الاصدقاء، أُويلْنبورغ، اروم ان اكون اميرا للسلام، انما اميرا غير اعزل...

أُويلْنبورغ، فيليب: أمير عن أُويلْنبورغ وهيرتهفْلت، أرستقراطي واسع النفوذ من ألآف القيصر. امسى منذ خريف ١٩٠٦ الشخصية المحورية في ما أُطلق عليه قضية أُويلْنبورغ (الاتهامات: اللواط والحنث في اليمين)، فتخلّى عنه فلْهلْم الثاني.

هاردن، ماكْسِميليان: (١٨٦١-١٩٢٧)، ناشر، أسّس عام ١٨٩٢ الاسبوعية السياسية "المستقبل" التي اطلقت قضية أويلْنبورغ.

تيرْبيتْس، ألْفريد فون: (١٨٤٩-١٩٣٠)، منذ ١٨٩٢ رئيس أركان البحرية، بين ١٨٩٧ و ١٩١٦سكرتير دولة في مصلحة بحرية الرايخ، منذ ١٨٩٨ وزير البحرية في بروسيا. عمل بحزم على توسيع الاسطول البحري الالماني.

فرنسا... روسيا... انكلترا: ادت المنافسة بين الاسطولين الالماني والبريطاني ابتداء من عام ١٨٩٨ والعزلة خلال حرب بورن الى التخلي عن سياسة الـ splendidd" والى التحالف مع فرنسا Entente cordiale) والتصالح مع روسيا والاسراع في بناء السفن الحربية الكبيرة، الـ"دريدنْوتس."

قانون الاساطيل: بموجب القانون الاول (١٨٩٨) امكن توسيع الاسطول الالماني الصغير الذي لم يكن مجهّزا لخوض المعارك في عرض البحر، بل الذي تولى الى ذلك الحين مهاما دفاعية حصرا. مهّد قانون الاساطيل الطريق لاستراتيجية هجومية.

اتحاد للبحرية: اتحاد البحرية الالماني، تأسّس عام ١٨٩٨ وسعى الى التسريع في بناء الاسطول.

ابناء خالاتي الانكليز الكرماء: كانت والدة القيصر فِلْهلْم، السيدة فكتوريا، البنت الكبرى للملكة فكتوريا البريطانية.

حرب البوير: صراع بين بريطانيا والجمهوريتين البُوَيْريتين (أورنيه وافريقيا الجنوبية) يعود الى نية بريطانيا ان تقيم مستعمرة ضخمة من رأس الرجاء الصالح الى القاهرة فتسيطر على مناجم الذهب والماس في افريقيا الجنوبية. عام ١٩٠٢ امست الجمهوريتان مستعمرة بريطانية.

مكتب وكالة الانباء فولف: يومها اكبر وكالة انباء المانية.

١٩١٢

برغم اني كنت اؤمّن قوتي اليومي بعملي مشرفا على الضفّاف في دائرة بوتسدام للمرافق المائية، الا اني كنت اهوى كتابة الشعر، مؤلفا قصائد تظهر فيها نهاية العالم فيؤدّي الموت وظيفته المعهودة. كنتُ مهيّئا اذن لاي نكبة. وقع الحادث في منتصف كانون الثاني. وقبل ذلك بسنتين، حضرتُ للمرة الاولى ظهوره في كازينو نولنْدورفْ، حيث تجري، كل مساء اربعاء، لقاءات النادي الجديد في شارع كلايْست. بعد ذلك كنت اراه متكررا، وانا اتردد الى المكان بقدر ما استطيع تحمّل متاعب السفر الطويل. لم الفت انتباها كبيرا بما كتبتُه من سونيتات، اما هو فكان له صوت مسموع يفرض نفسه. في الـ كاباريه نيو باتيتيك صعقتني فيما بعد سطوته التعبيرية. حين كان كل من بلْاس وفولْفنْشتايْن حاضرين. مرّت الابيات قوافلَ مدمدمة. مسيرة من المنولوجات، على وتيرة واحدة، تفضي الى المذبحة بلا التفاف. لكن بعدها انفجر العملاق الطفولي انفجارا شبيها بالـ كراكاتاو في العام الفائت. يومها قد بدأ بالكتابة في مجلة اكْتْسيون التي اصدرها بْفامفْرتْ. واذكر على سبيل المثال قصيدته الحرب التي الّفها وقتها، بعد ازمة المغرب الاخيرة، حين كانت الامور على كف عفريت وبدأنا نخشى ان لا مناص من خوض المعركة. وما ازال اردّد منها: "ممدودة جثث لا تحصى في دغل القصب / تغطيها طيور الموت الجبارة بالابيض ..." على العموم، كان يؤثر الابيض والاسود، وخاصة الابيض. فلا عجب ان نهر هافل المجمد منذ اسابيع كان يحوي في البياض اللامتناهي لمساحاته الجليدية تلك الثغرة السوداء التي بدت وكأنها في انتظاره.

يا لها من خسارة! لكنّنا تساءلنا: لماذا لم تنشر جريدة فوسيشه نعيا له؟ بدل نشرها الخبر المقتضب: "بعد ظهر الاربعاء تعرّض المتدرج القضائي، الدكتور جيورج هايْم، وطالب الحقوق، ارنست بالْكه، لحادث اثناء تزلّجهما على الجليد مقابل بلدة كلادو، فوقعا في فجوة في طبقة الجليد، قد فُتحت منفذا للطيور المائية."

لا أكثر... أما ما يلي فهو، على كل، مطابق لواقع ما حدث: لقد انتبهنا لوقوع

الحادث من منطقة شوانِنْوِرْدر. فانطلقنا، انا ومساعدي من دائرة المرافق المائية في صحبة عدد من متزلجين، الى الموقع الخطر. فلم نجد هناك سوى ما تبين فيما بعد انه قفازا هايْم وعصاه ذات المقبض الانيق الزركشة. أكان يريد ان يسعف صديقه المنكوب، يا ترى، فوقع بدوره وعلّق تحت طبقة الجليد. ام ان بالكه جرفه معه؟ ام ان الاثنين نشدا الموت الاختياري؟

الى جانب ما ذُكر، ورد في الخبر الصحفي – وكأن للامر اي اهمية –انه ابن المحامي العسكري المتقاعد هايْم، الساكن في شرلوتنبورغ، شارع كوينْغزْويغ رقم. ٣١ وان والد المرشح المنكوب بالكه، مصرفي. لكن، لا شيء، ولا كلمة واحدة، حول ما يُرجّح من دوافع تغوي شخصين شابين بالانحراف الارادي عن طريق التزلج الآمن، المعلّمان طرفاه واضحا بقبضات من القش والاغصان. لا شيء حول ما اصاب جيلنا، الذي كان منذ تلك الايام الجيل الضالّ، من ضيق داخلي. لا شيء حول شعر هايْم وقصائده. رغم ان ناشرا من الجيل الشاب، يُدعى روفولْت، قد توكّل باصدارها. ورغم ان اصدار ما ألّفه من قصص كان متوقعا في القريب العاجل. وحدها صحيفة برلْينر تاغه بْلات اشارت، في تذييل الحقته بتقرير الحادث، الى ان المتدرج القضائي الغارق امتاز كذلك في المجال الادبي ونَشَرَ، قبل امد، ديوانا بعنوان اليوم الابدي. ظهرت فيه آثار موهبة جميلة. آثار! يا للمهزلة.

شاركنا، نحن من دائرة المياه، في رفع الجثة. صحيح ان زملائي كانوا يهزؤون حين وصفتُ قصائده بانها عظيمة جدا وانشدتُ من احدث ابيات هايْم الشاب – "في الشوارع يقف الانام قدما / الى علائم السماء الكبرى ينظرون–"، لكنهم لم يتوانوا في كسر جليد نهر هافل في شتى المواضع وتنبيش القاع بواسطة ما سمّوه "مراسي الموت." وعلى هذا النحو عثروا عليه أخيرا. اما انا فكتبت، ما إن عدت الى بوتسدام، قصيدتي المهداة الى هايْم، بعنوان مرساة الموت، التي اراد بْفيمفْرت ان يطبعها، الا انه اعادها اليّ فيما بعد متأسفا.

اكتشف جثة بالْكه، الاصغر من هايْم بسنة، صيادٌ من الصيادين – كما اوردت صحيفة كرويتس في نبأ عاجل – وهي تطفو على سطح النهر، تحت طبقة الجليد

التي بانت من خلالها. فكسر الجليد فاتحا فيه ثغرة واخرج الجثة بواسطة خطاف المركب. بدا بالْكه في سكينة. اما هايْم فكانت رجلاه كرجلي الجنين مطويتين ومشدودتين الى الجذع. كان متشنّجا، مشوّه الملامح، مجروح الكفين، مرميا على طبقة الجليد الصلبة، وعلى قدميه حذاء التزلّج السريع. في الظاهر وحسب، شابّ سلب العود. تمزقه في الواقع ارادات متناقضة متباينة. فهو الذي كان يمقت كل ما له علاقة بالعسكري، تطوّع قبل الحادث باسابيع للانضمام الى كتيبة المشاة في ميتس. في حين انه كان متحمسا لمشاريع تنحو نحوا مغايرا. اراد، كما اعلم، كتابة المسرحيات...

"النادي الجديد": جماعة من الادباء الشباب.

"كاباريه نيو باتيتيك": ثلة من الادباء انشقت عن النادي الجديد. نظّم اعضاؤها حفلات قراءة امام الجمهور.

بْلاس، ارنْسْت: استعمل الاسم المستعار دانيال شتالر (١٨٩٠ – ١٩٣٩)، دكتور في الحقوق، شاعر، صحافي، ممثل التعبيرية البرلينية.

فولْفنْشتايْن، ألْفريد: (١٨٧٩– ١٩٤٥)، دكتور في الحقوق، أديب تعبيري.

بْفامفْرت، فرانْتْس: (١٨٧٩ – ١٩٥٤)، ناشر مجلة "اكتسيون" ورئيس تحريرها (١٩١١–١٩٣٢) سمّاها مجلة "التطرف الاخلاقي." اصدر ايضا عشرة كتيبات تضم قصائد تعبيرية.

ازمة المغرب: ازمة المغرب الثانية. نشبت عام ١٩١١ بسبب ارسال السفينة المدفعية الالمانية "بانْتر" (حرفيا: فهد) الى الشواطئ المغربية، بعد ان فرضت فرنسا عقوبات اقتصادية على المغرب واحتلت الرباط وفاس.

جريدة فوسيشه: جريدة يومية ليبرالية في برلين. توقفت عن الصدور عام ١٩٣٤ لِما فُرض على العديد من محرّريها من منع من لممارسة مهنتهم.

الدكتور جيورج هايْم: (١٨٨٧ – ١٩١٢)، دكتور في الحقوق، أديب تعبيري، نال مجدا بفضل نصوصه العائدة الى أخر سنتين من حياته.

روفولْت، أرنست: (١٨٨٧ – ١٩٦٠)، ناشر. أسّس عام ١٩٠٨ في لايبْتْسِغ داره الاولى، ثم عام ١٩١٩ دار روفولت في برلين. كان ينشر أعمالا معاصرة من الشعر والنثر (كافكا، توخلْسْكي، موزيل.)

"في الشوارع يقف الانام قدما / الى علائم السماء الكبرى ينظرون": ...الابيات الاولى لقصيدة

طويلة بعنوان "أومبْرا فيتى."

صحيفة كرويتس: "الجريدة البروسية الجديدة" (١٨٤٨-١٩٣٩)، جريدة يومية محافظة، سميت صحيفة كرويتس (حرفيا: الصليب) لشعار الصليب الحديدي المطبوع في رأس الجريدة.

١٩١٣

ان هذه الكتلة الجاثمة عملاقا متحجرا على سهل منبسط، هذا الهذيان التعبيري لمهندس معماري غوّط الصوّان... أكنتُ فعلا من شيّدها – لا اعني بذلك من خطّطها وصمّمها – لا، بل من وضع لها الاساس، بصفته رئيس البناء المختص، ومن ظلّ على مرور اربع عشرة سنة يراكمها ويرصّها ويرفعها برجا نحو السماء؟

اليوم، وقد مضت سنة على وضع الحجر النهائي وقيام احد الصقالين باللمسة الاخيرة لسدّ آخر الشقوق في جوٍّ احتفالٍ مهيب، قلتُ للمستشار تيمه الذي يرأس عصبة الوطنيين والمّم، على مدى الرايخ اجمعه، ستة ملايين تقريبا: "ان ذلك كله مفرط في الضخامة، أليس كذلك؟!"

"هذا مقصود، يا كراوْسه، مقصود. مئة وتسعون مترا ... ارتفاعٌ نتفوّق به على تمثال كيفْ هويزْر بستة وعشرين مترا بالتمام والكمال..."

فرددتُ: "وعلى معبد القيصر قرب الـ بورتا فستْ فاليا بثلاثين مترا تقريبا..."

"وعلى عمود النصر في برلين بثلاثين مترا تماما..."

"وكيف بتمثال هرمْان! ناهيك عن الـ بافاريا في مونيخ التي لا تزيد عن سبعة وعشرين مترا..." استشفّ المستشار، على ما يبدو، تهكّمي فقاطعني قائلا: "على كل حال، سنحتفي بهذه الذكرى الوطنية بعد مرور مئة عام تماما على وقوع معركة الشعوب."

فطعَمت طبخته الوطنية ببعض الشك وقلتُ: "لو اعتمدنا قياسا اصغر لما حصل اي ضرر." ثم بدأتُ استرسل في لهجة المهني وانا احفر الاساس مرة اخرى: "كلها نفايات من لايبْتْسِغ وضواحيها. عاما بعد عام، طبقة على طبقة: نفايات." لكن يومها راحت تحذيراتي كلها ادراج الرياح: يصعب البناء على هذا الاساس... بعد حين ستحدث شقوق... مثل هذا الاهمال سيؤدي الى تكاليف اضافية للتصليح المستمر... فبهت تيمه وكأنّ عليه ان يدفع، منذ الآن ورغما عنه،

مبالغ طائلة للصيانة. قلتُ: "طبعا، لو لم نضع الاساس على تلة من النفايات، بل على ارض ميدان المعركة الصلبة، لبانت كميات لا تحصى من الجماجم والعظام والخناجر والحراب، ورقعٌ ممزقة من الالبسة العسكرية، وخوذات سليمة ومشقوقة، واشرطة ضباط وازرار لئيمة: من بروسيا والسويد وهابزْبورغ، ومن الفيلق البولوني، ومن فرنسا، طبعا، وخاصة من فرقتها الممتازة... فاعداد الجثث لم تكن قليلة. والشعوب المجتمعة قد اجزلت بما يقرب المئة الف."

بعد ذلك عدتُ الى عقليتي الموضوعية، فتكلمتُ على مئة وعشرين الف متر مكعّب من الاسمنت وخمسة عشر الف متر مكعّب من الصوّان... وهي الكمية الكفيلة بتسوية المسألة. فتفاخر المستشار تيمه الذي قد انضمّ اليه البروفسور شمْيتْس مهندس الكتلة المعمارية المفصلة، ووصف التمثال بانه "جدير بالاموات." ثم هنّأ المهندس، الذي شكر تيمه بدوره لتوفير مصاريف البناء ولإيلائه الثقة.

فسألتُ السيدين ما اذا كانا متأكدين من الشعار الصوّاني المحفور في تاج العمود المركون الى محور الوسط تماما، والقائل: "الرب معنا." فنظرا اليّ متسائلين ثم هزّا هامتيهما واتجها الى العملاق المتحجّر الجاثم على ما كان في الماضي تلةً للنفايات. فقلتُ في سري ان رجلين مثلهما من مخلفات القرن الماضي، يجب حفرهما في الصوان ووضعهما بين تلك الاجسام المفتولة العضلات التي تجسّد، كتفا الى كتف، أعالي التمثال.

في اليوم التالي اقيم حفل الافتتاح. وأُعلن حضور وِلْهلْم وملك ساكْسونيا ايضا، مع ان الساكسونيين كانوا يومها ضد البروسيين... بشّرت سماء تشرين الصافية بطقس قيصري.

لكن واحدا من عمّالي، اشتراكي بالتأكيد، بصق وقال: "اي نعم، بهذه الامور سنكون شاطرين، نحن الألمان: بناء التماثيل مهما كلّفت..."

عملاق: تمثال معركة الشعوب في جنوب مدينة لايبْتْسغ. بدأ البناء في خريف عام ١٨٩٨، أفتُتح عام ١٩١٣، اي بعد مرور ١٠٠ عام على معركة الشعوب التي انتصر فيها الحلفاء، البروسيون والنمساويون والروس، على جيش نابوليون، فاضطر الاخير الى الانسحاب من المانيا. اشترك

في معركة الشعوب اكثر من خمسمئة الف جندي.

المستشار تيمه، كليمنْس: (١٨٦١– ١٩٤٥)، مهندس معماري من لايبتسغ، أحيى المشاريع لبناء التمثال وأسّس عصبة الوطنيين.

عصبة الوطنيين: "عصبة الوطنيين الالمان من اجل تشييد تمثال لمعركة الشعوب في لايبتسغ." كانت قريبة من العصبة الالمانية الموحدة المتطرفة.

تمثال كيفْهويزْر: أفتُتح في ١٨٩٦ في شمال جبال تورينْغن ويصور القيصر فريدْرش الاول، بارْبروسا (١١٢٢ – ١١٩٠)، والقيصر فِلْهلْم الاول (١٧٩٧ – ١٨٨٨). وفقا للاساطير ينام في مغارة من مغارات جبل كيفْهويزْر قيصر مسحور، وترمز افاقته الى اعادة بعث القيصرية.

عمود النصر في برلين: شُيِّد بعد الحرب الالمانية الفرنسية بين ١٨٧٠ و١٨٧١.

١٩١٤

اخيرا وبعد فشل محاولات متكررة لزميلين من زملائي في المعهد، نحجتُ، في اواسط الستينيات، في اقناع السيدين المتقدمين في السن باجراء لقاء معهما. كنتُ اوفر حظا من الزميلين، ربما، لكوني امرأة شابة ولجنسيتي السويسرية التي تضفي عليّ ميزة الحياد. فاستجابا لرسائلي، على الارجح، لاحساسهما اني طرقتُ بها الباب، لا باستحياء، انما بنعومة، رغم اني وصفتُ فيها مهمتنا البحثية بعبارات موضوعية. ووصلت الموافقة من الطرفين بتزامن خلال ايام قليلة.

اخبرتُ زملائي عن ثنائي لافت فريد يذكّر قليلا بمتحجّرات ما قبل التاريخ. فحجزتُ غرفا هادئة في فندق اللقلاق. جلسنا هناك، في اغلب الاحيان، على شرفة الروتيسري المطلة على نهر ليمات ودار البلدية المقابلة والدار المسماة تسوم رويدن. جاء السيد رمارك الذي كان يومها في عامه السابع والستين، قادما من لوكارنو. وهو الذي ظهر عليه انه انسان لا يترك ملذات الحياة، بدا لي اكثر عطبا من السيد يونغر المتعافى المجاوز السبعين والمصمم على الظهور في لياقة الرياضي. وهو الساكن في منطقة ووِيْرْتمْبرغ، قد سافر عن طريق بازل، بعد ان قادته جولة في جبال فوغيزن سيرا على الاقدام الى جبل هارتْمانزْوايلرْكوبف الذي دارت حوله، في ما مضى، معارك دموية.

بدأت جولة الحوار الاولى على نحو متردد. تكلم السيدان العزيزان، الشاهدان على العصر، بثقة الذوّاقين على انواع النبيذ السويسري: مدح رمارك انواع تيسين، في حين ان يونغر فضّل نوع دوله الولشي. وحاول الاثنان على نحو ملحوظ ان يتواصلا معي حصرا بعرض ظرافتهما المعلّبة. اما محاولاتهما للثرثرة معي في اللكنة السويسرية، فبدت مضحكة، انما مزعجة كذلك. لكن، حين استشهدتُ بمطلع اغنية كثيرة التداول اثناء الحرب العالمية الاولى، ظل مؤلفها مجهول الهوية، وأنشدتُ من رقصة الموت الفلندرية: "يركب الموت جوادا اسود، معتمرا قبعة غامضة"، بدأ رمارك ويونغر يدمدمان اللحن السوداوي المروع؛ والاثنان حافظان

لازمة الاغنية: "فلنْدرة في شدّة، يعيث الموت في فلنْدرة." ثم تطلعا في اتجاه الكنيسة الاسقفية الكبيرة، التى تعلو ابراجها البيوتَ في جوار المراسي.

بعد استراحة التفكّر هذه، المتخللة باصوات نحنحة، قال رمارك إنه قد سمع في خريف اربعة عشر – حين كان يقعد على كرسي مدرسة في اوسنْابرويك، وكتائب المتطوعين تموت نزفا في جوار بيكسشوت وايبرن، باسطورة لانغمارك القائلة ان الجنود ردّوا على نار الرشاشات الانكليزية باغنية المانيا على الشفاه، وقد وقع بدوره تحت نفوذها السحري. لذلك تطوعت، على حد قوله، صفوف ثانوية باكملها – وبتشجيعٍ من المعلّمين. وظل نصف المتطوعين على الجبهة ولم يرجعوا. أما الذين نجوا منهم، مثلما نجا بدوره – غير انه لم يكن له ان يلتحق بثانوية خاصة – فلا يزالون الى اليوم مفسودين. وهو لا يزال ينظر الى نفسه، على كل، بوصفه "حيّا ميّتا."

اما السيد يونغر الذي علّق على التجارب المدرسية لزميله في الكتابة بابتسامة راقية – في الظاهر مدرسة متوسطة لا غير -! فسمّى طقوس لانغمارك حمقا وطنيا، الا انه اقرّ بانّ حنيننا قويا الى الخطر ولذةً بغير المعتاد قد استبدّا به قبل الحرب بزمن طويل، وإن كان يومها في خدمة القوة الاجنبية الفرنسية. "وحين نشبت، احسسنا انفسنا مصهورين في جسد واحد كبير. حتى عندما اظهرت الحرب مخالبها، ظل الكفاح يسحرني كتجربة جوّانية الى آخر ايامي في رتبة قائد فرقة اقتحام. ألا تريد ان تعترف، يا رمارك الكريم، بانك، في لا جديد على جبهة الغرب، روايتك الاولى المتازة، تكلمتَ بنفسك بتأثر داخلي عن قوة الزمالة بين الجنود التي ترقى الى لحظة الموت؟"ردّ رمارك إن هذا الكتاب لا يصف المعيش الخاص، بل يسجّل التجارب الحربية لجيل حُرق وقودا للحرب. وأضاف: "وكانت خدمتي في مستوصف الجبهة مصدر الهام كاف لي."

لا اريد القول ان السيدين الكهلين بَدَءا بعدها بالمشاجرة، لكنهما حرصا على التأكيد انهما يختلفان الرأي في صدد الحرب وان لكل منهما اسلوبا يُضادد اسلوب الآخر، وانهما يأتيان سائر الامور ايضا من موقعين مختلفين. ففي حين

ان الواحد كان لا يزال يرى نفسه من "انصار اللاعنف الذين لا علاج لهم"، طلب الآخر ان يفهم على انه "فوضوي متمرد."

صاح رمارك: "ما هذا الكلام! في بروقك ورعودك الفولاذية نشدتَ المغامرة، وصولا الى آخر هجوم قام به لودندورف، وكأنك صبي طائش. جمّعتَ بتهور فرقة اقتحام لكي تتمكن، مدفوعا بلذة دموية، من اعتقال اسير او اثنين، وتفوز خلال العملية، إن امكن، بزجاجة من الكونياك..." لكنه اقر بعدها ان الزميل يونغر وصف في يومياته حربَ الخنادق والمواقع، والطابع الخاص لمعركة العتاد الآليات عامة، وصفا دقيقا يصيب الواقع.

قبل ختام جولتنا الحوارية الاولى – وقد افرغ السيدان زجاجتين من النبيذ الاحمر – عاد يوينغر الى موضوع فلندرة قائلا: "حين كنا، بعد ذلك بسنتين ونصف، في الجبهة بجوار لانغمارك، عثرنا على بنادق وأحزمة واعتدة من العام اربعة عشر. صادفنا حتى بعض الخوذات المسننة، التي ارتداها المتطوعون يومها وهم ينزلون الى المعركة كتيبةً كتيبة..."

رمارك، أرِش ماريا: (١٨٩٨ – ١٩٧٠)، أديب ألماني، نال شهرة عالمية بفضل روايته المعادية للحرب "لا جديد في الغرب." كان جنديا بين ١٩١٦ و١٩١٩. غادر المانيا عام ١٩٣١. جُرِّد من جنسيته الالمانية عام ١٩٣٨.

يونغر، أرنست: (١٨٩٥ – ١٩٩٨)، عالم حيوانات وأديب. تصف يومياته الحربية "في البروق والرعود الفولاذية" وحشية معركة العتاد في الحرب الحديثة. لكنه يرى ان هذه الحرب تولّد حيوية جديدة ومحاربين أبطالا.

رقصة الموت الفلندرية: يقول البيت الاول: "يركب الموت جوادا اسود، معتمرا قبعة غامضة / حين ينزل الجند الى الميدان، يركض جواده لصقهم /. فلنْدرة في شدّة، يعيث الموت في فلنْدرة."

ايبرن: مدينة بلجيكية أُلحقت بها اضرار مادية شديدة في ثلاث معارك اثناء الحرب العالمية الاولى.

قائد فرقة اقتحام: انظر هوامش ١٩٠٨. ان الراوي في "في البروق والرعود الفولاذية" هو قائد فرقة اقتحام.

لودندورف: انظر هوامش ١٩١٠.

جرى لقاؤنا التالي في الـ أُوديون، ذلك المقهى الجليل الذي تردد اليه لينين، ليقرأ فيه صحيفة نويه تْسورْيشر تسايتونغ وصحفا اخرى، وهو يخطط سرًا للثورة، الى ان حان سفره الى روسيا، بحماية الرايخ الالماني. اما نحن، فلم نكن نتطلّع الى المقبل، بل كنا حرصين بالاحرى على الالتفات الى الزمن الماضي. لكن، في اوّل الامر، اصرّ السيدان على استهلال جلستنا بفطور يرطّبه الشامبانيا. اما انا، فسمحا لي بشرب عصير البرتقال.

كان الكتابان اللذان قد دار حولهما نقاش حادّ، مطروحين على طاولة الرخام مثل قطعتين من الدلائل، بين الكرواسان وتشكيلة الاجبان: مع العلم ان لا جديد في جبهة الغرب انتشر في طبعة، فاق عدد نسخها نسخ كتاب في البروق والرعود الفولاذية بكثير. وقال رمارك: "صحيح، نجح كتابي تجاريا، مع انه أُحرق علنا بعد العام ثلاثة وثلاثين، ومُنع من التداول في سوق الكتاب الالماني، وفي بعض الترجمات ايضا، لمدة اثنتي عشرة سنة، في حين ان نشيدك المحتفي بالحرب كان، على ما يبدو، متوفّرا في السوق طوال الوقت."

علّق يونغر على الملاحظة بالصمت. وظل صامتا الى ان جئتُ على ذكر حرب الخنادق في فلندرة وفي الاراضي الطبشورية لمنطقة شامبانيه، وبسطتُ خرائط لمناطق القتال على طاولة الفطور التي أُفرغت من اثار الوجبة. فاسرع بالتكلّم على الهجوم والهجوم المضاد قرب نهر سوم، وطرح تعبيرا في النقاش، لم نستطع التنصل منه: "هذه الخوذة المسننة اللعينة التي لم يكن عليك، يا عزيزي رمارك، ان تلبسها، أُبدلت في قطاعنا للجبهة، في العام خمسة عشر، بالخوذة الفولاذية. وكانت هذه الاخيرة يومها خوذة تجريبية، صمّمها وطوّرها، بعد فشل النماذج الاولى، نقيبٌ في المدفعية يُدعى شْوَيرت، في التنافس والتسابق مع الفرنسيين الذين بدؤوا ايضا بادراج الخوذات الفولاذية. وبما ان كروب لم يتمكّن من انتاج المزيج المعدني الملائم المؤلف من الكروم والفولاذ، كُلفت شركات اخرى بالتنفيذ، ومنها مصنع

التعدين والحديد تاله. واستُعملت الخوذة الفولاذية ابتداءً من شباط ستة عشر في قطاعات الجبهة كلّها. وكان للقوات في جوار فردون ونهر سوم امتياز التزوّد بها، في حين ان القوات على الجبهة الشرقية كانت آخر من حصل عليها. فليس لديك اي فكرة، يا عزيزي رمارك، عن الثمن الدموي الفادح الذي دفعناه، وفي حرب الخنادق خاصة، كرمى القبعة الجلدية التافهة، العديمة الجدوى التي صُنعت، لعدم توفر الجلد، من اللبّاد احيانا. كل رصاصة مصيبة كلّفتنا حياة رجل، كل شظية صغيرة كانت نافذة، مميتة."

ثم استطرد، موجها كلامه اليّ: "ان خوذتكم السويسرية التي تستعملونها الى اليوم في الشرطة، هي الاخرى تقليد لخوذتنا الفولاذية، حتى في تفصيل الفجوات المثقوبة من اجل التهوئة، انما مع ادخال بعض التعديلات عليها."

اما ملاحظتي الاعتراضية "لحسن الحظ لم يكن على خوذتنا ان تثبت فعاليتها في معارك العتاد والآليات التي احتفلت بها حضرتك بسطوة الكلام"، فتجاهلها، ممعنا في تزويد رمارك، الذي داوم على الصمت، بالمزيد من التفاصيل: من وقاية التصدّيء بفضل عملية التلبيس المعدني الرمادي، وصولا الى التصميم الوقائي لحماية الرقبة، والى التبطين الداخلي المصنوع من شعر الحصان او اللباد المطرز ثم اشتكى من اعاقة الرؤية خلال الاشتباكات في الخنادق، لان حافّة الخوذة الامامية الناتئة صُمّمت لتضمن حماية تتجاوز الجبين الى طرف الانف. "كما تعلم، كانت هذه الخوذة الفولاذية الثقيلة تعيقني كثيرا خلال عمليات فرق الاقتحام. وكنت أفضّل عليها، بتهوّر اعترف به، قبعتي القديمة التي استعملتها وانا ملازم ثان، وهي، على فكرة، مبطّنة بالقماش الحريري." ثمّ خطر على باله امر آخر، مسلٍّ، على حد قوله: "اني احتفظ، على فكرة، بخوذة اخرى تذكارا على طاولة مكتبتي، خوذة انكليزية تكاد تكون مسطحة، ومثقوبة بالرصاص، طبعا..."

وبعد استراحة صمت طالت – وكان السيدان يشربان الآن خمرا محلى مع قهوتهما – قال رمارك: "ان الخوذات الفولاذية من موديل م ١٦، ومن ثمّ م ١٧، جاءت كبيرة الحجم على جنود الاحتياط الذين كانوا عادة مجنّدين يفتقرون الى

خبرة التدريب الفعلي. فلم تثبت على رؤوسهم. وتحتها لم تظهر من وجوههم الطفولية سوى الافواه الفزعة والذقون المرتجفة. فبدا المنظر مضحكا ومبكيا على السواء. وليس لي ان اقص عليكم ان قذائف مدفعية الميدان، وحتى الشظايا الصغيرة، كانت تخترق الفولاذ مع ذلك..."

ثم طلب كأسا آخر ويونْغر جاراه. ووصفا لي، انا "البنّوت"، كوبا ثانيا من عصير البرتقال الطازج.

لينين، فلاديمير إلْييتْش: (١٨٧٠–١٩٢٤)، ثوري روسي، مؤسّس الاتحاد السوفياتي، ابتداء من ١٩٠٧ في المنفى (المانيا، بريطانيا، سويسرا)، عاد الى روسيا عام ١٩٠٧ بدعم ألماني.

مصنع التعدين والحديد تاله: انظر هامش ١٩٥٧.

فردون: انظر هامش. ١٩٠٨.

سوم: نهر فرنسي في منطقة بيكارْدي، جرى في جواره بين العامين ١٩١٤ و١٩١٦عدد من المعارك، وحصدت المعركة الاخيرة بين صيف وخريف عام ١٩١٦ العدد الاكبر من الضحايا.

بعد نزهة طويلة قادتنا، سيرا على الاقدام ومرورا بالدار هلمْهاوْس، الى رصيف ميناء نهر ليمات، والى الكورنيش المحاذي لبحيرة زوريش – وتلتها فترة راحة اوصيتُ بها والتزم بها السيدان على ما يبدو ـ تناولنا وجبة العشاء بدعوة من السيد رمارك – الذي صار بفضل تحويل رواياته الى افلام سينمائية من المؤلفين الاثرياء – في قاعة التاج. وهي في الواقع مطعم برجوازي يمتاز بجوّه الفني: تزيّن جدرانه لوحات اصلية لرسامي الانطباعية، وكذلك لماتيس وبراك، وبيكاسو نفسه. اكلنا فيليه سمك، وبعده باطاطا مبروشة محمرة رويستي مع لحم عجل. وختم السيدان الوليمة بقهوة اسبريسو وكونياك أرمانياك. اما انا فجنيت على نفسي بطلب موس او شوكولا، اذ جاءت الكمية كبيرة عليّ فظللت اتملعق منها طويلا.

بعد ان رُفعت المائدة، طرحتُ اسئلتي المتركّزة ساعتها على حرب الخنادق في الجبهة الغربية. وكان في وسع السيدين ان يخبراني، دون اللجوء الى كتبهما، بتبادل نيران حامية استمرت اياما واصابت الخنادق الخاصة احيانا. واطلعاني على انظمة الخنادق المتدرّجة المزودة بتجهيزات لحماية الكتف والصدر والظهر، على مخابيء مموّهة مغطاة بالتراب، على ممرات للتسلل وسراديب محفورة عميقة تحت الارض، على انفاق تنصّتية او ملغّمة تصل الى جوار الخطوط المعادية، على نسيج اسياج من الاسلاك الشائكة، ولكن، على خنادق ومخابيء طُمرت او غرقت بالمياه كذلك. وبدت تجاربهما غير مستنفدة، وإن حصر رمارك تجربته بالمشاركة في بناء التجهيزات الدفاعية، فقال: "لم اشارك في القتال على الخنادق. لكنّي رأيتُ مخلفاته."

وكان كل تفصيل صغير، إن تعلّق بحفر الخنادق او تدبير الطعام او مد الاسلاك ليلا، حاضرا لديهما. فكلاهما تذكرا بدقة، ولم يسترسلا إلاّ احيانا في سرد النوادر، وعلى سبيل المثال الاحاديث التي اجراها يونغر من موقعه المتقدم

مع التومي او الفرنساوي البعيد عنه ثلاثين خطوة او أقلّ، وهو يغترف بثقة من دروسه المدرسية في اللغات الاجنبية. وبين وصفهما لعمليتي هجوم وهجوم مضاد، انتابني الشعور وكأني كنتُ حاضرة اثناءها وعشتُ التجربة. بعد ذلك دار الحديث على الالغام الكروية الانكليزية ومفعولها، والملقبة بـ راتشر، على الغام الزجاجات والشظايا، على القذائف التي لم تنفجر، على القذائف المدفعية الثقيلة على انواعها، ومنها ما ينفجر عند الاصطدام وما يؤخّر الانفجار وما يكون مزودا بمشعل حارق، على اصوات الرصاصات والقذائف المقتربة من شتى العيارات.

واجاد كلا السيدين تقليد الاصوات المنفردة لذلك الحفل الموسيقي المروع، والملقبة بـ"مزاليج نارية." أُرجّح انه كان الجحيم! وقال السيد يونغر": رغم ذلك كان يحيى فينا جميعا عنصرٌ يبرز وحشية الحرب ويستحيلها روحية، نوع من السرور الموضوعي بالخطر، والاندفاع الفارسي الى خوض القتال والظفر فيه. أجل، يمكن لي القول: ان نيران هذه المعركة المستديمة صهرت، على مرور السنين، فئةً من المحاربين ازدادت نقاءً وإقداما..."

فضحك السيد رمارك في وجه من يقابله صائحا: "ما هذا الكلام يوينغر! تثرثر مثل واحد من نخبة الفرسان...! هؤلاء الجنود، خنازير الجبهة، بأحذيتهم العسكرية الكبيرة عليهم وقلوبهم المطمورة، تحولوا جميعا الى حيوانات. صحيح ان معظمهم تغلبوا على الخوف، لكن الهلع من الموت كان حاضرا ابدا. وماذا اتقنوا؟ لعب الورق... الشتم... تخيّل نساء ممددات بافخاذ مفرشحة... المحاربة... اي القتل وفقا للاوامر...! وطبعا، اكتسبوا ايضا علم الخبراء، فكان بوسعهم تبادل الاراء حول ما يميز المجرفة العسكرية عن الحربة، على غرار انّ المجرفة لا تسمح بالطعنة تحت الذقن وحسب، بل بالضرب بسطوة اشد ايضا، بين الرقبة والكتف، على سبيل المثال... فضربة كهذه تنفذ بسهولة الى الصدر، في حين ان الحربة تعلّق غالبا بين الضلوع، فعلى المرء ان يرفس البطن ليتمكن من سحبها..."

لم يجرؤ اي من الندل المتحفظين في قاعة التاج على الاقتراب من طاولتنا

الصاخبة، فتولى يونغر الذي اختار لعشائنا، او "عشاء العمل"، على حد قوله، نبيذا احمر سلسا، سكب المزيد منه بتمهل مقصود، نقطة نقطة، قال: "كله صحيح، يا عزيزي رمارك. لكنّي أصر على التأكيد: حين كنتُ انظر الى رجالي في الخندق، وكل واحد منهم في جمود الحجر، البندقية في اليد والحربة جاهزة، وعلى بريق قنبلة ضوئية يتلألأ صفّ من الخوذات الفولانية والنصول، كان يملأني احساس بالمنعة. اجل، كان سحقنا ممكنا، لكن الانتصار علينا كان ممتنعا." بعد مدة من الصمت المحرج – اراد السيد رمارك ان يقول شيئا ما لكنّه اكتفى بهزّ الكتف –، رفع الاثنان كأسيهما، وارتشفا ما تبقّى بتزامن، مع انهما تحاشيا نظرة الآخر. عاود رمارك مرة تلو مرة هندسة ربطة عنقه. ونظر اليّ يونغر بين حين وآخر كأني حشرة نادرة، غير متوفرة بعد في تشكيلته. اما انا فظللت اتعارك مع الكمية الكبيرة عليّ من الـ موس او شوكولا.

لكن بعد حين تطرّق السيدان، باسترخاء وفرح، الى لهجة خنازير الجبهة. ولمس الحديث روائح المراحيض. فاعتذرا منّي، انا "الأنثى الرقيقة" – كما نكّت رمارك – مثلما يعتذر رجال يتقنون اصول اللياقة، لما تداولاه من تعابير مفرطة في الغلاظة. ختاما تبادلا المديح لحيوية تقاريرهما الحربية. فسأل يونغر: "مَن ثمة غيرنا؟... في احسن الاحوال، عند الفرنسيين، هذا المجنون... سيلين..."

التومي او الفرنساوي: الانكليز او الفرنسيون.

سيلين، لوي-فردينان: (١٨٩٤-١٩٦١)، اديب وطبيب فرنسي، من انصار الفاشية ومعاداة السامية. تتضمن رواية الشهيرة "رحلة الى نهاية الليل" تجارب الراوي في الحرب العالمية الاولى.

بعيد الفطور – الذي لم يكن فاخرا، مرطبا بالشامبانيا هذه المرة، بل كان مؤلفا من الـ ميوسلي التقليدي الذي قد نصحتُ به ووافق عليه السيدان – تابعنا حوارنا. ونورّني الاثنان في مجرى الحديث بحذر ورفق، وكأنّني من بنات المدرسة اللواتي يجب عدم صدمهن، حول حرب الغازات، اي حول نثر الغاز الكلوري والاستعمال الهادف للذخيرة الحاملة موادا سامة ملقبة بـ الصليب الازرق والاخضر والاصفر، ناهلين في سردهما من تجاربهما الخاصة حينا ومن تجارب الاخرين حينا آخر.

وقادنا الحديث من دون التفاف طويل الى تناول الاسلحة الكيميائية، بعد ان ذكر رمارك الحرب في فييتنام التي كانت وقت حديثنا من مشاغل الساعة، ووصم ما أستخدم فيها من سموم، كالـ نابالم والـ آجنت اورانج، اجراما، فقال: "من القى القنبلة النووية، لم يعد يعرف اي رادع او حرج." ورأى يوينغر في التدمير المنظم للادغال بواسطة مواد سامة مغطية للمساحات، امتدادا متسقا لاستعمال الغازات السامة في الحرب العالمية، الا انه رجّح، موافقا على ما قاله رمارك في هذا الصدد، ان الامريكي سينهزم، رغم تفوقه المادي، في هذه "الحرب القذرة" التي لم تعد تسمح "بسلوك يليق بالجندية."

واستطرد يونغر قائلا: "لكنه يجب الاعتراف باننا كنا اول من نفح غاز الكلور على الفرنسيين في جوار إيبرن، في نيسان خمسة عشر." على اثر ذلك صاح رمارك بصوت عال، دفع نادلة تمرّ قرب طاولتنا الى التحجر مجفولة، والى الهرع مبتعدة: "هجوم بالغاز! غاز! غـــاز!!"، الامر الذي حثّ يونغر على تقليد دقات اجراس الخطر بملعقة الشاي. الا انه عاد بعد حين الى موضوعيته، وكأنّه ينصاع لامر داخلي، فقال: "حسب التعليمات كنا نبدأ فورا بتزييت مواسير البنادق والقطع المعدنية كلها، وثم بلبس الاقنعة الواقية من الغازات. فيما بعد رأينا في مونشي - قبيل معركة سوم – مجموعة من المصابين بالغاز، كانوا يغصّون ويئنّون، ومن

عيونهم تتدفق الدموع. لكن الغاز الكلوري كان يؤثّر بالدرجة الاولى على الرئات، فيكويها ويحرقها. وقد تسنى لي ان ارى مفعوله في الخنادق المعادية ايضا. بعد ذلك امطرنا الانكليز بغاز الفوسجين، ورائحته حلوة قليلا."

ثمّ جاء مجددا دور رمارك: "كانوا يختنقون ويتقيّؤون رئاتهم المحروقة قطعة قطعة على مرّ ايام. وحدث الاسوأ اذا منعهم السنّار الناري من الصعود من الحفر، لان الغيوم الغازية تهبط، مثل رئة بحر ضخمة، الى كل تجويفة ارضية وتغمرها. والويل لمن نزع قناعه قبل الاوان... جنود الاحتياط قليلي الخبرة كانوا دائما الاسوأ حالا... هؤلاء الشباب التائهين الذين لا حيلة لهم... بوجوههم الشاحبة من سوء التغذية... في بدلاتهم العسكرية الكبيرة عليهم... كان لهم، وهم على قيد الحياة، السيمياء المفزعة لاطفال ميّتين... لقد رأيتُ، لما وصلنا الى خطنا الامامي لنحفر الخنادق، مخبأً مليئاً بهؤلاء المساكين... وجدتُ رؤوسهم مزرقّة وشفاههم سوداء... وفي حفرة من الحفر استعجلوا في نزع الاقنعة... كانوا يختنقون مستنزفين"...

اعتذر السيدان منّي: يفوق هذا كله، على الارجح، طاقة المرء في الصباح. وهما يستغربان على العموم من ان سيدة شابة تبدي اهتماما بمثل هذه الفظائع التي لا بدّ للحرب من ان تأتي بها. فطمأنتُ رمارك الذي حسب نفسه سيدا من المدرسة القديمة، ومزايدا يونغر في هذا المجال. قلتُ إن لا داعي لمراعاتي من فضلكما، فالمهمة البحثية التي كلفتنا بها شركة بيورله تتطلب اخلاصا لتفاصيل الامور ودقائقها. "وانتما تعلمان، ما هو العيار الذي ينتجونه للتصدير في اورليكون، أليس كذلك؟" ثمّ طلبتُ المزيد من التفاصيل.

وبما ان السيد رمارك ظل صامتا وارسل نظره السارح الى جسر دار البلدية في اتجاه كورنيش نهر ليمات، بادر السيد يونغر الذي بدا اكثر تماسكا، بتنويري حول تطور قناع الغاز والسلاح السام الملقب بغاز الخردل، الذي استعمل في حزيران سبعة عشر للمرة الاولى – من قبل الالمان – خلال المعركة الثالثة في أوبرن. وتكوّن هذه المادة غيوما غازية تكاد تفتقر الى رائحة مميزة فيصعب تشخيصها،

أي نوعا من الضباب الملاصق بالارض ولا يبدأ مفعولها الآكل للخلايا الا بعد ثلاث ساعات او اربع من التعرض لها. واسمها الكيميائي: ديكلوردي اتيل سولفيد، مركب زيتي يتبخر في نطف صغيرة جدا ولا ينفع معه القناع وقايةً.

ثم شرح لي السيد يونغر ايضا، كيف تم تلويث شبكة الخنادق المعادية باطلاق النيران عليها بالذخيرة المفخخة بال صليب الاصفر، الامر الذي استدعى إخلاءها بلا مناوأة. قال: "لكن في اواخر خريف سبعة عشر استولى الانكليزي قرب كامبراي على مخزن كبير مليء بقنابل غاز الخردل، فعمد حالا الى استخدامها ضد خنادقنا. النتيجة: اصابات كثيرة بالعمى... ما قولك، يا رمارك، أ لم يصب بهذه الطريقة او ما يشبهها، اعظم عريف في الازمنة كلها؟ فنقلوه الى المستوصف العسكري في بازوالك... وهو عاش نهاية الحرب هناك... وقرر هناك ان يصير سياسيا"...

ذخيرة الصليب الاصفر: قذائف معلّمة بصليب اصفر لاحتواءها على غاز سام سُمّي غاز الخردل، في الانكليزية موستارد غاس.

الصليب الازرق: مادة سامة محتوية على ديفينيل وسيانيد وكلوريد وعناصر أخرى.

الصليب الاخضر: حشوة ذخيرة محتوية على كلوربيكرْين.

حرب فيتنام: المرحلة الفرنسية (١٩٤٦– ١٩٥٤)؛ المرحلة الامريكية (١٩٦٠ – ١٩٧٣).

اعظم عريف في الازمنة كلها: أدولف هتلر (١٨٨٩–١٩٤٥)، منذ ١٩١٥ عريف، تعرض لهجوم بالغاز السام في ١٤/١٠/١٩١٨. سُمّي اثناء الحرب العالمية الثانية "أعظم قائد في الازمنة كلها."

بعد جولة تسوق قصيرة – تزوّد يونغر بحاجته من السيجار، بما فيه نوع بريساغو؛ وابتاع رمارك، باستشارتي، مشلحا حريريا لزوجته بوليت من محلات غريدر – اصطحبتُ السيدين بسيارة اجرة الى محطة القطارات الرئيسة. كان الوقت متسعا، فاتجهنا الى مطعم المحطة. اقترحتُ تناول النبيذ الابيض السلس شرابا للوداع. ومع ان كل ما يجب قوله قد قيل ولا حاجة الى استزادة، اثمرت الساعة التي كانت بين ايدينا ببعض الملاحظات الاضافية. ردا على سؤالي ما اذا احتكا في عام الحرب الاخير بالدبابات الانكليزية التي استعملت يومها على نحو اكثر كثافة، نفي السيدان تعرضهما لاي عملية اقتحام او اجتياح بالدبابات، غير ان يوينغر زعم بان فرقته صادفت اثناء بعض عمليات الهجوم المضادة عددا من "العمالقة المحروقة." وقال انهم حاولوا المناوأة بقاذفات اللهب وبِحُزَمٍ من القنابل اليدوية. واستطرد قائلا: "ان ذلك السلاح لم يتجاوز يومها طور الطفولة. اما زمن الاقتحامات السريعة والشاملة بالدبابات فكان ما يزال في الانتظار."

ثم تبيّن ان السيدين كانا من هواة مراقبة الصراعات الجوية. وتذكر رمارك في هذا الصدد الرهانات المعقودة من منظور من تمركز خلف الجبهة او في الخندق: "كان الرهان وجبة من السجق او خمس سجائر، بغض النظر عما اذا كانت الطائرة المصابة، الساقطة مترفرفة بِعلَم من الدخان، واحدة منا او من الانكليز. لكنهم تفوقوا علينا عددا، في كل الاحوال. في النهاية جاءت على كل طائرة منا خمس طائرات انكليزية او امريكية."

وأكّد يونغر: "على العموم كان التفوق المادي خانقا، وخاصة في الهواء. مع ذلك كنتُ اراقب شبابنا في طائراتهم باجنحتها الثلاثية بشيء من الحسد. فالمعارك الجوية جرت على الاقل في جو الفروسية الاصيلة. كان منظر الطائرة المنفردة القادمة من صوب الشمس وهي تنتقي خصمها من بين طائرات السرب المعادي، مفعما بروح المغامرة. ما كان شعار فرقة ريشتهوفن؟ اه نعم، تذكرتُ: "بقوة

حديدية، انما بجنون!" وهذا الشعار شرّفوه بافعالهم، بلا شك. ببرودة اعصاب، لكن بروح رياضية. وعلى فكرة، هذا الكتاب جدير بالقراءة، عزيزي رمارك: الطيار المقاتل الاحمر... وإن كتب السيد البارون في ختام مذكراته الحيوية جدا، معترفا بان الحرب الفرحة المرحة انتهت في احسن الاحوال في العام ستة عشر، ولا شيء بقي في الاسفل سوى الوحل ومشاهد الارض المحفورة، وكل شيء امسى جدّيا ومريرا. مع ذلك ظل البارون باسلا حتى النهاية حين انزلوه بدوره من السماء. وكان هذا الموقف سائدا على البرّ كذلك. فآلياتهم العسكرية وحدها كانت الاقوى. وقيل: لا هزيمة في ميدان القتال. غير ان التمرد شبّ خلف ظهرنا. لكن حين اعدد اصاباتي: اربع عشرة، على الاقل، خمس من رصاصات البنادق، اثنتين من شظايا القنابل، واحدة من شظية قذيفة، اربع على حساب القنابل اليدوية، اثنتين من شظايا اخرى – هذا يساوي عشرين ندبة تقريبا–، يمكن لي القول: كانت القصة تستحق!"

واختم هذه الجردة بضحكة رنانة، او لاقل بالاحرى، بضحكة كهولية وصبيانية على السواء. اما رمارك فكان جالسا منطويا على نفسه: "لا ارغب في التنافس. لقد اصبت مرة واحدة فقط. هذا يكفيني. وعلى العموم، لم اقم ببطولات اتفاخر بها. في اواخر الحرب كنت اعمل في المستوصف العسكري حصرا. وما شاهدته وسمعته هناك يكفيني كليا. ولا استطيع، باي حال، ان اتنافس مع زينة عنقك": من اجل الجدارة. "لكننا انهزمنا مع ذلك. ومن كل النواحي. حضرتك وامثالك افتقروا الى جرأة الاعتراف بالهزيمة، لا غير. وعلى ما يبدو، ما تزال هذه الجرأة الى اليوم عملة نادرة."

أكان هذا كل ما وجب قوله؟ كلا. بادر يوينغر برصد ضحايا وباء الانفلوينزا التي انتشرت في سنوات الحرب الاخيرة في المعسكرين المعاديين معا: "اكثر من عشرين مليونا ماتوا من الوباء، ويساوى عددهم تقريبا عدد الذين ماتوا من الجانبين في المعركة، وهؤلاء عرفوا على الاقل لماذا ماتوا!" فسأل رمارك بصوت يشبه الهمس: "بحق الله، من اجل ماذا؟"

بشيء من الحرج وضعت ساعتها الكتابين اللذين شاعت شهرتهما، على الطاولة وسألت المؤلفين تسجيل اهداء. فاستعجل يونغر بتوقيع مجلده مضافا العبارة: "لآنستنا الشجاعة"؛ اما رمارك فامضى اسمه تحت الاعتراف غير الملتبس: "كيف امسى الجنود قتلة."

الآن فقط، قيل كل شيء. افرغ السيدان كأسيهما. ونهضا بتزامن تقريبي، اذ كان رمارك اسرع بقليل. ثم انحنيا انحناءة قصيرة، متحاشيين المصافحة، وطلبا مني، بعد التكرّم عليّ بقبلة رمزية على اليد، ألاّ ارافقهما الى رصيف المحطة؛ فالاثنان مسافران بامتعة يد خفيفة وحسب.

بعد ذلك بخمس سنوات توفي السيد رمارك. اما يونغر فهو مصمم على ما يبدو الا يرحل قبل رحيل هذا القرن.

دبابات انكليزية: استعملت للمرة الاولى في المعركة بجوار نهر سوم عام ١٩١٦. تكثف استعمال الدبابات بين عامي ١٩١٧ و١٩١٨.

فرقة ريشتْهوفن... الطيار المقاتل الاحمر... السيد البارون: مانْفريد فون ريشتْهوفن (١٨٩٢ – ١٩١٨)، انجح طيار مقاتل الماني في الحرب العالمية الاولى (أنزل ٨٠ طائرة معادية.)

"من اجل الجدارة": وسام خاص يعود الى فريدْرش الثاني في بروسيا (١٧٤٠)، خصّص فيما بعد (بين ١٨١٠) و ١٩١٨ للضباط حصرا.

١٩١٩

هؤلاء اغنياء الحرب، اي نعم. كلهم بلا استثناء. خذوا هذا الذي جمّع الملايين بمادة غذائية ملقبة بـ براتولين، وهي من المفترض ان تكون نوعا من اللحم المفروم. لكنها لم تكن سوى مزيج مبروش من الذرة والبازلاء والشمندر. وبالطريقة نفسها صنعوا السجق. والآن يصيح مزيّفو السجق هؤلاء: انّنا خونة... وانّنا طعنا جنودنا بِخبث في الظهر... وقصدهم جبهة الوطن، ايّ كلّ الذين كانوا يصنعون عددا غير كاف من القذائف، وربّة البيت الالمانية ايضا... في حين ان زوجي الذي جنّدوه في النهاية لوحدات الهجوم البري، عاد من الحرب وله عاهة... وبناتي الضعيفات متن في موجة وباء الانفلوينزا... وأريش ايضا، اخي الوحيد، الذي كان محظوظا ونجا في البحرية من كل القصف والقتال في دوغربانك وسكاغراك... مات الآن في برلين على المتاريس، عندما دخل مع كتيبته دفاعا عن الجمهورية. ويقولون سلام ! لا يسعني إلاّ ان اضحك بمرارة! يا سلام على هذا السلام! والاشتباكات لا تزال دائرة! والشمندر ايضا. شمندر في الخبز، شمندر في الكفتة... قبل ايام صنعتُ حتى الحلويات من الشمندر ومن ثمر الزان المطحون... كان يوم الاحد وجاءنا بعض الزوار. والآن يأتينا هؤلاء الدجّالون، الذين باعوا لنا الطبشور المزوج بمواد معطرة باسعار فادحة وقالوا انه مرق لحم، ويكتبون في الجرائد عن الطعن في الظهر! لا! يستحقّون القتل والشنق! حتى نتخلص من كل هذه الموّاد البديلة. وماذا يقصدون بالخيانة؟ كل ما في الامر هو اننا ما عدنا نريد القيصر ولا الشمندر. ولا نريد ثورةً كلّ حين، ولا الخنجر من الوجه او من القفا. نريد كفاية من الخبز الحقيقي. لا نريد فروكس، بل المربّى الاصيل. ولا أيرول المزوج بالنشاء، بل البيض الحقيقي من الدجاج. ولا نريد بعد الآن خليطا مفروما ما، بل قطعة لحم حقيقية. هذا كل ما نريده، لا غير. ساعتها يعمّ اخيرا السلام. لذلك عبرتُ عندنا في برانْسْلاو عن تأييدي لقيام جمهورية المجالس... وذلك في المجلس النسائي للشؤون الغذائية. فوضعنا بيانا وطبعناه وعلقناه في

الشوارع كلّها. وصحتُ بالناس وانا واقفة على السلالم امام دار البلدية": يا ربّة البيت الالمانية! الآن يجب وضع حدّ للتدجيل ولمستغلّي الحرب واغنيائها. وما هذا الكلام عن الطعن بالظهر. ألم نناضل بدورنا طوال هذه السنين كلها على جبهة الوطن؟ منذ تشرين خمسة عشر بدأت الازمة بالمرغرين واكل الشمندر. وبعد ذلك ساءت الامور اكثر. لا! لا حليب، لكن حبوب حليب من دكتور كاروس. وجاءت علينا الانفلوينزا وحصدت حصادا غنيا كما قالوا في الجريدة. وبعد شتاء قارس فُقدت البطاطا من السوق ولم نجد إلا الشمندر. وقال زوجي عندما جاء في اجازة الى البيت: "طعمه مثل الاسلاك الشائكة." والآن بعد ان هرب فِلْهِلْم بثروته كلها وراح الى هولاندا ليقعد في قصره، الآن يتّهموننا – نحن عناصر جبهة الوطن – بطعنة الخنجر... من القفا مثل الجبناء...

الهجوم البري: انظر هوامش ١٩١٠.

دوغربانْك: تلة رملية في البحر الشمالي. في المعركة البحرية قرب ذلك الموقع انتصر الانكليز على الالمان (١٩١٥).

سْكاغراك: رافد نهر يصب في البحر الشمالي في اسكانْدنافيا، موقع المعركة البحرية الوحيدة الكبيرة في الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٦ بين الاسطول الالماني والاسطول البريطاني الكبير. لم ينتصر فيها احد الطرفين على الآخر انتصارا واضحا.

بكتيبته دفاعا عن الجمهورية: بدأت ثورة كانون بتمرّد بحارة الاسطول البحري في كيل وفلْهلمسْهافن. ثم انتشرت الثورة في المدن الداخلية الكبيرة وتكوّنت فيها مجالس العمال والجنود. في ١٩١٨/١١/٩ أعلن في برلين اقالة القيصر فِلْهَلْم الثاني وفي اليوم نفسها صرح شايْدمان بقيام الجمهورية.

طعنة الخنجر: منذ خريف ١٩١٨ نشر اعداء الجمهورية ما اطلق عليه "اسطورة طعنة الخنجر" التي تقول ان الهزيمة غير عائدة الى ميزان القوى على الجبهات، بل الى تقصير "جبهة الوطن" التي اعلنت الجمهورية وطعنت بذلك الجيش المنتصر في الظهر.

جمهورية المجالس: سعت اقلية من مجالس العمال والجنود الى تطبيق مبدأ المجالس كنظام سياسي في المانيا كلها. حسب هذا المبدأ يكون للمجالس المنتخبة سلطة غير مقيدة على جميع الاصعدة (سلطة تشريعية وتنفيذية وقضائية.)

وهرب فِلْهَلْم...: ذهب فِلهلم الثاني عام ١٩١٨ الى المنفى الهولاندي (انظر ١٩٢٦).

١٩٢٠

بصحتكم، ايا السادة! بعد اسابيع مريرة، لنا ان نحتفل فرحين. ولكن قبل ان ارفع الكأس، اسمحوا لي ان اقول مستهلا: اين يكون الرايخ من دون سكة الحديد! اخيرا حصلنا عليها. هذا ما نصّ عليه بوضوح الدستور الغامض في سائر القضايا: إن مهمة الرايخ هي أن... والسادة الرفاق الذين لا يهتمون كثيرا بالوطن عادة، هم من اصرّوا على ذلك. إن ما فشل فيه يومها الرئيس بسمارك، وما لم يتسن لجلالته انجازه، وما كلّفنا ثمنا غاليا في الحرب – لان سكة الحديد لم تكن موحّدة وافتقرت غالبا الى قطع الغيار لقطاراتها المختلفة الاحجام والاشكال، بحيث ان الامدادات بالجنود والذخيرة الناقصة في معركة فردون لم تصل الى هدفها – إن هذا التقصير، ايها السادة، الذي حرمنا الانتصار على الارجح، عولج الآن على يد الاشتراكية. واكرر، إن الاشتراكيين، وما غيرهم، الذين كانوا على استعداد لخيانة تشرين، هم الذين ضمنوا تنفيذ هذا المشروع الجدير بالاشادة، وإن لم يحقّقوه بانفسهم. وأسألكم، ماذا أفادنا افضل شبكة لسكة الحديد، ما دام بافاريا وساكسونيا رافضين – ولنقل صراحة – رافضين لكراهيتهم لبروسيا، ان يوحّدوا اخيرا على مدى الرايخ اجمعه، ما هو وحدة، لا بارادة الله وحده، بل لاسباب العقل ايضا؟ لذلك كنتُ اردد قولي: على خطوط سكة الرايخ الحديدية وحدها، سيخرج القطار نحو الوحدة الحقيقية. أو كما قال غوته متنبّئا بحكمة: "ما يعرقله عناد الامراء، ستصلحه سكة الحديد..."– إلاّ انه كُتب علينا ان تكتمل نكبتنا بمعاهدة السلام المفروضة علينا، التي تنص على تسليم ثمانية آلاف قاطرة وكذا الف من عربات الركاب والشحن الى يد العدو النهمة بلا حياء، قبل ان يتسنى لنا ان نعقد، بامر من هذه الجمهورية المشبوهة، مع بروسيا وساكسونيا، مع بافاريا وهسن، مع مكلنبورغ – شويرين وأولدنبورغ، اتفاقية دولة يتولى الرايخ بموجبها سكك حديد البلدان كلها التي كانت، على فكرة، غارقة في الديون. مع العلم ان كلفة الشراء كانت ستساوي مبلغ الديون، لو لم يأت

التضخم في العملة ليهزأ من كل حساب. لكني، اذ اتطلع الآن الى العام عشرين وأقف امامكم بكأسي المرفوعة، يمكن لي القول براحة بال: أجل، ايها السادة الكرماء، منذ ان زوّدنا قانون سكة الرايخ الحديدية برأسمال مشبع من المارك، تجاوزنا الارقام الحمراء وبتنا قادرين على توفير ربح نسدد به مبالغ التعويضات الحربية التي نطالب بها بوقاحة، وبتنا قادرين حتى على التجدد، وبمساعدتكم الجديرة بالثناء، على الاصعدة كلّها. وإن أُطلق عليّ، بدءا سرّاً ومن ثم علنا، لقب "اب قاطرة الوحدة الالمانية"، فانّي كنتُ دائما على يقين من ان التوحيد في بناء القاطرات لا يمكن ان يتحقق إلاّ بتضافر القوى والقدرات -. من شركة هانوماغ التي تنتج علب الاقطاب/المحاور ومؤسسة كراوس وشركائه التي تنتج المقاود، وصولا الى مافاي التي تنتج أغطية الاسطوانات وبورسيغ التي توكلت التجميع... ان رئاسات هذه المصانع كلها، المجتمعة اليوم ها هنا في حلقة محتفلة، تفهم وتدرك تماما: إن قاطرة الرايخ الموحدة تجسد الى جانب الوحدة التقنية، وحدة الرايخ بعينه! لكن، ما إن بدأنا بالتصدير المربح - ومؤخرا حتى الى الروسيا البولشفية، حيث شهد البروفسور لومونوسوف الشهير خير شهادة للقاطرات التي ننتجها لقطارات الشحن الدائرة على البخار -، حتى تعلو الاصوات الاولى التي تؤيّد خصخصة سكة الحديد. يريدون الربح السريع. وتوفير اليد العاملة. وايقاف بعض الخطوط الجزئية غير المربحة على ما يزعمون. فلا يمكن لي إلاّ ان انادي محذّرا: قاوموا هذه البادرات فورا! مَن يسلّم سكة الرايخ الى ايدي خاصة، اي قلْ الى ايدي غريبة، واجنبية في النهاية، يضرّ بوطننا المسكين المذلول. اذ كما سبق لغوته، الذي نريد الآن ان نشرب نخب تنبّؤه الحكيم، ان قال لصاحبه اكرمان...

اين يكون الرايخ من دون سكة الحديد: في الاول من نيسان عام ١٩٢٠ تولّى الرايخ الالماني شركات سكة الحديد التابعة للبلدان وأسس سكة حديد الرايخ.

إن ما فشل فيه يوما الرئيس بسمارك: عام ١٨٧٥ محاولة لانشاء شركة وطنية لسكة الحديد، فشلت لان البلدان الالمانية رفضت التخلي عن سيادة شركاتها الاقليمية.

جلالته: القيصر فِلْهَلْم الثاني.

الاشتراكية: الديمقراطيون الاجتماعيون.

"خيانة تشرين": انظر هامش. ١٩١٩ لُقّب الديمقراطيون الاجتماعيون آنذاك غالبا بـ"خائني تشرين."

قال غوته متنبّئا بحكمة: عام ١٨٤٨ صدر المجلد الثالث لـ"احاديث مع غوته في سنوات حياته الاخيرة" التي دوّنها اليفه وسكرتيره أكرمان. في تاريخ ١٨٢٨/١٠/٢٣ تورد الملاحظة التالية: "من ثم تكلّمنا عن وحدة ألمانيا وتداولنا باي معنى هي ممكنة ومحبذة. فقال غوته: "لا خوف عندي ألاّ تتحد المانيا؛ سيكون لشوارعنا الجيدة وسكك حديدنا المقبلة نصيبها في ذلك..."

معاهدة السلام المفروضة علينا: معاهدة سلام فرساي التي تتضمن بندا حول ذنب الحرب المنسوب الى ألمانيا حصرا وبنودا اخرى حول دفع التعويضات والتنازل عن بعض الاراضي. ورأى الرأي العام في المانيا ان هذه المعاهدة غير عادلة.

لو لم يأت التضخم...: ان سعر الشراء البالغ ٣١ مليون مارك فقد قيمته بسبب التضخم الشديد عام ١٩٢٣.

قانون سكة الحديد: صدر في ١٩٢٤/٨/٣٠ واعطى لسكة الحديد سيادة اكبر.

"اب قاطرة الوحدة الالمانية": ريشارد باول فاغنر، رئيس مصلحة تجريب القاطرات في برلين.

بروفسور لومونوسوف: رئيس اللجنة الروسية التي قامت عام ١٩٢٢ بفحص القاطرات الالمانية.

عزيزي بيتر بانتر، انّي امتنع عادة عن كتابة رسالة قارئة. لكن خطيبي الذي يقرأ كل ما يقع بين يديه، وضع لي مؤخّرا بعض القطع الهزلية من تأليف حضرتك تحت صحن البيض على طاولة الفطور. فضحكتُ عند قراءتها من كل قلبي، مع العلم انّي لم افهم الملاحظات السياسية تماما. لسانك حاد فعلا وتتمتع بروح الدعابة. ويعجبني هذا كثيرا. لكنك لا تفهم شيئا عن الرقص. فما ذكرتَه حول رقص الـ شيمي كاتبا ان الراقص وضع "يديه في جيبي السروال"، هو خارج الموضوع تماما. قد يرقص المرء الـ فوكستروت والـ وان ستب بهذه الطريقة لكن الـ شيمي؟ ان هورست ابرهارت الذي يعمل في البريد، كما ذكرتَ في مقالتك – لكن ليس مستشارا بل على الشباك –، والذي تعرفتُ اليه العام الماضي في مرقص فالتر للشيمي، يرقص معي الـ شيمي على كل حال باليدين، إن تلاصق الجسمان ام تباعدا. ويوم الجمعة الماضي اصرّ على ان نتزين بلبس انيق، وكان اجري الاسبوعي كافيا لشراء زوج جوارب – ولعلّي في الحقيقة الآنسة بيزنوانغ التي تهزا منها وتتندر – فرقص معي في قصر الادميرال، حيث اقيمت مسابقة رقص، آخر رقصة جاءتنا من امريكا على اصولها، اعني الـ تشارلستن،... هو في البدلة المستأجرة وانا في الاصفر المذهب، عارية الركبتين.

لكنها لم تكن مع ذلك "رقصة حول العجل الذهبي!" فحضرتك، عزيزي السيد بانتر، على خطأ بهذه الملاحظة. إننا نرقص للمتعة وحسب. حتى في المطبخ على صوت الغراموفون. فذلك في دمنا. وفي غير محل ايضا. في البطن وصولا الى الاكتاف. حتى في الاذنين اللتين تنبئان عند عزيزي هورست ابرهارت عن رأسه، كما لاحظتَ في مقالتك بحقّ. فمهما كانت الرقصة، شيمي ام تشارلستن، القصة ليست قصة رجلين. ياتي الرقص من الداخل ويجتاح الجسم من صوب الى صوب. في موجات فعلية من اسفل الى اعلى. وصولا الى جلدة الرأس. حتى الارتجاف جزء من الرقص ويسعد الواحد قليلا. لكن اذا كنت جاهلا السعادة،

اعني سعادة اللحظة، فلماذا لا تأتي وتأخذ عندي دروسا مجانية كل ثلاثاء وسبت في مرقص والتر.

هذا وعد شرف! لا تخف. سنبدأ على مهل. نرقص اولا الـ وان ستب الى الامام والى الوراء، لكي نحمى. انا ساقود وانت تنقاد هذه المرة استثنائيا. انها مسألة ثقة. والقصة اسهل مما تبدو. بعد ذلك نجرّب لحن ما وجدتَ غير الموز! ولك ان تغنّي لحن الاغنية خلال الرقص، فهذا يفرح القلب. واذا لم ينقطع نفسك بعد هذه الجولة، ولم يمانع عزيزي هورست ابرهارت، فسنرقص، نحن الاثنين، رقصة تشارلستن على الاصول. وهي مهلكة للرجلين في البداية، لكنها تحمّي وتحمس. وعندما نتحمس تماما، سافتح لك خصيصا علبتي الصغيرة. لا تخف! رشة واحدة لا غير. ليس للتعود والادمان. للمرح وحسب، بشرفي!

يقول عزيزي هورست ابرهارت، على فكرة، انك تكتب عادة تحت اسم مستعار. حينا تمضي بانتر، حينا نمر، وحينا آخر السيد فروبل. وهو قرأ في محل ما انك يهودي بولوني قصير وبدين. وهذا لا يؤثر. اسمي ينتهي ايضا بحرفي كي، والبدن عادة من افضل الراقصين. واذا كنتَ يوم السبت القادم في جو الضيافة وصرف الاموال وفي افضل مزاج من النواحي الاخرى، فسنفتح على الاكيد زجاجة او زجاجتين من الشامبانيا. وساخبرك كيف تسير الامور في بيع الاحذية، فاني اعمل بائعة في محلات لايزر... في القسم الرجالي. لكننا لن نتكلم على السياسة، اتفقنا؟

مع تحياتي القلبية، المخلصة إلزه لابنسكي.

بيتر بانتر: الاسم المستعار لـ كورت توخلسكي (١٨٩٠–١٩٣٥)، صحافي وأديب، عمل بين ١٩١٣ و ١٩٣٣في مجلة "فلتبونه" (حرفيا: مسرح العالم.)

شيمي: رقصة درجت في المانيا بين ١٩٢١ و ١٩٢٥.

قصر الادميرال: مسرح استعراضي معروف في برلين.

تشارلستون: رقصة درجت عند الزنوج في امريكا، انتشرت فيما بعد في اوربا.

"ما وجدتَ غير الموز": اغنية شيمي معروفة.

رشة واحدة لا غير: كوكايين، كان تناول القليل منه آنذاك موضة.

ماذا تريدون السماع منّي بعد؟ انتم، الصحفيون، ادرى بالموضوع على كل حال. تريدون الحقيقة؟ ما وجب قوله، قد قيل. لكن لا احد يصدّقني. "عاطل عن العمل وسيىء السمعة"، دُوّن في بروتوكول المحكمة. وقيل "إنه جاسوس، تيودور بروديغام هذا، يقبض اجرا من الاشتراكية ومن الرجعية ايضا." اي نعم، لكن الذين دفعوا، كانوا بعض العناصر من لواء ايرهارت. فحينما فشل انقلاب كاب فشلا ذريعا، واجبروا اللواء على الانحلال، كمّلوا هؤلاء الرحلة. فماذا كان يمكن لهم ان يفعلوا؟ وماذا يعني في هذا الصدد "غير مشروع"، اذا كان كل شيء تقريبا مخالفا للقانون ويهزأ منه، واذا كان العدو على اليسار، وليس على اليمين، كما قال الرئيس فيرتْ؟ لا، لم يكن القبطان ايرهْارت مسؤولا عن الاجور، بل القبطان هوفمان. وهو على الاكيد من منظمة قنصل. عند الاخرين لا يعرف الواحد تماما، لانهم لا يعرفون بدورهم من ينتمي الى المنظمة ومن لا ينتمي اليها... كان تيلسن يدفع ايضا مبالغ صغيرة... وشقيقه هو الذي اطلق النار على ارتْسْبرْغر وهو على نفس القدر من الكثلكة مثل ذلك المتربع في منصبه عن حزب الوسط والذي رحل الآن. اما يتلسن فيقعد الآن في المجر او يتخبأ في غير محل. لكن الذي وكّلني اصلا هو هوفمان. كلفني، لصالح منظمة قنصل، بالتجسس على بعض المنظمات اليسارية، وليس الشيوعية وحسب. وذكر لي على مرور الكرام مَن يكون التالي على القائمة بعد خائن تشرين ارتْسْبرْغر. بالطبع الاشتراكي شايْدهمان، و"سياسي التنفيذ" راتناو. وكان ثمة ايضا خطة بخصوص رئيس الرايخ فيرتْ. صحيح، انا الذي انذرتُ شايْدمان في كاسل. لماذا؟... لانّي على رأي انه يجب – لا بالقتل، بل بطرق مشروعة نسبيا، وبدءا ببافاريا – تفكيك النظام كله وقلبه وبناء دولة النظام الوطنية، كما يفعل موسوليني في إيطاليا، وعند الضرورة بالاعتماد على هذا العريف هتلر، وهو اخوت، لكنه وُلد ليكون خطابا للجماهير ويتمتع بشعبية متزايدة، خاصة في مونيخ. لكن شايْدمان ما كان يسمع مني. وعلى كل، لا يصدقني

احد. لحسن الحظ، ما نجحت العملية، لان الاعتداء عليه في غابة هابيشتْسفالد برش حامض بروسيك على وجهه كان فاشلا. نعم، حماه شارباه. يقع هذا غريبا على السمع، لكنه الحقيقة. ولذلك ما عادوا يستعملون هذه الطريقة. صحيح، اني وجدتها مقرفة. لذلك كنت اريد ان اعمل لشايْدمان وانصاره وحسب. لكن الاشتراكية ما صدّقوني، عندما قلتُ: وراء منظمة قنصل جيش الرايخ، قسم ادارة المخابرات... وهيلفريش بالطبع، فالتمويل من مصرفه... ومن شتينس، على كل حال. فهذه المبالغ عند امثالهم من أغنياء الدولة مثل البقشيش. كان على راتناو الذي انذرتُه ايضا، وهو رأسمالي بنفسه، ان يفهم ما يأتي. فمثلما مهّد هلفريش للاعتداء من خلال حملته "شيلوا ارتسبرغر"!، ولخّصه بالقول: "من كان مستعدا للتفاوض مع الفرنساوي فوش على وقف اطلاق النار المعيب، لم يكن إلاّ خائنا للوطن"، هكذا شتم راتناو ايضا، قبيل اطلاق النار عليه، واسماً اياه بانه "سياسي التنفيذ." لكن السيد الوزير لم يولني اي ثقة. ولم ينفعه انقاذا أنْ يطلب في اللحظة الاخيرة، عندما بدأت القصة تدور، حوارا مع هوغو شتينس على انفراد، اي من رأسمالي الى آخر... وبخاصة لكونه يهوديا. وحين كاشفته قائلا: "عليك خطر... انك معرّض للخطر خلال ذهابك الصباحي الى الوزارة"، رد عليّ بخيلاء ارستقراطية المال اليهودية: "ولكن، كيف لي ان اصدق ما تقول، يا سيد بروديغام الكريم، وانت، حسب تحقيقاتي، سيىء السمعة..." لا عجب، ان المدعي العام منع فيما بعد، اقراري شاهدا اثناء المحاكمة، لانه، على ما ادعى، "يشتبه بي في بالمشاركة في الجرم الذي تنظر فيه المحكمة." أكيد، كانت المحكمة تريد عزل منظمة قنصل عن القضية، وحماية المسؤولين خلف الكواليس وعدم جرّهم الى النور. فهكذا يُشاع في أسوأ الحالات همس حول منظمات قد تكون غير مشروعة... وحده هذا آل سالومون، وهو شاب غبي يتفاخر بكونه كاتبا، أفشى من كثرة ضيق الحال باسماء اثناء الاستجواب. لذلك حكموا عليه بخمس سنين، رغم انه لم يفعل شيئا سوى التوسط من اجل الحصول على السائق من هامبورغ. على كل حال، ذهبت تحذيراتي ادراج الرياح. وجرى كل شيء كما في قضية

ارتسْبرغر. منذ تلك الايام كان شباب اللواء مدرّبين تماما على الطاعة، فاستطاعت الـ م.ق. ان تسحب الفاعلين، شولتس وتيلسن، بالقرعة، وكان الباقي امرا محسوما. كما تعلمون من صحيفتكم الخاصة، لقطوه في منطقة الغابة السوداء، حيث قضى فترة استجمام مع زوجته وابنته. نصبوا له كمينا حين تنزّه في صحبة شخص اخر من الوسط. من بين الطلقات الاثنتي عشرة كانت واحدة قاتلة اصابته في الرأس. اما الشخص الآخر، الذي يُدعى دكتور ديتس، فنجا ببعض الجروح. بعد ذلك تنزّه الفاعلان براحة نفس كلية واكملا الرحلة الى بلدة أوبناو المجاورة حيث شربا القهوة في نزل صغير. اما ما لا تعرفونه، يا سادتي، فهو انه تم السحب بالقرعة في قضية راتناو كذلك، كما اعترف احد الفاعلين قبل الاعتداء امام قسيس. واخبر هذا الاخير بدوره الرئيس فيرت محافظا على سرية الاعتراف بعدم ذكر اي اسم من الاسماء. لكن راتناو لم يصدق اقوالي ولا اقوال القسيس... حتى رئاسة فرانكفورت لليهود الالمان لم تستطع ان تقنعه بأخذ الحذر، فرفض اي حماية من قبل الشرطة. على كل حال، كان يريد في الرابع والعشرين من حزيران ان يذهب بالسيارة المفتوحة كالعادة من فيلا غرونفالد الخاصة به في شارع كونغزْاليه في اتجاه شارع فِلْهلم. وهو رفض ايضا ان يسمع نصيحة سائقه. لذلك جرى كل شيء وفقا للمخطط. ففي شارع الملك اضطر السائق لتخفيف السرعة، كما يعرف الجميع، على تقاطع شارعي أردنر وليينار، لان عربة يجرّها حصان تجتاز الشارع، ولم يُستجوب سائقها على فكرة. من داخل سيارة مرسيدس بنتس أطلقت تسع رصاصات اصابت منها خمس. وعندما قطع المطاردون عن سيارته تمكنوا من القاء قنبلة يدوية. لم يكن يعمر صدور الفاعلين روح الجندية وحسب، بل كره لكل ما هو غير الماني ايضا. كان تيشوف يقود المرسيدس، واتقن كرن استعمال المسدس الرشاش. أما فيشر الذي لفظ روحه اثناء الفرار، فالقى القنبلة اليدوية. لكن ذلك كله لم ينجح إلاّ لان لا احد يصدقني، انا الشخص السيىء السمعة، الجاسوس بروديغام. بعد ذلك اوقفت منظمة قنصل دفعاتها، وفي العام التالي فشل زحف العريف هتلر على قاعة قواد الحرب

في مونيخ فشلا دمويا. وفشلت محاولتي لانذار لودنْدورف. رغم اني كنت ناشطا هذه المرة بلا مقابل، ولم يكن المال من اولياتي يوما. وهو يفقد، على كلٍّ، قيمته يوما عن يوم. كان همّي الوحيد بلدي ألمانيا... لانّي كنتُ وطنيا... لكن لا احد يريد ان يستمع اليّ. ولا حضراتكم...

تيودور بروديغام: انضم في فرانكفورت، بتكليف من قبل جريدة تابعة للحزب الديمقراطي الاجتماعي، الى فرقة محلية لمنظمة قنصل بهدف جمع المعلومات.

لواء ايرهارت: فرقة من المتطوعين أسّسها الضابط في البحرية هرمان ايرهارت.

انقلاب كاب: فولْفْغانغ كاب (١٨٥٨-١٩٢٢)-، مؤسّس حزب الوطن الالماني اليميني المتطرف، قام بالتعاون مع الجينرال لوتْويتس بمحاولة انقلاب على حكومة الرايخ في آذار عام. ١٩٢٠ فشل الانقلاب لرفض موظفي الوزارات التعاون مع المتآمرين وقيام المواطنين باضراب عام في المانيا كلها. لم تحاكم إلاّ قلة ممن قاموا بالانقلاب.

الرئيس فيرت، جوزف: (١٨٧٩-١٩٥٦)، منذ ١٩١٤ نائب عن الوسط الكاثوليكي في برلمان الرايخ، بين ١٩٢١ و ١٩٢٢رئيس الرايخ.

القبطان هوفمان: نائب هرمان ايرهْارت، (المذكور اعلاه) الذي صدر بحقه امر بالاعتقال.

منظمة قنصل (م ق): منظمة سرية معادية للجمهورية تشكلت لتكمل خطة اللواء ايرهْارت. يعود اسمها الى الاسم المستعار الذي استعمله ايرهْارت: القنصل هانس ايشمان.

تيلسن: كارل، رئيس فرقة م ق في فرانكْفورت، حُكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات، لانه لم يبلغ الشرطة بمحاولة اغتيال فالتر راتناو /. هاينْرِش، ضابط في البحرية، عضو في لواء ايرهْارت، حُكم عليه عام ١٩٤٧ بالسجن لمدة ١٥ سنة بسبب التورط في اغتيال ماتياس ارتسبْرغر.

ارتْسْبرغر، ماتياس: (١٨٧٥-١٩٢١)، منذ ١٩٠٣ نائب عن الوسط في البرلمان، شارك في اصدار قرار يطالب بالسلام، امضى عام ١٩١٨ بصفته سكرتير دولة اتفاقية الهدنة، بين ١٩١٩ و١٩٢٠نائب الرئيس ووزير المالية. اغتيل في ١٩٢١/٨/٢٦.

شايْدمان، فيليب: (١٨٦٥-١٩٣٩)، صحافي وسياسي (يمثل الحزب اليمقراطي الاجتماعي)، اول من كان رئيسا للوزراء في جمهورية فايْمار (عام ١٩١٩).

"سياسي التنفيذ": شتيمة لسياسة ويرت وراتناو اللذين سعيا الى تنفيذ معاهدة فرساي مع التأكيد على ان ثمة حدودا معينة لطاقة المانيا في دفع التعويضات .

راتناو، فالْتر: (١٨٦٧-١٩٢٢)، صناعي، كاتب، سياسي. انضم عام ١٩١٩ الى الحزب لديمقراطي الالماني اليساري الليبرالي واشترك كخبير اقتصادي في مؤتمر سلام فرساي. عام

١٩٢٢ وزير الخارجية.

العريف هتلر: انضم هتلر عام ١٩١٩ الى حزب العمال الالماني (منذ ١٩٢٠ حزب العمال الالماني الوطني الاشتراكي، وهو الحزب الفاشي)، تولى قيادة الحزب في صيف ١٩٢١.

هيلفريش، كارل: (١٨٧٢-١٩٢٤)، عضو في حزب الشعب الالماني الوطني، بين ١٩١٦ و ١٩١٧ نائب الرئيس.

"شيلوا ارتسبرغر!": صدر عام ١٩١٩، كتيب وسلسلة مقالات تتضمن اتهامات ضده.

فوش، فردينان: (١٨٥١-١٩٢٩)، مارشال فرنسي، عام ١٩١٨ القائد العام لقوات الـ انْتانْت، طالب في مؤتمر السلام بتوسيع الحدود العسكرية الفرنسية لغاية نهر راين.

سالومون، أرنْست: اشترك في انقلاب كاب. أُعتقل بعد الاعتداء في العاشر من آب.

شولتس، هاينْرش: ضابط، عضو في لواء ايرهْارت، حُكم عليه عام ١٩٥٠ بالسجن لمدة ١٥ سنة، بسبب التورط في اغتيال ارتسبْرغر. عُفي عنه بعد بضع سنوات.

الدكتور ديتس: كارل، نائب في برلمان الرايخ .

تيشوف، ارنست-فرنْر: يومها طالب من برلين، نجا من حكم الاعدام لكونه مجرد سائق خلال الاعتداء. لكنه نال العقوبة القصوى للمشاركة في الجريمة: السجن لمدة ١٥ سنة.

كرن، أرفْين: طالب من كيل، قُتل اثناء الفرار.

زحف العريف هتلر على قاعة قواد الحرب: في التاسع من تشرين الثاني عام ١٩٢٣ قمعت الشرطة مسيرة قادها هتلر ولودندْورف في جوار قاعة قواد الحرب في مونيخ. كانت خطتهما هي "الزحف على برلين" ومثالهما في ذلك ما قام به الفاشيون الايطاليون. ثم اراد هتلر اعلان "حكومة وطنية المانية موقتة."

١٩٢٣

اليوم تبدو لنا هذه الاوراق لطيفة. ويتمتع اولاد احفادي باللعب بها لشراء البيوت وبيعها، واني قد احتفظت ببعض الخِرَق التي عليها السنبلة والفرجار، اي العائدة الى ما قبل سقوط الحائط. لكن الاطفال يحسبونها اقل قيمة من الاخرى لانها غير مزينة بأصفار كثيرة، فيستعملونها كصرافة.

اما نقود التضخم فوجدتها بعد وفاة امي في دفترها للمحاسبة البيتية، ذلك الدفتر الذي اتصفحه الآن بافكار متضاربة، لانه يوقظ فيّ، لما يضمّه من اسعار ووصفات طبيخ، ذكريات محزنة ومثيرة على السواء. اي نعم، امي تعذبت على الاكيد. ونحن، البنات الاربع، سبّبنا لها، وإن بلا قصد، هموما كثيرة. كنت انا الكبرى بيننا. وبلا شك، كانت تلك الوزرة، التي كلفت اواخر عام اثنين وعشرين – كما اقرأ – ثلاثة آلآف وخمسمائة مارك، مخصصة لي، لاني كنت اساعد امي كل مساء في تقديم الوجبات المعدة بخيال واسع الى المستأجرين عندنا. اما الفستان الفولكلوري الذي كلف ثمانية آلآف مارك، فارتدتْه اختي هيلده، وإن كانت تفضل الا تتذكر نقشته بالاحمر والاخضر. لكن هيلده التي قد هاجرت منذ الخمسينيات الى الغرب وكانت دائما طفلة عنيدة، تخلت في داخلها عن كل ما كان.

أي نعم، هذه الاسعار الفادحة الصارخة الى السماء... لقد ترعرعنا عليها. وكنا نغني في كمنْيتس، لكن على الأكيد في غير محل ايضا، اغنية اطفال يفرح بها اولاد احفادي الى اليوم:

مليون واثنين واربعة وخمسة
تسلق امي الفاصولياء
نصف الكيلو بعشرة ملايين
ومن دون لحمة أيضا!

وكانت الفاصولياء وجبتنا ثلاث مرات في الاسبوع، او العدس. لان الحبوب التي يسهل تخزينها ازدادت قيمة اذا ما اشتراها المرء، مثل امي مثلا، في الوقت

المناسب وقبل فوات الاوان. ويمكن القول نفسه بصدد الـ كورند بيف الذي تراكمت علبُه المجمعة في دزينات عديدة في خزانة المطبخ. وهكذا كانت امي تطبخ للمستاجرين الثلاثة ملفوفا وفطائر محشوة بالـ كورند بيف. وكان عليهم ان يدفعوا يوميا، لانّ الاسعار تقفز الى اعلى يوما عن يوم. لحسن الحظ كان لاحد المستأجرين الذي كنا نسميه، نحن الاطفال، العم ادي، وهو عمل قبل الحرب الاولى مضيفا على بواخر ركاب فخمة، احتياط من الدولارات الفضية المخزونة في كيس صغير. وبما ان العم ادي كان، بعد موت ابي المبكر، قريبا من امي، فاني اجد في دفتر المحاسبة البيتية اشارات الى ان الدولار الامريكي كان يساوي في البداية سبعة آلاف وخمسمئة وفيما بعد عشرين مليونا واكثر. لكن قبل النهاية، حين رنّت في كيس العم ادي قطع فضية قليلة، بلغت قيمة التبديل – امر لا يُصدّق! – عدة بلايين. على كل، كان العم ادي يزوّدنا بالحليب الطازج، بزيت كبد الحوت و بحبوب القلب لامي. واحيانا، لما كنا نحسن السلوك، كافأنا بالبسكويت على الشوكولا.

لكن احوال الموظفين الصغار، وبخاصة الذين كانوا يعيشون على المساعدات والصدقات، كانت رديئة جدا. وكان من سابع المستحيلات ان تؤمن امي معيشتنا بما يحقّ لها كارملة من تعويض عن تقاعد ابي الموظف. وفي كل محل متسولون وشحّاذون ومشوّهون من الحرب. لكن السيد هاينْتسه الذي سكن في الطابق السفلي وورث بعيد الحرب إرثا لا يستهان به، اتبع في الظاهر نصيحة مفيدة. فاستثمر ثروته في شراء اربعين هكتارا من المراعي والاراضي الزراعية، وعمد الى تأجير حقوله للفلاحين الذين دفعوا له بدلات الايجار بضائع. وعلى ما يُروى، كانت غرفته ملآى باللحوم المبخرة او المجففة التي ابدلها فيما بعد بلفات من القماش: جوخ وغابردين. فيومها كانت النقود تتألّف من الصفر حصرا، وروُّج في كل محل ما لقب بـ نقود الضيق، وعندنا في ساكسونيا طُبعت "نقود الضيق" حتى لشراء الفحم... وحين حصلنا اخيرا على المارك الحقيقي، استطاع السيد هاينْتسه ان يفتح تجارة بأقمشته. اي نعم، هو رتّب اموره!

لكن السيد هاينْتسه لم يكن، على ما اظن، من اغنياء الحرب، كما اتّهمه الناس. كان لهؤلاء اسماء اخرى... والعم ادي الذي كان منذ تلك الايام شيوعيا، ورتّب اموره فيما بعد في دولة العمال والفلاحين هنا في مدينة كارل ماركس، كما لقبوا كمْنيتْس يومها، كان يعرف ان يهجّيء أسماء هؤلاء الرأسماليين جميعا، او"اسماك القرش تحت قبعاتها السوداء"، على حد قوله. ومن الافضل له ولامي، على الارجح، انهما ما عاشا زمن العملة الغربية. وهكذا ليس عليهما ان يحملا همّا حول ما سيحدث حين يأتينا الـ يورو.

الخِرَق التي عليها السنبلة والجردل: اوراق نقدية من عهد ج أ د (المانيا الشرقية.)

نقود التضخم: اوراق نقدية صدرت غالبا عن البلديات وتساوي ورقة نقدية واحدة منها الملايين او المليارات (سمّيت ايضا نقود الضيق.)

كمْنيتس: مدينة في شرق ألمانيا، سمّيت بين ١٩٥٣و١٩٩٠مدينة كارل ماركس.

"نقود الضيق": حين تدهورت قيمة المارك في صيف ١٩٢٣، عمدت المصانع والشركات الى طباعة نقودها الخاصة التي كانت تساوي كمية معينة من بضاعة ما، وعلى سبيل المثال، كمية من الفحم.

تحدّد التاريخ الكولومبوسي. في النهار عينه كان علينا ان نقلع. مثلما انطلق عام ١٤٩٢ الرجل من جنوة الى الهند وابحر مع الاشارة "اطلقوا الحبال – "! لكن متجها الى امريكا في الواقع –، هكذا اردنا، وإن بادوات اكثر دقة، ان نقوم بالمجازفة. في الحقيقة كانت سفينتنا الهوائية على استعداد في قاعة مفتوحة في صباح الحادي عشر من تشرين الاول. على متنها وقود لمحركات خمسة من نوع مايْباخ واثقال مائية في كمية كافية محسوبة بدقة. الطاقم مهيأ والحبال في ايديهم. لكن LZ 126 لم تكن تريد الاقلاع، بل صارت ثقيلة وظلت على حالها، لان الضباب الممزوج بكميات هوائية ساخنة تدفّق فجأة ناحيتنا واثقل على منطقة بحيرة بودن كلها. واذ امتنع علينا ان نخفف من الاثقال او الوقود، تأجل الاقلاع الى الصباح التالي. فتعذبنا في تحمل تهكم الجمهور المنتظر. انطلقنا أخيرا في الثاني عشر.

تألف الطاقم من اثنين وعشرين رجلا. لامد طويل ظلت مشاركتي كميكانيكي من الامور غير المحسومة، اذ حُسبت واحدا من اولئك الذين دمروا سفننا الهوائية الحربية الاربع الاخيرة التي تمت صيانتها في فريدريشسْهافن قبل تسليمها الى العدو، في عملية احتجاج وطني. وذلك على منوال ما جرى لاكثر من سبعين سفينة من اسطولنا الحربي، بينها دزينة من البوارج والسفن، التي قُرر تسليمها لـ الانكليزي، فأغرقها شبابنا امام شاطيء سكابا فلو.

في الحال طالب الحلفاء بالتعويض. اراد الـ امريكي ان يقبض منا اكثر من ثلاثة ملايين مارك ذهب. اذ ذاك اقترحت شركة زبلين محدودة المسؤولية الغاء الديون كلها في حال سلمت سفينة هوائية مبنية حسب آخر المستوى التقني. وبما ان الجيش الامريكي اهتم بموديلنا الاخير الذي يسع لسبعين الف متر مكعب من غاز الهيليوم، اهتماما يمكن وصفه باكثر من حيوي، فان الصفقة الدنيئة نجحت فعلا: LZ 126 ستُنقل الى ليكْهورست وتُسلّم فور الهبوط.

وهذا بالذات ما كان في نظر الكثيرين، بما فيهم انا، عارا حقيقيا. أ لم نتذلل بما

فيه الكفاية؟ ا لم تثقل علينا معاهدة السلام المفروضة على الوطن باوزارها الباهظة؟ وكنّا، اعني بعضنا، نميل الى فكرة نسف هذه الصفقة الرديئة من اساسها. وكان عليّ ان اصارع نفسي طويلا الى ان استطعت ان انظر الى المشروع نظرة فيها القليل من الايجابية. ولم يُسمح لي بالمشاركة في الرحلة الا بعد ان وعدتُ الدكتور أكنر، الذي كنا نحترمه قبطانا وانسانا، باني سامتنع عن اي تخريب.

كانت LZ 126 ذات جمال لا تشوبه شائبة فلا ازال اراها في خيالي الى اليوم. رغم ذلك سيطرت فكرة التدمير على وجداني منذ البداية، حين كنا ما زلنا فوق القارة الاوربية، محلقين فوق قمم الـ كوت دور على ارتفاع لا يزيد عن خمسين مترا. لم يكن معنا اي ركاب، مع ان السفينة مجهزة لاستقبال ديزنتين منهم براحة وفخامة، بل رافقنا عدة افراد من الجيش الامريكي فقط، الا انهم كانوا يحرسوننا على مدار الساعة. لكن، عندما تعرضنا فوق الشواطيء الاسبانية قرب رأس أورتيغال لهبات هواء مفاجئة وزمجرت السفينة ورجرجت بشدة، حين كانت كل يد مشغولة في الحفاظ على الاتجاه الصحيح واضطر افراد الجيش نصب اهتمامهم الى الملاحة، كان من الممكن نظريا القيام باعتداء. كان سيفي بالغرض ان نلقي بعضا من علب الوقود فنضطر الى هبوط اضطراري فوري. وخالجتني هذه الفكرة المغرية مرة اخرى حين كانت جزر الازور اسفلنا. ليلا ونهارا ساورتني الشكوك، ورأيت نفسي في صراع وابحث عن فرصة. حتى حين ارتفعنا فوق ضباب نيوفوندلاند الى ألفي متر او حين انقطع فيما بعد سلك من الاسلاك بسبب العاصفة، كنت اريد ان أذود عنا عار تسليم LZ 126 الذي اقبل علينا بالتدريج، لكنّي اكتفيت بالفكرة.

ماذا دفعني الى التردد؟ ليس الخوف، بلا شك. ففي مجريات الحرب فوق لندن كنتُ، ما إن تلقط الاضواء الكاشفة سفينتنا الهوائية، معرضا لخطر الانزال طوال الوقت. لا، لا اعرف الخوف... وحدها ارادة الدكتور اكنر شلّتني، الا انها لم تقنعني. فهو أصرّ، رغم تعسف القوى الظافرة وانفها، على ان يقدّم البرهان على قدرة الانجاز الالمانية، حتى لو جاء هذا البرهان في هيئة "سيجار" سموي متلألىء

فضي. ولهذه الارادة انصعتُ اخيرا وقبلتُ التنازل الكلي. فاي تعطيل تافه، او رمزي، لن يغير الكثير، والامريكيون ارسلوا لنا طرّادين كنا على اتصال لاسلكي دائم بهما. وفي حال اي طارىء سيهرعان لانقاذنا، وليس في حال الرياح القوية وحسب، بل في حال اصغر حادث تخريب ايضا.

اليوم فقط، بتّ اعرف ان تنازلي عن الفعلة المحرِّرة كان صحيحا. لكن يومذاك لما اقتربت LZ 126 من نيويورك، لما حيانا في الخامس عشر من تشرين الاول وسط ضباب الفجر تمثالُ الحرية ونحن نتجه صعودا الى الباي، لما بتنا نشاهد في الاسفل اخيرا المدينة الكبرى بسلسلة قممها من ناطحات السحاب، فاستقبلتنا كل المراكب والسفن الراسية في الميناء بمزاميرها العالية، لما حلقنا مرتين ذهابا وايابا فوق الـ برودْواي على ارتفاع متوسط، لنرتفع من ثم الى ثلاثة آلاف متر، كي ينطبع في أذهان اهل نيويورك كلهم صورة قدرة الانجاز الالمانية المتألقة في ضوء الشمس الصباحي، لما انعطفنا اخيرا في اتجاه لاكهورست وامامنا ما يكفي من الوقت لنغتسل ونحلق بما تبقى من احتياط الماء، ونحضر أنفسنا للهبوط والاستقبال ونرتدي لباس البرّ الانيق، كان يملأني الاحساس بالفخر، بالفخر الشديد.

وفيما بعد، بعد ان انتهينا من عملية تسليم السفينة المحزنة وبات اسم سفينتنا التي كنا نفتخر بها ايما افتخار: لوس أنجلس، شكرني الدكتور اكنر مؤكدا انه شاطر صراعي. قال: "نعم، أعرف. يصعب علينا الانصياع للامر الداخلي الملحّ الذي يطالبنا بالحفاظ على الكرامة." يا ترى، ما كان احساسه، حين اشتعلت، بعد ذلك بثلاثة عشر سنة، اجمل ثمرة للرايخ المتعافى من جديد، سفينة هنْدنْبورغ الملآى، لا بالهاليوم – للاسف – بل بغاز الهيدروجين السريع الاشتعال، عند هبوطها في لاكْهورست؟ أكان متيقنا مثلي: إنه تخريب! والفاعلون هم الحمر! لم يترددوا طويلا. فكرامتهم لم تنصع لأمر آخر.

التاريخ الكولومبوسي: وصل كولومبوس في ١٢/١٠/١٤٩٢ الى جزيرة من جزر البهاماس.

سكابا فلو: نصّت معاهدة فرساي على تسليم الاسطول البحري الالماني الى بريطانيا. اما قائد

الاسطول الذي اوصله الى القاعدة البريطانية سكابا فلو قرب جزر أوركْناي، فاعطى الامر باغراقه لئلا يقع في ايدي البريطانيين.

الدكتور أكنر، هوغو: (١٨٦٨– ١٩٥٤)، صحافي، منذ ١٩٠٥ معاون الدوق زبلن، شارك عام ١٩٠٩ في تأسيس ترسانة السفن الهوائية، خلف زبلن بعد وفاته ١٩١٧، قام برحلة الى القطب الشمالي في سفينة هوائية (١٩٣١).

هندنْبورغ: الى ذلك الحين اكبر سفينة هوائية، سُمّيت على اسم رئيس الرايخ باول فون هندنبورغ. ادت الحادثة الى ازمة ثقة في السفن الهوائية واوقف انتاجها.

١٩٢٥

كان بعضهم لا يرون فيّ سوى الطفل المزعج المشاكس. لم تنفع لتهدئتي اي وسيلة من الوسائل المعهودة. حتى مسرح الدمى، الذي صنع ابي خلفيته الملونة ونصف دزينته من الدمى بِحبٍّ وخيال، لم يفد لتسليتي. كنت اولول بلا انقطاع. وما من جهد افلح في اطفاء ضجتي المستمرة المتزايدة حدتها حينا، والهابطة شدتها حينا آخر. لا اساطير جدتي ولا لعب الطابة مع جدي، ولا شيء منعني من النقنقة والتبكّي واثارة اعصاب عائلتي وزوارها بمزاجي الدائم التعكر وخنق احاديثهم الدائرة بثبات على مواضيع الذهن والروح. صحيح انه امكن رشوتي بالشوكولا – من نوع لسان القط – لمدة خمس دقائق، لكن لا شيء، ما عدا ذلك، استطاع ان يسكتني ويهدّئني لمدة يُذكر، كما كان يهدّئني في السابق صدر الام وحليبه. وكنتُ امنع بسلوكي ايضا ان ياخذ شجار الوالدين مجراه الطبيعي.

لكن، أخيرا، وقبل ان نصير اعضاء يدفعون بدلات الاشتراك لهيئة اذاعة الرايخ، توفّقت عائلتي، بواسطة جهاز استقبال كشاف وزوج من السماعات، في تحويلي الى طفل صامت، منطو على نفسه. حدث ذلك في منطقة اذاعة برسْلاو، حيث كانت الشركة المساهمة الساعة الاذاعية تقدم قبل الظهر وبعده برامج متنوعة. سرعان ما تعلمتُ السيطرة على ازرار الجهاز القليلة، ضامنا استقبالا خاليا من التوترات الجوية وسائر المؤثرات الصوتية الجانبية.

كنت استمع الى كل شيء. الى قصيدة كارل لوفه "الساعة"، الى صوت التينور المتألق يان كيبورا، الى ارنا زاك السموية. ومهما قُدم من برامج، من قراءة فالدمار بونزلز من "النحلة زينة" الى النقل المباشر المشوق لسباق مراكب التجذيف، فانّي كنتُ دائما اذنا صاغية. اما محاضرات بعنوان "ما يجب معرفته حول النجوم" او حول عافية الفم، فساهمت في تكوين ثقافتي المتعددة الوجوه. مرتين يوميا استمعت الى تقارير البورصا، فعلمتُ بنهضة الصناعة الاقتصادية؛ وكان ابي يصدّر الآلآت الزراعية. وقبل عائلتي، التي تفرغّت بعد صمتي كليا لشجاراتها

الدائمة والمبدئية، سمعتُ بنبأ موت أبرت وبعد ذلك بقليل بانتخاب القائد الاعلى هندنْبورغ خليفا له في منصب رئيس الرايخ في الدورة الانتخابية الثانية فقط. لكن برامج الاطفال التي جال فيها بطل الاساطير روبهتْسال الجبال المحلية وادخل الرعب في قلوب الفحّامين المساكين، وجدت فيّ ايضا مستمعا كثير الامتنان. كنتُ اقل اعجابا باقزام برنامج ليلة سعيدة. واستوحى الشرق والغرب من شخصيات الاقزام المجتهدة فيما بعد بطلا لبرنامج تلفزيوني محبوب سمّي في قسمي ألمانيا معا رجيل الرمل. لكن المفضلات عندي كانت البرامج الدرامية العائدة الى زمن رواد الاذاعة. وفيها تصفر الرياح، وتدق قطرات المطر سقوف البيوت بواقعية، ويدوّي الرعد ويصهل جواد الفارس، ويصرّ الباب وينقنق طفل، كما كنتُ انقنق بنفسي في السابق.

وفي معظم ايام الربيع والصيف نُقلتُ مثل قطعة من الفرش الى البستان الملاصق للفيلا. فوجدت هناك ايضا الرضاء التام بفضل الراديو الكاشف وانا اتثقّف انن وسط الطبيعة. لكن اصوات العصافير المتعددة لم تصلني من السماء او من اغصان اشجار الفواكه المنتشرة في البستان، بل بالاحرى نقل لي الدكتور هوبرتوس، المقلد العبقري لاصوات الحيوانات، زقزقة السنونو والحسون والدُجّ والشحرور. لا عجب ان شجار اهلي، الذي تفعّل وتفاقم الى ازمة زوجية، ظل بعيدا عني. وهكذا لم يكن الطلاق بينهما حادثا شديد الوقع عليّ، اذ بقي لامي ولي الفيلا في ضواحي برسْلاو مع الجنينة وجميع المفروشات، بما فيها جهاز الاستقبال والسماعات ايضا.

كان جهازنا الكاشف مجهزا بمقوٍّ للتردد الخفيف. واشترت امي قطعتين لحماية الاذنين يخففان الضغط المزعج عنهما. لكن بعد ذلك بامد حلّت اجهزة اخرى بمكبرات صوت محلّ كاشفي المحبوب. وكان لدينا جهاز نقّال بخمس صمامات من شركة بلاوبْونْكت. صحيح اننا توسعنا في الاستقبال الى اذاعة كونغزْوسترهاوزن والحفلات الموسيقية في ميناء هامبورغ وكوروس الصبيان في فيينا، لكن فرادة الانصات بالسماعة فاتتني.

كانت اذاعة شليسفْيغ، على فكرة، الاولى التي ادرجت اشارة الاستراحة بثلاث دقات موسيقية محببة. وبعدها اعتمدت الاشارة في المانيا كلها. لا احد سيندهش اني بقيت مخلصا للاذاعة – اعني مهنيا. وهكذا توليت، خلال الحرب، كتقني اذاعي بثّ البرامج المحبوبة من البحر الجليدي الى البحر الاسود، من سد المحيط الاطلسي الى الصحراء الليبية، واثناء أعياد الميلاد على سبيل المثال: صور معبرة عن الاجواء على الجبهات كلها. وحين دقت لنا ساعة الصفر، تخصصت في الاذاعة الالمانية الشمالية الغربية في مجال الدراما الاذاعية، وهو نوع على وشك الانقراض الآن، في حين ان سماعات طفولتي تستعيد اليوم محبوبيتها عند الشبيبة: انهم يستعملون "سدّادة الاذن"، منطوين على انفسهم، غائبين عن العالم، ومع ذلك حاضرين فيه تماما.

هيئة اذاعة الرايخ: قامت منذ ايار ١٩٢٥ بالاشراف على تنظيم الاذاعات الاقليمية وبرامجها.

جهاز استقبال كشاف: راديو صغير ورخيص.

كارل لوفه: (١٧٩٦–١٨٦٩)، مؤلف موسيقي، ألّف موسيقى للعديد من القصائد.

فالدمار بونْزلز: (١٨٨٠–١٩٥٢)، كاتب، "النحلة زينة" او في الاصل الالماني "النحلة مايا ومغامراتها" كتابه الاكثر شهرة.

"ما يجب معرفته حول النجوم" او حول عافية الفم: انتجت مدرسة هانس بريدو عددا كبيرا من تلك البرامج في العشرينيات لتكون نوعا من مدرسة شعبية اذاعية.

أبرت، فريدرِش: (١٨٧١–١٩٢٥)، محرر، منذ ١٩١٢ نائب في برلمان الرايخ، بين ١٩١٣ و ١٩١٩رئيس الحزب الديمقراطي الاجتماعي. عند اندلاع ثورة تشرين اوكل اليه الامير ماكس رئاسة الرايخ. تعرض خلال عهده كرئيس (بين ١٩١٩) و١٩٢٥الحملات عنيفة من قبل اليمين.

هندنبورغ، باول فون: مشير سابق، كان الشخصية الرمزية الشعبية لليمين حين استلم الرئاسة بعد ابرت. أُعيد انتخابه كرئيس عام ١٩٣٢ ففاز على منافسه هتلر.

البرامج الدرامية: بُثّت التمثيلية الاذاعية الاولى في المانيا في اوائل عام ١٩٢٥ من برلين.

اذاعة كونغزْوسترهاوزن: اول اذاعة المانية انشئت عام ١٩٢٠ في مدينة كونغزْوسترهاوزن الواقعة قرب برلين.

ساعة الصفر: تسمية للفترة ما بعد الاستسلام.

الاذاعة الالمانية الشمالية الغربية: انشأتها قوات الاحتلال البريطانية عام. ١٩٤٥ تفرعت عنها عام ١٩٥٥ الاذاعة الالمانية الشمالية والاذاعة الالمانية الغربية.

١٩٢٦

خططتُ لوائح الشطب بيدي. حين رأى جلالة القيصر نفسه مضطرا الى المغادرة الى المنفى، كنت منذ البداية مسؤولا عن الحفاظ على النظام: اربعة خطوط عمودية يقاطعها خط افقي. منذ ان نزلنا في مقرنا الاول في هولاندا حبّذ جلالته ان يقطع الاشجار بيده، ومن ثم يوميا في قصر دورن الواقع وسط الغابات. وكان تدوين القوائم نشاطا جانبيا لي، اذ كنت في الاساس مسؤولا عن صيانة العربات في المستودع. ومهما ساء الطقس، كان جلالته ينشر فيه معي، او احيانا مع معاونه السيد آل إلزمان، جذوع الاشجار المقطوعة، لتكون كل قطعة منشورة بطول كلافتر واحد، فتفيد احتياطا للمدافيء في الدار الرئيسة وفي الـ اورانْجري الذي استعمل بيتا للضيافة. لكنه تولى لوحده قطع الاخشاب المنشورة الى قطع خشب صغيرة، وبالطبع بيده السليمة. في الصباح الباكر، فور الانتهاء من الصلاة التي كان يحضرها مع جمع الخدم، كان، حتى لو مطرت الدنيا، ينطلق الى الغابة. وذلك، يوما بعد يوم. لكن قطع الشجر كان قبل ذلك الوقت ايضا من الوسائل المفيدة للترويح عن النفس القيصرية، آنذاك، في اواخر تشرين الاول، في اركان الحرب في شبا، حين قطع رزق لودنْدورف، إن صحّ التعبير، وحل محله الجينرال غرونر. لا ازال اسمع كلام جلالته، وهو يشتم في المستودع اثناء عملية النشر والقطع: "هذا اللودنْدورف هو المذنب!" وكل من كان مسؤولا غيره عن وقف اطلاق النار وما حدث بعده. الحمر بالطبع. لكن الامير ماكس آل بادن، وجميع الوزراء والدبلوماسيين ايضا، وحتى ولي العهد نفسه. واراد جلالته يومها ان ينزع وسام النسر الاسود الكبير عن امير البحر الاعظم تيربْيتس. لكن مستشاريه، وعلى رأسهم صاحب المشورة، اقنعوه بالعدول عن القرار والاكتفاء بالانذار. لكن جلالته كان مع ذلك كريما في توزيع الاوسمة، وغالبا مفرطا فيه ايضا، إن سُمح لي بهذه الملاحظة، وعلى سبيل المثال، حين امّه الزوّار بعد نشر الخشب وتقطيعه مباشرةً، ومنهم عدد من المتزلفين الذين تخلّوا عنه فيما بعد. على كلٍّ، جرت الامور

هكذا اسابيعَ وشهورا.

وبما ان ترتيب القائمة كان من مسؤولياتي، فاني استطيع ان أؤكد ان جلالته القيصرية قد قطع بعد مرور عام على الاقامة تحت المظلة الهولاندية في امرونْغن، بضعة آلآف من الاشجار. وحين سقطت في دورن الشجرة رقم اثنا عشر الفا، عمد الى نشرها شرائح مستديرة والى الامضاء على كل شريحة منها بحرف W كبير. فصارت هذه الشرائح الخشبية المضاة من هدايا الضيافة المحبوبة. لا، لم انل حظوة مثل هذا الاعطاء المشرِّف.

اي نعم! اثنا عشر الف شجرة واكثر. احتفظتُ بقوائم التشطيب. نعم، للايام القادمة، حين ستبعث القيصرية وتفيق المانيا اخيرا. ويحق لنا على الاقل الامل والامور تتحرك حاليا في الرايخ. فلذلك، ولذلك وحده، يصرّ جلالته على الاستمرار. وحين رفض الشعب مؤخرا في استفتاء نزع ملكية الامراء، واستلمنا، نحن الذين كنا نقطع الخشب، رسالة بالنبأ المقتضب والنتيجة المفرحة، زاد الامل وكبر بحقٍّ. على كلٍّ، اعلن جلالته القيصرية عفويا: "اذا نادى بي الشعب الالماني، فانّي أكون على الفور مهيّئا!"

في آذار، حين قام الرحّالة والمكتشف الشهير سفْن هادن بزيارة لجلالته، شجّع الباحث القيصر الذي سمح له بحضور حفلة قطع الشجر الصباحية، ايما تشجيع، قائلا: "من يحصد باليد اليمنى وحدها جذعا بعد جذع، يمكن له ايضا ان يعيد النظام الى المانيا." ثم روى عن رحلاته الى تركستان الشرقية، الى تيبت والى الصحراء غوبي. في الصباح التالي اكّد جلالته للسويدي، بين شجرة واخرى، كم كان يكره الحرب ويتمنّى ان يتفاداها. ويمكن لي ان اشهد على ذلك. كان يردد لنفسه ايضا، وخاصة خلال تقطيع الخشب الصباحي: "كنت لا ازال في رحلتي الصيفية الى النرويج، في حين ان الفرنسيين والروس كانوا على تأهّب والبنادق في الايدي... كنت معاديا للحرب كلّيا... اردتُ دائما ان يُنظر اليّ اميرا للسلام... لكن، اذا دعت الضرورة... ولم يكن اسطولنا محتشدا... لكن الانكليزي كان راسيا قرب سبِتْهاد... اجل، محتشدا والمحركات دائرة... كان عليّ ان ابادر..."

بعد ذلك تطرّق جلالته غالبا الى معركة مارن. فلعن الجينرالات، وبخاصة فالكَنْهايْن. وكان يحبّذ عموما ان يخفّف عن نفسه اثناء تقطيع الخشب. كل ضربة – ودائما باليد اليمنى السليمة – اصابة دقيقة. وبخاصة اذا دارت الملاحظات على تشرين ثمانية عشر. في الاول انهال على النمساويين مع قيصرهم المرتد كارل، ثم زحف على المتكاسلين خلف الجبهة، وتناول بدايات التمرد ورفرفة الاعلام الحمر في القطارات التي تنقل الجنود من الجبهة الى الوطن للاجازة. وكذلك اتّهم بين ضربة واخرى الحكومة، وفي رأسها الامير ماكس: "هذا المستشار للثورة.!" ثم جاء، بينما تكبر كومة الاخشاب المقطّعة، على ذكر الاستقالة المفروضة عليه. صاح: "لا! أنصاري بعينهم اجبروني على ذلك، ومن ثم الحمر... هذا الشايْدمان... لم اتخلّ عن الجيش، بل الجيش تخلّى عنّي... كانت العودة الى برلين ممتنعة... جسور الرايْن كلها تحت المراقبة... لو جازفتُ لوقعتْ الحرب الاهلية... او لوقعتُ بين ايدي العدو... لكانت نهايتي مزرية... او لكان عليّ ان اطلق رصاصة على نفسي... لم تبق إلاّ خطوة عبور الحدود..." هكذا ننشغل، يا سيدي، والايام تمر. يبدو جلالته القيصرية غير مصاب بالتعب او الكلل. لكنه يقطع مؤخّرا في صمت. واعفاني من واجب الاهتمام بلوائح الشطب. لكن، في البقع الخالية من الاشجار في جوار دورن تنبت سنة عن سنة مزروعات جديدة، خشب طري، سيكون جلالته مستعدا لقطعه، حين يؤون الاوان.

جلالة القيصر: وِلْهَلْم الثاني.

قصر دورن: قرب مدينة أوتريخت، اشتراه القيصر عام ١٩١٩.

بيده السليمة: كانت يد فِلهَلْم اليسرى مشوّهة منذ الولادة.

شبا: بلدة استجمام في بلجيكا. عام ١٩١٨ مقر قيادة الجيش العليا.

الجينرال غرونر، ولهلم: (١٨٦٧–١٩٣٩)، خليف لودنْدورف في قيادة الجيش، شارك مع أبرت في منع قيام جمهورية المجالس، دعم عقد معاهدة فرساي، في اوائل الثلاثينيات وزير الدفاع والداخلية.

ماكس ال بادن، الامير ماكسيميليان الكسندر فريدرش فِلهلم: (١٨٦٧–١٩٢٩)، موقتا رئيس الرايخ في. ١٩١٨ سلّم بضغط من قيادة الجيش العليا طلبَ الهدنة الى الحلفاء. عمل على

الاصلاح ومارس ضغطا لاستقالة لودنْدورف.

تيربِتس: انظر هامش ١٩١٠.

وسام النسر الاسود الكبير: أعلى وسام بروسي، يعود الى عام ١٧٠١. وحين رفض الشعب مؤخرا في استفتاء نزع ملكية الامراء: في ثورة تشرين تم مصادرة ملكية الامراء الالمان. ثم استعاد الامراء السابقون ملكيتهم على مرور السنين او حصلوا على تعويضات كبيرة. بعد فشل قانون ينص على نزع الملكية بلا تعويض في عام ١٩٢٦، سعي الحزبان الديمقراطي الاجتماعي والشيوعي الالماني الى اجراء استفتاء في المسألة. صوّت للقانون حوالي ١٥ مليون ورفضه ٦٠٠ الف فقط. بالرغم من ذلك لم يُقبل القانون لان الاقبال استلزم اكثرية الاصوات، اي حوالي عشرين مليونا.

سڤن هادن: (١٨٦٥–١٩٥٢)، سويدي، باحث ورحّالة مختص في آسيا. اجتمع في آذار عام ١٩٢٦ بالقيصر وقطع معه الحطب.

معركة مارن: بالمعركة قرب نهر مارن (بين صيف وخريف) ١٩١٤ انتهى التقدم الالماني نحو باريس. وانتقلت الحرب من مرحلة حرب التقدم الى حرب المواقع.

فالكنْهاين، أرِش فون: (١٨٦١–١٩٢٢)، بين ١٩١٣و١٩١٥وزير الحرب في بروسيا، بين ١٩١٤ و١٩١٦رئيس اركان حرب الجيش. فشلت استراتيجيته الساعية الى حسم الحرب على الجبهة الغربية (خلافا لـ هنْدنْبورغ ولودنْدورف) عام ١٩١٦.

تشرين (الثاني) ثمانية عشر: ثورة تشرين.

مع قيصرهم المرتد كارل: تفاوض القيصر كارل النمساوي مع دول الـ أنْتانْت حول سلام فردي من دون علم حلفائه الالمان. اضطر الى الاستقالة عام ١٩١٨، شأنه شأن القيصر فِلْهلم الثاني.

١٩٢٧

لغاية منتصف تشرين الذهبي ظلت أمي حاملا بي. لكن، عند الإنعام في النظر تبدو سنة ولادتي وحدها ذهبية، بينما تتلألأ سائر سني العشرينيات التي سبقتها او التي تلتها، تلألؤا باهتا او تحاول ان تطلي حياتها اليومية بالوان صارخة، في احسن الاحوال. لكن، ما الذي اضفى على سنتي بريقها؟ أهو مارك الرايخ الذي بات يومها ثابتا؟ ام "كون وزمان" - كتابٌ نزل الى السوق بتفخيم لفظي سام، بحيث أنّ كل صحفي شابّ بدأ يَتَهَيْدغَرُ بين السطور على حسابه؟

ويجب الاقرار: بعد تضخم وجوع وحرب تركت على كل تقاطع وزاوية مشوّهين وطبقة وسطى جانحة الى الفقر، امكن الاحتفال بالحياة بوصفها "إلقائية" او الثرثرة عليها، على كأس من الشامبانيا او من الـ مارتيني على الاقل، بوصفها "كونا للموت." لكن هذه الالفاظ المفخّمة المرتقية الى اوج وجودي لم تكن ذهبية باي حال. ويمكن القول بحظ اوفر من المصداقية ان صوت التينور ريشارد تاوبْر كان ذهبيا. وامي التي أحبتّه عن بُعد ما إن دار الغراموفون في غرفة الجلوس، كانت تردّد بعد ولادتي وطوال حياتها - لم تكبر امي كثيرا - الحانا من اوبريت تساروفيتش التي احتفلوا بها يومها على كل المسارح: "جندي على شاطىء الفولغا..." او "أنسيتني ايضا في اعاليك..." او "لوحدي، لوحدي من جديد..." وصولا الى الخاتمة الحلوة المرة: "إنّي في القفص الذهبي..."

لكن ذلك كله لم يكن سوى غبار الذهب وطلائه. اما الذهب الاصلي فكنتَ تشاهده لدى بنات الاستعراض، وفيهن حصرا. حتى عندنا في دانتسغ قدمن عروضهن في اللباس المزركش المتلألىء. ليس في مسرح المدينة، انما في كازينو تسوبوت. لكن ماكس كاورْ، الذي احرز مع وسيطته زوزي بعض النجاح كعراف وساحر في عروض المنوعات، ودار على العواصم الاوربية مزيّنا حقيبته بملصقات فنادقها، ماكس كاورْ الذي خاطبتُه فيما بعد، لصداقته الطويلة مع شقيق ابي منذ ايام المدرسة، بـ عموّ ماكس، كان يهزّ الكتفين متعبا حين دار الحديث على بنات

الاستعراض اللواتي مررن بمدينتنا قائلا "تقليد من ارخص نوع!"

ويقال انه صاح، لما كانت امي حاملا بي، "ينبغي أن تأتوا لزيارتنا في برلين. عندنا على طول شيء مثير!"، وهو يقلّد باصابع الساحر الطويلة وبإيماءات مستعارة من تشارلي تشابلن، سيقان البنات الرشيقة في فرقة تيلر غيرلز. وكان على علم دقيق بافخاذ البنات، مدعيا انها "مشدودة تماما." ثم تكلم عن "الدقة الايقاعية" و"الساعات اللامعة في قصر الادميرال"، ذاكرا اسماء مؤطرة بالذهب للمساهمين في الاستعراضات: "لو تشاهدوا كيف تحوّل تروده هسْتِربْرغ المنعشة للقلب مع فرقتها الصغيرة لصوص شيلر الى رقصة جاز هزلية." وكنا نسمعه يمدح الـ تشوكْلات كيديز الذين شاهدهم في الـ سكالا او في قصر البستان الشتائي. "وقريبا ستأتي جوزفين باكر الى برلين لتقديم عروضها... هذه المرأة المتكاملة الانوثة الحيوانية. الإلقائية راقصةً، على حد قول الفيلسوف..."

ونقلت اليّ امي التي احبّت ان تعبّر عن اشواقها، حماس العم ماكس: "وعلى العموم، ترقص برلين كلها، ترقص فقط. يجب أن تأتوا حتما، وتشاهدوا استعراض هالر الاصلي، مع لا جانا راقصة امام ستارة مزركشة ذهبية." ثم عاد باصابع الساحر الماهرة الى السيقان الطويلة لبنات تريلر. وعلى الارجح ابتسمت امي الحامل بي وقالت: "بعد حين، ربما، لما تتحسن احوال المحل." لكنها لم تصل يوما الى برلين.

مرة واحدة لا غير، في اواخر الثلاثينيات، وقد خبت من زمان آخر ومضة لغبار الذهب، مرة واحدة تركت امي محل البقالة ووصلت الى جبال زالتسْكامرغْوت خلال "رحلة قوةٍ بفضل الفرح." وساد هناك الفرح والسراويل الجلدية. ورقصو ايضا، انما الفولكلور الاصيل.

أمي، هيلينه غرْاس: (١٨٩٦–١٩٥٤)، والدة المؤلف.

مارك الرايخ: العملة الالمانية منذ عام ١٩٢٤.

"كون وزمان": من الاعمال الاساسية لفيلسوف الكون (او الكينونة) مارتين هايدْغر (٨٨٩ ١٩٧٦). عمل استاذا في جامعة فرايبُورغ ابتداء من عام ١٩٢٨.

يَتَهَيْدغَرُ: يحاكي اسلوب هايْدغر الفريد في استعمال الالفاظ الفلسفية.

ريشارد تاوبر: (١٨٩١–١٩٤٨)، منذ ١٩١٣ عضو في اوبرا درسدْن، هاجر عام ١٩٣٣ الى بريطانيا، نجم اوبريت ومغنٍّ لالحان موتسارت.

اوبريت تساروفيتش: لـ فرانتس ليهار، العرض الاول عام ١٩٢٧ في برلين.

كازينو تسوبوت، تسوبوت: بلدة استجمام على شاطئ بحر البلطيق، منذ عام ١٩٢٠ جزء من مدينة دانتْسِغ الحرة.

فرقة تيلر غيرلز: فرقة رقص من لندن مؤلفة من ٢٤راقصة، صارت اشهر فرقة استعراضية في برلين وانضمت اليها على مدار السنين راقصات ألمانيات.

تشابلن، تشارلي: (١٨٨٩–١٩٧٧)، ممثل بريطاني–امريكي، مؤلف سيناريوهات ومنتج.

قصر الادميرال: مسرح استعراضي في برلين، تولى ادارته هرمان هالر عام ١٩٢٣.

الـ تشوكْلات كيديز: استعراضات الزنوج، كانت محبوبة جدا عند الجمهور في برلين العشرينيات.

جوزفين باكر: (٩٠٦ –١٩٧٥)، مغنية وراقصة امريكية، اشتهرت بعروضها مع فرقة الرقص "بلاك بيرْدز" في باريس.

استعراض هالر: استمر كل عرض لموسم كامل امام قاعة ملأى، كانت استعراضات هرمان هالر (١٨٧١–١٩٣٤) الانجح في برلين.

لا جانا: من اشهر ممثلات الاستعراضات في برلين، مثلت فيما بعد في افلام استعراضية.

"القوة بفضل الفرح": منظمة نازية مختصة بتنظيم رحلات ونشاطات جماهيرية في اوقات الفراغ.

لكم ان تقرؤوا هذا كله. سجّلتُه لمستقبل اولاد أحفادي. فاليوم لا يعود يصدّق احد ماذا جرى يومها هنا في بارمبْك واينما كان. تقرؤونه وكأنه رواية، لكني عشتُ ذلك بنفسي. اي نعم... يومها صرت وحيدة مع ثلاثة صبيان وراتب تقاعد بسيط... دُفن زوجي تحت شحنة من صناديق البرتقال امام المستودع ٢٥ على رصيف الميناء محل ما كان يعمل عتّالا. وقيل في شركة البواخر إن الذنب ذنبه. فما حصلت على اي تعويض. يومها انضمّ ابني الاكبر الى الشرطة، قطاع ٤٦، ويمكن لكم ان تقرؤوا هنا: "لم ينضمّ هربْرت الى الحزب، لكنه انتخب دائما مرشحي اليسار..." لانّنا كنا في الحقيقة عائلة اشتراكية قديمة... ابي اشتراكي واب زوجي ايضا. ماذا أقول... حين بدأ هنا الشغب والهيجان، صار ابني الثاني يوخن فجأة شيوعيا للعظم، وانضمّ حتى الى رابطة مناضلي الجبهة الحمراء. وكان في الحقيقة انسانا هادئا جدا، يهتم بفراشاته وحشراته وحسب. وينقل بالمركب شحنات من الميناء الى حيّ المخازن. وفجأة صار متعصّبا. تماما مثل هاينْتس، ابني الاصغر فحين بدأت هنا واينما كان الانتخابات لبرلمان الرايخ، صار نازيا صغيرا حقيقيا ومن دون ان يخبرني بالامر على الاطلاق. نعم، فجأة جاء في لباس الـ س أ والقى الخطابات. بالاساس كان شابا فرحا ومحبوبا عند الجميع. اشتغل ايضا في مدينة المخازن، في تصدير البن. كان يهرّب لي احيانا كمية صغيرة للتحميص. فامتلأ المنزل كله بالرائحة التي تسرّبت حتى الى ادراج المبنى. وفجأة... مع ذلك ظلت الامور هنا هادئة في البداية. حتى ايام الآحاد، حين كان الثلاثة يجلسون على طاولة المطبخ وانا اقف امام الفرن. كان الاثنان يمزحان وحسب. واذا ما علت الاصوات قليلا ودقّت قبضة احدهما الطاولة، هدأ هربْرت الاجواء. فالاثنان كانا يسمعان كلمته، حتى حين كان في اجازة ولا يلبس بدلة الشرطة. لكن، بعد مدة بدأت هنا المشاكل... يمكن لكم ان تقرؤوا ما دوّنته بصدد السابع عشر من ايار، حين خسرنا رفيقين منّا، كليهما من عصبة الحماية للحزب الديمقراطي

الاجتماعي التي تؤمّن الحماية عند الاجتماعات وامام مقارّ الانتخابات. اغتالوا الاول منهما عندنا في بارمبْك والثاني في ايمْزبوتل: الاول الرفيق تيدهمْان... اطلق الشيوعيون عليه الرصاص من سيارتهم التحريضية. والثاني الرفيق هايدْورن... اجهز عليه رجال الـ س آ بكل بساطة، حين كانوا يلصّقون الملصقات على تقاطع شارعي بوندس وهوهه فايْده. يومها علا الصراخ على طاولة المطبخ. صاح يُوخن: "لا! بالبداية أطلقوا النار علينا، هؤلاء الفاشيون الاشتراكيون واصابوا في المعمعة واحدا من عندهم، هذا التيدهمْان..." فقاطعه ابني هاينْتس مزمجرا: "كان دفاعا عن النفس، دفاعا عن النفس، لا غير! هؤلاء التعساء من علَم الرايخ بدؤوا..." لحظتها قام ابني الاكبر الذي كان على علم بالتفاصيل من تقرير الشرطة، والقى بعنف جريدة "صفحة الشعب" على الطاولة. وجاء فيها – تفضّلوا اقرؤوا هنا... لصقتُ الخبر في الدفتر – إنّ المقتول تيدهمْان، ومهنته نجّار، اصيب برصاصة في اعلى رأسه. تبيّن من مخرج الرصاصة في اسفل الرأس ان الرصاصة اطلقت من موقع مرتفع... "... فاتضح تماما ان عناصر من الحزب الشيوعي اطلقوا عليه النار من فوق، وان رجال الـ س آ بادروا في أيمْزبوتل... لكن الوقائع لم تفد، والشجار على طاولة المطبخ استمرّ... لانّ ابني هاينْتس تلبّس الآن دور رجل الـ س أ وبدأ يشتم ابني الاكبر ملقّبا اياه بـ" شرطي خنزير"، مما دفع ابني الثاني الى ان يدافع عنه ويصرخ بوجه ابني هربْرت الشتيمة الغليظة الخبيثة "فاشي اجتماعي." لكن ابني الاكبر ظل هادئا، فهذا طبعه، واكتفى بالملاحظة التي دوّنتُها هنا: "منذ ان بلّدكم الرفاق في موسكو بقرار الكومنتْرن، ما عاد بامكانكم ان تميّزوا الاحمر عن البني..." وقال بعض الاشياء الاخرى، نحو إن الرأسمالي يضحك في غبّه شماتةً، حينما يتقاتل العمّال. فصحتُ من فرن المطبخ: "هذا صحيح تماما...!" أي نعم، وهكذا جرت الامور في النهاية، وهذا رأيي الى اليوم... على كلٍّ، بعد الليلة الدموية في بارمبْك و ايمزْبوتل، ما عاد الهدوء الى هامبورغ اطلاقا. ولا باي حال الى طاولة المطبخ... ما عاد الينا قليل من الهدوء إلاّ بعد ان ترك ابني يوخن الشيوعيين، وكان ذلك قبل ان يستلم هتلر الحكم... يومها امسى عاطلا عن العمل

بين ليلة وضحاها، فرَحل الى بينبرغ وانضمّ الى الـ س آ، فحصل على عمل في مخزن القمح. لكن ابني الاصغر الذي ظلّ نازيا في الظاهر، ازداد صمتا وما عاد فرحا على الاطلاق. وحين دقّت الساعة، راح الى البحرية في اكرنْفورده. لذلك خدم في الحرب على متن غواصة وما رجع الى البيت. اي نعم، وابني الثاني ايضا... راح الى بلاد بعيدة... الى افريقيا. لكنّه ما رجع. ما ظلت عندي سوى رسائله... كلها ملصّقة هنا. اما ابني الاكبر فظلّ في الشرطة ونجا. لكنه عاش امورا فظيعة ايضا... كان عليه ان يروح مع كتيبة الشرطة الى روسيا، وصولا الى أوكرانيا... غير انه ما تكلم عنها يوماً وانا ما سألت. كنت اعرف من دون سؤال ما قصتّه، ابني هربرْتْ... حتى النهاية... حين ترك في خريف ثلاثة وخمسين الخدمة في الشرطة، لانّه كان مصابا بمرض السرطان وله اشهر قليلة للعيش فقط... ترك لـ مونِكا، زوجة ابني، ثلاثة اطفال، اي نعم، ثلاث بنات... تزوجن من زمان ورزقن باطفال ايضا. لهم دوّنت هذا كله، للمستقبل... حتى اذا كان مؤلما، اعني تدوين كل ما حدث يومها... لا تخجلوا، تفضّلوا اقرؤوا.

بارمْبك: حي عمالي في مدينة هامبْورغ.

رابطة مناضلي الجبهة الحمراء: تأسست عام ١٩٢٤ كمنظمة لحماية الحزب الشيوعي الالماني. مُنعت عام ١٩٢٩.

انتخابات برلمان الرايخ: في الانتخابات الجارية عام ١٩٢٨ فاز الحزب الديمقراطي الاجتماعي، في حين ان الحزب الفاشي والاحزاب البرجوازية خسرت اصواتا.

س آ: مختصر لـ فرق الهجوم. وحدات مقاتلة ومحرّضة للحزب الفاشي. تأسست عام ١٩٢٠ كتنظيم لحماية القاعات عند الاجتماعات الحزبية. منذ ١٩٢١ تم تطويرها الى تنظيم قتالي شبه عسكري. تورطت فرق الهجوم اثناء المعركة الانتخابية عام ١٩٢٨ في اعمال العنف.

رجال علم الرايخ: تنظيم قتالي سياسي دعمه الحزب الديمقراطي الاجتماعي، تأسس عام ١٩٢٤ للدفاع عن جمهورية وايمْار.

أيمْزْبوتل: ضاحية عمالية في مدينة هامبْورغ.

تيدهمْان، هاينْرش: نجار، قتل في السابع عشر من ايار برصاصة في الرأس اطلقها احد الشيوعيين.

هايْدورن، هرمان: حداد، قتل في السابع عشر من ايار على يد احد الفاشيين.

"الفاشي الاجتماعي": من وجهة نظر الشيوعيين كانت الديمقراطية الاجتماعية توأم الفاشية. لذلك رفض الحزب الشيوعي الالماني التعاون مع الحزب الديمقراطي الاجتماعي لمكافحة الحزب الفاشي.

كومنْترن: مختصر للاممية الشيوعية (الثالثة.) بموجب قرار صادر عنها في ايلول توجّب على الحزب الشيوعي الالماني مكافحة الحزب الديمقراطي الاجتماعي.

١٩٢٩

وبين ليلة وضحاها صرنا كلنا امريكيين... اي والله، اشترونا بكل بساطة. لان ادام اوبل الكبير ما عاد موجود، والسادة الابناء ما عادوا يريدوننا. لكن شبابنا كانوا يعرفون الشغل على الناقل الآلي من زمان. كانوا كلهم يشتغلون بالمقطوعية. وانا بدوري، اشتغلت من قبل على الاجرة بالقطعة، حين كنا نصنع الضفدعة... سمّوها هكذا، لانها كانت خضراء: سيارة بمقعدين، خضراء كلها. وحين نزلوها الى السوق، صرخ الصبيان في الشوارع "الضفدعة.!" اي صحيح، منذ عام اربعة وعشرين تقريبا، صاروا ينتجون منها بالجملة. كنتُ اشتغل على خرط قطع للفرامل. للمحور الامامي. لكن، حين صرنا كلنا امريكيين في عام تسعة وعشرين، تحوّل الشغل كله الى عمل بالمقطوعية، وعند الضفدعة ايضا. فكان تركيب السيارة ينتهي بسرعة على الناقل الآلي. لا، لا، لم يكمل شبابنا كلهم الشغل على الناقل، لانهم صرفوا منهم قبل اعياد الميلاد تماما. وكان هذا فظيعا. كتبوا عندنا في "بروليت اوبل"، جريدة المصنع، ان الامريكيين سيعتمدون ما يسمّى بنظام فورد، مثلما يفعلون في وطنهم: كل سنة يصرفون عددا من العمال ويوظّفون الجدد، غير المتعلمين، باجور رخيصة. فهذا ممكن جدا، عند الشغل على الناقل الآلي وبالمقطوعية. لكن الضفدعة كانت ممتازة فعلا. بيعت مثل الخبز الساخن. مع ان خبراء العمل كانوا يهزؤون، قالوا إنها تقليد لسيارة سيتروين الفرنسية، مع الفرق الوحيد ان سيارتهم كانت صفراء. وراح الفرنسيون الى المحكمة ورفعوا دعوة للتعويض عن الضرر. لكنهم ما حصلوا على شيء... والضفدعة صارت تدور وتدور اينما كان في البلاد الالمانية. نعم، لانها كانت رخيصة. سيارة للناس البسطاء ايضا، وليس للطبقة المخملية او للذين عندهم سائق فقط. لا، انا ما اشتريتُ منها. كان كل همي الاطفال الاربعة والبيت الذي ما دفعت كل اقساطه بعد! لكن اخي الذي كان وكيلا للوازم الخياطة والخيوط، باع دراجته النارية التي كان عليه ان يسوقها مهما ساء الطقس، واشترى سيارة المقعدين من انتاجنا.

بلغت قوتها اثني عشر حصانا! هذا مدهش، أليس كذلك؟ كانت تستهلك خمسة ليترات فقط وتصل الى ستين كيلومترا. في البداية كلّفت اربعة آلاف وستة، لكن اخي حصل عليها بالفين وسبعة، لان الاسعار كلها كانت تنخفض والبطالة تتفاقم... لا، اخي ظل يدور في الضفدعة زمنا طويلا بعد. كان يضع حقيبة العرض في صندوقها ويتنقل باستمرار. نعم، وصل حتى الى كونْستانْس في الجنوب. والى هايلبرون وكارلسروهه في جولات تستغرق نهارا كاملا، ترافقه اليزبيت التي كانت يومها خطيبته. كانت احواله ممتازة في الزمن الصعب. أمّا انا، فكان عليّ ان اروح اختم، لاني صرت عاطلا عن العمل، مثل الكثيرين في روسلزْهايم وفي غير محل، وذلك بعد ان صرنا امريكيين بسنة واحدة. يا لتلك الايام، كم كانت صعبة! لكن اخي صحبني معه عدة مرات في جولاته المهنية، كسائق احتياط. مرّةً، رحنا بالضفدعة الى بيلفلد في الشمال، مكان مقرّ شركته. هناك رأيتُ الـ بورتا فيستفاليكا، وكم المانيا جميلة. ورأيت الموقع الذي انتصر فيه الشاروسكيون على الرومان في غابة توتهبْورغ. هناك جلسنا واكلنا العشاء. كان شيئا جميلا.... لكن ما عدا ذلك، ما كان عندي شغل كثير... مرّة اشتغلتُ لدائرة البساتين، ومرّة كمساعد في مصنع الاسمنت. وبعد الانقلاب، حين جاء آدولف، وجدتُ من جديد عملا عند أوبل. في البداية كنتُ في قسم الشراء والشكاوى، ثم في معمل التجريب لاني تدربتُ من زمان في المصنع عند آدام أوبل. أما أخي فظلّ يدور بـ ضفدعته لمدة طويلة. وبعد مدة، قام برحلاته كوكيل على الطرق السريعة الجديدة... الى ان أخذوه الى الجيش. فترك الضفدعة عندنا في المرأب، ليستعملها بعد الحرب. لكنها ما تزال هناك الى اليوم، لان أخي بقي في روسيا وانا لا استطيع ان اتخلى عنها. لا، ارسلوني الى ريغا فقط، فهناك كان مصنعنا للتصليحات. نعم، وبعد الحرب رجعتُ مع شغيلتنا فورا الى أُوبل. كانت امرا جيدا بانّنا صرنا امريكيين: في الحرب ما استهدفونا بغارات كثيفة وبعد الحرب ما فكّكوا المعمل. كان حظنا جيدا، أليس كذلك؟

آدام اوبل: (١٨٣٧–١٨٩٥)، أسس عام ١٨٦٢ مصنعا لماكينات الخياطة وبدأ ابناؤه بصناعة السيارات عام ١٨٩٨.

آدولف: هتلر.

اوتوستراد: انظر هوامش ١٩٣٥.

١٩٣٠

في جوار ساحة سافينغني، وتحديدا في شارع غرولمان، امام المدخل الى الميترو، يقع ذلك المحل المميز. كنتُ اتردد اليه بين حين وآخر ضيفا ناهلا من حنفية بيرة السيد فرانتس دينر، فاسمع ما يدور على طاولة الرواد الدائمين، التي تجمع مساءً شخصيات عاليات العيار، من احاديث ومناقشات مرحة ورطبة حول احداث صغيرة وكبيرة. من زار المحل كان يتوقع ان يصادف عند فرانتس – الذي كان في اواخر العشرينيات بطل المانيا في فئة الوزن الثقيل، قبل ان يخلعه ماكس شميلِنغ عن العرش – بين الضيوف الدائمين ملاكمين سابقين او ناشطين الى الآن. لكن ذلك التوقع لم يكن في محله. ففي الخمسينيات وفي اوائل الستينيات كانت حانته ملتقى لممثلين من الملهى والاذاعة، ولكتاب وشخصيات على بعض الغموض يزعمون انهم مثقفون. لذلك كانت الاحاديث لا تدور على نجاحات بوبي شولْتْس او هزيمته في المباراة مع جونسون، بل كانت نوعا من "طق الحنك" المسرحي، وعلى سبيل المثال، مضاربات ساخنة حول سبب وفاة غوستاف غروندْغن في الفيليبين البعيد او حول دسيسة من الدسائس في اذاعة برلين الحرة. وتدفّق هذا كله الى البار في موجات عالية النبرة. وعلى ما اذكر دار ايضا سجال حول "نائب" هوخْهوت... لكن، فيما عدا ذلك ظلت السياسة خارج بساط البحث، مع ان عهد آدناور جنح، على نحو ملحوظ، نحو نهايته.

تجلّت في وجه فرانتس دينر، مهما حاول لعب دور المضيف الخدوم، ملامح الملاكم المسدل عليها ستار من الكرامة والسوداوية. فاجتذب الناس الى الالتفاف حوله وهالة من التراجيدية الملغزة، الخالية من الادعاء، تحيط به. لكن، لم تكن الامور دائما على هذا النحو: تجذب رياضة الملاكمة الفنانين والمثقفين. لم يكن بْرشْت الوحيد الذي زاول شغفه برجال اقوياء القبضة ؛ التفّ حول ماكس شميلِنغ، قبل ان يرحل الى امريكا ويحتل هناك عناوين الصحف، اناس من المشاهير، بينهم الممثل فريتس كورتْنر والمخرج السينمائي جوزف فون شترنْبرغ،

وشوهد في صحبته الكاتب هاينْرش مان. لذلك امكن لزائر حانة فرانتس دينر ان يتأمل ما علّق على جدران الغرفة الامامية وخلف البار من صور فوتوغرافية: لا لملاكمين في الوضعية الاستعراضية المعروفة وحسب، بل بالاحرى لمشاهير الحياة الثقافية السابقين او المعروفين الى اليوم.

كان فرانتس من المحترفين القليلين الذين اجادوا استثمار ما جنوه من مسابقات الملاكمة بطريقة تؤمّن نوعا من الاستقرار. على كلٍّ، كانت حانته مزدحمة دائما. وظلت طاولة الدائمين المستديرة مشغولة غالبا الى ما بعد منتصف الليل بكثير. كان يخدم عليها شخصيا. لكن، إن دار الحديث، استثنائيا، على الملاكمة، فانه لم يتطرق الى انتصارات دينر على نوزل او على هوزر – كان فرانتس اكثر تواضعا من ان يطرح انتصاراته الخاصة في الحديث –، بل انه دار حصرا على الجولتين الاولى والثانية لـشميلِنغ ضد شاركي في العامين ثلاثين واثنين وثلاثين. يومها صار ماكس البطل العالمي في الوزن الثقيل، إلاّ انه كان عليه ان يتنازل عن اللقب قريبا. الى ذلك، دار الحوار على انتصاره في كليفْلاند على يانغ ستريبلِنغ، الذي تلقى في الجولة الخامسة عشرة الضربة القاضية. لكن هذه التأملات النوسْتالجية لسادة متقدمين في العمر، شغلت عادة فضاء خاليا من هواء سياسة تلك الاعوام: ولا كلمة حول حكومة برونِنغ وصدمة فوز النازيين في انتخبات برلمان الرايخ كثاني الاحزاب قوةً وبضربة واحدة.

لا اعود اذكر من طرح "كلمة السرّ" التي اشعلت النقاش: أكان الممثل أو. أ. هاسه الذي اشتهر يومها بدوره في مسرحية جنرال الشيطان، ام المؤلف السويسري المعروف منذ تلك الايام، دورنمات، الذي سافر بين حين وآخر الى برلين لحضور بروفات مسرحية؟ لعلّي طرحتُها بنفسي وانا جالس على البار... وهذا محتمل، لان محور السجال الذي اثارته "كلمة السر"، كان ذلك البث الاذاعي المذهل والمثير الذي نُقل في الثاني عشر من حزيران وامكن الانصات اليه عندنا في الثالث عشر، ابتداء من الساعة الثالثة صباحا، بفضل محطات الموجة القصيرة الامريكية؛ وانا كنت يومها تقنيا اذاعيا مسؤولا عن محطة اذاعة الرايخ في

تسيلِنْدورف. فضمنتُ بجهاز استقبال على الموجة القصيرة قد صنعناه يومها للتو، استقبالا بافضل نوعية ممكنة. كما امّنتُ سابقا نقل ملاكمة شميلِنغ ضد باوليني – وإن كان ذلك البثّ غير خال من التشويش –، وشاركت قبل ذلك كمساعد في نقل وقائع هبوط الزبلن الاول في لاكْهورست. تتبّعت يومها مئات الآلاف من المستمعين كيف قدّمت السفينة الهوائية LZ 126 استعراضها محلّقة ذهابا وايابا فوق مانْهاتن. لكن هذه المرة انتهت اثارة الاستماع بعد نصف ساعة فقط: في الجولة الرابعة أُستبعد شاركي، الذي كان الغالب طوال الجولات الثلاثة الاولى بفضل ضرباته الهادفة باليسرى، بعد ان انزل لكمة شديدة على معدة خصمه، اخطأت هدفها واصابت شميلِنغ اسفل المعدة فانزلته الى الارض فورا. بينما كان ماكس لا يزال يتمرّغ على الارض ألما، اعلنه حكم الحلبة بطلا جديدا للعالم. وهلّل له الجمهور، على فكرة، لانه كان حتى في ملعب يانكي نيويورك محبوب الجمهور.

وتذكّر بعضٌ على طاولة الدائمين في حانة فرانتس دينر النقل الاذاعي الذي كان ما يزال يرنّ في آذانهم. قالوا: "لكن شاركي كان الافضل بامتياز." فاحتجّ آخرون: "لا، ابدا. كان ماكس دائما يتأخر في الانطلاق، فيصل الى افضل حالته بدءا بالجولة الخامسة..." "صحّ. فحينما خسر ضد شاركي، بعد ذلك بسنتين، في خمس عشرة جولة قوية، احتج الجميع، حتى محافظ نيويورك نفسه، لان شميلِنغ كان بوضوح الافضل حسب النقط."

اما المباريات الاخرى "للقنبلة البنية –" انتصر ماكس في المباراة الاولى بعد اثنتي عشرة جولة بضربة قاضية، وانتصر جو لويس في المباراة الثانية منذ الجولة الاولى بضربة قاضية ايضا – فلم تُذكر إلاّ على الهامش، وكذلك نوعية نقلنا الاذاعي المتزايدة الجودة. فالسجال دار ساعتها بالاحرى على "الاسطورة شميلِنغ." قيل إنه لم يكن ملاكما كبيرا في الواقع، بل كان بالاحرى حاملا للتعاطف. وإن الكبير فيه حقّا تجلّى في شخصه، لا في قوة قبضتيه. وانه استفاد، وإن من دون قصد، من السياسة اللعينة في تلك السنوات: كان المانيا للعرض

والاستعراض. فلا عجب انه لم ينجح في العودة بعد الحرب، حين خسر ضد نوزل وفوغت في هامبورغ وبرلين.

وقتها قال فرانتس دينر الذي كان واقفا خلف البار وامتنع عادة عن التعليق على مباريات الملاكمة: "ما زلت افتخر باني خسرت لقب البطولة لـماكس، وإن كان يدير اليوم مزرعة دجاج."

بعد ذلك عاد الى تدبير حنفية البيرة وسائر اشغاله، يملأ الصحون بالبيض المخلل والكبّة مع الخردل، والكؤوس بالخمر حتى الشفة. وعلى طاولة الدائمين عاد الحديث الى "طق الحنك" حول المسرح، الى ان حكم فريدريش دورنمات على الحلقة بالصمت ليشرح للحاضرين فيها بلفّ ودوران متثاقل على منوال سكان برن، الكون بمجراته ونجومه وسنواته الضوئية. صاح: "إن أرضنا، اعني كل ما يزحف عليها ويحسب نفسه مهما، ليس اكثر من فُتة من الفتات!"، وطلب من البار مزيدا من البيرة لجميع من في الحلقة.

فْرانْتْس دينر: ملاكم الماني في فئة الوزن الثقيل، خسر لقب البطولة عام ١٩٢٨ لصالح منافسه ماكْس شمْيلِنغ.

ماكس شميلنغ: مواليد (١٩٠٥)، ملاكم في فئتي الوزن الثقيل ومتوسط الوزن الثقيل.

بوبي شولتس: مواليد (١٩٣٠)، ملاكم في فئة متوسط الوزن الثقيل.

اذاعة برلين الحرة: اذاعة تأسست عام ١٩٥٣.

هوخْهوت، رولْف: مواليد (١٩٣١)، كاتب، يتناول في "النائب. مأساة مسيحية" (١٩٦٣)" موقف الكنيسة الكاثوليكية من ابادة اليهود في الرايخ الثالث.

عهد آدناور: عهد رئاسة كونْراد آدناور (١٨٧٦-١٩٦٧) - صُرف عام ١٩٣٣ من منصبه كرئيس بلدية كولونيا لكونه معاديا للايديولوجيا النازية. بعد عام ١٩٤٥ من السياسيين الاكثر نفوذا في اعادة بناء المانيا الاتحادية. بين ١٩٤٩ و ١٩٦٣رئيس الحكومة الاتحادية.

برشْت، برتْولْت: (١٨٩٨-١٩٥٦)، اديب ومخرج ألماني. استقرّ بعد عودته من المنفى في برلين الشرقية، حيث أسّس مع زوجته هيلينه فايْغل "أنْسابل برلين."

هاينْرِش مان: (١٨٧١ - ١٩٥٠)، أديب، شقيق توماس مان، مُنعت أعماله عام ١٩٣٣. توفّي قبيل عودته من المنفى.

شميلِنغ ضد شاركي: أُستبعد جاك شاركي في الجولة الرابعة بسبب ضربة غير شرعية (نيو

يورك) ١٩٣٠. عام ١٩٣٢ خسر شميلِنغ في الجولة الخامسة عشرة حسب النقط. لكن النتيجة أعتبرت غير عادلة.

الانتصار في كليفْلانْد: عام ١٩٣١ استطاع شميلِنغ ان يحافظ على لقب البطل العالمي في الملاكمة ضد ولْيَم يانغ ستريبْلِنغ.

حكومة برونِنغ: هاينرِش برونِنغ (١٨٨٥-١٩٧٠)، سياسي من الوسط، عيّنه هنْدنْبورغ عام ١٩٣٠ رئيسا لحكومة الرايخ. بدأ في خريف ١٩٣٠ بالانتقال الى نظام الحكومة الرياسية معتمدا على قانون احوال الطوارئ. عزله هندنبورغ من منصبه عام ١٩٣٢.

انتخابات برلمان الرايخ: في ايلول ١٩٣٠، حصل الحزب النازي على حوالي ١٨ بالمئة من الاصوات (سبعة اضعاف النسبة السابقة) ١٩٢٨، والحزب الديمقراطي الاجتماعي على حوالي ٢٤ بالمئة (خسر اصواتا، لكنه ظل الاقوى)، والحزب الشيوعي على ١٣ بالمئة. اما وسط برونِنغ فحصل على حوالي ١٢ بالمئة فقط.

أو. أ. هاسه: (١٩٠٣-١٩٧٨)، ممثل مسرحي وسينمائي.

جنرال الشيطان: تمثيلية من تأليف كارل تسوكْمايْر (١٨٩٦-١٩٧٧)، العرض الاول عام ١٩٤٦ لعب هاسه دور الجينرال هاراس في العرض الشهير من اخراج بولسْلاف بارلوغ (١٩٤٨).

دورنْمات، فريدْرِش: (١٩٢١-١٩٩٠)، مسرحي وقاصّ سويسري.

الى هارتسْبورغ، الى براونْشفايغ، كان الشعار...

"جاؤوا من المناطق كلها. معظمهم بالقطار، اما نحن، الزملاء من فوغتْلاند، فجئنا بالسيارات، في قافلة طويلة..."

"ستنتهي العبودية! واعلام جديدة سترفرف! يأتون حتى من شاطيء البحر، من شاطيء بومرن، من فرانكن وميونيخ ومن بلاد راين، يقتربون بشاحنات وباصات ودراجات نارية..."

"وجميعهم في اللباس البني الفخري..."

"نحن، أعضاء الفرقة الثانية، انطلقنا بعشرين عربة من بلدة بلاون، ونحن نغني: إن العظام المتآكلة ترتعش..."

"مع الفجر غادرت فرقتنا غريميتشاو. في أجمل طقس خريفي اتجهنا الى لايبْتسيغ مرورا بـ ألتنْبورغ..."

"نعم، يا رفاق! لاول مرة شاهدت التمثال في سطوته كلها. رأيت شخصيات الابطال المتكئين على سيوفهم، وفهمتُ أن ساعة التحرير تدق لنا اليوم من جديد، بعد معركة الشعوب بمئة عام..."

"فلتنته العبودية!"

"تماما، يا رفيق! إن الوطن يجد نفسه أخيرا.... لا في برلمان الرايخ، ذلك المعقل للثرثرة الذي يجب حرقه، بل في شوارع ألمانيا..."

"لكن، بعد ان قطعنا جبال تورينغن اللطيفة، وعلى رأس القافلة رئيس الاقليم زاوكل، وبعد ان اجتزنا هاله وأيسلْبن – مدينة لوتر – دخلنا أشرسلْبن البروسية، حيث كان علينا ان نخلع قمصاننا البنية، ونلبس قمصانا بيضا، بلون الحياد، اذا أردتم..."

لان الاشتراكي ما يزال يمنع هناك..."

ومعهم هذا الكلب، وزير الشرطة. احفظوا اسمه: سيفيرينغ!"

"لكن في باد هارتسبْورغ، على اراضي براونْشفايغ، تحررنا من جديد من هذا الاكراه: آلآف وآلآف مؤلفة في اللباس الفخري البني..."

"مثلما حدث، بعد ذلك باسبوع، في براونْشفايْغ نفسها، حيث يضمن رجالنا قوة الشرطة فاحتشد اكثر من مئة الف في القمصان البنية بِنظام وانضباط..."

"هناك تطلعت الى عيني الفوهْرر"

"وانا ايضا، اثناء المسير!"

"وانا لثانية واحدة، لا بل للابدية..."

"ماذا تقولون، يا رفاق! يومها لم يعد هناك اي أنا، بل النحن الكبير وحسب... وهذا النحن كان يمر ساعة اثر ساعة بيد مرفوعة للتحية الالمانية... والجميع، جميعنا استوعبنا نظرته في بواطننا..."

"أحسستُ، وكأنْ تباركني عيناه..."

"كنا جيشا بنيا يمرّ. وعلى كل واحد منّا تخيّم نظرته..."

"وقبل ذلك تفقّد شخصيا العربات؟ والباصات والدراجات النارية المصفوفة في خط مستقيم، والتي جاوز عددها الاربعمائة، لان المستقبل يحتاج الى كتائب متحركة..."

"وعلى حقل فرانتس بارك من ثم الاعلام الجديدة، الاربعة والعشرين، بكلمات بدت وكأنها منحوتة من المعدن..."

"جاء صوته من المكبرات. فشعرنا وكأن القدر يلمسنا. وكأن المانيا النظام والانضباط تلك تريد ان تشرق لنا من البروق الفولاذية للحرب الكبرى. وكأن العناية تتكلم بلسانه. كان الجديد مصهورا من المعدن الخام..."

"ومع ذلك من يقول إن اتحادات موسوليني الفاشية سبقتنا الى ذلك كله. اي، بقمصانهم السود، وفرق الاقتحام.."

"كلام بدون طعم! اي واحد يمكن ان يرى انّ لا شيء فينا ولا شيء. نصلّي بالالمانية، نحب بالالمانية، نكره بالالمانية. ومن يعترض طريقنا..."

"لكن الى الآن ما زلنا في حاجة الى بعض الحلفاء، مثلما جرى في الاسبوع

الماضي، حين أسّسوا جبهة هارتسبْورغ وصار هوغنْبرغ بوطنييه الالمان المتراخين..."

"هؤلاء كلهم من أغنياء الدولة محدودي الافق، بقبعاتهم السوداء..."

هؤلاء من الامس ويجب أن يُزاحوا كلهم يوما ما، انصار الخوذة الفولاذية ايضا..."

"نعم، بالضبط، منّا وفينا، فينا وحدنا يتكلم المستقبل..."

"وحين رافقتْ فرق الـ س آ المتحركة الكتلَ البنية في قوافلها اللامتناهية وقادتْها من ساحة ليونْهارت في مدينة هاينرش الاسد لتعود الى مناطقها القريبة والبعيدة، حملنا معنا جميعنا تلك النار التي اشعلتها فينا نظرة الفوهرر، لتؤجّج وتؤجّج..."

الى هارتْسبْورغ، الى براونْشفايْغ: في تشرين الاول نظمت "المعارضة الوطنية" مظاهرة كبيرة في هارتْسبورغ للتأكيد على وحدتها. اشترك فيها الى جانب الحزب النازي فرق واحزاب يمينية متطرفة عديدة. بعد ذلك باسبوع واحد اقام الحزب النازي تظاهرة كبرى في براونْشفايْغ، اشترك فيها حوالي مئة الف وحصلت اثناءها اصطدامات عنيفة بين العناصر الفاشية وعناصر من الحزب الشيوعي، قُتل في مجراها شخصان وجُرح ٦٤ شخصا بجروح بالغة.

التمثال: تمثال معركة الشعوب.

رئيس الاقليم زاوكل، فرِتْس: (اعدام) (١٨٩٤-١٩٤٦)، مسؤول عن ترحيل اكثر من خمسة ملايين واجبارهم على الاعمال الشاقة.

سيفيرينغ، كارل: (١٨٧٥-١٩٥٢)، وزير الداخلية في بروسيا (عن الحزب الديمقراطي الاجتماعي.)

... رجالنا قوة الشرطة: كان الوزير المسؤول عن الشرطة في دولة برانْشوايغ الحرة عضوا في الحزب النازي. لذلك فتحت المدينة ابوابها لمظاهرة الفاشيين الذين "احتلوها" لمدة يومين.

هوغنْبرغ، ألفْريد: (١٨٦٥-١٩٥١)، مؤسس شركة قوية النفوذ في الاعلام الالماني، معادٍ للديمقراطية البرلمانية، رئيس احد الاحزاب اليمينية، تعاون مع احزاب اخرى معادية للجمهورية، عام ١٩٣٣ وزير الاقتصاد والتغذية.

الخوذة الفولاذية: "الخوذة الفولاذية – عصبة جنود الجبهة"، تجمّع أُسّس عام ١٩١٨، معادٍ للجمهورية.

هاينْرش الاسد: (١١٢٩-١١٨٠)، دوق حاد الانياب في ساكسونيا وبافاريا، كان مقره في مدينة براونْشوايْغ.

١٩٣٢

كان يجب ان يحدث شيء ما. فباي حال، كانت الامور لا يمكن ان تستمر بمراسيم للطوارىء وانتخابات جديدة بين كل حين وحين. لكن، من حيث المبدأ ما تغيّر الكثير الى اليوم. صحيح، يومها سمّوهم بلا مكسب واليوم عاطلين عن العمل، والفرق ظاهري. آنذاك ما كان يقول الواحد "اني بلا عمل"، بل "اني ذاهب لأختم." فبدا ذلك وكأن الواحد يقوم بنشاط ما. لا أحد كان يريد ان يعترف بانه بلا مكسب. ففي الامر عار. كنتُ اقول، على كلٍّ، إن سألني المعلم في المدرسة او غبطته فاتْسك في درس الدين، "أبي يروح يختم"، في حين ان حفيدي يعيش الآن بكل راحة "مسنودا"، على ما يقول. صحيح، في عهد برونينغ كان يوجد ستة ملايين تقريبا، لكننا عدنا وصلنا الآن الى خمسة ملايين، اذا حسبناها تماما. لذلك ينقصنا المال اليوم مثلما كان ينقصنا آنذاك، ولا نشتري إلاّ الضروري الضروري. فمن حيث المبدأ ما تغير شيء. كل ما في الامر ان ابي قد قبض في العام اثنين وثلاثين كل مستحقاته تقريبا، لانه ذهب ليختم لثلاث سنين متوالية، فصارت الرعاية الاجتماعية تخصم من معاش عطالته على نحو مستمر. كان يحصل على ثلاثة ماركات ونصف اسبوعيا، لا اكثر. وبما ان شقيقيّ كانا يختمان ايضا واختي أريكا كانت الوحيدة التي تعود براتب حقيقي الى البيت، كان على امي اذن ان تدبّر شؤون البيت باقل من مئة مارك اسبوعيا. كان هذا المبلغ غير كاف على الاطلاق، لكن هذا ما كانت الحال عليها في منطقتنا كلها. الويل، اذا اصيب احد بالانفلوينزا او باي شيء آخر. للحصول على ورقة المرض وحدها كان يجب ان نصرف خمسين قرشا. أما نعل جديد للاحذية فسبّب خللا في الميزانية. كلّف قنطار الفحم المرصوص ماركين تقريبا. لكن في منطقة المناجم تراكمت الاكوام. وهي كانت تحت الحراسة، بالطبع، الحراسة الشديدة، باسلاك شائكة وكلاب. وكان وضع البطاطا الشتوية اسوأ من ذلك. فكان يجب ان يحدث شيء، لان النظام كله كان متآكلا. ومن حيث المبدأ ما تغيّر الوضع اليوم. الانتظار امام دائرة

العمل ايضا. مرة صحبني ابي معه: "لكي ترى، كيف تمشي الامور." امام الدائرة امّن عنصران من الشرطة حراسة، حارصين على الآ يخالف احد نظام الختم، لان الناس وقفوا في صفوف خارج المبنى وداخله ايضا، فمقاعد الجلوس غير كافية. لكن الوضع ظل هادئا في الخارج والداخل، لان الجميع كانوا سارحين ومنطوين. لذلك امكن سماع صوت الخاتم بكل وضوح. هذه الفرقعة الجافة. كانوا يختمون على خمسة شبابيك او ستة. لا أزال اسمع الصوت باذني. وبوضوح ارى امامي وجوه المرفوضين. "المهلة انتهت"! او "الاوراق ناقصة." كان مع ابي كل ما يلزم: ورقة التسجيل، آخر مكان للعمل، بيان الحاجة، وبطاقة الدفع. فمنذ ان اعتمد على الرعاية حصرا، عمدوا الى التأكد من الحاجة وصولا الى التدقيق في البيت. فالويل، اذا كانت المفروشات تبدو جديدة او اذا وجدوا راديو. أي نعم، اذكر ايضا رائحة الثياب الرطبة. ففي الخارج وقفوا في صفوف تحت المطر. لا، ما كانوا يتزاحمون او يتشاغبون، ولا يعلقون على السياسية. اي نعم، لان الكل كانوا يائسين وعارفين: هكذا لا يمكن الاستمرار. الآن يجب ان يحدث شيء. لكن بعد ذلك صحبني أبي الى دار النقابة، الى جماعة دعم العاطلين عن العمل. هناك رأيت ملصقات ونداءات للتضامن. وهناك قدموا ايضا وجبة، في أغلب الاحيان نوعا من الشوربة. وكنا حريصين على كتم الامر عن أمي. كانت تقول: "سادبر اموركم كلكم." وتضحك حين تدهن شرائح خبز المدرسة بقليل من الدهن، او تقول، حين كان علينا الاكتفاء بالخبز الجاف: "اليوم نأكل الخبز الحافي." لا، ليست الاحوال على هذا السوء اليوم، لكن كل شيء ممكن... على كل حال، ادرخلوا يومها نوعا من خدمة العمل الالزامية لمن سمّوهم العاطلين المستفيدين من الرعاية. وعندنا في رمْشايْد كان عليهم ان يكدحوا في بناء الطرقات في جوار السد العالي. وأبي ايضا، لاننا كنا نعيش على الرعاية الاجتماعية. هناك جمّعوا عشرين رجلا تقريبا، لان الاحصنة كانت غالية الثمن، وكان على هؤلاء ان يجرّوا زحافة وزنها كذا قنطار، وان يبدؤوا بالعمل على الاشارة. كان ممنوعا عليّ ان اذهب الى هناك وأشاهد، لان أبي الذي كان في السابق معلما على الماكينات، كان يستحي من إبنه. لكن في البيت،

كنت اسمعه يبكي، وهو مستلق قرب أمي في العتمة. لم تبك أمي يوما، لكنها كانت تردد قبيل الاستيلاء على السلطة": لا يمكن ان تسوء الاحوال اكثر. "وحين أجد حفيدي في مزاج التذمر من كل شيء، أطمئنه قائلا إن شيئا كهذا لا يمكن ان يحدث لنا اليوم. معك حق - يردّ الصبي - حتى لو كان وضع العمل سيئا... الاسهم ترتفع وترتفع."

مراسيم للطواريء: متضمنة في دستور وايْمار العائد الى عام ١٩١٩، امكن للحكام بموجبها تفادي الرقابة البرلمانية، منذ ١٩٣٠ من وسائل الحكم "الدارجة."

... اختم: عند دفع المساعدة المالية للعاطلين عن العمل خُتمت بطاقة خاصة يحملها كل من يقبض تلك الاعانة.

١٩٣٣

فاجأنا خبر التعيين ظهرا، حين تناولتُ مع برنْت، زميلي الشاب، لقمة في المعرض وانا استمع باذن واحدة الى الراديو. لنقلْ، لم أفاجأ حقًا: بعد استقالة شلايْشر اشارت الاشارات كلها اليه، هو وحده المرشح. كان على رئيس الرايخ الكهل نفسه ان ينحني امام ارادته للسلطة. حاولتُ ان استّر ردة فعلي بمزحة: "الآن سيسعدنا الدهان كرسام." لكن برنْت الذي كان عادة يعلن ان السياسة "لا تهمه البتة"، رأى نفسه مهدّدا شخصيا وصاح: "يجب أن نرحل، نرحل!"

صحيح اني ابتسمت لردة فعله المغالية، لكني ادركتُ انّ حذري كان في محلّه: قبل عدة اشهر قد نقلتُ الى امستردام قسما من اللوحات، اعني تلك التي ستكون مشبوهة في حال الاستيلاء على السلطة، عدة لوحات لـكيرشْنْر، وبشْتْشْتاينْ، ونولده والخ. كانت بعض اللوحات من ريشة المعلم كل ما بقي في المعرض، اعني الاعمال المتأخرة التي تصور بساتين في الوان زاهية. فهي لا تدخل باي حال في باب الفن المنحط" المرتدّ عن النوع. "كان مهددا لمجرد كونه يهوديا، شأنه شأن زوجته، مع اني حاولتُ ان اقنع نفسي وبرنْت: "إنه جاوز الثمانين بكثير. لن يجرؤوا على انتهاكه. في أسوأ الحالات، سيكون عليه ان يستقيل عن منصبه كرئيس للاكاديميا. ماذا نقول... بعد ثلاثة اشهر او اربعة ستكون الحفلة كلها منتهية باي حال."

بالرغم من ذلك لم يتبدّد قلقي بل زاد. فاقفلنا المعرض. بعد ان تمكنّتُ من تهدئة برنْت العزيز الذي اطلق العنان لدموعه، انطلقتُ عصرا. بعد حين امتنع عليّ المرور. يا ليتني استقللتُ الميترو. من كل صوب جاءت الكتائب. صادفتهم في شارع هارْدنْبرغ. في صفوف بستة رجال زحفوا على شارع النصر صعودا، فرقة لـ س أ تلو اخرى، ساعية بوعي الى الهدف. وكأن تيارا يجرفهم في اتجاه معين، الى النجمة الكبيرة، حيث تلتقي، على ما يبدو، الكتائب كلها. ما إن حدث زحام وامتنعت مواصلة السير، ظلت القوافل تخطو خطواتها محلّها، باندفاع نافد

الصبر: المهم ألاّ تتوقف. يا لهذا الجدّ المرعب في الوجوه الشابة المعلّمة بأربطة الخوذات... وأهل الفضول الذين يتضاعف عددهم، يتزاحمون على الارصفة ويسدّون الطريق... وعلى هذا كله يخيّم غناءٌ موحّد الصوت... عندها قررتُ نهج طريق فرعية، متغلغلا في الآجام، إن صح التعبير، مجتازا حديقة الحيوانات المعتمة. لكني لم اكن وحيدا في سعيي الى التقدم عبر دروب فرعية. أخيرا، قبيل بلوغ الهدف، تبيّن ان بوابة براندْنبْورغ كانت مقفلة للسير العادي. ولم اتمكن من بلوغ ساحة باريس الواقعة خلف البوابة تماما، إلاّ بمساعدة شرطي قصصتُ عليه قصة لا اعود اتذكرها. آه، كم مرة جئنا الى هنا مفعمين بالتشويق! يا لهذا العنوان المميز والشهير! كم مرة زرنا المعلم في الاتيليه! ودائما كان الجو غنيا بالروح والفطنة. روح دعابته البرلينية الجافة.

امام المبنى البرجوازي الكبير – في حيازة العائلة منذ قرون – وقف الكونْسيارج وكأنه في انتظاري. قال "السادة على السطح" وصعد معي الادراج. في هذه الاثناء قد بدأت، في الظاهر، مسيرة المشاعل التي تدرّبوا عليها من سنين ونظّموها بدقة وعلى الدقيقة، فحين خروجي الى السطح بشّر التهلل باقتراب الكتائب. اكيد، هذا الرعاع مقرف! مع ذلك أثارني الصراخ المتزايد الشدة. واليوم، عليّ ان اقرّ لنفسي اني كنتُ مأخوذا، وإن دام هذا الشعور لِلحظةِ رعشة واحدة وحسب.

لكن، لماذا عرض المعلم نفسه لمشهد الحشود؟ وقف وزوجته مارتا على اقصى حافة السطح. فيما بعد، حين كنا جالسين في الاتيليه، سمعنا: إنه قد شاهد من هناك في العام واحد وسبعين الآليات المنتصرة العائدة من فرنسا وهي تعبر البوابة، وثم في العام اربعة عشر قوافل المشاة المنطلقة بالخوذات المسنّنة، واخيرا في العام ثمانية عشر دخول كتائب البحارة المتمردين، وإنه اراد الآن ان يجازف بالقاء نظرة أخيرة من فوق... قد يمكن التعليق على ذلك بالكثير من الخُلف.

لكن قبل ذلك، على السطح، وقف صامتا، وفي وجهه سيجار الـهافانا البارد. كلاهما بقبعة ومعطف شتائي، وكأنهما مستعدان للسفر. طيفان معتمان امام

السماء. زوج وكأنه تمثال. وتحولت بوابة براندنبورغ بدورها الى كتلة رمادية، تتلمسها اضواء الشرطة الكاشفة بين حين وآخر. لكن بعد حين اقتربت مسيرة المشاعل تتدفق في كامل عرضها كسيل من اللابّة، لا تفرقه الاعمدة إلاّ لامد قصير ليعود يلتحم سائلا بلا انقطاع، لا يُعرقل، مهيبا، قدريا، ينير الليل، يضيء البوابة وصولا الى كوادريغا الخيول، صعودا الى طرف قبعة الإلهة وشارة نصرها ؛ حتى نحن، الواقفين على سطح دارة ليبرمان، اضئنا بذلك البريق القدري، وفي الوقت عينه وصلنا الدخان والرائحة المتصاعدة من مئة ألف مشعل واكثر.

يا للعار! لا أحب الاعتراف بان هذا المنظر، لا بل، هذه اللوحة الطبيعية الضخمة، افظعتني واثارتني على السواء. انبثقت منها ارادة واحدة، بدا الانصياع لها واجبا. هذا القدر المتقدم بخطوات سامية... لم يكن هناك ما يعترض طريقه. سيل متدفق جارف... كان التهلل المتصاعد من كل محل في الاسفل سيغريني بدوري، ربما، بتلفّظ "زيغ هايل!" – ولو تجريبيا – لو لم يلق ماكس ليبرمان تلك الجملة التي امست فيما بعد شعارا تتداوله المدينة هامسة. اشاح بوجهه عن المنظر الحامل بالتاريخي وكأنه من اللوحات التاريخية الملمّعة المبتذلة وعلّق بلهجته البرلينية: "لا أستطيع الأكل، بقدر ما أريد التقيؤ."

حين غادر المعلم سطح دارته، ناولتْ مارتا ذراعه. بدأتُ ابحث عن كلمات ملائمة لاقناع الزوجين الكهلين بالفرار. لكن، ما من كلمة ملائمة. كان من المستحيل نقلهما الى مكان آخر، ولا حتى الى امستردام، التي هربتُ اليها مع برنت بعد امد. لكن لوحاتنا الحبيبة – بينها لوحات من يد المعلم – وجدت بعد ذلك بعدة سنين، منفى في سويسرا، في ذلك المكان الآمن نسبيا، لكن القليل الالفة. تخلى عنّي برنْت... آوّاه... لكن هذه قصة اخرى.

خبر التعيين: في أواخر عام ١٩٣٢ عيّن الجنرال كارل فون شلايشر (١٨٨٢–١٩٣٤) رئيسا للحكومة بدعم من هندْنبورغ. استقال في اوائل عام ١٩٣٣ لان هندنبورغ رفض منحه الصلاحيات التي قد طالب بها. فعيّن هندنبورغ في الثلاثين من كانون الثاني ١٩٣٣ هتلر رئيسا لحكومة الرايخ.

كيرشْنر، أرنستْ لودوِغ: (١٨٨٠–١٩٣٨)، رسام ونحات وخطاط تعبيري.

بشْشْتايْن، ماكس: (١٨٨١–١٩٥٥)، رسام وخطاط تعبيري.

نولْده، أميل: (١٨٦٧–١٩٥٦)، رسام وخطاط تعبيري.

لوحات من يد المعلم، ماكْس ليبرْمان: (١٨٤٧–١٩٣٥)، رسام وخطاط، اهم ممثل للانطباعية الالمانية، عاش منذ اواخر القرن التاسع عشر في برلين، بين ١٩٢٠ و ١٩٣٣رئيس اكاديمية الفنون البروسية.

بيني وبينك: معالجة هذه القضية افتقرت الى الدقة في التنفيذ. فللاسف سمحتُ للدوافع الشخصية ان تقودني الى حيث تشاء. بدأت المصيبة بتبديل المواقع المتسارع بسبب انتفاضة رويم: نقلونا من ادارة داخاو الى اورانينْبورغ حيث استلمنا في الخامس من تموز معسكر الاعتقال، بعد عزل ثلّة من خنازير الـ س آ من مناصبهم، بأمر من الفرقة الخاصة التي تألّفت، على فكرة، من زملاء قد اجهزوا قبل ايام على زمرة رويم في ويزنْزي وفي غير محل. ووصف لنا هؤلاء، والتعب لا يزال واضحا عليهم، "ليلة السكاكين الطويلة" وسلّمونا المكان بما فيه بعض العناصر من الـ س آ التابعة لرويم. وكان من المفترض ان يعاوننا العناصر في انجاز القسم البيروقراطي للعمل، إلاّ انهم كانوا غير نافعين البتة.

فواحد من هؤلاء الإجراميين – وكان اسمه شتالكوبف: "الرأس الفولاذي" – طلب الى المعتقلين الذين تحت امرتنا، بالاحتشاد لنداء الحضور، فامر اليهود بينهم بالوقوف جانبا.

دزينة من الاشكال... بينهم واحد متميز. على كل حال، تعرفتُ موزام في الحال. وجهه لا يُنسى. رغم انهم حلقوا ذقن هذا الثوري السابق في سجن براندنْبورغ ولقّنوه درسا محترما، بقي منه ما يكفي لتعرّفه. بيني وبينك: كان فوضويا من النوع المرهف الحساس، واحدا من ادباء المقاهي المثقفين، وعلى ما اذكره من سنواتي السابقة في مونيخ شخصية تثير بعض التهكم: شاعر وداعية الى الحرية المطلقة، وبالطبع، الى الحبّ الحرّ ايضا. والآن يقف امامي كومةً من البؤس، يصعب التحدث اليه، لانه اطرش. ولتبرير نفسه يشير الى اذنيه المقرحتين والملطختين بالدم المجمد ويبتسم معتذرا ابتسامة صفراء.

قدمتُ تقريري الى قائد اللواء أيْكه بصفتي معاونه، قائلا فيه إن اريش موزام غير مؤذ من ناحية، وخطر جدا من ناحية اخرى، إنّه شخص كان حتى الشيوعيون سيخافون من سيل كلامه المحرِّض: "لو كان في موسكو، لتمّ تصفيته

من زمان."

طلب اليّ قائد اللواء أيْكه ان اهتم بالقضية ونصحني بالمعالجة الخاصة. وهذا امر مفهوم، فبالنهاية قضى تيودور ايْكه نفسه على رويم. لكن بعد احتشاد المعتقلين في الباحة ارتكبتُ خطئي الاول، معتقدا ان شتالكوبْف، ذلك الاحمق من الـ س آ، يمكن ان يريحني من القيام بالعمل القذر بنفسي.

بيني وبينك: لم اكن اريد ان اتعاطى مع هذا اليهودي عن كثب اكثر من اللازم. فاثناء الاستجواب حافظ على هدوئه بطريقة مدهشة. على كل سؤال ردّ بابيات شعرية، من تأليفه في الظاهر، لكن ايضا بابيات من شيلر: "...وإن لم تجازفوا بحياتكم ..." كان ينشد رغم افتقاره الى بعض الاسنان، بطريقة تليق بخشبة المسرح. بدا هذا مضحكا من ناحية، لكن من ناحية اخرى... الى ذلك اربكتني النظارات على انفه اليهودي... واكثر من ذلك الكسور في زجاجتي النظارات... وبعد كل استشهاد ابتسم بثبات...

على كل حال، اعطيتُ موزام مهلة ثماني واربعين ساعة، والححت عليه بالنصيحة ان ينهي حياته بنفسه خلال هذه المهلة. كان ذلك سيكون الحلّ الانظف.

لكن ماذا أقول لك... إنه لم يعمل لنا هذا المعروف. فصار شتالكوبف ناشطا. على ما يبدو زجّ برأسه في كرسي الحمام حيث اختنق. لم اكن اريد ان اعرف التفاصيل. تبيّن عند امعان النظر، ان الفعلة ليست"فعلة معلّم. "فصعب علينا بالطبع ان ندّعي فيما بعد انه انتحر شنقا. اليدان متشنجتان بطريقة تكذّب الرواية... لم نستطع اخراج اللسان... العقدة مربوطة بيد من يعرف بالعقد. وهو امر كان انجازه سيمتنع على موزام. ثم زاد شتالكوبف، هذا الابله، الطين بلّة، حين صاح لحظة الاحتشاد الصباحي آمراً: "اليهود بينكم، أخرجوا لقطع الحبل!"، فتعمّمت القصة. بالطبع فهم هؤلاء السادة، وبينهم طبيبان، ان القصة مُفَبْرَكة.

للحال استدعاني رئيس اللواء ايكه ووبّخني: "وحياة الله، يا ارهارت، كان يمكن لك ان تدبّر الامر بطريقة أنظف."

لم استطع سوى ان اوافق على ذلك، فهذه القصة، والكلام بيننا، سوّدت وجهنا

امام العالم، لاننا فشلنا في جعل اليهودي الاطرش اخرس ايضا. اينما كان قالوا... وفي الخارج احتفوا بموزام شهيدا... وكذلك الشيوعيون... وكان علينا اقفال معسكر أورانينْبورغ وتوزيع المعتقلين على معسكرات اخرى... رجعتُ الآن الى داخاو، واظنّ انّ ارجاعي اجراء تأديبي ومهلة اختبار...

انقلاب رويم: بحجة تفادي الانقلاب من قبل الـ س أ، أمر هتلر في صيف ١٩٣٤ باغتيال عدد كبير من كبار رجال الـ س أ (فرق الهجوم) ومن أعدائه السياسيين، بينهم أرنستْ رويم (١٨٨٧-١٩٣٤)، رئيس الـ س أ.

موزام، أرش: (١٨٧٨-١٩٣٤)، فوضوي، كاتب ملتزم سياسيا، عام١٩١٩ عضو اللجنة المركزية لجمهورية المجالس في بافاريا. بعد سقوطها حُكم عليه بالسجن لمدة ١٥ سنة وأطلق سراحه بعد ٦ سنوات. أُعتقل من جديد عام ١٩٣٣.

ايكه، تيودور: قائد لواء وقائد وحدات الجمجمة التابعة لـ س س (فرق الحماية النازية)، استلم معسكر الاعتقال داخاو وحوّل تعذيب المعتقلين الى منهج منتظم. ارتقى عام ١٩٣٤ الى "مشرف على معسكرات الاعتقال" ونُقل الى اورانينْبورغ.

١٩٣٥

عن طريق اتحادي، تويتْونيا، الذي كان ابي ايضا عضوا فيه كاحد "الشيوخ"، حصلتُ، بعد انتهاء دراساتي الطبية، على امكانية التدرّب على يد الدكتور بروزينغ – وهو تويتْوني عتيق ايضا –، اعني على امكانية العمل معاونا له في الاشراف الطبي على معسكرات العمل التي شيّدت في الهواء الطلق من اجل بناء الجزء الاول من طريق الرايخ السريع بين فرانكفْورت على نهر ماين ودارمشْتاد. حسب الاوضاع السائدة آنذاك، كانت الاحوال بدائية جدا، وبين عمال الطريق السريع، وخاصة في قوافل الحفّارين، عدد كبير من العناصر التي تشعل بسلوكها اللااجتماعي مشاحنات مستمرة. فكانت "اثارة الشغب" و"تخريب المكان" سلوكيات يومية. لذلك لم يكن بين مرضانا من جُرح اثناء اعمال شقّ الطريق وحسب، بل من جُرح اثناء الاشتباكات ايضا. والفئة الاخيرة عدد من الأشقياء من اصل مشبوه. كان الدكتور بروزينغ يعالج جروح الطعن من دون ان يسأل عن الاسباب. في اقصى الحالات كنتُ اسمع تعليقه المعهود: "ماذا بكم ايها السادة، زمن الشغب في الصالات انتهى!"

لكن معظم العمال كانوا منضبطين ومنظمين وممنونين عادة، لان الفعل الاكبر للفوهرر، اي بناء شبكة من الطرق السريعة تغطي المانيا كلها وتربطها، ذلك الفعل الذي قد بشّر به في الاول من ايار من ثلاثة وثلاثين، أمّن عملا وأجرا لآلاف من الرجال الشباب. وحتى للرجال الاكبر سنّا انتهت به البطالة التي قد طالت سنوات. مع ذلك كان العمل الشاق للكثيرين الذين لم يعتادوا عليه امرا يصعب تحمّله. وربما كانت التغذية السيئة والناقصة في الزمن الماضي سببا للارهاق الجسدي. على كل حال واجه الدكتور بروزينغ اثناء مجريات بناء الطريق المتقدم في سرعة، عجزا عن العمل كان غير معروف الى ذلك الحين وغير مدروس بالتالي. واعتاد الدكتور بروزينغ، الحكيم المحافظ الذي لا يفتقر الى روح الدعابة، ان يطلق عليه "مرض الحفارين." وتكلم كذلك على "طقّة الحفّارين."

في الحالات كلها تكرّر التالي: إن العمال المصابين، ومهما كانت اعمارهم، احسّوا عند ارهاق جسدي شديد – وخاصة اذا ما وجب عليهم نقل كميات هائلة من التراب على نحو مستمر بالمجراف – بطقّة بين الكتفين تنتج عنها آلآم شديدة تمنع مواصلة العمل. ووجد الدكتور بروزينغ في صور الاشعة البرهان على المرض الذي احسن تسميته: كسر للزوائد الشوكية في العمود الفقري عند حدود العنق والصدر، يصيب عادة الفقرة الاولى للصدر والفقرة السابعة لشوكة العنق.

في الواقع كان يجب حسبان هؤلاء الناس عاجزين عن العمل وعزلهم فورا؛ لكن الدكتور بروزينغ، الذي وصف السرعة المفروضة من قبل ادارة البناء بـ"غير مسؤولة" واعترف امامي حتى بانها "قاتلة"، والذي بدا في سائر النواحي لامباليا سياسيا، أجّل عزل العمال، بحيث ان ردهة المرضى كانت مزدحمة باستمرار. وكأنه يعتمد تجميع المرضى، سواء بهدف دراسة "مرض الحفارين" ام بهدف التنبيه الى سوء الاحوال.

لكن، بما ان الايدي العاملة كانت متوفرة في اعداد كبيرة، فقد انتهى بناء القسم الاول من طريق الرايخ السريع حسب الموعد المحدّد. في التاسع عشر من ايار اقيم حفل الافتتاح بحضور الفوهرر ورفاق حزبيين عالي المرتبة وبمشاركة اكثر من اربعة آلآف من عمال الطريق السريع. للاسف كان الطقس سيئا. تلاحق البَرَد والمطر ولم تطلّ الشمس إلا بين حين وآخر. رغم ذلك تفقّد الفوهرر القسم المنجز وهو يقف في سيارة المرسيدس المكشوفة محيّيا مئات الآلآف من المشاهدين باليمنى المستقيمة حينا وبالمتأبطة حينا آخر. كان التهلل عظيما. مرةً تلو اخرى علا لحن مارش بادنوْايلْر. كان الجميع، من المشرف العام الدكتور توت الى قوافل الحفّارين، على وعي بالساعة الكبيرة. بعد كلمة الشكر المقتضبة التي القاها الفوهرر مخاطبا "عمال القبضة والجبين"، رحّب الميكانيكي لودْويغ دروسلْر الضيف العالي، نيابة عن جميع المشتركين في البناء، بالكلمات المتواضعة التالية: "بتشييد الطريق السريع، حركتم، ايها الفوهرر، دولابَ عملٍ سيظل يشهد على عظمة هذا! الزمن وارادته للحياة بعد الآن بقرون..."

بعد ذلك وفي احوال جوية متحسنة، افتُتح الطريق المنجز امام مسيرة من السيارات اشتركت فيها، لفرحة الجمهور المشاهد، عربات عتيقة جدا وموديلات من انتاج قبل امس تفحّ وتصرّ وتطقطق، وبينها على فكرة الدكتور بروزينغ في سيارته من طراز اوبل ذات المقعدين والسنين العشر على الاقل، والمصبوغة سابقا، على ما يبدو، باللون الاخضر. لكنه أعفى نفسه من الاشتراك في الاحتفالات الرسمية؛ وفضّل ان يتفقّد عند المساء ردهة المرضى، في حين انه سمح لي ان احضر على حد قوله "الخلف في الملابس الموحدة."

للاسف، لم يتسنّ له ان ينشر تقريره الطبي حول ما سماه "مرض الحفّارين" في اي مجلة من المجلات المتخصصة. حتى صحيفتنا الصغيرة توتونيا رفضت طبع المقال من دون ذكر الاسباب.

الدكتور توت: (١٨٩١ – ١٩٤٢)، مهندس، منذ ١٩٢٢ عضو في الحزب النازي، منذ ١٩٣١ في القيادة العليا لـ س أ، بين ١٩٤٠ و ١٩٤٢وزير الرايخ للتسليح والذخائر. قاد عام ١٩٣٣ بناء الطرق السريعة للرايخ، بعد ان عيّنه هتلر مشرفا عاما على شؤون الشوارع. خلال الحرب تولّت الفرقة الخاصة "منظمة توت" مهمات حاسمة في الهندسة العسكرية.

١٩٣٦

لم ينقصنا يوما من يبشّر بالامل. وعندنا في معسكر استروْيغن، الذي نال نوعا من الشهرة بفضل اغنية جنود المستنقع التي تستحضر في لازمتها لفظ "المجراف"، اشيع ابتداء من اواخر صيف ستة وثلاثين، ان عفوا عاما سيصدر قبل بداية الالعاب الاولمبية فيضع نهاية لوجودنا المزري بوصفنا مضرِّري الشعب وقاطعي فحم المستنقع في أمسْلاند. واستمدّت هذه الاشاعة روحها من الاعتقاد التقي ان حتى هتلر نفسه يجب ان يراعي الخارج وان زمن الارهاب الهادف الى التخويف انتهى وان قطع فحم المستنقع بوصفه عملا المانيا صرفا سيبقى مخصصا لرجال خدمة العمل المتطوّعين حصرا.

لكن بعد حين أُصدر امر بنقل خمسين معتقل، وجميعهم من الحرفيين المتعلّمين، الى منطقة ساكسنْهاوزْن في جوار برلين. كان علينا ان نبني هناك تحت حراسة رجال الـ س س من وحدات الجمجمة، معسكرا كبيرا خطط له ان يسع لالفين وخمسمائة نزيل على مساحة ثلاثين هكتارا من الاراضي المسيّجة: معسكر له مستقبل.

كنتُ كرسام هندسي واحدا من قاطعي الفحم الذين نُقلوا الى الموقع. وكانت شركة من برلين تزوّدنا بالقطع المجهّزة للبناء، فاستطعنا ان نقيم بعض اتصال بالعالم الخارجي كان ممنوعا علينا كليا في العادة، وشممنا رائحة النشاط المحموم الذي ساد في عاصمة الرايخ قبل افتتاح الالعاب. عمر السيّاح من انحاء العالم كلها شارعي كودام وفريدريش وساحتي اليكس وبوتسدام. لكن اكثر من ذلك لم يتسرب الينا. أما فوائد الراديو فلم نتمتع بها الا احيانا وبعد ان جُهّزت غرفة الحراسة في مقر القيادة الذي انجز بناؤه وضمّ رئاسة البناء، بجهاز كان ينقل، من الفجر حتى المساء، تقارير حول الاجواء في حفل الافتتاح، ومن ثم نتائج المسابقات الاولى. وكان عليّ ان اتردد باستمرار على ادارة البناء، إما لوحدي وإما برفقة آخرين، فاستطعنا ان نتتبّع استهلال الالعاب وكنا على بعض علم بها.

وحين رُفع صوت الراديو الى حده الاعلى خلال اعلان نتائج المباريات النهائية الاولى، بحيث وصل صداه الى ساحة التجمّع وورشات البناء المجاورة، سمع الكثيرون منّا ببركة الاوسمة. اضافة الى ذلك سمعنا من غرفة القيادة المجاورة، من كان جالسا على منصّة الشرف: جميعهم من المشاهير الدوليين، بينهم ولي العهد السويدي غوستْاف آدولف، وولي العهد الايطالي أومبْرتو، وسكرتير دولة انكليزي يُدعى فانسيتارت، وجمعٌ من الدبلوماسيين، بينهم بعض من سويسرا. لذلك كان بعض منّا على امل الاّ يبقى بناء معسكر الاعتقال الكبير على مشارف برلين مخفيا عن هذا الحضور الاجنبي الكثيف.

لكن العالم لم يلتفت الينا بتاتا. و"شباب العالم" الرياضي مشغول بنفسه ومصيرنا لا يقع في حسبان احد، فنحن غير موجودين. وهكذا، جرت الحياة اليومية في المعسكر كعادته، بغض النظر عن الراديو في غرفة الحراسة. فهذا الجهاز الذي كان، على فكرة، رمادي اللون ومستعارا من الجيش على الارجح، ينقل اخبارا من واقع يجري ما وراء الاسلاك الشائكة... منذ الاول من آب سجّل الالمان انتصارات في قذف الكرة ورمي المطرقة. كنتُ مع فريتْيوف توشينْسكي، احد "الخضر"، كما اطلقنا على المعتقلين المجرمين المعلّمين باشارة خضراء، في غرفة ادارة البناء لاستلم تصحيحات في تخطيطات المشروع، حين أُعلنت في الراديو الميدالية الذهبية الثانية التي احتفل بها رجال الجمجمة في الغرفة المجاورة باصوات عالية. لكن حين ظنّ توشينْسكي ان له الحق في الانضمام الى التهلل، رمقه أسر، رئيس البناء والقائد الاعلى لوحدة قتالية، بنظرة تؤكد ما اشتهر به من حدّة ودقّة في الحفاظ على النظام. اما لو انضممتُ بنفسي الى التهلل، لحصلت بلا شك على عقوبة شديدة، ولانزل فيّ اشد التنكيل، على خلاف الاخضر، لاني معتقل سياسي معلّم بزاوية حمراء. كان جزاء توشينْسكي ان يؤدي تمرين ثني الركبتين خمسين مرة، لا غير... أما انا فنجحتُ، بفضل ما فرضتُه على نفسي من تمالك شديد للاعصاب، ان ابقى في الظاهر غير منفعل انتظر التعليمات بهدوء، واغتبط في الداخل بهذا الانتصار وغيره من الانتصارات الالمانية؛ اذ قبل سنوات قليلة

كنت ناشطا وناجحا ايضا في نادي سبارتاكوس مغدْبورغ كعدّاء للمسافات المتوسطة.

رغم ان المعتقلين مُنعوا اذن من الانضمام الى الاحتفال – كنا، على حد قول اسر غير جديرين بالاشتراك العلني في الانتصار الالماني –، حدث اثناء متابعة الالعاب تقارب عفوي موقّت بين معتقلين وحراس امتنع كبته. وعلى سبيل المثال، اثناء المنافسة المشوّقة في القفز الطويل، بين الطالب من لايبْتْسغ لوتس لونغ والبطل الامريكي في جري المائة متر – وبعد حين المائتي متر – جيس اونز الزنجي، الذي فاز اخيرا بقفزته الاولمبية التي سجلت بثمانية امتار وستة سينتمترات الرقم القياسي. وهو كان على كل حال البطل العالمي بثمانية امتار وثلاثة عشر. مع ذلك احتفل كل من كان قريبا من الراديو بميدالية لونغ الفضية: قائدان فرعيان في الـ س س اشتهرا بكونهما من الكلاب الدموية، واحد من الخضر يحتقرنا، نحن السياسيين، وينكّل بنا كلما سنحت له الفرصة، وانا، متفرغ متوسط الرتبة في الحزب الشيوعي الالماني، نجا من ذلك كلّه ومن اكثر ايضا، ويقضم اليوم ببدلة اسنان غير سوية ذكرياته العكرة.

وقد تكون مصافحة الزنجي المتعدد الانتصارات والتي تواضع عليها هتلر كما قيل، هي التي اشفعت بتلك الزمالة القصيرة الامد. بعد ذلك سادت المسافة من جديد. وابلغ القائد أسر عن كل مخالفة. وعوقب المعتقلون والحراس باجراءات تأديبية. واختفى الراديو المخالف للنظام، فحرمنا من تتبّع ما حصل بعد ذلك في الالعاب الاولمبية. وعلى سبيل الاشاعة وحسب، سمعتُ بما اصاب فتياتنا من حظ سيء حين فقدن عصا السباق اثناء التسليم والتسلم في الدورة الاخيرة لسباق التتابع على اربعمائة متر. أما بعد ان انتهت الالعاب، فانطفأ الامل ايضا.

رجال خدمة العمل: في جمهورية فايْمار عمل تطوّعي للشباب العاطلين عن العمل، تحوّل عام ١٩٣٥ الى خدمة العمل للرايخ، فكان على الشباب بين ١٨ و ٢٥ سنة من العمر ان يعملوا لمدة نصف سنة في بناء الشوارع ومجالات مشابهة مقابل اجر متواضع.

ولي العهد أومبْرتو: (١٩٠٤–١٩٨٣)، عام ١٩٤٦ ملك ايطاليا، غادر البلد في العام نفسه بسبب

الاستفتاء من اجل الجمهورية.

سكرتير دولة فانْسيتارت: من الـ فورنَ اوفيس.

الخضر: كانت ملابس المعتقلين غير السياسيين معلّمة بزاوية مثلّث اخضر (مقلوب على رأسه)، اما ملابس السياسيين فكانت تحمل زاوية حمراء.

جيس اونز: (١٩١٣–١٩٨٠)، رياضي امريكي، نال عددا من الميداليات الذهبية في الالعاب الاولمبية عام ١٩٣٦.

١٩٣٧

لم تنته العابنا في باحة المدرسة بقرع الجرس، بل كانت مستمرة من استراحة الى اخرى تحت اشجار الكستناء، امام مبنى الحمامات المتألف من طابق واحد، والملقب بـ قاعة التبويل. كنا نتعارك. ونحسب قاعة التبويل الملاصقة لقاعة الرياضة، ألكازار مدينة توليدو. صحيح ان الحادث قد جرى قبل سنة، لكن في احلامنا الصبيانية، كانت الكتائب تدافع عن المبنى دفاعا بطوليا مستمرا. مرة تلو اخرى فشل الحمر في محاولات اقتحامهم. وكان فشلهم عائدا ايضا الى عدم الرغبة: لا احد منّا اراد ان يلعب دور احد الحمر، ولم ارغب انا الآخر في ذلك. والتلاميذ كلهم يرون انفسهم الى جانب الجينرال فرانكو، مقاتلين شجعانا لا يخشون الموت. اخيرا قسّمونا تلاميذ الثانوية بالقرعة: الى جانب آخرين من الصف السادس وقعتْ عليّ القرعة ان اكون من الحمر... لم اتوجّس يومها لما تكون لهذه المصادفة من دلالة مستقبلية؛ يرتسم المقبل، في الظاهر، على باحات الاستراحة المدرسية.

كنا نحاصر اذن قاعة التبويل. ولم يجر ذلك من دون الاقرار ببعض التنازلات. فالمعلمون الناظرون حرصوا على عقد هدنات او وقفات لاطلاق النار تمكّن جماعات حيادية او مقاتلة من التلاميذ من التسلل لقضاء الحاجة على الاقل. أما ذروة من الذروات في مجريات المعارك، فكانت المخابرة الهاتفية بين قائد الكازار، الكولونيل موسكْاردو، وابنه لويس، اسير الحمر الذين هدّدوا برميه بالرصاص، إن لم تستسلم القلعة.

لعب هلموت كوريلا، تلميذ من الصاف الرابع ذو وجه ملاك وصوت ملائم للوجه، دور لويس. وكان عليّ ان اقلّد كوميسار الميليشيا الحمراء كابايو، فاسلّم سماعة الهاتف الى لويس. فيعلو صوتٌ صاف صفاء البوق في ساحة المدرسة: "الو بابا!"، وردّ الكولونيل موسكْاردو: "ما الامر، يا ابني؟" – "لا شيء. يقولون اني سأُرمى بالرصاص في حال لم يستسلم الكازار." – "إن كان هذا صحيحا، يا ابني، اطلب رحمة الله، واصرخ فيفا اسبانيا! ومت موت البطل" – . "الوداع، يا أبي. وقبلة حارّة جدا!"

هكذا صاح هلموت الملائكي في دور لويس. وعلى اثر ذلك، كان عليّ، انا الكوميسار الاحمر، الذي قد حفّظه تلميذ من الصف الثانوي الاخير الصيحة الختامية "فيفا لا مويرتْه!"، ان اطلق الرصاص على الصبي الباسل تحت شجرة كستناء مزدهرة.

لا، لست متأكدا ما اذا نفّذتُ حكم الاعدام بنفسي ام نفّذه احد غيري؛ لكن، ربما كنتُ الفاعل. بعد ذلك استمر القتال. وفي فترة الاستراحة التالية نُسف برج القلعة. قمنا بذلك صوتيا. لكن المدافعين ما استسلموا... وما اطلقنا عليه فيما بعد "الحرب الاهلية الاسبانية"، كان يدور في باحة مدرسة كونراديموم في مدينة دانتسيغ – لانغفْور بوصفه حادثا واحدا متصلا يقبل التكرار الدائم. في النهاية كانت الكتائب منتصرة، بالطبع. ننسف طوق المحاصرة من الخارج. فتهاجم ثلة من تلاميذ الثانوية بسطوة مفرطة. وبعد ذلك، المعانقات... ويرحّب الكولونيل موسكْاردو المحررين بالشعار الشهير "سين نوفيداد"، ما يرادف تقريبا التعبير "لا جديد تحت الشمس." ثم تجري تصفيتنا، نحن الحمر.

هكذا امكن العودة، في الدقائق الاخيرة للاستراحة، الى استعمال قاعة التبويل كما خُصّص لها. لكن، في اليوم المدرسي التالي عدنا الى لعبتنا التي استمرت على هذا المنوال الى العطلة الصيفية في العام سبعة وثلاثين. في الحقيقة، كان يمكن لنا ايضا ان نلعب قصف المدينة الباسكية غرنْيكا. وقد شاهدنا في النشرة الاسبوعية الالمانية نشاط متطوّعينا قبل عرض الفيلم الرئيس في السينما. في السادس والعشرين من نيسان دُمّرت المدينة الصغيرة وامست ترابا ورمادا. لا ازال اسمع الى اليوم الموسيقى الممزوجة بجلبة المحركات. لكننا لم نشاهد سوى طائراتنا من نوع هايْنكل ويونكرس عند الاقلاع والاقتراب والنزول. فبدت المشاهد مثل تمرين لا يمكن ان يُستوحى منه فعل بطولي نقلّده في العابنا على باحة المدرسة.

آنا: غونتر غراس.

الجنرال فرانكو: (١٨٩٢-١٩٧٥)، جينرال ودكتاتور اسباني. قاد عام ١٩٣٦ التمرد على حكو
الجبهة الشعبية الاسبانية وانتصر في الحرب الاهلية التي استمرت لمدة ثلاث سنوات على
الجمهوريين والاشتراكيين والشيوعيين.

١٩٣٨

بدأت المشاكل مع استاذنا لمادة التاريخ، حين شاهد الجميع في التلفزيون، كيف فُتح الحائط في برلين فجأة، وامكن للجميع - ولجدّتي الساكنة في بانكو ايضا - ان يتمشّوا الى الغرب بكل بساطة. مع العلم ان نية الاستاذ هويزْله كانت حسنة بلا شك، حينما لم يكتف بالكلام على هبوط الحائط، بل صار يوجّه الينا جميعا السؤال: "وهل تعلمون، ماذا حدث ايضا في المانيا في التاسع من تشرين الثاني؟ وعلى سبيل المثال، قبل واحد وخمسين سنة؟"

ولاننا جميعا كنا نعرف شيئا ما غير دقيق، فقد شرح لنا "ليلة الكريستال في الرايخ." وهي سمّيت بهذا اللقب، لانها حدثت في الرايخ الالماني كلّه، واثناءها تكسّر الكثير من الاواني والاطباق التي كانت لليهود، وبينها عدد كبير من مزهريات الكريستال. كذلك، كُسِّرت واجهات المحلات التي كان اصحابها يهودا. وعلى العموم هُدِّمت اشياء ثمينة كثيرة بلا معنى.

ربما كان السيد هويزْله على خطأ لانه لم يستطع ان يتوقف عن الكلام على الموضوع وخصّص له حصص تاريخ عديدة، قارئا علينا مقاطع من وثائق تفيد كم كنيساً أُحرق، وانّ واحدا وتسعين يهوديا قُتلوا... وكلّها قصص حزينة، في حين ان في برلين، لا بل في المانيا كلها، كانت الفرحة كبيرة جدا طبعا، لان الالمان جميعا توحّدوا الآن أخيرا. لكن عنده كان كل شيء يدور على القصص القديمة، وعلى السؤال: كيف وصلت الامور الى ما هي عليه. وللحق يقال انه أهلك أعصابنا بما قد حدث هنا من زمان.

على كل حال، انتقده معظم الحاضرين في اجتماع الاهل لأنّه "مهوس بالماضي." حتى ابي الذي كان يحبّ التحدث عن الماضي عادة، وعلى سبيل المثال، عن فراره من قطاع الاحتلال السوفياتي قبل بناء الحائط ومجيئه الى هنا، الى سوابيا، حيث ظل طويلا يعيش كالغريب - حتى ابي هذا، وجّه الى الاستاذ هويزله كلاما من نوع: "بالطبع، لا أُمانع ان تطّلع ابنتي على الفظائع التي ارتكبتها تلك الـ س أ في كل محلّ،

وهنا في أسلينغن مع الاسف ايضا... لكن، رجاءً في الوقت المناسب، وليس في وقت يمكن لنا فيه أخيرا ان نفرح والعالم كله يهنّيء الالمان على التوحيد..."

مع العلم اننا، نحن التلاميذ، صرنا فعلا نهتم بما جرى آنذاك في مسقط رأسنا، وعلى سبيل المثال، ما جرى في دار الايتام الاسرائيلي: اجبروا الاطفال جميعهم على الخروج الى الباحة. فاخذوا الكتب المدرسية وكتب الصلوات وحتى لفائف التوراة والقوا بها في كومة واشعلوها. وخاف الاطفال الباكون المشاهدون اضطرارا محرقة الكتب من ان يحرقوا ايضا. لكنهم ما تأذّوا، والاستاذ فرتس صموئيل وحده تعرّض للضرب باوتاد الجمباز من قاعة الرياضة الى ان فقد الوعي.

والحمد لله، كان في أسلينغن ايضا اناس حاولوا تقديم المساعدة بكل بساطة، وعلى سبيل المثال، سائق سيارة عمومية اراد ان ينقل بعض الايتام الى مدينة شتوتْغارت. على كل حال، كان كل ما قصّه علينا السيد هويزله مثيرا الى حد كبير. حتى الصبيان في صفنا اشتركوا هذه المرة في الدرس، والصبيان الاتراك ايضا، وبالطبع صديقتي شيرين التي جاءت مع عائلتها من ايران.

امام الاهل المجتمعين دافع استاذ التاريخ عن نفسه بطريقة متقنة، على ما اقرّ أبي. قال إنه شرح للاهل التالي: لا يمكن لاي طفل ان يستوعب نهاية زمن الحائط بطريقة صحيحة، إن كان يجهل متى واين بدأ الظلم وما هي الاحداث التي أدّت بالنهاية الى تقسيم المانيا. وعندها، قال أبي، ابدى معظم الاهل موافقتهم. لكن الاستاذ هويزله اضطر الى تأجيل دروس اخرى حول ليلة الكريستال الى وقت آخر. وتأسفنا على ذلك، في الحقيقة.

لكن، على كل، زدنا علما بالموضوع. وعلى سبيل المثال، ان معظم الناس في أسلينغن تفرجوا بصمت حين حدثت الامور في دار الايتام او اشاحوا بنظرهم عنها. لذلك خطر على بالنا ان نكتب رسالة احتجاج الى محافظ المدينة، حين ارادوا قبل اسابيع ان يعيدوا ياسر، التلميذ الكردي في صفنا، مع عائلته الى تركيا. وامضينا جميعا الرسالة. لكننا تفادينا، بنصيحة الاستاذ هوزيله، ذكر مصير

الاطفال اليهود في دار الايتام الاسرائيلية "فِلهِلمْزبِفْلِيغه." والآن نأمل جميعا ان يسمحوا لياسر بالبقاء.

فرتْس صموئيل، معلم: تعرّض وآخرون للتنكيل لانّهم جهلوا مخبأ ارشيف سرّي مزعوم في دار الايتام.

ثلاثة ايام على الجزيرة... بعد ان أكّد مضيفنا أننا نستطيع ان نستأجر غرفا للضيافة في فسترْلاند وضواحيها، وان غرفة جلوسه الكبيرة تتسع لجلساتنا الجماعية، قبلتُ دعوته شاكرا. يعمل مضيفنا، وهو احد "السابقين" مثلنا، في مجال النشر، وقد جمّع ثروة سمحت له باقتناء بيت من البيوت الفاخرة، ذات السقوف القشية التقليدية، في جزيرة سيلْت. إلتقينا في شباط. وحضر اللقاء اكثر من نصف المدعوين، بينهم بعض الكبار الناشطين الآن في الاذاعة او – كما ذكرتُ – في مجال النشر، كرؤساء تحرير واصحاب الكلمة الفصل. كانت مسألة الحضور موضع تكهنات ورهانات: وجاء فعلا صاحب مجلة تطبع باعداد كبيرة، وإن وصل متأخرا ولزيارة خاطفة وحسب. لكن معظم السابقين وجدوا بعد الحرب عملا في مكاتب التحرير الصغيرة او يتنقلون، مثلي، مواظبين على العمل الحر. وأُلصقت بنا جميعا اسطورة اننا كنا اعضاء في سرية التحريض والاعلام – وهي شائبة وشهادة امتياز على السواء – واننا عملنا بصفتنا هذه كمراسلين حربيين. فاريد ان اشير، في هذا الموضع، الى ان عشرة آلاف من زملائنا، او اكثر، لقيوا حتفهم كمراسلين، إما في خطوط الجبهة الامامية، وإما فوق انكلترا، اثناء الطيران في قاذفة من قاذفات He- III.

اما نحن، الناجين، فاحسسنا برغبة متزايدة الالحاح في تنظيم لقاء. فتولّيت المسألة بعد قليل من التردد. اتفقنا على تسريب تقارير متحفظة. من دون ذكر أسماء، ومع الامتناع عن تصفية حسابات شخصية. فالمطلوب كان لقاء عاديا بين زملاء المهنة، على منوال اللقاءات العادية الاخرى التي اجريت في السنوات ما بعد الحرب، لقاءات حاملي وسام "صليب الفرسان"، والمنتمين الى هذه الفرقة او تلك، والسجناء السابقين في معسكر من معسكرات الاعتقال. وبما اني كنت منخرطا، كصحفي شاب، منذ البداية، اعني منذ الحملة على بولونيا، ولم أكن يوما موظفا في مكاتب وزارة الاعلام، اتمتع باحترام الزملاء ولا شبهة عليّ. اضف الى ذلك، ان

كثيرين من زملائي يذكرون مقالاتي الاولى التي كتبتها بعيد اندلاع الحرب حول الكتيبة رقم ٧٩ لسلاح المهندسين في الفرقة المدرعة الثانية، اثناء المعركة على نهر بتسورا: بناء الجسور وسط نيران العدو، وتقدم دباباتنا الى ضواحي وارسو... وغلبت على هذه التقارير نبرة جندي المشاة العادي، لاني صورتُ استخدام قاذفات القنابل من وجهة نظره ومنظوره. وعلى العموم، كنتُ اكتب تقاريري عن الجنود، عن مساكين الجبهة وبطولاتهم غير الطنانة... جندي المشاة الالماني... انجازه اليومي في المشي على دروب بولونيا الغبراء... نثر الاحذية العسكرية! جندي المشاة... خلف الدبابات المقتحمة ابدا، ملطخ بالطين، محروق باشعة الشمس، بافضل مزاج وانضباط ابدا، حتى لو لاح له، بعد معركة قصيرة، وجهُ الحرب الحقيقي، في قرية مشتعلة ملتهبة. وحين شاهدتُ القوافل اللامتناهية من الاسرى البولونيين، المغلوبين على امرهم تماما، لم تخل نظرتي من التعاطف...

ماذا اقول... إن النبرة المتفكرة التي تخللت تقاريري بين حين وآخر، اضفت عليها، على ما يبدو، سمة المصداقية. مع ان مقص الرقابة خفّف يومها من تعابيري وشذبها. وعلى سبيل المثال، حين رسمت صورة المواجهة بين دباباتنا الاولى والروس، في جوار موستي ولكي، في الوان لقاءٍ بين إخوة السلاح وافرطت في ذلك. او حين وصفت ذقون اليهود الكهول المرتدين قفاطينهم، بالقليل من روح الدعابة "القريبة على القلب." على كل حال، أكّد لي بعض من زملاء الايام الغابرة ان مقالاتي البولونية لم تختلف في حيويتها الحسية عما كتبتُه مؤخرا من مقالات لاحدى المجلات المهيمنة على السوق، كمراسل لها من لاوس والجزائر والشرق الاوسط.

بعد ان انتهينا من تدبير مسائل الاقامة، بدأنا محادثاتنا الاخوية بلا تمهيد. وحده الطقس لم يكن مواليا لنا ومنعنا من التنزه على كورنيش البحر او على شاطئه. وتبين أننا، نحن المعتادين على التعرض لايّ مناخ، صرنا من هواة القوقعة تحت سقف أمين، ملتفين حول نار المدفأة على كؤوس تظل، بفضل كرامة مضيفنا، ملأى بانواع المشروبات الساخنة (غير الخالية من الكحول.) وبهذه الطريقة

انتهينا من معالجة الحملة البولونية. والحرب الخاطفة. والايام الثمانية عشر.

فسقطت وارسو، وصارت حقلا من الانقاض والاطلال. واذ ذاك بادر احد السابقين – وقيل انه يعقد الآن صفقات مربحة كهاو للتحف الفنية وفي غير مجال – فتكلم متوسّلا لهجة أخرى. ضيّف لنا، باطناب وصوت مدوّ، استشهادات من تقارير ألّفها على متن غواصة ونشرها فيما بعد في مجلد بعنوان "صياد في البحر العالمي" ارفقه بتمهيد كتبه امير البحر شخصيا. فسمعنا شطحات نحو: "جهزوا الماسورة الخامسة –! اصابة في هيكل السفينة –! طوربيد آخر..." وكانت هذه مادة دسمة واكثر اثارة من جنود المشاة على دروب بولونيا التي لا نهاية لها ...

صاحب مجلة تطبع باعداد كبيرة، هنّري نانن: (١٩١٣– ١٩٩٦)، مؤسّس مجلة "شترن" ورئيس تحريرها.

المعركة على نهر بتسورا: غربي وارْشو، وقعت هناك بين ١٩١٤ و١٩١٥معارك ألمانية روسية وفي عام ١٩٣٩ معارك ألمانية بولونية.

"صياد في البحر العالمي": تقرير بقلم لوتار–غرنتر بوخْهايم حول تجاربه على متن غواصة.

١٩٤٠

لم ار كثيرا من مناظر جزيرة سيلت. فكما ذكرتُ، سمح الطقس، في أحسن الحالات، بنزهة قصيرة وحسب... على شاطيء البحر في اتجاه ليست او في الاتجاه المعاكس الى هورنُوم. قبعت جماعتنا العجيبة، مزودة بالمشروب والدخان، حول نار المدفأة، وكأنّ من فيها مصاب بكلل الاقدام منذ ايام الانسحابات. قلّب كل منّا ذكرياته وسارع الى اخبارنا بما وجد: فاذا ما اشترك احدنا منتصرا في فرنسا، كان لا بد للثاني من وصف ما شهده من بطولات في نارفيك وخلجان النرويج. كما لو انّ على كلٍّ منّا ان يعود ويجتر مقالات نُشرت سابقا في مجلة القوات الجوية أدلر (الصقر) او في مجلة الجيش زيكْنال (الاشارة.) وصدرت هذه الاخيرة يومها في إخراج متقن وتصميم حديث وطبعة متعددة الالوان، فانتشرت بعد اصدارها بحين في اوربا كلها. في طابق رئاسة تحريرها كان رجلٌ يُدعى شميت يحدّد الوجهة والاتجاه. وبعد الحرب صار هو نفسه، تحت اسم مغاير بالطبع، يحدد النبرة في مجلة كريستّال لشبْرينغر. وخلال اللقاء تنعّمنا بالمتعة المشبوهة لحضوره الدائم الذي أصرّ عليه. وكان لنا ان نستمع الى موّاله حول "انتصارات فاتتنا."

دار الحديث على دونكْيرك، حيث احتشدت القوة البريطانية اجمعها – اي ما يقرب ثلاثة آلآف رجل – استعدادا للنقل البحري فورا... وكان شميت السابق، الذي ليس لنا ان نذكر احدث اسم له، مشبعا بالاستياء: "لو لم يعط هتلر الامر بتوقف وحدة الدبابات كلايْست قرب ابفيل، ولو سمح لدبابات غوديريان ومانشتاين، بالاحرى، بالنفاذ الى منطقة الشاطيء، ولو اعطى الامر باجتياح الشواطيء وقطع الطريق اليها، لخسر الانكليز جيشا كاملا وليس معداته وحسب. ولامكن خسم الحرب باكرا... نعم، لان الانكليز لم يكونوا مهيّئين لمواجهة اجتياح شامل. لكن السيد القائد الاعلى قدّم لهم الانتصار على طبق من فضة. واعتقد، على الارجح، ان عليه مهاونة انكلترا. وآمن باجراء مفاوضات. نعم، لو

قامت دباباتنا يومها..."

هكذا تذمّر من كان يُدعى في السابق شميت، ثم غرق في حالة تفكر بليد، يرسل نظرات غائبة في اتجاه نار المدفأة. اما ما عرضه الآخرون من تقنيات كفاحية جسورة ومبشِّرة بالانتصار، فلم يله اي اهتمام. وكان بيننا واحد، على سبيل المثال، عمل في الخمسينيات على اصدار كتيبات الجندي عند باستاي لوبه، ليذود عن نفسه الجوع، وهو يبيع روحه الآن الى صحف مشبوهة – الى ما يلقّب عادة بصحف "الفضائح" –، لكنه نال آنذاك مجدا بنشر تقاريره عن حملات السلاح الجوي في مجلة الصقر. فعمد الآن الى تنويرنا بشرح مزايا طائرة Ju 88 بالمقارنة مع Ju 87، الملقبة بـ شتوكا، وهو يرسم بيديه المتراقصتين اجراء القصف اثناء انقضاض الطائرة، اي تحديد الهدف، القاء القنابل عند انتهاء الانقضاض، الفاصل الزمني القصير بين قنبلة واخرى، الاغارة على اهداف متحركة، كالسفن الهاربة المتناورة، خلال انعطاف الطائرة. وهو قد اشترك في التحليق بطائرات يونكر وHe- III كذلك، جالسا في المقدمة الزجاجية، مطلا على لندن وكوفنتري. سرد تجاربه بنبرة موضوعية ومن استمع اليه مال الى الاعتقاد انه يدين نجاته من المعركة الجوية فوق انكلترا للمصادفة حصرا. على كل حال، استطاع ان يعرض لنا الغارات المتوالية لاسراب الطائرات المحكمة بطريقة حيوية ومؤثرة – مستعملا لفظ "الامحاء – " بحيث حضر في مخيلتنا زمن الغارات المضادة، حين تعرضت مدن لوبيك وكولونيا وهامبورغ وبرلين لهجمات قصف ارهابية.

بعد ذلك بدا الجو حول نار المدفأة مهددًا بالانطفاء. فلجأت الحلقة الى الثرثرة الصحفية و"طق الحنك" المعهود: من "ينشر غصن" رئيس التحرير فلان فيهدده بالسقوط... كرسي من يهتز... كم يدفع شبرينغر او اوغْشتاين... ولمن... لكن أخيرا جاء الفرج بشخص خبيرنا في الفن والغواصات الذي تمتع بموهبة اللسان: يثرثر حول الانطباعية او كنوزه المكنونة من اللوحات، يصف الاساليب ويصنفها بمخيلة ملونة، ام يفاجئنا بصيحة مدوّية نحو: "استعدوا للغوص.!" فيبدو لنا ان نسمع قنابل مائية، "لا تزال بعيدة، تحديد الاتجاه على ٦٠ درجة"، ثم يطرق آذاننا

الامر "النزول الى عمق المنظار..." فنكتشف الخطر: "مدمرة على يمين الغواصة..." فيا لبركة الجلوس تحت سقف آمن على اليابسة، والرياح تعصف في الخارج وتؤمن خلفية من المؤثرات الصوتية الملائمة وحسب.

شبرينغر، أكْسل تسيزار: (١٩١٢–١٩٨٥)، ناشر، انشأ بعد عام ١٩٤٥ دارا من اكبر دور نشر الجرائد في ألمانيا الاتحادية.

دونكيرك: الاسم الفرنسي لمدينة دونكِرشن على شاطئ بحر البلطيق. في صيف ١٩٤٠ حاصر الالمان هناك قوات بريطانية وفرنسية، فانسحبت هذه القوات الى بريطانيا.

غوديريان، هاينْتس: (١٨٨٨–١٩٥٤)، جينرال، منذ ١٩٤٣ المشرف العام على قوات الدبابات، بين ١٩٤٤ و ١٩٤٥رئيس أركان حرب الجيش.

مانْشتاين، أرِش فون: (١٨٨٧–١٩٧٣)، مشير عام. في الحرب العالمية الثانية القائد الاعلى للجيش الحادي عشر، غزا جزيرة كريم وسيفاستوبول، فشل في ستالينغراد. عام ١٩٤٩ حكمت عليه محكمة عسكرية بريطانية بالسجن لمدة ١٨ سنة.

لندن: قصفت الطائرات الالمانية المناطق البريطانية بحوالي ستين ألف طنّ من القنابل على الاجمال.

كوفنتري: مدينة صناعية في وسط انكلترا، دمرتها الطائرات الالمانية في خريف عام ١٩٤٠ تدميرا شبه شامل.

لوبيك: في شهر آذار عام ١٩٤٢، اول غارة مسح شامل على مدينة ألمانية من قبل الـ"رويال اير فورس" (القوات الجوية الملكية.)

كولونيا: دُمِّرت المدينة في غارات ليلية بين الثلاثين والواحد والثلاثين من ايار عام ١٩٤٢.

هامبورغ: دُمِّرت في اواخر صيف عام ١٩٤٣ بغارات جوية مكثفة.

أوغْشتاين، رودولف: مواليد (١٩٢٣)، ناشر، منذ ١٩٤٦ ناشر المجلة الاخبارية "شبيغل" المعروفة.

خلال نشاطي كمراسل حربي، في روسيا وفيما بعد في الهند الصينية والجزائر – فالحرب مستمرة عند امثالنا – لم انجح إلاّ نادرا في تسجيل ما يثير من الاحداث والاخبار، لاني كنتُ في اوكرانيا كما في الحملتين على بولونيا وفرنسا، ارافق غالبا وحدات المشاة التي تتبع وحداتنا المدرعة: في البداية كنت – من موقعة حصار الى اخرى، عبر كييف الى سمولينسك ووصولا الى زمن الوحل – اقتفي اثر كتيبة من السلاح الهندسي، كانت من اجل تأمين الامدادات تصفّ طرقا من الاغصان والقضبان وتقوم بسحب القطع المعطلة. كما سبق القول كان اختصاصي: نثر الاحذية العسكرية وخِرَق الاقدام. أما زملائي فكان حديثهم أبلغ في تصوير الامجاد: نزل واحد منهم في ايار واحد واربعين مع الرجال المظليين فوق جزيرة كريت، ذاكرا "ان ماكس شميلينغ بعثر رجله اثناء العملية ..."، وهو عينه كان بعد ذلك بسنوات مراسلا لصحيفتنا الشعبية في اسرائيل، فارسل تقارير حول "انتصارات في سرعة البرق"، كما لو ان حرب الايام الستة مجرد استمرار لـ عملية باربْاروسا... وراقب مراسل ثان وهو على متن الطرّاد الامير أوغن، كيف أغرقت الـ بسمْارك البارجةَ البريطانية هُود، ثلاثة ايام قبل ان تغرق الـ بسمْارك بدورها بطاقم يزيد عدده على الف رجل: "ولو لم تصب دفتها بطوربيد جوي، جعلها غير قادرة على المناورة، لكانت الـ بسمْارك، على الارجح، قامت بـ ..." وتبرّع آخرون بقصص تدور على منوال "لو لم ينبح الكلب... لكمش الارنب..."

وانضمّ اليهم شميت، ذلك الخبير في الاستراتيجيا امام المدفأة، الذي جمّع الملايين بكتابته مسلسل الكريستال الذي صدر فيما بعد عن دار أولْشتاين في مجلد من الوزن الثقيل. فهو توصّل الى التنوّر القائل ان الحملة على البلقان حرمتنا من الانتصار النهائي في روسيا: "كان علينا ان نرتب الامور هناك لانه خطر على بال جنرال صربي يُدعى سيموفيتش ان يقوم بانتفاضة في بلغراد، فخسرنا بهذه العملية خمسة اسابيع ثمينة من الوقت. لكن، ماذا كان يمكن ان يحدث، لو لم تتقدم جيوشنا شرقا في الثاني والعشرين من حزيران، بل في الخامس عشر من ايار... ولو احتشدت دبابات الجينرال غوديريان بالتالي قبل اواسط تشرين بخمسة اسابيع، اي قبل زمن الوحل وانقضاض الصقيع، لتقوم بالزحف النهائي على موسكو..."

وعاد الى تفكره، في تواصل صامت مع نار المدفأة، يتقلب "انتصارات فاتتنا"، محاولا ان ينتصر في الحاضر والمخيلة في معارك انتهت في الواقع الى هزائم. وفي هذا السياق سنحت له هزيمتي ستالينغراد والعلمين فرصة للفوز المتخيل ايضا. صحيح انه ظل وحيدا في تأملاته، لكن لا احد تجرأ على المعارضة. ولم اعترض، انا الآخر، وفي حلقتنا من السابقين اثنان او ثلاثة من النازيين الصارمين بنفوذهم الثقيل، اذ كانوا آنذاك رؤساء تحرير ولا يزالون. فمن منا يجرؤ على اغضاب من يطعمه الخبز جزافا؟

لم نهزأ من فلسفة الـ"لو" والـ"ليت" إلاّ بعد ان نجحنا، انا وزميل لي، في الافلات من دائرة البخار لخبراء الاستراتيجيا الكبرى، ومواصلة ثرثرتنا في احدى حانات وسترلانْد. كان يكتب مثلي من منظور مساكين الجبهة، والتقينا في كانون الثاني عام واحد واربعين، حين استلمنا الامر لمرافقة فيلق رومل الافريقي الى ليبيا. في هذه المهمة كان مصورا وانا حامل القلم. ولاقى عملنا المشترك صدى كبيرا، حين نُشرت صوره الصحراوية وتقاريري حول استعادة موقع برقة في الـ زيكْزال على نطاق واسع. الى هذا الموضوع رجعنا ونحن نسكب كؤوسا من الخمر الى جوفينا في بار الحانة.

في حالة من السكر الذي يمكن وصفه باكثر من خفيف وقفنا بعد ذلك على كورنيش وسْترلاند مائلين صوب الريح. في البداية كنا نصر على الغناء: "نحب العواصف، وتلاطم الامواج..."، ثم اكتفينا بالتحديق الصامت الى البحر الذي ارسل امواجه في حركة رتيبة. في طريق العودة عبر ليلة اسدلت سوادها، حاولت ان احاكي سيدنا شميت السابق الذي يستحسن كتم اسمه الحالي: "تخيل يا أخي، لو نجح تشورتشيل في اوائل الحرب العالمية الاولى، في تنفيذ خطته بالانزال

في جزيرة سيلت بثلاث كتائب... لانتهى كل شيء ابكر مما حصل... لخطر على بال التاريخ مجرى آخر ...ألا تعتقد ذلك؟ لا آدولف والمصيبة التالية كلها. لا أسلاك شائكة ولا حائط بالنصف. لكان عندنا قيصر، ربما، ومستعمرات، ايضا. لكنّا افضل حال في سائر الامور ايضا، افضل بكثير..."

سموْلينْسك: دُمّرت في تموز عام ١٩٤١.

...لصحيفتنا الشعبية: صحيفة "بيلت" الصادرة عن دار شبرينْغر، من صحف "الفضائح والاثارة."

حرب الايام الستة: بين ٥ و ١٠حزيران ١٩٦٧. بعد انتصار اسرائيل على مصر والاردن وسوريا، امست محتلة مناطق تفوق حجم مساحاتها الخاصة بثلاثة اضعاف.

عملية باربْاروسا: الاعتداء الالماني على الاتحاد السوفياتي. بدأت العملية بتأخر ستة اسابيع عن الموعد المحدد، وذلك بسبب حرب البلقان.

كريت: تم غزو اليونان بسبب تحالفه مع بريطانيا في السادس من نيسان. أعلن الاستسلام في ٢١ نيسان. تم احتلال كريت في ٢٠ نيسان.

أولْشتاينْ: دار نشر اسّسها لبوبولت أولْشتاينْ عام ١٨٧٧، منذ ١٩٦٠ تابع لدار نشر أكسل شبرينْغر.

الحملة على البلقان... سيموفيتش: بين ٦ و١٧نيسان، بعد ان قام الجينرال الصربي بانقلاب عسكري في يوغسلافيا وعقد معاهدة عدم اعتداء مع الاتحاد السوفياتي.

ستالينْغراد: في اواخر تشرين الثاني عام ١٩٤٢ حاصرت القوات السوفياتية الجيش الالماني السادس بقيادة الجينرال باولْس (حوالي ٢٨٠ الف جندي.) استسلم الجيش في اواخر كانون الثاني عام ١٩٤٣.

العلمين: الموقع قرب الاسكندرية الذي فشل فيه الفيلق الافريقي الالماني بقيادة اروْين روما (١٨٩١-١٩٤٤) في محاولة الاختراق. انضم رومل عام ١٩٤٤ الى المقاومة واجبره هتلر، بع الاعتداء الفاشل، على الانتحار.

تشورتشيل، ونْستون: (١٨٧٤-١٩٦٥)، رجل دولة بريطاني، بين ١٩١١ و ١٩١٥اللورد الا لإمارة البحر، بين ١٩٤٠ و ١٩٤٥وبين ١٩٥١ و ١٩٥٥رئيس الوزراء، بادر بـ"التحالف الكب مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

١٩٤٢

قبل ظهر اليوم التالي تجمعنا مترددين، ويمكن القول "بالتنقيط." خرمت أشعة الشمس، هنا وهناك، طبقة الغيوم المتلبدة فامكن التنزّه باتجاه كايتْوم. لكن في غرفة الجلوس، التي بشّرت أعمدتها الخشبية المتينة بالصمود والدوام، عادت نار المدفأة الى الاشتعال وكأنها لم تنطفيء. أمّن مضيفنا الشاي الساخن، يسكبه من اباريق كروية. لكن الحديث ظل باردا خافتا. حتى الحاضر لم يكن مادة دسمة للنقاش. والمستمع الصابر وحده استطاع ان يلقط، من سَلَطة الكلام الباهتة التي تعلكها الحلقة الكسولة اللسان، بعضَ الكلمات المفاتيح التي حامت متغافلة حول موضوع حصار ولْخوف و لنينغراد وجبهة البحر الجليدي، من دون ان تحولّها الى احداث. قدّم احدهم تقريرا عن القوقاز بدا شبيها بالسرد السياحي، واشترك آخر وكأنه في عطلته الصيفية، في احتلال جنوب فرنسا. لكن احتلال شاركوف نجح على الاقل: بدأ الهجوم الصيفي الكبير. فانهال وابل من الاخبار الخاصة. لكن الوضع أمسى متأزّما وحرجا حين تدخلت الرقابة وشطبت من تقرير احد المراسلين نفوس الجنود الذين ماتوا بردا في ثلوج بحيرة لادوغا، ومن تقرير مراسل ثان الامدادات الناقصة في جوار روستْوف. ومن ثم، خلال فترة صمت انجبتها المصادفة، رفعتُ صوتي.

الى ذلك الحين، كنت ناجحا في تمالك نفسي. وهرّتني، ربما، هيبة رؤساء التحرير الكبار. لكن هذه الجماعة، بما فيها خبيرنا في الفن والغواصات، لم تتشرف بالحضور بعد، ووجدت، على الارجح، جمهورا اكثر جاذبية في معاقل المشاهير المجاورة. فانتهزتُ الفرصة وتكلمتُ، لا بل بداتُ بالكلام متلعثما، اذ لم أكن يوما فطحلا في الشفهي: "يومها كان عندي عطلة، فرجعت من سيفاستوبول الى كولونيا. سكنت عند اختي قرب السوق الجديدة. بدا كل شيء في هدوئه النسبي شبيها بما كانت عليه الحال سابقا. ذهبت الى طبيب اسناني ليرصرص لي ضرسا يؤلمني على جهة اليسار. فنظف الضرس وطلب الي ان اعود بعد يومين.

لكن هذا ما حصل... لانه في الليلة ما بين الثلاثين والواحد والثلاثين من ايار... وكان القمر بدرا... جاءت الضربة الرهيبة... ما يقرب الف طائرة من الـ رويال اير فورس... القت القنابل اولا على مدفعيتنا المضادة... بعد ذلك وابل من القنابل الحارقة، ثم قنابل انفجارية، الغام جوية، عبوات فوسفور... ما اصابت مركز المدينة فقط، بل الضواحي ايضا، حتى دويتس ومولْهايم على الجهة الاخرى لنهر رايْن... ما كانت مركزة على هدف... بل غطّت كل شيء... احياء باكملها... شبّ في بيتنا حريق تحت السطح... لكن عند الجيران اصابة مباشرة... رأيت اشياء غير معقولة البتة... ساعدتُ سيدتين عجوزين في الشقة الفوقانية في اطفاء غرفة النوم، كانت الستائر واللحف مشتعلة... ولما انتهيت، قالت احدى العجوزين: "ومن يرسل لنا احدا يساعدنا في تنظيف البيت؟" لكن وصف هذه الاشياء مستحيل. كما يستحيل الكلام على المطمورين تحت الانقاض... او على الجثث المحروقة... لا ازال ارى امامي اسلاك (الترامواي) المتدلية في شارع فريزن بين الانقاض التي يتصاعد منها الدخان، تتدلى مثل لفائف الورق الملون ايام الكارنفال. وفي شارع برايته صارت اربعة مبانٍ بمحلات كبيرة هياكل حديد. واحترقت دارة آعريبا بصالتين للسينما. وقرب الـ رينغ المقهى فيينا... كنت أرتاده مع هيلده التي صارت زوجتي... من مبنى رئاسة الشرطة طارت الطوابق العليا... وساينت أ مشقوق كما لو نزل عليه الفأس... الكتدرائية وحدها كانت واقفة، يتصاعد منها الدخان... لكنها سلمت، بينما كل ما حولها... والجسر المؤدي الى دويتس ايضا... اي نعم، والبناية التي كانت فيها عيادة طبيب اسناني انمحت تماما. كان، بغضّ النظر عن مدينة لوبك، الهجوم الارهابي الاول الكبير. صحيح، في الحقيقة بدأنا نحن في روتردام وكوفنْتري، ووارسو بالطبع... وهكذا استمرت الامور وصولا الى دريسدْن... فدائما لا بد ان يبدأ طرف من الاطراف... لكن بألف طائرة، بينها سبعين لانكاستر باربعة محركات... صحيح ان مضاداتنا انزلت اكثر من ثلاثين... لكن عددها صار يزيد ويزيد... بعد ذلك باربعة ايام عاد (الترامواي) يشتغل. فقطعتُ عطلتي. وإن كان ضرسي ما زال يؤلمني. اردتُ العودة الى الجبهة.

فهناك كنت أعرف على الاقل، ماذا اتوقع. بكيتُ، بكيتُ فعلا، اقول لكم، حين رأيت مدينتي كولونيا من موقع دويتس: الدخان يتصاعد، والكتدرائية وحدها واقفة..."

انصت الحاضرون اليّ. وهو أمر نادر الحدوث. ولا يعود السبب في ذلك الى بلاغتي الشفهية الركيكة وحسب. لكن هذه المرة، كنتُ بكل تواضع في مركز الاهتمام. بعد ذلك استمر بعضهم في الحديث على دارمشْتاد وفورتسبْورغ، على نورنْبرغ وهايلْبرون والى آخره. وعلى برلين وهامبورغ، طبعا ... الكثير من الانقاض... القصص نفسها ابدا... اشياء تفوق الوصف، في الواقع... لكن عند الظهر، لما اكتملت حلقتنا، جاء دور ستالينغراد، ستالينغراد فقط ولا شيء سواها، مع ان لا احد منّا شهد الحصار. كان حظنا، جميعا، "من السما..."

سيفاستوبول: مدينة اوكرانية على الشاطئ الجنوب الغربي لجزيرة كريم.

وارسو: عند محاصرة وارسو في ايلول عام ١٩٣٩ تم تحطيم المقاومة من خلال الغارات الجوية المكثفة.

درسدْن: في ليلة الثالث عشر / الرابع عشر من شباط عام ١٩٤٥.

بالرغم ان مضيفنا لعب دور الغراب الحيادي، إلاّ انه برع في اضفاء وجهة على ثرثراتنا العفوية، تتبع وجهة الحرب ومجراها. فاقتصر الحديث، بعد ستالينغراد والعلمين على الانسحابات، او كما قيل يومها، على تسوية الجبهات. واشتكى معظم الحاضرين من صعوبات في الكتابة، لا لان الرقابة كانت تشذب نصوصهم او تكذبها وحسب، بل لان الصعوبة شملت كل شيء: فالكتابة على معارك الحصار، على قوافل من السفن الغارقة في المحيط الاطلسي واستعراض النصر في الـ شامز أليزيه، اسهل واكثر اثارة من وصف اورام الصقيع والانسحاب الشامل من سهل الـ دونيتس واستسلام ما تبقى من الفيلق الافريقي في تونس. وباي حال، كان الدفاع عن مونته كاسينو الحدث الوحيد الذي نفع مادة لوصف البطولات. "صحيح انه امكن تحويل تحرير الـ دوتشيه الى عملية شجاعة، لكن، هذا هو..." لذلك احس الحاضرون بالاحراج والخجل حين بادر احدهم في هذا الصدد بالكلام على قمع الانتفاضة في حي اليهود في وارسو، وتمادى الى حسبان هذه المجزرة انتصارا.

كان المتكلم سيداً لم يفتح فمه من قبل، يغطي جسمه البدين جوخ الصيادين الاخضر الخشن، وهو يسعد جمهوره من هواة الصيد المتحمسين – على ما علمت فيما بعد – بتقارير مصورة ممتازة حول حيوانات وضوار ورحلات صيد افريقية. وفي ايار ثلاثة واربعين كان حاضرا في الحي المحاط بالاسوار، مجهزا بآلة تصويره من طراز لايكا، حين صفّت مدافع المدفعية وقاذفات اللهيب اكثر من خمسين الف يهودي. بعد ذلك لم يبق لحي اليهود الوارسوي اي اثر يذكر.

كان عضوا في سرية اعلامية للجيش، فكُلف بتغطية الحدث كمصور فوتوغرافي، على ان تنتهي مهمته مع انتهاء حملة التطهير. اضافة الى ذلك، او خلال اوقات فراغه بالاحرى، عمل على تزويد ألبوم اسود ملبس بجلد نافر بلقطاته الفوتوغرافية، ذلك الالبوم الذي أُرسلت منه نسخ ثلاث الى كل من هيملر، رئيس

الرايخ للـ س س، وكروغر، قائد الـ س س والشرطة في كراكاو، ويورغن شتروب، رئيس فرقة الـ س س وقائد القوات في وارسو... الالبوم عينه الذي رُفع فيما بعد الى المحكمة العسكرية في نورنْبرغ، ملقبا بـ"تقرير شتروب."

قال: "اني التقطت اكثر من ٦٠٠ صورة، اخترت منها للالبوم اربعاً واربعين فقط. لصقتها بعناية على كارتون أملس من نوع بريستُول... عمل مريح في الواقع، ومثير لهاوي الاشغال اليدوية. لكن عناوين الصور المخططة باليد لا تعود اليّ كلها. فهنا تدخل كاليسكه، معاون شتروب... والشعار المدون بخط اليد في المقدمة والقائل: "لم يعد يوجد اي حي سكني يهودي في وارسو" من ابتكاره ايضا. في البداية كان المطلوب اخلاء الحي اليهودي فقط، وكما قيل، لخطر انتشار وباء. فكتبتُ بخط جميل تحت الصور: "الخروج من المصانع!" لكن بعد حين واجه رجالنا مناوأة من قبل شبان شبه عُزل وبعض النسوة، واعضاء في حركة هالوتس الشهيرة، سيئة السمعة. اما من جهتنا فاستخدمنا فرق الـ س س المسلحة، وكتيبة هندسية مزودة بقاذفات اللهب، ورجال ترافنْيكي كذلك، اي متطوعين من ليتوانيا ولاتفيا وبولونيا. بالطبع وقعت عندنا خسائر ايضا. لكني لم التقط لها صورا. وامتنعت عموما عن تصوير الجثث. فضلّت الصور الجماعية. وسميت صورة اشتهرت فيما بعد في كل محل "الاخراج من الملاجيء بالقوة." وصورة اخرى شهيرة: "الى محطة النقل." فهي تصور من ساقوهم الى رصيف الشحن. وبعد ذلك الى تربلْينكا. لقد سمعت هذا الاسم يومها للمرة الاولى. نقلوا ما يقرب من مائة وخمسين ألفا. لكن هناك ايضا صورا بلا عنوان، ناطقة بذاتها. احداها ساخرة نوعا ما، فهي تصور بعضا من رجالنا يتحدثون بوديّة مع جماعة من الاحبار. لكن اكثر اللقطات اشتهارا من بعد الحرب واحدة تصور نساء واطفالا بايد مرفوعة. وعلى اليمين وفي الخلفية بعض من رجالنا ببنادقهم المرفوعة المصوبة. وفي المقدمة صبي يهودي جميل، بقبعة مائلة على رأسه وجوارب للركبتين. بالتأكيد تعرفونها. فالصورة طبعت آلآف المرات. في الداخل والخارج، حتى كغلاف للكتب. صارت طقسا من الطقوس، لا يزالون يمارسونه... وبالطبع

من دون ذكر اسم المصور في كل مرة... ما حصلت على قرش بالمقابل... ولا شيء... ويقولون بحقوق النشر... ولا أجر... حسبت القضية مرة... لو اعطوني لكل طبعة خمسين ماركا فقط، لكان في رصيدي الآن مبلغ، بفضل هذه الصورة وحدها... لا، لم اطلق طلقة واحدة، مع اني كنت دائما في المقدمة. تعرفون القصة... هذه الصور فقط... والعناوين المخطوطة طبعا... حسب الموضة القديمة في الخط الالماني التقليدي ... وثائق مهمة جدا، كما تعلمون اليوم..."

ظل يتكلم طويلا بعد، كما لو يكلم نفسه. فما من احد بين الحاضرين كلهم ظل ينصت اليه. في الخارج، تحسن الطقس أخيرا. أحس الجميع بحاجة الى هواء منعش. فجازفنا، جماعة وافراداً، بالتنزه في مهب الرياح التي كانت ما تزال قوية. على دروب وعرة عبرنا تلال الشواطيء الرملية. لقد وعدتُ ابني الصغير قبل سفري باحضار بعض الاصداف. ووجدت منها فعلا.

استعراض النصر في الـ شامز أليزيه: في ١٩٤٠/٦/٢٢وقعت فرنسا اتفاقية الهدنة.

الانسحاب من سهل الـ دونيْتس: في السابع عشر من تموز بدأ الهجوم الروسي الناجح بجوار نهر دونيْتس في اوكرانيا.

دونتشيه: (القائد)، منذ ١٩٢٢ لقب موسوليني.

استسلام الفيلق الافريقي: في ١٣ ايار.

الانتفاضة في حي اليهود في وارسو: سبّب نقل اليهود من غيتو وارسو الانتفاضة (الاولى) بين شهري نيسان وأيار عام ١٩٤٣. اثناء الاشتباكات قتلت فرق الـ س س خمسين ألف يهودي.

هيملر: هاينْرش: (١٩٠٠-١٩٤٥)، عمل منذ ١٩٢٩ على تحويل الـ س س (حرفيا: بيادق الهجوم) الى تنظيم بوليسي داخل الحزب النازي. قام منذ ١٩٣٦ كـ "رئيس الشرطة الالمانية" بادماج الشرطة في الـ س س. كان المسؤول عن انشاء شبكة من معسكرات الاعتقال والابادة وعن سياسة الترحيل والجرمنة في اوربا الشرقية والجنوبية الشرقية. قام بعد بداية الحرب بتحويل فرق الـ س س المسلحة الى جيش مستقل الى جانب الجيش الالماني. عام ١٩٤٣ وزير داخلية الرايخ والمفوّض العام لادارة الرايخ. عام ١٩٤٤ القائد الاعلى لجيش الاحتياط والمسؤول عن تسليح الجيش.

١٩٤٤

كان لا بد من حصول الانفجار، عاجلا ام آجلا. لا أعني ان الجو كان عابقا برائحة الصدام، لكن لقاءات من هذا النوع لا تخلو منه. حين صار حديثنا محصورا في الانسحابات - "سقطت مدينتي كيياف وليوف، وزحف الايفان على وارسو" - ...، حين تدهورت جبهة نيتونو وسقطت روما بلا معركة وحوّل الاجتياح سدّ الاطلسي المنيع الى اضحوكة، حين تدمرت في الوطن مدينة اثر مدينة تحت وابل من القنابل وتفاقمت المجاعة واستنفدت روح الدعابة، فلا تصلح ملصقات الـ"لا تسرق الفحم" و"العدو ينصت" سوى لنكتة سمجة، حين الجأت حلقتنا نفسها الى تركيب "نكت الصمود" واجترارها، حينها بادر احدهم - واحد من رجال الحملات الاعلامية الذين لم ينزلوا يوما الى موقع او جبهة، بل قعدوا طوال الحرب على كراسيهم المريحة وانتجوا بعدها مؤلفات، في الاسلوب عينه بتغيير طفيف، تحتل قوائم الكتب الاكثر مبيعاً - واخرج من صندوق الفرجة الكلمة السحرية" السلاح المعجزة."

فجاءت ردة الفعل زعيقا وعربدة. وصاح الريّس، صاحب المجلة المهيمنة على السوق: "ما هذه الخلف!" فعلا تصفير. لكن ذلك السيد الذي بات الآن طاعنا في السن، لم يرض بالاستسلام. بعد ابتسامة استفزازية بشّر "لاسطورة هتلر" بالمستقبل الباهر، وهو يشرع، مستشهدا بكل من كارل، ذبّاح الساكسونيين، وفريدريك الكبير، و"الكاسر نابوليون" طبعا، في تشييد تمثال يخلّد "مبدأ الفوهرر." استرسل من دون شطب كلمة واحدة من مقال "السلاح العجيب" الذي نشرته صحيفة فولْكيشر بيوبْاخْتر في صيف اربعة واربعين، والذي اثار يومها ضجة وقوّى - يا للامر البديهي -! ارادة الصمود والتصدي.

انتصب السيد امام نار المدفأة وقال: "من قاد اوربا الى طريقها واهداها بنظرة تنفذ الى المستقبل؟ من انقذ اوربا، مناوئا حتى النهاية الفيضان البولشفيكي؟ من خطا، بفضل الاسلحة البعيدة المدى، الخطوة الاولى في الطريق المؤدية الى انظمة

حاملة لرؤوس نووية؟ هو، هو وحده. به وحده تقترن عظمة ستثبت دوامها في مهب التاريخ. اما فيما يخص مقالي المنشور في الـ بيوباْختر، فاني اطرح السؤال على كل المجتمعين هنا: أليس المطلوب منا ان نكون من جديد جنودا، وإن في اطار جيش الاتحاد الهزيل؟ ألسنا الحربة والسدّ على السواء؟ ألا نبرهن اليوم، وإن جاء البرهان متأخرا، على ان ألمانيا انتصرت في الواقع؟ ينظر العالم بعين الحسد والاعجاب الى اعادة البناء في البلاد. بعد الهزيمة الشاملة تتدفق القوة الاقتصادية ناهلة من فائضنا في الطاقة. استرجعنا هيبتنا. وعاجلا سنكون في الصدارة. كذلك نجح اليابان في..."

غرق سائر الخطاب في موجة عارمة من الصيحات والضحكات والتعليقات. وصاح احدهم بوجهه "ألمانيا فوق كل شيء"! محاكيا عنوان كتابه الذي يحتل منذ سنين قوائم الكتب الاكثر مبيعا. وحرّم الريّس حلقتنا من حضوره بقوامه الضخم، اذ انسحب منها باحتجاجات عالية. لكن المؤلف بدا مغتبطا لما أثاره استفزازه من ردات فعل. عاد الى الجلوس واضفى على نظرته ظاهر القدرة على التنبُّؤ.

عبثا حاولنا – انا والمضيف – ان نمهد لنقاش اكثر تنظيما: اصر بعضهم على الرجوع عن الانسحابات واعادة خوض معركة الحصار حول مينْسك. وانجر آخرون الى تأملات حول محاولة اغتيال هتلر: "لو نجحت، لادّت الهدنة مع حلفاء الغرب بالتأكيد الى تقوية الجبهة الشرقية، ولزحفنا بالتحالف مع الامريكان على الايفان..."، لكن الغالبية تباكت على خسارة فرنسا، مستحضرة "اياما حلوة" في باريس، و"مزايا الحياة على الطريقة الفرنسية" عموما... فكانت بعيدة بعد الاسطورة عن الواقع، عن بداية الاجتياح على شواطيء النورماندي، كما لو انها لم تعلم بخبر الانزال الكبير إلاّ ما بعد الحرب بسنوات وعن طريق افلام امريكية تعرض على الشاشة العريضة. وبالطبع تكرّم علينا بعضهم بتضييفنا قصص النسوان، ومنهم خبيرنا في الفن والغواصات الذي بكي على عرائسه في الموانيء الفرنسية، ليعود بعد ذلك الى الغوص مقتفيا آثار العدو.

لكن الشيخ الذي كانت "اسطورة هتلر" مسألة عزيزة على قلبه، أصر على ان يذكرنا بان جائزة نوبل في الكيمياء كانت يوما من نصيب ألمانيّ. فمن مقعد المدفأة حيث غرق على ما يبدو في سبات قصير، جاءتنا البشرى: "حدث ذلك، يا سادتي الكرام، بعد سقوط آخن وقبل هجومنا الاخير الكبير في منطقة اردين بايام قليلة... حينما كرم السويد الحيادي العالم الممتاز أوتو هان لأنّه اول من اكتشف تقسيم الذرة. بعد فوات الاوان، طبعا... لكن، لو امكن لنا ان نستعين قبل الامريكيين – ولو في الساعة الاخيرة – بهذا السلاح العجيب الحاسم للامور كلها، لـ..."

اختنقت الضجة وساد الصمت والتفكر في نتائج الفرصة الفائتة... تنهدّ وهزّ أكتاف وتنحنح، لا يتبعه اي افصاح هام. حتى صاحبنا، راكب الغواصات الانفعالي الطنان، امتنع عن غزل نسيج البحارة الغني الخيال.

لكن بعد حين أمّن لنا المضيف الخمر الساخن على طريقة فريسْلاند. فصار الجو، بفضل هذا المشروب الملقب بـ غروغ، اكثر إلفة وتقاربا. لا احد اراد الخروج الى ليلة هبطت باكرا. والنشرة قد تنبأت بامطار وعواصف.

ذبّاح الساكسونيين: القيصر كارل الاول (بالفرنسية "شارلْمان") ٧٤٧–٨١٤، قام بقتل ٤٥٠٠ أسير اثناء قمع الساكسونيين واخضاعهم للدين المسيحي.

فريدريك الكبير: فريدرش الثاني (الكبير) في براندْنبورغ وبروسيا (١٧١٢–١٧٨٦).

صحيفة فولْكيشر بيوباْختر: (حرفيا: المراقب القومي)، لسان حال الحزب النازي بين ١٩٢٠ و١٩٤٥.

محاولة اغتيال هتلر: في العشرين من تموز عام ١٩٤٤ اشعل النقيب كلاوس شينك، دوق شتاوفنبْرغ (١٩٠٧–١٩٤٤)، قنبلة في مقر هتلر في بروسيا الشرقية. لكن هتلر لم يصب إلاّ بجروح طفيفة. كان من المخطط ان تتشكل بعد موت هتلر حكومة مدعومة من المقاومة تضع حدا للحرب.

الاجتياح على شواطيء النورماندي: في ١٩٤٤/٦/٦، لقب بـ"د داي".

آخن: احتلال المدينة في ١٩٤٤/١٠/٢١.

أوتو هان: (١٨٧٩–١٩٦٨)، عالم كيمياء الماني. اجرى منذ ١٩٠٤ ابحاثا في المواد الذرية الفاعلة. حصل في اواخر عام ١٩٤٤ على جائزة نوبل.

الهجوم في منطقة اردين: بدأ في ١٩٤٤/١٢/١٦.

وفقا لاقوال مضيفنا الذي استمع الى النشرة الجوية، كانت منطقة من الضغط الجوي المنخفض متجهة من ايسلاند الى السويد. قال إنه يُتوقع هبوب رياح عاصفة من مقدار ١٢ وانخفاض سريع في الضغط الجوي. "لكن، لا داعي للقلق، يا جماعة. فهذا البيت متين حصين، مهما عصفت العواصف."

في ذلك النهار الذي صادف يوم الجمعة السادس عشر من شباط عام ١٩٦٢، علا بعد الساعة الثامنة مساءً ناقوس الخطر. كان الجو اشبه بالحرب. انقضّت العاصفة بثقلها كله على الجزيرة في عرضها وطولها. مفهوم، ان هذه المسرحية الطبيعية اثارت بعض الهمم. علّمتنا السنوات على الجبهة ان نكون حاضرين في المقدمة. كنا لا نزال محترفين، وانا كذلك.

رغم تحذير مضيفنا، غادر جمع من المراسلين الحربيين السابقين البيت الصامد، على ما أكّد لنا، في وجه تصاريف الطقس كلها. بشقّ النفس ومنحنين، لا بل زاحفين فقط، تقدمنا انطلاقا من الت–وسترلاند نحو كورنيش البحر، فرأينا هناك أعمدة الاعلام مكسورة، والاشجار مستأصلة، وسقوف القش مخلوعة، والمقاعد والاسيجة متطايرة في المهب. كانت رغوة البحر تكوّن ضبابا يحجب النظر، فامتزج ما رأيناه بالخيال: امواج بارتفاع البيوت تنقضّ على الشاطيء الغربي للجزيرة. لم نعلم إلاّ فيما بعد، كيف عاث هذا الفيضان العاصف صعودا مع نهر ألبه في مدينة هامبورغ وخاصة في حي ولهلمسبْورغ: ارتفع مستوى البحر ثلاثة امتار ونصف فوق العادي. تدهورت السدود. اكياس الرمل غير كافية. سقطت اكثر من ثلاثمائة ضحية. تدخّل جيش الاتحاد. وشخص صار فيما بعد رئيسا، اصدر اوامر منعت حدوث الاسوأ...

لا، على جزيرة سيلْت لم يسقط ضحايا. لكن الشاطيء الغربي انحدر على عمق ستة عشر مترا. حتى على الشواطيء الاخرى حيث يكون البحر ضحلا في العادة، قيل: "غرقت اليابسة!" وغطّى الطوفان ايضا الجرف الصخري لـ كايتوم. وهدّد

قريتي ليست وهورنوم. وما من قطار قادر على عبور سدّ هينْدنْبورغ.

بعد ان هدأت العاصفة، تفقدنا الاضرار. اردنا تقديم التقارير. فهذا اختصاصنا وما تعلّمناه. لكن يومها، حين شارفت الحرب على نهايتها ولم يبق ما يمكن وصفه سوى الأضرار والخسائر، كان المطلوب منّا كتابة نداءات للصمود، لا غير. صحيح اني كتبت حول قوافل المهجرين من بروسيا الشرقية الذين ارادوا الوصول الى فريشه نيرونغ عبر الخليج المجلد، لكني لم أجد ناشرا لتقريري عن البؤس، حتى مجلة "زيكنال" رفضته. رأيت سفنا تبحر من دانتسيغ–نويفاروْاسر، محمّلة فوق طاقتها بالمدنيين والجرحى والكوادر الحزبية، رأيت سفينة ولْهالم غوستاف قبل غرقها بثلاثة ايام. لم اكتب كلمة واحدة عليها. وحين اشتعلت دانتسيغ وامكن رؤية الحرائق من بعيد، لم اتمكن من كتابة مرثية صارخة حتى السماء، بل هربت بالاحرى مع فيض المهجرين المدنيين والجنود الضالين عن الجيش الى مصب نهر وايكْسل. شاهدت اخلاء معسكر الاعتقال شتوتْهوف، ونقل المعتقلين الناجين من مشقة السير على الاقدام الى نيكلْسْوْالده، الى قوارب مكتظة، ثم الى سفن ترسو في جوار مصب النهر. لم اكتب نثرا للرعب، ولا شفقا ثانيا للاوثان. رأيت ذلك كله ولم اكتب عنه. رأيت كيف يكدّسون الجثث ويحرقونها في معسكر الاعتقال الذي تم إخلاؤه، رأيت المهجرين من الْبينغ وتيغنْهوف وهم ينزلون بقضهم وما يحملون في ردهات المعسكر الفارغة. ولم اعد ارى حراسا. ثم جاء عمال زراعيون بولونيون. بين حين وآخر سمعنا بعملية نهب. والمعارك مستمرة، لان رأس الجسر على مصب نهر وايكسل ظلّ صامدا حتى شهر ايار.

جرى ذلك كله في اجمل طقس ربيعي. كنت ممددا في الشمس بين اشجار صنوبر الشواطيء، لكني لم اقدر على كتابة كلمة واحدة، مع ان الجميع امطروني باخبار بؤسهم: فلاحة من مازورن فقدت اطفالها، زوجان كهلان تمكنا من العبور قادمين من فراونْبورغ، بروفسور بولوني مكث في المكان مع قلة من زملائه المعتقلين السابقين. لكن وصفْ ذلك كان فوق طاقتي. لم اتعلمه، والكلام عاصٍ عليّ. فتعلمت الكتمان. هربت الى سفينة كانت واحدة من سفن الحراسة الاخيرة المتجهة من

شيفنْهورست الى الغرب. وفي الثاني من ايار وصلت سالما الى ترافهمُونْده، رغم تعرض السفينة لغارات جوية بالطيران المنخفض التحليق.

والآن أجدني مرة ثانية بين ناجين، تعلموا – مثلما تعلمت – تقديم التقارير حول اقتحامات وانتصارات وكتمان الباقي. حاولت ان اقلد الآخرين، اسجّل الاضرار الناتجة عن العاصفة على جزيرة سيلت، واستمع مدونا الملاحظات الى شكاوى المتضررين من الفيضان. فماذا يمكن لنا ان نفعل غير ذلك؟ في النهاية يعيش امثالنا على التقارير.

في اليوم التالي بدأت الجماعة بالتفتت. فالفطاحل بيننا قد انتقلوا، على كلٍّ، الى الفيلات المتينة لمشاهير الجزيرة. في نهاية الايام على الجزيرة صار الطقس شتانيا قارسا ومشمسا، فرأيت غروب شمس لا يوصف جماله.

وبعد ان عادت سكة الحديد الى نشاطها، ركبت القطار ورحلت عبر سدّ هندنبورغ. لا، لم نلتق ثانيةً في اي محل.

كتبت تقريري التالي من منطقة بعيدة، من الجزائر، حيث كانت حرب فرنسا، بعد مجازر دامت سبع سنوات، تلفظ انفاسها الاخيرة من دون ان تنتهي فعلا. وماذا يعني، في الواقع، لفظ "السلام"؟ عند أمثالنا لم تنته الحرب يوما.

شخص صار فيما بعد رئيسا: هلْموت شمْيت (مواليد ١٩١٨)، في الحرب العالمية الثانية ضابط، منذ ١٩٤٦ عضو في الحزب الديمقراطي الاجتماعي، بين ١٩٧٤ و ١٩٨٢ رئيس الاتحاد (بعد فيلي برانْت).

١٩٤٦

غبار الطوب، اقول لكم، غبار الطوب اينما كان! في الهواء، في الملابس، بين الاسنان وفي اي محل تشاؤون. لكننا، نحن النساء، لم نهتم... كان المهم، ان ننعم اخيرا بالسلام. واليوم يريدون تخليدنا بتمثال... اي نعم! امرأة الانقاض البرلينية –! يقول شعار المبادرة. لكن آنذاك، حين كانت الانقاض منتشرة في كل محل والطرقات غير سالكة لاكوام الحطام والخرائب المتراكمة فيها، كانوا يدفعون لنا للساعة واحدا وستين قرشا، فقط... نعم، ما زلت اذكر ذلك. لكننا حصلنا، الى جانب الاجر، على بطاقة غذائية – سموها "البطاقة رقم اثنان"، اي "بطاقة عمال" – افضل من بطاقة ربّات البيوت التي تؤمن لصاحبتها ثلاثمائة غرام من الخبز وسبعة غرامات من الشحم يوميا، لا غير. وقولوا لي، كيف يعيش الواحد على هذه الكمية الهزيلة.

كان العمل شاقا، اعني ازالة الانقاض ورفع الحطام، في وسط برلين، حيث كل شيء خراب. كنت أعمل مع ابنتي، لوته، في مجموعة من العاملات. ولوته تحضر معها يوميا عربة الطفل. كان اسم الصبي فيلكس، لكنه اصيب بالسل، بسبب غبار الطوب، على ما اظن. فمات عام سبعة واربعين، قبل ان يعود زوجها من الاسر، زوجها الذي لم تعرفه جيدا ولا هو يعرفها لانهما تزوجا خلال الحرب واقاما حفلة العرس بالتراسل. فهو كان يخدم بالاولّ في البلقان ومن ثم على الجبهة الشرقية. وفي النهاية لم يدم الزواج. اي نعم، لانهما كانا في صميميهما غريبين. وهو لم يكن يريد ان يساعد في اي شيء، ولا حتى في جلب الخشب من حديقة الحيوانات. كل ما كان يرغب فيه ان يستلقي على الفراش ويحدّق في السقف وكأنه يريد ثقبه بنظراته. وذلك، على ما اظن، لانه عاش في روسيا امورا فظيعة. كان ينتحب ويشتكي فقط، وكأنّ ليالي القذائف التي عشناها، كانت بالنسبة لنا نحن النساء، لذة حقيقية. لكن النحيب عمره لم يد. فصرنا نشتغل: ندخل الى الانقاض ونخرج من الانقاض! واحيانا كنا نزيل الحطام من علية او طابق باكمله. نضع

الحطام في دلو وننزل السلام خمسة طوابق، فلا مزلقة لدينا بعد.

ومرة، ما زلتُ متذكرة، فتشنا منزلا خاليا، مهدّما نصفه، لا اثاث فيه، وعلى جدرانه ورق ممزق، لا غير. لكن، في زاوية ما وجدت لوته دبا من القماش، مغطّى بالغبار. فنظفته، فبدا مثل لعبة جديدة. لكننا تساءلنا جميعا، ماذا جرى للطفل الذي كان صاحب الدب في يوم من الايام. لا أحد في مجموعتنا كان يريده، فأخذته لوته معها هدية لفيلكس، فالصغير كان يومها لا يزال على قيد الحياة... لكن، في معظم الايام كنا ننقل الحطام بالمجرفة الى عربات قلابة او نزيل بالمطرقة الملاط عن احجار الطوب السليمة. في البداية كانوا يملؤون فجوات القنابل بهذا الحطام، وفيما بعد صاروا ينقلونه بالشاحنات الى تلة الانقاض التي تبدو الآن خضراء ويمكن الاطلال منها على مناظر جميلة.

بالضبط! كنا نجمع احجار الطوب السليمة ونراكمها. نعمل، انا وابنتي لوته، على القطعة: دقّ احجار الطوب. كنا مجموعة غريبة عجيبة. فيها نساء رأين اياما أفضل، بلا شك... ارامل موظفين ... وحتى امرأة ارستقراطية حقيقية. لا ازال اذكرها: كانت من آل توركْهايم. ولديها أملاك في الشرق، على ما أظن. ويا لاشكالنا! سراويل من بطانيات الجيش القديمة، كنزات من فضلات الصوف. وكلنا بالمناديل المشدودة المعقودة على أعلى الرأس، نعم، للوقاية من الغبار. وقيل إننا كنا ما يقرب من خمسين الف امرأة في برلين. لا، الرجال لم يشتغلوا في الانقاض، النساء فقط. كانت اعداد الرجال ناقصة، على كل. والباقون منهم كانوا يتسكعون فقط او يتاجرون في السوق السوداء. فالاعمال الشاقة لم تكن على ذوقهم.

لكن مرة، ما زلت اذكر... حين بدأنا نعمل على كومة جديدة من الحطام وكان علينا سحب عمود حديد، أمسكت يدي حذاءً. صحيح! ومعلقا بالحذاء كان رجل لم يبق منه ما يدل اليه. سوى الشريط على كم معطفه... وكتب عليه انه من تنظيم الهجوم الشعبي. ومعطفه هذا بدا صالحا تماما. من الصوف الاصلي، بضاعة ما قبل الحرب. فقلتُ لنفسي "هيّا"! وصادرتُ القطعة الحلوة، قبل ان يرفعوا الرجل.

حتى الازرار كلها كانت فيه. وفي احد الجيوب وجدتُ هارمونيكا للفم من طراز هونر. قدمتُها هدية لزوج ابنتي لأرفّه عن نفسه قليلا. لكنه لم يكن يريد العزف. وإن عزف، فألحان حزينة فقط. كنا، انا ولوته، في جو آخر تماما. اردنا ان تتحسن الامور. وهذا ما حصل فعلا، "تدريجيا..."

صح! حصلتُ على عمل في مطعم دار البلدية في شونهبْرغ. و لوته التي اشتغلت خلال الحرب على اللاسلكي، صارت تدرس، بعد ان اختفت الانقاض تقريبا، وتتعلم في المدرسة الليلية الطباعة على الآلة الكاتبة وخط الاختزال. وبعد فترة، حصلت على عمل ايضا وهي الآن، بعد طلاقها، سيكرتيرة. لكني لن انسى، كيف اشاد بنا رويتْر، الذي كان وقتها رئيس البلدية، وكيف مدحنا... واليوم أحضر في معظم الاوقات، لقاءات نساء الانقاض في مقهى شيلينغ على فنجان من القهوة والحلويات. فالجو هناك مرح دائما.

الهجوم الشعبي: منذ ايلول عام ١٩٤٤ تنظيم قتالي تألّف من رجال غير منتمين الى الجيش التنظيمي بين ١٦ و ٦٠ سنة من العمر، أنشئ للدفاع عن اراضي الرايخ.

رويتر، أرنْسْت: (١٨٨٩–١٩٥٣)، سياسي (الحزب الديمقراطي الاجتماعي)، كان مرّتين في معسكرات الاعتقال، ذهب الى المنفى عام ١٩٣٥، انتخب عام ١٩٤٧ رئيسا لبلدية مدينة برلين.

١٩٤٧

في ذلك الشتاء الذي لا نظير له، حين بلغت درجة الصقيع العشرين تحت الصفر فامتنع نقل الفحم في المناطق الغربية على الانهر الكبيرة – ألبه وويزر وراين – لانها تجلدت، في ذلك الشتاء القارس، كنتُ، بصفتي عضوا في مجلس مدينة هامبورغ، مسؤولا عن تزويدها بالطاقة. كما اكد يومها رئيس البلدية، السيد باور، في خطاباته الاذاعية، لم يبلغ الوضع يوما – ولا في سنين الحرب نفسها – ذلك الحد من اليأس. خلال اشهر الصقيع المستمرة سجلنا خمساً وثمانين حالة وفاة بردا. لكن، لا تسألوني عن عدد الذين ماتوا من الانفلوينزا.

لتخفيف حدة الوضع جهّز مجلس المدينة قاعات مدفأة في الأحياء والانحاء كلها، من أيمسبْوتل وبارمبْك الى لانغنهورن ووانديسْبك. لكن سلطات الاحتلال البريطانية صادرت، لصالح الجيش، احتياط الفحم من السنة السابقة، والموجودات في محطة توليد الكهرباء تكفي لبضعة اسابيع فقط، فاضطررنا الى اتخاذ قرار صارم بالتقنين. هكذا شاهدت احياء المدينة كلها انقطاعات في الكهرباء. اقتصر تشغيل الميترو والتراموای على اوقات معينة. في الساعة السابعة مساء اقفلت المطاعم كلها وظلت المسارح وصالات السينما مقفلة كليا. توقف ما يزيد على مائة مدرسة عن استقبال التلاميذ. واقفلت المصانع التي لا تنتج موادا حيوية ابوابها أو التجأت، في احسن الحالات، الى نظام تقصير ساعات العمل.

نعم، توخيا للدقة يجب القول إن الامور ساءت اكثر من ذلك: حتى المستشفيات عانت من تقنين الكهرباء. كان على ادارة الصحة ان توقف الفحوصات الدورية بالاشعة الجارية في المستوصف في شارع بريتر. اضف الى ذلك، ان خطة التزويد بالمواد الغذائية التي كانت، بغض النظر عن الازمة، مقصرة في توفير الطاقات الحرارية اللازمة، ظلت في الواقع حبرا على ورق، بسبب الحصاد الضئيل في حبوب الزيت: لكل شخص وزعت خمسة وسبعين غراما من المرغرين شهريا. وحين رفضت السلطات البريطانية تلبية الرغبة الالمانية في المشاركة في اسطول

دولي لصيد الحيتان، انطفأ الامل ايضا بان يمكن للفروع المحلية لمصانع أونيلفر الهولاندية ان تساهم في تخفيف حدة الازمة. لا احد يمد يد العون! وفي كل محل يسود الجوع والصقيع.

لكن، اذا سألتموني عمن كان الاكثر تعرضا للوضع الكارثي، فاني أقول، مشيرا باصبع الاتهام الى الفئات المتيسرة، إنهم الساكنون في اقبية المباني المدمرة وفي اكواخ الضواحي وردهاتها، ممن خسروا منازلهم في القصف وتهجّروا من المناطق الشرقية. وبالرغم اني لم اكن مسؤولا عن شؤون الاسكان، لم اتوان عن تفقّد حي الاكواخ في فالترسهْوف والملاجيء البائسة، التي انشئت سريعة من الصفائح المضلّعة المتموج فوق جدران من الاسمنت. كان يدور هناك ما لا يمكن وصفه. تتغلغل رياح الصقيع بلا رحمة من كل شق وفجوة، لكن معظم صوبات التدفئة لا تشتعل، والناس الكبار في العمر يلزمون الفراش. لا عجب ان افقر الفقراء الذين افتقروا الى ما يمكن تبديله في السوق السوداء – حيث امكن الحصول على اربع قطع من الفحم مقابل بيضة واحدة او ثلاث سجائر – اصيبوا باليأس او لجؤوا الى طرق غير شرعية؛ فنهب قطارات الفحم كان من اختصاص اطفال العائلات التي فقدت بيوتها في القصف او التي تهجّرت من مناطقهم.

اعترف عن طيب خاطر باني امتنعت يومها عن الحكم عليهم بما يتطابق مع القوانين. في حضرة شرطيين من اعلى المراتب راقبتُ مرة هذه النشاطات المخالفة للقوانين في محطة سكة الحديد تيفْستاك: اطياف اشخاص تحميهم عتمة الليل، غير مبالين للمجازفة، بينهم مراهقون واطفال، يأتون باكياس ودلاء، مستغلين كل ظل صغير، فلا يلقفهم ضوء انارة المكان إلاّ بين حين وآخر. ينشغل بعضهم بالقاء الفحم عن عربات القطار، ويلملمه آخرون. واذا بهم يتوارون، محمّلين وسعداء، على الارجح.

يومها طلبتُ الى رئيس شرطة السكة بعدم التدخل هذه المرة. لكن العملية البوليسية كانت جارية: تنير الاضواء الكاشفة المكان، تصدر الاوامر، تعلو مكبرات الصوت. تنبح الكلاب البوليسية. لا ازال اسمع الصفارات وارى وجوه

الاطفال النحيلة. ويا ليتهم بكوا... لكنهم ما عادوا قادرين على ذلك.

لا، رجاء لا تسألوني عما شعرت به يومها. ولاضافة ملاحظة الى تقريركم اكتفي بالقول: على الارجح لم يكن هناك حلٌ آخر. فسلطات المدينة، وبخاصة الشرطة، كانت مكلفة بعدم التفرج مكتوفة الايدي. لم يخفّ البرد إلاّ في شهر آذار.

رئيس البلدية: السيد باور، ماكس: (١٨٨٧-١٩٧٣)، سياسي منتم الى الحزب الديمقراطي الاجتماعي، بين ١٩٤٦ و١٩٥٣ وبين ١٩٥٧ و١٩٦٠رئيس بلدية هامبُورغ الاول.

١٩٤٨

في الواقع كنا نريد، انا وزوجتي، ان نهنأ للمرة الاولى بعطلة حقيقية. كمتقاعدين، كان علينا ان نقتصد في المصروف، وإن صار مارك الرايخ بلا قيمة تقريبا. لكننا لم نكن يوما من المدخنين، فاستطعنا ان ندبر امورنا بتبديل بطاقات الدخان في السوق السوداء – فالحصول على اي بضاعة كان مرهونا ببطاقة ما – ، وان ندّخر بعض المال ايضا.

هكذا سافرنا الى جبال الالب في الغوي. هناك هطلت الامطار بلا توقف. وحول هذا الموضوع وكل ما عشناه في هذه الجبال وما حدث في غير محل ايضا، كتبت زوجتي فيما بعد شعرا منظما في لهجتنا المحلية – لهجة بلاد الـ راين – لان كلينا من مواليد مدينة بون. وبدأت القصيدة بالابيات التالية:

"ثلاثة ايام هطلت الامطار وثلاث ليالٍ،

فما من سماء نرمقها ولا جبال ولا احجار..."

لكن في الفندق الذي اقمنا فيه وفي كل محل، بدأنا نسمع يومها أخبارا واشاعات حول العملة الجديدة التي ستحل قريبا محل القديمة ؛ الى ان قيل: بعد يومين!

فنظمت زوجتي:

"فبعد نكبة الامطار تعكّرت العطلة

تزيد الطينَ بلةً مصيبةُ العملة..."

فاسرعتُ الى حلاّق القرية لاقص شعري، احتياطا، مقابل ماركات الرايخ القديمة، فطلبتُ بتقصيره اكثر من العادة. وصبغت زوحتي شعرها باللون الكستنائي ولم تتردد عن كيه ايضا – فالتكلفة مهما بلغت غير مهمة. لكن بعد ذلك وجب حزم الامتعة. فوداعا للعطلة ! إلاّ ان القطارات الى كل محل وبخاصة الى بلاد الـ راين كانت مزدحمة ازدحاما قد شاهدنا مثله أيام الحرب في رحلات تسوّق المؤنة، لان الجميع ارادوا الرجوع الى بيوتهم باسرع وقت. فنظمت أنليزه:

"ورأينا القطار بالانام مزدحما

وبدا من فيه بجنون العملة مصابا..."

ما إن وصلنا الى بون، حتى هرولنا الى مصرف التوفير لنسحب ما تبقى لنا من مال. ففي يوم الاحد القادم الذي يصادف العشرين من حزيران، يبدأ تبديل العملة. يومها مطرت الدنيا، وكان علينا الوقوف في الصفوف. نعم، في ذلك النهار كان الطقس ممطرا اينما كان، وليس في جبال الالب فقط. ثلاث ساعات وقفنا في الصف حتى جاء دورنا. حصل كل واحد منا على اربعين ماركا وبعد شهر على عشرين ماركا اخرى، لكن ليس من ماركات الرايخ، بل من الماركات الالمانية، لان الرايخ قد لفظ انفاسه الاخيرة. كان من المفروض ان يكون في ذلك عدالة، لكن لا عدالة فيه، ليس لامثالنا من المتقاعدين، باي حال. فما رأيناه منذ اليوم التالي، سبّب لنا دوخة حقيقية. فجأة، كما لو ان احدهم لفظ الكلمة السحرية، كانت واجهات المحلات ملأى من جديد. مورتديلا، لحم، اجهزة راديو، احذية حقيقية – لا بكعب خشبي – بدلات من النسيج المصقول –! في كل القياسات. وكانت هذه البضائع كلها مخزنة ومكدسة ومخبأة بالطبع. مستغلو الحرب والعملة جمعوا ما يقع بين ايديهم وخبؤوه الى ان جاءت العملة الجديدة. وقيل فيما بعد اننا ندين بذلك كله لـ أرهارت بسيجاره العريض. لكن في الحقيقة، كان الامريكيون هم الذين طبعوا العملة الجديدة في الخفاء. وهم حرصوا ايضا على ان المارك الالماني لا يتوفر إلاّ في ما سمي بـ"القطاع الثلاثي"، دون القطاع السوفياتي. لذلك بدأ "الروسي" على الجهة الاخرى بطباعة ماركه الخاص وقطع الطرقات المؤدية الى برلين. فأنشؤوا الجسر الجوي، وصار بلدنا المانيا مقسوما ايضا من ناحية العملة. وهذه الاخيرة بدأت تشحّ بعد حين، وخاصة في جيوب امثالنا من المتقاعدين. فنظمت أنليزه:

"هذه العملة لا تفي بما تعد،

لكن العيش بدونها بؤس ونكد..."

لا عجب ان الرفيق هرمان تذمر في مقر الحزب المحلي قائلا: "من اين لنا فجأة كثرة البضائع؟ لان الاقتصاد الخاص لا يخدم سد الحاجات، بل يهدف الى تراكم الربح حصرا..." وكان معه حق، حتى لو تحسنت الامور فيما بعد قليلا. لكن،

بالنسبة لنا، العائشين على التقاعد، ظل الوضع شحيحا باستمرار. صحيح اننا استطعنا ان نتفرج على الواجهات الملآى ونندهش، لكن حسب المثل "شمْ ولا تذق" وحسب. اما الشيء الجيد فعلا، فكان الفواكه والخضرة الطازجة التي توفرت اخيرا: كرز – نصف الكيلو بخمسين قرشا، ورأس القرنبيط بخمسة وستين قرشا. مع ذلك كان علينا ان نقلب كل قرش.

لحسن الحظ ارسلت زوجتي قصيدتها التي سمتها "الفرار من جبال الغوي"، الى صحيفة كولْنيشه روندْشاو للاشتراك في مسابقة شعرية تحت شعار "اجمل ما عشتُه في عطلتي." وماذا اقول لكم: إنها حصلت على الجائزة الثانية. اي: عشرين ماركا في الحال، وعشرة ماركات أخرى فيما بعد مقابل نشر القصيدة في الصحيفة. اخذنا المال الى مصرف التوفير. وعلى العموم، كنا نوفر وندخر بقدر ما نستطيع. لكننا لم نجمع، في هذه السنين كلها، ما يكفي للتمتع بعطلة حقيقية. فنحن كنا، كما قيل يومها، من ضحايا العملة.

أرهارت، لودوِغ: (١٨٩٧–١٩٧٧)، اقتصادي وسياسي (حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي)، بين ١٩٤٩ و١٩٦٣وزير اقتصاد الاتحاد، بين ١٩٦٣ و ١٩٦٦رئيس حكومة الاتحاد.

"القطاع الثلاثي": في نيسان عام ١٩٤٩ انضم قطاع الاحتلال الفرنسي الى المنطقة الاقتصادية المشتركة لقطاعي الاحتلال الامريكي والبريطاني في المانيا بعد الحرب العالمية الثانية. وجاء هذا الانضمام متأخرا، لكنه كان متوقعا منذ عام ١٩٤٧.

بدأ "الروسي" بطباعة ماركه الخاص...: في قطاعات برلين الغربية بدأ تحويل العملة في ٢٥ حزيران، بعد ان ادخل السوفيات عملة المارك الى قطاع الاحتلال السوفياتي في ٢٤ حزيران وحاولوا فرض عملتهم على مدينة برلين كلها. الى ذلك، قطعت الادارة العسكرية السوفياتية في ٢٣ حزيران الكهرباء عن برلين الغربية واوقفت القطارات بين برلين والقطاعات الغربية. بعد ذلك بقليل اوقفت ايضا المواصلات عن طريق الانهر. انتهى الحصار في نيسان عام ١٩٤٩. الى ذلك الحين أمّن الجسر الجوي الانكليزي–الامريكي امدادات لبرلين الغربية.

١٩٤٩

... وتخيل، يا عزيزي أُولي، ما جرى لي مؤخّرا –اي في عمري المتقدم– من أمر غريب عجيب. تنعمتُ بلقاء مدهش: نعم، إينغه الخلابة ما تزال على قيد الحياة، هي التي سحرت شباب شتيتين يومها – او بالاحرى في ايام آدولف – هي التي اشعلت القلوب بقوامها الظاهر البرودة، لحظة الحضور (بلحمها ودمها)، هي التي شلت الالسن، وضعضعت العقول. واقر لك باني اقتربت منها مرة، بقلب راجف، فصرت قريبا منها قرب السوار من المعصم. لا، لا اقصد حين خيّمنا في جوار الشاطيء، بل حين تعاونا في تنظيم "المساعدة الشتائية" المخصصة للجبهة الشرقية المرتعدة بردا: كنا نجمع الثياب الصوف من جوارب وكنزات وكفوف والى ما هنالك، ونغلّفها، فارتمينا متعانقين على فراش من كنزات الصوف ومعاطف الفرو. لكن القصة اقتصرت على قبلات ولوعة، فاحت منا على اثرها رائحة كريات مبيد العثّ الكريهة.

لنعد الى إينغه الحاضرة: ترك العمر آثاره عليها، كما تركها علينا. لكن السيدة الدكتورة شتيفان بتجاعيدها وشعرها الفضي الشيبة، لا تزال تتمتع بالاشعاع الناهل من حيوية الصبا، والذي حملها آنذاك الى اعلى المراتب. إنك تتذكر بالتأكيد: ترقية بعد ترقية. في النهاية ترقت الى رئيسة رابطة في اتحاد الفتيات الالمانيات، في حين اننا احتللنا مراتب اكثر تواضعا في الشبيبة الهتلرية، انت كرئيس موكب وانا كرئيس فرقة أحداث. وحين جاء دورنا لنلبس البدلات العسكرية لمعاوني السلاح الجوي، انتهى، بالنسبة الينا على كلٍّ، زمن القمصان البنية والفولارات/المناديل؟ وشرائط الفوهرر (الملقبة بـ"ارجوحة السعادين.") لكن إينغه حافظت، على ما اعترفت لي هامسة وخجلى، على تماسك فتياتها حتى ايام النضال الاخيرة: ظللن يعتنين بالمهجّرين من منطقة بومرن، ويبهجن المرضى في مستوصفات الجبهة بساعات الغناء. ولم تعتزل اتحاد الفتيات الالمانيات إلاّ حين جاء الروس ومن دون ان يؤذيها الاعتزال جسديا.

للإيجاز ولعدم ارهاقك في قراءة هذه الرسالة اقول: لقد التقينا بمناسبة معرض

الكتاب في لايبتْسغ. ففي اطار البرنامج المواكب للحدث، أقيم لقاء – باركته، على فكرة، دولة العمال والفلاحين – بين خبراء هيئة الـ دودن التي ينتمي اليها نوعان من الالمان، ومنهم انا – قريبا بروفسور متقاعد (مثلك)، ستبقى حذلقاته اللسانية مطلوبة باستمرار جميل في هيئة الـ دودن الغربية. وبما اننا نتعاون مع دودن الشرق من دون اشكالات تذكر، التقينا اذن مصادفة، لان إينغه، الباحثة البارعة في الالسنية، تنتمي بدورها الى جالية مصلحي اللغة او مفسديها في المانيا اجمعها، تلك الجالية التي تسمح للنمساويين والسويسريين الناطقين بالالمانية بقول ما لديهم ايضا. لكني لا اريد ان اضجرك بسجالاتنا حول شؤون اصلاح الاملاء؛ فهذا الجبل حامل من زمان، على ما يقول المثل، وسوف ينجب فأرته في يوم من الايام.

المهم والمشوق، في هذا الصدد، هو جلستي مع إينغه على انفراد. حددنا موعدا حسب الاصول لتناول القهوة والفطائر في ممر مادلر. فكان لي، بتشجيع ودعوة منها، ان اقضم قطعة من الحلويات التي يختص بها المطبخ الساكسوني. وقادنا الحديث، بعد تبادل الملاحظات المهنية، الى ايام الصبا في شتيتين. في البداية القصص المدرسية المعهودة وحسب. فإينغه بدت مترددة ان تبحث في فتات الذاكرة عن زمن الشبيبة الهتلرية المشترك، والتجأت الى تعابير مجازية نحو "في سنوات الضلال القاتمة تلك..."، أو: "لكَم لوّثوا مثلنا العليا واستغلوا قوة ايماننا." لكن بعد انتقالي الى السنوات ما بعد عام خمسة واربعين، بدتْ اكثر مرتاحة و لم يصعب عليها ان تؤوّل نقلتها الى المعسكر الاشتراكي بوصفها اهتداء مؤلما الى مذهب معارضة الفاشية. واكتملت هذه النقلة من نظام الى آخر ومن لون الى آخر، بعد سنة ونصف فقط من التطهير والتوعية. في منظمة الشبيبة الالمانية الحرة ارتقت ايضا سريعة، لكونها مؤهلة من كل النواحي. اخبرتني عن اشتراكها في احتفالات تأسيس جمهورية ألمانية الديمقراطية التي جرت تسعة واربعين، كما تعلم، في المبنى الذي احتلته سابقا وزارة السلاح الجوي برئاسة غورينغ. ثم اشتركت، على حد قولها، في مهرجانات الشبيبة العالمية، وفي مسيرات الاول من ايار، وفي تأميم الزراعة، محرضة الفلاحين العنيدين بالحاح وحماس. لكن خلال

حملات التحريض والاقناع المصعدة "بقوة مكبرات الصوت"، كما قالت، بدأت تراودها الشكوك الاولى. رغم ذلك لا تزال إينغه الفاتنة عضو في الحزب الاشتراكي الالماني الموحد، وهي تجاهد بصفتها هذه، على ما اكدت لي، "لمناوأة أخطاء الحزب بالنقد البنّاء."

ثم انحرفنا عن الموضوع متطرقين الى تاريخ عائلتينا وجيوغرافية فرارها. فبعد الحرب استقرت عائلتها في مدينة روستوك التي وصلت اليها عن طريق البر. وهناك استطاعت إينغه، لكونها طفلة من عائلة عمالية – كان ابوها يعمل يومها لحّاما في ترسانة بناء السفن – ان تبدأ دراستها دون تلكؤ، وتمهد الطريق لرقيها الحزبي المقبل. اما اهلي فاختاروا، كما تعلم، طريق البحر، التي قادتهم في البداية الى الدانمارك ومن ثم الى منطقة شليسڤيغ هولْستاين والى بلدة بينهْبرغ بالتحديد. وقلتُ لإينغه: "لحسن حظي جرفتني مياه نهر ألبه الى الغرب، حيث انتشلني الانكليز"، ثم عددتُ لها محطات رحلتي: الاسر في معسكر مونْستر، العمة في غوتينغن، البكالوريا المتأخرة، الفصول الدراسية الاولى في المدينة نفسها، العمل في جامعة غيسن، المنحة الدراسية الى أمريكا، الى آخره.

وبينما كنا لا نزال نتحدث، اتضح لي كم ان صيرورتنا الغربية حملت في طياتها المساويء والمزايا على السواء: صحيح اننا خلعنا القمصان البنية، إلاّ اننا لم نحصل على قمصان زرقاء بدلا عنها. وقالت إينغه: "هذه مجرد شكليات. كنا نؤمن بشيء ما، في حين انكم، العائشين في الرأسمالية، ضيّعتم المثل كلها." فرددتُ بالطبع: "على ذكر قوة الايمان... فما قصرنا فيها اطلاقا لما كنتُ البس القميص البني وانت كنت مؤمنة ناشطة في البلوزة البيضاء والتنورة حتى الركبتين" – ! "كنا أطفالا، ضالين!"، جاء جوابها. وبعد ذلك عندت إينغه. كان العناد اختصاصها من زمان. وبالطبع لم تسمح لي بلمس يدها. همست لي اعترافها كما لو تكلم نفسها: "في لحظة ما ضاعت عندنا الطاسة." فجاء من فمي الصدى وكأنه بديهي: "وعندنا ايضا."

بعد ذلك اتسم الحديث بالموضوعية، اذ تطرقنا الى هيئة الـ دودن وسجالاتها على كامل الاراضي الالمانية. في النهاية تناولنا اصلاح الاملاء. واتفقنا على الرأي

انه يجب ان يكون جذريا او لا يكون على الاطلاق. "اعفونا من الاشياء غير المكتملة!" صاحت إينغه ومسحة احمرار تغزو وجهها الى اعلى الجبين. فاومأتُ بالايجاب واسترسلتُ متفكرا في حبيبة الصبا...

اتحاد الفتيات الالمانيات: تنظيم خاص بالفتيات تابع للشبيبة الهتلرية.

الشبيبة الالمانية الحرة: منظمة للشبيبة في جمهورية المانيا الديمقراطية، أُسّست عام ١٩٤٦.

غورينغ، هارمان: (١٨٩٣–١٩٤٦)، انضم عام ١٩٢٢ الى الحزب النازي، احتل في عهد الفاشية مناصب عديدة: بين ١٩٣٢ و ١٩٤٥رئيس برلمان الرايخ، بين ١٩٣٤ و ١٩٣٥وزير المواصلات الجوية في الرايخ، بين ١٩٣٥ و ١٩٤٥القائد الاعلى للسلاح الجوي، عُيّن عام ١٩٣٩ مديرا لمجلس دفاع الرايخ وخلفا لـ هتلر، من بين كبار المسؤولين عن استخدام الاجانب في الاعمال الاجبارية الشاقة وعن الاجراءات لابادة اليهود.

١٩٥٠

لقّبني الاصحاب في كولونيا "ملك الخميرة"، لاني كنتُ خبّازا قبل الحرب. لكنهم ما أساؤوا النية، وانا كنتُ، من عدا فيلي اوسْترمْان الكبير، افضل مَن يؤلّف الحان الطرب للكارنفال. كان لحني "ايها الغزال الرشيق..." الاغنية المفضّلة، "الرقم الاول"، في العام تسعة وثلاثين حين احتفلنا بآخر كارنفال وصحنا لآخر مرة "تعيش كولونيا"!، ولا تزال تعلو الى اليوم أغنيتي "هيّا يا سيد القبطان..." وبها يتذكّر الناس مركب مولْهايْم.

بعد ذلك جاءت الازمنة القاتمة. ولم أنجح باغنية طرب جديدة إلاّ من بعد الحرب، حين كانت مدينتنا الحبيبة كولونيا كلها خراب ودمار، ومنعت قوات الاحتلال اجراء الكارنفال منعا باتا، وبدا المستقبل كله اسود. يومها نجحتُ بلحني "نحن أبناء بلاد تريتسونيزيا" نجاحا باهرا، لان الكولونيين لا يسمحون لاحد بقهر روحهم. فانطلقوا من بوابة الديك فوق الانقاض كلها، مزيّنين بما تبقى من شناشيل الكارنفال: الشباب كلهم، وملوك الكارنفال، وحتى بعض من مُعاقي الحرب. وفي العام تسعة واربعين بدأت اللجنة الكارنفالية الاولى من بعد الحرب – الثالوث الشهير المؤلّف من الامير والفلاح والعذراء – برفع الحطام شخصيا من غورتْسنيش المدمر كليا. كان ذلك عملا رمزيا، لان في غورتْسنيش جرت دائما اجمل الجلسات.

لكنهم ما سمحوا لنا باحتفال رسمي إلاّ في السنة التالية. وكانت سنة ذكرى، لان الرومان القدامى أسسوا مدينتنا في العام خمسين وسمّوها كولونيا. لذلك احتفلنا يومها تحت الشعار هذه كولونيا منذ ١٩٠٠ سنة وهكذا ستبقى. لكن للاسف، لم اكن انا الذي ألّف اغنية الموسم، ولا اي واحد منا، المحترفين، لا يوب شلوسر ولا يوب شميتس، لا...، بل شخص يُدعى فالتر شتاين... خطرت الاغنية على باله، على ما قيل، وهو يحلق ذقنه. تقول كلماتها: "من سيدفع الحساب؟ من له المال الكافي؟"، وعليّ ان اعترف بانها اصابت جو الايام: من له المال، من له المال الكافي؟... لكن مَن شهر هذه الاغنية كان شخصا من الاذاعة يدعى فيلتس...

محتال كبير، لان شتاين وفيلتس كانا في الحقيقة شخصا واحدا. فصحيح ان القصة كانت تدجيلا خبيثا وضربا من الشطارة الكولونية الصرف، لكن من سيدفع الحساب... مشيتْ ومشيت، لانّ هذا الـ شتايْن او الـ فيلْتس لقط عصب الزمن. فبعد اصلاح العملة كانت الجيوب كلها فارغة، على الاقل جيوب الشعب البسيط. لكن امير الكارنفال، بيتر الثالث، كان دائما من اصحاب المال: تاجر بطاطا بالجملة! وفلاّحنا كان في الحقيقة صاحب معمل رخام في ايرنْفلد. وعذراؤنا فلْهلْمينه كانت ايضا ميسورة الحال وفي الواقع وحسب الاصول رجل... وهو كان صائغا وصاحب محل مجوهرات... وهذا الثالوث بعثر المال، حين احتفلوا في قاعة السوق بليلة كارنفال النسوة...

لكني كنت اريد ان أتكلم عن مسيرة يوم الاثنين الذي يسمى عندنا في الكارنفال يوم الورود. كان الجو ممطرا، ومع ذلك جاء ما يزيد على مليون زائر، حتى من هولاندا وبلجيكا. وشاركت قوات الاحتلال ايضا في الاحتفال، لان كل شيء تقريبا عاد مسموحا. وجرت الامور كما في السابق، بصرف النظر عن الانقاض، التي كانت تصدم العين في كل محل وتطل وكأنها اشباح... كانت مسيرة تاريخية فيها المان قدامى ورومان قدامى. بدأت بقبيلة أوبيا التي يتحدّر منها سكان كولونيا، على ما يقال. وبعد قليل انطلق الطرب والموسيقى وحركة الارجل... ومرّت العربات كلها... خمسون تقريبا. واذا ما غنّوا في السنة الفائتة "رجعنا ونحن نعمل قدر المستطاع" – وكان المستطاع يومها لا شيء تقريبا – فانهم وزّعوا على المحتفلين هذه المرة حوالى خمسة وعشرين قنطارا من الحلويات. ورشّت شركة ٤٧١١ آلآف الليترات من الـ او ده كولونيا الاصيل على الجماهير. فاحسنوا الهز والطرب على لحن: من سيدفع الحساب...

ظلت أغنية الموسم دارجة طويلا. اما من الناحية السياسة فلم يحدث الكثير في مسيرة يوم الورود، لان قوات الاحتلال كانت تتفرّج. وكل ما في الامر ان قناعين لفتا النظر في المسيرة... قناعين شبه متلاصقين، يتبادلان القبل ويتراقصان بين حين وآخر... قناعين كانا، إن صح التعبير، قلبا واحدا وروحا واحدة. وكان في الامر خبث ومكر، لان احد القناعين حاكى سيمياء آدناور والثاني سيمياء (ابي

السكسوكة) من القسم الاخر للبلد. ضحك الناس بالطبع من رئيس القبيلة الهندية الماكر ومن الماعز السيبيري... لكن الظاهرة هذه كانت في المسيرة كلّها الوحيدة الدالة الى الوحدة الالمانية... وكانت هذه المسخرة موجّهة ضد آدناور بالدرجة الاولى، وهو غير محبوب عند سكان كولونيا لانه عارض الكارنفال منذ ما قبل الحرب، حين كان رئيس البلدية. وصار، حين تعيّن رئيسا للحكومة، ميالا الى منع الكارنفال كليا والى ابد الابدين.

ملك الخميرة: كارل بربورّ، يومها انجح "كارنافالي" في المانيا.

قوات الاحتلال: كانت كولونيا جزءاً من القطاع البريطاني.

فيلتْس، كورت: مؤلف سيناريوهات واغاني طرب، اشتهر في الاذاعة الالمانية الشمالية الغربية.

آدناور: رئيس المانيا الاتحادية، من اصل مدينة كولونيا، لكنه معارض شهير للكارنفال.

أولْبريشت، فالتر: (١٩٧٣-١٨٩٣)، كان عضوا في الحزب الاشتراكي والحزب الشيوعي ونائبا في برلمان الرايخ. بعد عودته من المنفى السوفياتي نائب رئيس الحزب الاشتراكي الالماني الموحد (الحزب الشيوعي في الشرق)، ثم سكرتيره الاول لغاية ١٩٧١.

١٩٥١

السادة الكرماء في معمل فولْكْس فاغن، عليّ ان اشتكي من جديد لانكم لا تردون عليّ. أ تفعلون ذلك لان محل اقامتنا صار، حسب تصاريف القدر، في جمهورية المانيا الديمقراطية؟ مع العلم ان بيتنا قرب مارينْبورن يقع بجوار الحدود التي لم يعد يمكن لنا عبورها منذ ان شُيِّد "السد المنيع".

في امتناعكم عن الرد عليّ ظلم! فزوجي عمل عندكم منذ البداية، وانا التحقت بالمعمل فيما بعد. بدأ يتعلّم مهنة صانع عدد مكائن لصالح فولكس فاغن في براونْشفايغ في العام ثمانية وثلاثين. بعد ذلك عمل عندكم لحاما وساعد فور انتهاء الحرب في ازالة الحطام، لانّ نصف المعمل قد دُمّر في الغارات. فيما بعد، حين استلم السيد نوردهْوف الادارة وعاد المعمل الى كامل نشاطه، عمل زوجي مراقبا في قسم تأمين الجودة وكان عضوا في مجلس المعمل ايضا. على الصورة الفوتوغرافية المرفقة يمكن لكم ان تلاحظوا انه كان حاضرا في الخامس من تشرين الاول عام واحد وخمسين، حين انتجت سيارة فولكس فاغن رقم ٢٥٠٠٠٠ واقيم احتفال بالمناسبة القى فيه السيد نوردهْوف خطابا جميلا. كنا نلتفّ جميعا حول السيارة الصغيرة التي لم تكن مصبوغة باللون الاصفر مثل السيارة رقم مليون التي احتفلنا بها بعد ذلك باربع سنوات. لكن الحفلة المذكورة كانت احسن من تلك التي اقيمت قبل ذلك بثلاث سنوات بمناسبة انتاج السيارة رقم ٥٠٠٠٠، لانّ يومها لم تتوفر كؤوس كافية، فاضطررنا الى استعمال أقداح من مادة بلاستيكية ما، الامر الذي سبّب للعديد من الضيوف والعاملين آلاما شديدة في المعدة وحالات تقيّؤ في قاعة المعمل وخارجها. اما هذه المرة فجلبوا لنا كؤوسا حقيقية. لكننا تأسّفنا على ان البروفسور بورشه الذي ابتكر الـ فولكس فاغن - وليس هتلر هذا - توفّي في السنة نفسها في شتوتْغارت، فلم يستطع ان يشارك في الاحتفال. وهو، لو شاهد بطاقات توفيرنا القديمة، لردّ على رسالتنا بكلّ تأكيد.

أما انا فلم ابدأ بالعمل لـ فولكس فاغن في فولفسبْورغ إلاّ خلال الحرب، بعد

ستالينغراد، حين كان على الجميع ان يساهموا. يومها، كما تعلمون، لم تُنتج السيارات الصغيرة الشهيرة بعد، بل كميات كبيرة من الشاحنات العسكرية للجيش. كانت تعمل في المعمل الذي كنتُ أكبس فيه الواح الصفيح، نساءٌ روسيات كثيرات لم يقبضن أجرا ولم يُسمح لنا بالتحدث اليهن. كانت ازمنة صعبة جدا. يومها عشتُ الغارات الجوية ايضا. لكن بعد اعادة تشغيل المعمل حصلتُ على عمل اسهل في معمل التركيب. يومها تعرّفتُ الى زوجي. لكني لم انتقل الى قطاع الاحتلال السوفياتي إلاّ في العام اثنين وخمسين، بعد وفاة والدتي العزيزة التي اورثتنا بيتها مع الحديقة في مارينْبورن. وظل زوجي يعمل اقل من سنة، فتعرّض لحادث شديد. ربما أخطأنا في الانتقال. لان القدر اراد لنا ان ننقطع عن كل شيء. وانكم لا تردّون على بريدنا. هذا ليس عدلا!

مع العلم اننا سلّمنا تصريحنا بالانضمام الى برنامج توفير فولكس فاغن في العام الفائت بالموعد المحدّد وارسلنا اليكم الوثائق اللازمة كلها: اولّا البيان الذي يفيد ان زوجي، برنْهارت أيلْسن، قد دفع ابتداء من آذار تسعة واربعين خمسة ماركات اسبوعيا على الاقل، وظل يجمع طوابع التوفير لمدة اربع سنوات من اجل الحصول على سيارة فولكس فاغن كحلية، سمّيت آنذاك عربة قوة بفضل الفرح. بالاجمال دفع زوجي ١٢٣٠ ماركا. وكان هذا المبلغ يساوي يومها سعر الشراء من المعمل. ثانيا، استلمتم منا افادة بامضاء المسؤول عن السيارات في الجمعية الوطنية الاشتراكية قوة بفضل الفرح، تصديقا على ما ذُكر. لكن زوجي لم يحصل على شيء، لان سيارات الـ فولكس فاغن القليلة التي انتجت خلال الحرب كانت مخصّصة لكوادر الحزب الكبار. لذلك ولكونه مُعاقا، نطالبكم الآن بسيارة فولكس فاغن ١٥٠٠ باللون الاخضر الزيزفوني من دون كماليات خاصة.

الآن وقد أُنتج ما يزيد عن خمسة ملايين من الطراز المذكور وشُيِّد معمل في المكسيك، سيكون من الممكن، بلا شك، ان تلبّوا طلبنا المستحق بموجب ما دفعناه الى صندوق التوفير، حتى لو كان مقرّ اقامتنا الدائمة في ج. أ. د.، ام انكم لا تحسبوننا من الالمان بعد الآن؟

بما ان محكمتكم الاتحادية عقدت مؤخّرا مصالحة مع نادي اعانة مدّخري الـ فولكس واغن السابقين، فانه يحقّ لنا ان نحصل على حسم قدره ٦٠٠ مارك الماني. أما الباقي من المبلغ فيسرّنا ان نسدّده بعملتنا المحلية. أرجّح ان يكون هذا ممكنا، أ ليس كذلك؟

بانتظار ردّكم مع فائق التقدير

ألفريده ايلْسن

نوردْهوف، هاينْريش: (١٨٩٩-١٩٦٨)، مهندس، منذ اوائل عام ١٩٤٨ المدير العام لمصنع فولكس فاغن.

بروفسور بورشه، فردينانْت بورشه: (١٨٧٥-١٩٥١)، مصمّم سيارات، مؤسّس الشركة المساهمة بورشه.

ستالينْغراد: انظر هوامش ١٩٤١.

نساء روسيات: حتى نهاية الحرب كان على العديد من سجناء معسكرات الاعتقال ان يعملوا في مصنع فولكس فاغن.

مصالحة: مصالحة قضائية نظّمت تعويض "مدخري فولكس فاغن" الذين دفعوا بعد ١٩٣٩ السعر الشرائي السابق (بدءا من ٩٩٠ مارك) كاملا او جزئيا.

"القوة بفضل الفرح": انظر هوامش ١٩٢٧.

١٩٥٢

اذا ما سألنا ضيفا من الضيوف... كنتُ أجيب ولا ازال: ان ما جمّعنا هو المرآة السحرية – فهكذا سمّوا يومها التلفزيون، ولا اعني في مجلة "هور تسو" وحدها. اما الحب فجاء بالتدريج، وعبر الشاشة... حدث ذلك قبل اعياد الميلاد اثنين وخمسين. احتشد الناس وقتها اينما كان – وعندنا في لونبورغ ايضا – امام واجهات محلات الراديو، فشاهدوا العرض الاوّل لبرنامج تلفزيوني حقيقي. اما محل ما وقفنا، نحن، فكان يوجد جهاز تلفزيون واحد فقط.

لم يكن العرض مثيرا جدا، برأيي: في البداية قصة تدور حول أغنية "ليلة هادئة، ليلة مقدسة" وحول معلّمٍ وصانعٍ لتماثيل الرب يُدعى ملْشيور. بعد ذلك عُرضت مسرحية راقصة، فيها شخصيتا ماكْس وموريتْس المقتبستان من قصص فلْهلْم بوش، يقفزان ويتراقصان على الحان من تأليف نوربْرت شولْتسه الذي لا ندين له، نحن الجنود السابقين، بأغنية ليلي مارلين وحسب، بل بـ قنابل على انكلترا ايضا. آه، نسيتُ... استهلالا تكلّم مدير الاذاعة الالمانية الشمالية الغربية متفوّها بكلام مهيب. كان اسمه الدكتور كماشة فاطلق عليه النقد التلفزيوني "لصّاق الشاشة." وظهرت ايضا مذيعة خجولة، في فستان موشى بالازهار... ابتسمت للجميع، ولي خاصة.

كان اسم المذيعة إيرينه كوس، وهي التي جمّعتنا بهذه الطريقة. ففي الحشود المتزاحمة امام محل الراديو، وقفت غوندل لصقي، مصادفةً. أحبّتْ كلّ ما تقدّمه المرآة السحرية. أثّرت فيها قصة الميلاد ودمعت عيناها. ودفعتها كل حيلة لـ ماكْس وموريتْس الى التصفيق بلا حياء. لكن، حين تشجعتُ بعد نشرة الاخبار – لا اذكر منها سوى رسالة البابا – وخاطبتُها قائلا: "أتدرين، يا آنستي، ان لك شبها كبيرا بالمذيعة؟"، لم يخطر على بالها سوى ان تردّ بالعبارة المتمرّدة "ليس لي علم!"

مع ذلك التقينا في اليوم التالي، ومن دون اتفاق مسبق، امام واجهة المحل

المحاصرة بالزحام، التقينا منذ اول ساعات العصر. مكثتْ تتفرّج، مع أن نقل مباراة كرة القدم بين ساينْت باولي وهامبْورن ٠٧ أضجرها. ثمّ تابعنا البرامج المسائية، لكن... من اجل المذيعة وحدها. وبين هذا وذاك حالفني الحظ: لبّتْ غوندل دعوتي لتناول فنجان من القهوة "نتدفأ بها." قدّمت نفسها لي كبنت مهجّرة من شليسيا تعمل بائعة في محلات زلامنْدر. واعترفتُ، انا الذي كان لي يومها احلام كبيرة، ان اصير مدير مسرح او ممثلا على الاقل، باني اساعد في مطعم والدي قليل النجاح والربح، وباني في الواقع عاطل عن العمل. لكنّي أكّدتُ لها بأنّ لي افكارا كثيرة، "ليست قصورا في الهواء وحسب."

بعد النشرة الاخبارية حضرنا امام محل الراديو برنامجا بدا لنا فكاهيا، ويدور حول تحضير الحلويات لعيد الميلاد. صاحبت خلط العجينة مداخلات مزاجية لـ بيتر فرانكنْفلد الذي نال فيما بعد شعبية ببرنامجه للمواهب الصاعدة "من يرد يستطع." اضافة الى ذلك طربنا لـ إلزه فارنر، وهي تصفر وتغنّي، وخاصة للطفلة النجمة كورنْيليا فروبوس، البنت البرلينية التي اشتهرت بأغنيتها الشعبية "هيّا شدُّ لباس السباحة"!

وهكذا دواليك... كنا نلتقي امام واجهة المحل. وبعد أمد وقفنا هناك نتفرّج ويدي في يدها. وظلّت الامور على هذه الحال الى ان قدّمتُ غوندل أخيرا الى أبي في مطلع السنة الجديدة. أعجب ابي بالنسخة طبق الاصل للمذيعة التلفزيونية إيرينه كوس، وأعجبت غونْدل بالمطعم الواقع على طرف الغابة. المختصر المفيد: اعادت غونْدل الحياة الى مطعم الإبريق بائس الحال. استطاعت ان تقنع ابي الذي استسلم لليأس منذ وفاة أمي، بان يطلب قرضا ويزوّد المطعم بتلفزيون ضخم ماركة فيليبس – لا بجهاز صغير يوضع على الطاولة... وكان في شرائه فائدة كبيرة. ابتداء من شهر ايار، كانت الكراسي والطاولات كلها مشغولة مساءً. وأمّ الإبريق ضيوف وزوّار من مناطق بعيدة، لان عدد الاجهزة الخاصة ظل متواضعا لامد طويل.

سرعان ما استقرّ بنا الحال على جمهور وفي، لا يتفرّج وحسب، بل يأكل بشهية

ايضا. وحين اشتهر الطبّاخ التلفزيوني كليمنس وِلمْرْود، بدأت غوندل التي لم تعد بائعة احذية بل صارت خطيبتي، بتدوين وصفاته وضمّها الى قائمة طعام الإبريق التي كانت قبل ذلك رتيبة ومملة. ابتداء من خريف اربعة وخمسين – وقد تزوجنا – اجتذب المسلسل عائلة شولرمْان عددا متزايدا من المتفرجين. فعشنا مع ضيوفنا الاحداث المتبدلة على الشاشة... فبدأنا نتأثر بالعائلة التلفزيونية وكأننا نتحول بدورنا الى افراد منها، او كما قيل مرارا باستهجان، الى طبقة وسطى عادية. نعم، انها الحقيقة: تباركنا بطفلين والثالث على الطريق. ونعاني كلانا من الكيلوغرامات الزائدة. وصحيح اني تخلّيتُ عن احلامي الكبيرة، لكنّي لستُ غير راض بدوري الجانبي. لانّ غوندل هي التي تدير الإبريق الآن... وسّعت المطعم ليكون نزلا – فكرة اقتبستها من عائلة شولرمْان... فـغوندل تتحلّى بنشاط واندفاع، كالعديد من المهجّرين الذين بدؤوا من نقطة الصفر. ويؤكّد ضيوفنا على ذلك: إن غوندل تعرف تماما ماذا تريد!

"هور تسو" (اسمع!): يومها اهم مجلة اذاعية في المانيا.

ليلة هادئة، ليلة مقدّسة: تمثيلية تلفزيونية من تأليف يوهانس كاي.

فلْهلْم بوش (١٨٣٢–١٩٠٨): اديب ورسام. فضح سلوك البرجوازي الصغير بمبالغات كاريكاتورية. "ماكْس ومورِتْس"، قصّته المصوّرة الاكثر شهرة.

عائلة شولرمْان: مسلسل تلفزيوني ١٩٥٨ – ١٩٥٤.

١٩٥٣

خفّ المطر. وحين هبّت الريح، صرّ بين الاسنان غبار الطوب. قيل لنا ان هكذا هي الحال عليها في برلين. كنا فيها منذ نصف سنة: أنى القادمة من سويسرا وأنا القادم من مدينة دوسلْدورف. كانت تتعلم الرقص التعبيري، حافية القدمين، في فيلا الاستاذة ماري فيغْمان. وكنتُ اريد ان اصبح نحّاتا في محترف هارتْونغ قرب ساحة شتاين، لكني كنتُ اكتب اينما حللتُ او جلستُ او استلقيتُ لصق أنى، قصائد قصيرة وطويلة. ثمّ حدث شيء خارج الفن.

ركبنا قطار المدينة الى محطة ليرت. كان هيكلها الفولاذي لا يزال منتصبا. مررنا باطلال مبنى برلمان الرايخ وبوابة براندنبورغ ولم نر عليها العلم الاحمر المعهود. لم نر ما حصل او ما يحصل منذ ان خفّ المطر إلاّ حين وصلنا الى ساحة بوتسدام، قادمين من الجهة الغربية لحدود القطاع. تصاعد الدخان من دار كولومبس ومن دار الوطن. اشتعل كشك من الاكشاك. امطرت السماء نتفا سوداء: بقايا الشعارات المتفحّمة التي يطايرها الدخان والرياح. رأينا جموعا بشرية تائهة، تروح وتجيء بلا هدف. لكننا لم نر شرطة الشعب، بل دبابات سوفياتية محاصرة بالحشود... من طراز ت ٣٤ الذي اعرفه جيدا.

كُتب على لافتة تحذيرا: "الانتباه! انكم تغادرون القطاع الامريكّي! لكن بعض المراهقين جازفوا بالدراجات الهوائية او بدونها بالعبور. أما نحن فبقينا في الغرب. لا ادري ما اذا رأت أنى امورا اخرى او اكثر مما رأيتُ. كلانا رأينا الوجوه الطفولية للجنود المشاة الروس، الذين حفروا الخنادق على طول الحدود واندسّوا فيها. وعلى بعد مسافة رأينا قاذفي الاحجار... أحجار متناثرة في كل محل... بالاحجار ضد الدبابات. كان يمكن لي ان ارسم تخطيطا للاجسام وهي تلقي الاحجار، او ان اكتب حيثما وقفتُ قصيدة قصيرة او طويلة حول قاذفي الاحجار. إلاّ اني لم اخط خطا واحدا ولم ادوّن كلمة واحدة، لكن ايماءة قذف الحجر ظلت عالقة في ذهني.

بعد ذلك بعشر سنوات – حين وجدنا نفسينا ابوين محاصرين بالاطفال وكنا نرى ساحة بوتْسدْام منطقةً "محرمة"، مقسومة بالحائط –كتبتُ مأساة المانية بعنوان "الرعاع يتدرب على الانتفاضة" اثارت سخط حرّاس المعابد في الدولتين. تدور المسرحية في اربعة فصول على السلطة والشلل، على الثورة المخطّطة والتلقائية، على السؤال ما اذا امكن تغيير شكسبير، على رفع معايير الانتاج وخرقة حمراء ممزّقة، على كلمات واضداد، على كبار النفوس وصغارها، على دبابات وقاذفي الاحجار، على الانتفاضة العمالية تحت المطر، التي ما إن قُمعت حتى أُرّخت في السابع عشر من حزيران وحُرّفت الى انتفاضة شعبية وأُعلنت عيدا وطنيا... وعند كل احتفال بالمناسبة يقع في الغرب عدد متزايد من ضحايا حوادث السير.

أما الموتى في الشرق فقد ماتوا اعداما وشنقا ورميا بالرصاص. وحُكم على الكثيرين بالسجن. فازدحم سجن باوتْسن بالنزلاء. لم ينكشف ذلك كله إلا فيما بعد. لم نشاهد، انا وأنى يومها سوى قاذفي الاحجار قصار الباع. مكثنا في القطاع الغربي على مسافة وبُعد... كنا نحبّ بعضنا والفن كثيرا ولم نكن عمالا يقذفون الدبابات بالحجارة. لكننا نعرف منذ ذلك الحين ان هذا الصراع يدور من جديد ابدا. واحيانا، وبتأخير قد يدوم عقودا، يكون قاذفو الاحجار هم المنتصرين.

أنى، شوْارتْس: منذ ١٩٥٤ زوجة غونتر غراس الاولى.

أنا: غونتر غراس.

ماري، فيغمان (١٨٨٦–١٩٧٣): راقصة، مصممة رقص ومدرسة ممثلة مهمة للرقص التعبيري الحديث.

هارتونغ، كارل (١٩٠٨–١٩٦٧): نحات.

انتفاضة عمّالية: في السابع عشر من حزيران تحوّل اضراب لعمال البناء في برلين الى انتفاضة عمالية في جمهورية المانيا الديمقراطية كلها. وتحولت المطالب التي كانت اقتصادية في البداية الى مطالب سياسية. قمعت القوات السوفياتية الانتفاضة.

١٩٥٤

صحيح اني لم اكن حاضرا في بيرن، لكني عشت تصويب شيفر الى منطقة الجزاء المجرية عبر الراديو الذي حاصرته، في ذلك النهار، لمّة من الاقتصاديين الشباب في غرفتي الطلابية في مونيخ. نعم، الى اليوم – وانا تقدّمتُ في السن وما زلتُ رئيسا حركا نشطا لشركة كونْسالْتينغ في لوكْسمبْورغ – الى اليوم ارى امامي هلْموت ران الذي لقّبه الجميع بالـ ريّس وهو يستلم الكرة جاريا... الآن يقذفها وهو يركض، لا، إنه يتفادى خصمين يعترضان طريقه وبعضا من لاعبي الهجوم... ثمّ يصوّب بالقدم اليسرى "قنبلة" من جهة اليسار الى الزاوية السفلى للمرمى الذي يبعد عنه اربعة عشر مترا على الاقل... خارج متناول الحارس غْروسيتْش... ست او خمس دقائق قبل النهاية: ٣–٢... ويهاجم المجريون... بعد تمريرة لـكوسيتْش يسيطر بوسكْاس على الكرة.. لكن، هدفه لا يُحسب. ولا يفيد الاحتجاج. واذا بـ تشيبور يستلم الكرة في الدقيقة الاخيرة يصوّب على مسافة سبعة او ثمانية امتار الى الزاوية القصيرة... لكن الحارس توني تورك يطير ليمسك الكرة بكلتا القبضتين... رمية جانب اخيرة للمجريين... ويصفّر مستر لينغ ختاما. وها نحن أبطال العالم، لم نعد المغلوبين، بل نحن الغالبون من جديد. نغنّي تحت المظلات في ملعب بيرن وملتفّين حول الراديو في حجرتي المونيخية... "فوق كل شيء في العالم".

لكن قصتي لا تنتهي بذلك. بل تبدأ من هنا في الواقع. فلم تبق ابطال الرابع من حزيران ١٩٥٤، من تشيبور وران، الى هيدكوتي ومورلوك، اسماء أبطالي المفضلين... لا بل خلال عقود جاهدتُ، عبثا، ان اعتني بالخير الاقتصادي لنجميَ المفضلين فريتْس فالْتر و فرنْس بوسكْاس، بوصفي اقتصاديا ومستشارا ماليا، استقر أخيرا في لوكسمبورغ. لكنهما رفضا المساعدة... ومحاولاتي لبناء الجسور، المجاوزة اي نزعة اشتراكية وطنية، باءت بالفشل. اذ ما إن انتهت المباراة الكبيرة، حتى صار الاثنان من الدّ الاعداء، لانّ النقيب المجري اتّهم

اللاعبين الالمان بالـ تويتونية وباستعمال المهيّجات. وقيل انه اعلن: "لعبوا، والرغوة على افواههم." لم يتكرّم النقيب بكتابة اعتذار إلا بعد ذلك بسنوات، حين كان متعاقدا مع نادي ريال مدريد، في حين أنّ الملاعب الالمانية كانت لا تزال محرّمة عليه. بعد الاعتذار اصبحت اقامة علاقة تجارية بين فالْتر وبوسكْاس ممكنة نظريا ولا يعيقها عائق. وبدأت شركتي فورا بالتوسط والمشورة.

لكن هيهات! صحيح ان فريتْس فالْتر نال الاوسمة واللقب ملك جبل بيتسنْبرغ، إلا ان خدماته الاعلامية لشركة آديداس وشركة منتجة للشامبانيا، حصلت على حقّ استعمال اسمه لبعض المنتوجات – نحو شمبانيا فريتْس فالْتر الفاخر – ظلت صفقات لا تعطيه حقّه ولم يجن منها بالتالي ما يُذكر. لم يتمكّن فالْتر من شراء صالة سينما متواضعة في كايزرسلاوتْرن قرب اطلال القلعة، وتجهيزها باكشاك لبيع تذاكر اليانصيب، إلاّ بعد ان جنى ارباحا كبيرة من بيع كتبه كثيرة التداول حول انتصار المنتخب الذي لا يُقهر. لكن الصفقة الاخيرة كانت مؤسفة ايضا، فارباحها ظلت ضئيلة. في حين ان المال الوفير كان في انتظاره في اسبانيا منذ أوائل الخمسينيات. وقد ارسل اليه نادي أتليتيكو مدريد وسيطا يقنعه بالانضمام وفي جعبته ربع مليون. لكن فريتْس المتواضع، بل الذي افرط دائما في تواضعه، رفض... اراد ان يمكث في منطقته بفالْس وان يكون فيها، وفيها وحدها، ملكا.

على العكس، بوسكْاس: مكث في الغرب، بعد انتفاضة المجر الدموية... فوقتها كان مع المنتخب الوطني في امريكا الجنوبية... تنازل عن مطعمه الناجح في بودابست وحصل فيما بعد على الجنسية الاسبانية. سهل عليه التعاطي مع طغمة فرانكو لانه اكتسب خبرات مفيدة في وطنه حيث احتفل به الحزب الحاكم "بطلا للاشتراكية" – شأنه شأن التشيكي زاتوبيك. ظل يلعب لصالح نادي ريال مدريد لمدة سبع سنوات وجنى الملايين التي استثمرها في معمل سجق سلامي: كان "سالخيخاس بوسكْاس" يصدّر الى الخارج ايضا. الى جانب ذلك ادار الاكول، الذي تصارع دائما مع مشكلة الوزن الزائد، مطعما للذواقة: "بانْشو بوسكْاس."

صحيح، ان نجميّ المفضلين سوّقا اسميهما، لكنهما لم يحسنا تضافر

القدرات والمصالح او بيع اسميهما، إن صحّ التعبير، في صفقة مزدوجة. ولم انجح، انا الآخر، ولا شركتي المتخصصة بالادماج، في جمع الاثنين، الابن السابق لعائلة عمالية من بودابست والمتدرب المصرفي السابق من منطقة بفالس، وفي اقرانهما كشريكين تجاريين. وعلى سبيل المثال، تقديم سجق سلامي النقيب بوسكْاس مع الشامبانيا الفاخر "تاج فريتْس فالْتر"، واجراء مصالحة مدرّة للارباح بين البطل المحلي والمواطن العالمي. لكن الاثنين ارتابا في اي دمج، ورفضاه او كلّفا من يرفض نيابة عنهما.

على ما يبدو، ما زال النقيب يصرّ على انّه لم يسجّل يومها هدفا غير شرعي، بل انّه سجّل هدف التعادل ٣: ٣. وربما انجرّ الى الاعتقاد ان ميستر لينغ اصدر حكمه انتقاما من المجريين الذين كانوا قد نجحوا في العام الفائت في الفوز على الانكليز في وطنهم، وفي ملعب ومبْلي المقدّس بعينه ٣: ٦. ورفضت سكرتيرة فريتْس فالْتر التي تحجب ملك جبل بيتسن بلا رحمة عن اعين العامّة، ان تقبل هدية منّي سجقا من سلامي بوسكْاس قدّمتُه لها شخصيا. وكان في ذلك هزيمة لي ما زلتُ اتشدق بها. لذلك تنتابني على الارجح، بين حين وآخر، فكرةٌ تقول: ماذا كان سيكون مصير كرة القدم الالمانية، لو لم يصفر الحكم حين سجّل بوسكْاس هدفه... ولو انهزمنا خلال التمديد... او لو خسرنا في اعادة المباراة... ولو غادرنا الساحة اذن، لا غالبين بل مغلوبين مرة ثانية...؟

بيرن: كانت المباريات العالمية في كرة القدم ١٩٥٤ الاولى التي سُمح للالمان بالاشتراك فيها من بعد الحرب العالمية. وكان من المتوقع ان يفوز المنتخب المجري بلقب البطل العالمي.

"فوق كل شيء في العالم": البيت الاول لاغنية المانيا. النص للشاعر فالرسْليبن (١٨٤١) واللحن لـ هايدْن (١٧٩٧). ابتداء من ١٩٢٢ النشيد الوطني الالماني.

بوسكْاس، فرنس: مواليد (١٩٢٧)، انجح اللاعبين المجريين واكثرهم شهرة.

فريتْس، والْتر: لاعب الماني شهير من نادي كايزْرسْلاوتْرن.

بيتْسنْبرغ: مقر نادي كايزْرسْلاوتْرن.

انتفاضة المجر: ١٩٥٦ قام الطلاب والعمال في المجر باضرابات وتظاهرات واجبروا الحكومة على الاستقالة. بعد ان اعلنت الحكومة الجديدة انها ستنسحب من حلف وارسو وتسمح بعدة

احزاب، قمعت القوات السوفياتية الانتفاضة.

التشيكي زاتوبيك: أميل، مواليد ١٩٢٢، جار تشيكي، سجل ١٨ مرة ارقاما قياسية في المسافات الطويلة.

١٩٥٥

في العام الفائت أُنجز بناء بيتنا الذي موّله ابي جزئيا بقرض – من شركة فيستْنْرُوت، على ما أظنّ – استلفه لكونه موظفا قادرا على تسديده في "ظروف آمنة نسبيا." غير ان البيت، المؤلّف من خمس غرف ونصف استقررنا فيها – نحن البنات الثلاث وامي وجدتي – وتآلفنا عليها حالا، أُنجز من دون الملجأ المطلوب، مع ان ابي أكّد مرارا انه لا يخشى التكاليف الاضافية. خلال تخطيط البناء بدأ بارسال رسالة اثر رسالة الى الشركة المنفّذة، وارفق الرسائل بصور فوتوغرافية للفطر الذرية فوق منطقة التجارب الامريكية ولـ"ملاجيء وقائية سليمة نسبيا"، على حد قوله، في هيروشيما وناكاساكي. الى ذلك قدّم ايضا رسوما هندسية بدائية لملجأ يسع ستة او ثمانية اشخاص، مزوّد بمدخل متين على الضغط وبمخرج شبيه للطواريء. فكانت خيبته كبيرة جدا، لانّ تلك المقترحات لم تُأخذ بالاعتبار، في حين أنها، على حد قوله، "اجراءات وقائية لا غنى عنها لقسم كبير نسبيا من السكان المدنيين في العصر النووي." وصرحت مصلحة البناء ان الدولة لم تصدر توجيهات بهذا الخصوص.

مع العلم ان ابي لم يكن من اعداء القنبلة الذرية اللدودين: كان يقبل بها وسيلةً ضروريةً يجب تبنّيها، ما دام السلام العالمي مهدّدا من قبل القوة السوفياتية. لكنه كان سينتقد، بلا شك، رئيس الحكومة الاتحادية الذي حاول فيما بعد ان يكبت اي نقاش حول الحماية المدنية. وأسمَعه يقول: "هذه تحركات تكتيكية لأجل الانتخابات... الرئيس لا يريد ان يُقلق المواطنين... ويحسب المدافع الذرّية مجرد تطوير للمدفعية، ويعتقد انه ذكي وشاطر... هذا الثعلب العجوز."

على كل حال، كان بيتنا الذي سمّاه الجيران "بيت البنات الثلاث"، جاهزا والبستان المحاط به ينتظر الفلاحة. فسمح لنا ابي ان نساعد في زرع اشجار الفواكه. ولاحظنا وقتها، نحن الاطفال وأمي، ان ابي يعمل جهده ان يحافظ، في القسم الظليل للبستان، على مربع كبير من الارض غير المزروعة. لكنه لم يكشف

خططه إلاّ بعد ان استجوبته جدتي على طريقتها الصارمة، فاعترف بانه يخطّط لبناء ملجأ تحت الارض، "غير مكلف نسبيا"، يستثمر في بنائه احدث المعارف التي اكتسبها الدفاع المدني السويسري. وبدأ أبي بالتنفيذ في الصيف، حين نشرت بعض الصحف تفاصيل مرعبة حول مناورة نووية جرت في العشرين من حزيران ١٩٥٥ بمشاركة جميع القوات الغربية تحت الشعار "عملية كارت بلانْش." وبموجب خطط هذه المناورة حُسبت ألمانيا أجمعها، وليس ألمانيا الاتحادية وحدها، ميدان حرب نووية ستحصد، حسب تقديرات اولية، مليوني ضحية وثلاثة ملايين ونصف من الجرحى - من دون حسبان الالمان الشرقيين، بالطبع...

للاسف، رفض ابي اي مساعدة في تنفيذ مشروعه. بعد الاشكالات مع مصلحة البناء قرّر، على ما قال، ان يتّكل على "قوته الخاصة" حصرا. لم تستطع جدتي الصارمة ان تمنعه. وحين تنامت الينا اخبار تفيد أنّ خطر الغيوم المشحونة بالاشعة الذرية التي تدور منذ سنين حول الكرة الارضية وقد تهدّد اي منطقة بالمطر النووي او الـ"فول اوت"، لا بل ان مثل هذه الغيوم الملوّثة قد اكتشفت منذ العام اثنين وخمسين فوق هايدْلبرغ وضواحيها، اي فوق رؤوسنا تماما خرج ابي عن طوقه. واقتنعت جدتي نفسها بضرورة "البحبشة"، كما قالت، وموّلت عدة أكياس من الاسمنت.

من دون اي مساعدة كان أبي يحفر الحفرة التي بلغ عمقها اربعة امتار ونصف، بعد انتهاء دوامه اليومي - كان أبي رئيس قسم في مصلحة السجل العقاري. من دون اي مساعدة نجح ابي خلال عطلة من عطل الاسبوع في وضع الاساس المستدير تماما بالاسمنت. واستطاع ايضا ان يبني المداخل والمخارج من الاسمنت المصبوب. مدحته أمي التي تبخل عادة بالاشادة، مدحا شديدا. وربما شجّعه ذلك على التنازل عن اي مساعدة في صب قبة الملجأ بالاسمنت الطازج، الملجأ الذي كان، على حد قوله، عائليا وآمنا نسبيا في حال التسرّب النووي. وبدا ما انجزه ناجحا ايضا. كان أبي داخل الملجأ الدائري ليفحص بواطنه، حين وقعت

الحادثة. تدهورت القبة. جاءته المساعدة، وهو مطمور تحت اكوام الاسمنت، بعد فوات الاوان.

لا، لم نكمل خطّته. ولم تعارض جدتي وحدها. أما انا فاشتركت بعد ذلك في كل مسيرة ومظاهرة ضد الطاقة النووية - وهو امر كان ابي سينتقده بالتاكيد... وبقيتُ ضدها لسنين طويلة. وفي عمري المختمر اشتركت مع ابنائي في موتْلانغن وهايلْبرون في التظاهر ضد صواريخ بيرشينغ. لكنّ ذلك لم يجدِ بنفع كبير، كما تعلمون...

رئيس الحكومة: أدناور، انظر هوامش ١٩٣٠.

١٩٥٦

في آذار ذلك العام الحزين حزن الموت الذي توفي فيه الاول في شهر تموز بعد عيد ميلاده السبعين، والثاني في شهر آب قبل ان يكمل عامه الستين، بحيث ان العالم بدا لي مقفرا والمسرح مهجورا – في آذار ذلك العام صادفتُ الاثنين معا – وكنتُ طالبا للآداب الالمانية ينظّم في ظل العملاقين أشعارا بلا كلل. صادفتُهما قرب قبر كلايْست، اي في ذلك المكان البعيد عن الانظار والمطلّ على بحيرة فانْزي الذي جرى فيه ربما لقاء فريد او مريب، مصادفة ام مواعدة.

أظن انهما اتفقا على المكان والزمان سرّا، وربما بتوسط نساء صديقات. كنتُ الشاهد العرضي الوحيد، انا الطالب الصغير خلف الكواليس الذي تعرّف الاثنين على النظرة الثانية: الاول برأسه الاصلع وهيئته الشبيهة ببوذا والثاني بقوامه الواهن المنهك. صعب عليّ ان ابقى على مسافة منهما. لكن الهواء القارس والخالي من الريح، في ذلك النهار الربيعي المشمس، حمل اليّ الصوتين: دمدم الاول رخيما ورنّ الثاني رفيعا. لم يكثرا في الكلام، بل سمحا لبعضهما بالاستراحات. وقفا حينا، واحدهما لصق الآخر، كأنهما على منصة واحدة، وحينا آخر على مسافة، كأنهما حريصان على الالتزام بالقطعة المفروضة عليهما. فإن حُسب الاول في غرب المدينة ملكا ادبيا، وغير متوّج بالتالي كان الثاني مرجع النصف الشرقي للمدينة، المرجع الذي امكن الاستشهاد من أعماله كيفما اتفق. وبما ان الشرق والغرب كانا في تلك السنوات في حالة حرب، وإن كانت باردة وحسب، توخّى الشطران تعميق الهوّة بينهما. ولم يجد لقاؤهما مكانا له خارج هذا التكتل الصراعي، إلاّ بفضل حيلة وحنكة مزدوجة. والتذّ نجمايَ الادبيان، على ما يبدو، بالافلات من دوريهما لامد قصير.

فهكذا بدا لي المشهد، هكذا طرقت ثنائيتهما اذنيّ. ما لقفته من عبارات وجمل مقطّعة لم يكن فيه معاداة للآخر او مجافاة. ما استشهد به الاثنان بَحْثَ عن المعنى، لا في النتاج الذاتي، بل في نتاج الآخر، ونشد لذة في المعنى الملتبس المزدوج.

اتقن الاول انشاد القصيدة القصيرة "الخَلَف" وتلا خاتمتها متمتّعا وكأنه نظمها بنفسه:

"حين تُستنفد الاخطاءُ،
يجالسنا، أنيساً أخيراً،
اللاشيءُ."

فتلا الآخر بشيء من الخفّة البيت الأخير لقصيدة من الاعمال الاولى بعنوان "رجل وامرأة يجولان وكر السرطان":

"هنا يتورّم الحقل حول كل سرير.
يستحيل اللحم سهلا. يخبو الجمر.
يوشك العصير على السيلان. ينادي التراب."

هكذا استشهد العارفان بلذّة. وبين هذا الاستشهاد وذاك لم يبخلا في تبادل المديح الساخر وهما يتقاذفان بألفاظ كنّا، نحن الطلاب على تمام العلم بها. صاح الاول: "يا لنجاحك في تغريب الفينوتيب"! وردّ الآخر رفيعا: "مشرحتك لبلاد الغرب تجانب مسرحي اللحمي على الصعيدين المونولوجي والجدلي..." فاستطردا يتجاذبان ملاحظات ساخرة للتندّر.

ثم سخرا من توماس مان الذي توفّي في العام الفائت، مقلّدين "ثيماته الدليلة، القابلة للمدّ والعلك." بعد ذلك جاء دور بيشر وبرونن، اذ سمح إسماهما – "كأس" و"بئر" – بالالعاب اللغوية. اما ما أنبته نموّهما الخاص من خطايا سياسية، فلم يلمعا اليه إلاّ لماما. هكذا قدّم الاول متهكّما سطرين من نشيد حزبي ألّفه الآخر... "وتكلّم جوزف ستالين، رئيس الحصاد الكبير للشعب السوفياتي، على القمح، تكلّم عن الذُرَة البيضاء، عن الزِبْل ورياح القحط..."، فردّ الآخر بما يلائم، يتطرّق الى حماس الاول الموقّت لدولة الفوهرر ونشرتها الاعلامية "العالم الدُوري" والى خطبة القاها على شرف "المستقبلي" الفاشي مارينيتي. ومدح الاول بدوره مسرحية الآخر "الاجراء" مدحا ساخرا بوصفها "تعبيرا عن رؤية للعالم على نسقِ بَطْليْموس حقيقي..." ليكفّر من ثم عن كلِّ الخاطئين الملتقّين حول قبر كلايست

باستشهاده من القصيدة الكبيرة الى "الجيل القادم."

"أنتم يا من ستظهرون

بعد الطوفان الذي غرقنا فيه

فكروا

عندما تتحدثون عن جوانب ضعفنا،

في الزمن الأسود

الذي نجوتم منه."

فحسبت نفسي مقصودا، انا المنصت في الخلفية، المنتمي الى الجيل القادم. وكان عليّ ان اكتفي بلفت النظر هذا، مع انّي توقّعتُ من نجميّ الادبيين معاينة اجلى لأخطائهما الرائدة. لكن، ما من استزادة لمستزيد. انصرف الاثنان المدربان على الصمت، الى احوال صحّتهما. كان الاول، لكونه طبيبا مشغول البال على الآخر الذي نصحه قبل امد بروفسورٌ يُدعى بروغْش باقامة طويلة في مستشفى شاريتيه، فدقّ المعني على صدره مفسّرا السبب. ثم ابدى الاول قلقه من "الضجة الاعلامية" التي تنتظره بمناسبة عيد ميلاده السبعين - "كنتُ افضّل كأسا من البيرة" - !، فاصرّ الثاني على الاعتناء بالوصية: إنه لا يسمح لاحد، ولا للدولة، بدفنه علنا ولا بتلاوة مرثية على قبره... وصحيح ان الاولّ وافقه الرأي، إلاّ انه اعرب عن تحفظاته: "الوقاية حسنة. لكن، من سيقينا تقليد الاخلاف؟"

لم يتفوّها بكلمة واحدة حول الوضع السياسي. ولا حول اعادة التسليح في الدولتين الغربية والشرقية. غادرا قبر كلايست وهما يضحكان من آخر النكت حول الاموات والاحياء، ومن دون ان يذكرا او يستذكرا الشاعر المحكوم عليه بالخلود في ذلك الموقع. استقلّ الاولّ، الساكن في شونهبْرغ قرب ساحة بافاريا قطار المدينة في محطة فانْزي؛ وكان في انتظار الآخر سيارة فيها سائق كان سيسوقها به، على الارجح، الى بوكو او الى كورنيش بنائي السفن. وحين حلّ الصيف، وتوفي الاثنان، بفارق زمني قصير، قررتُ ان احرق أشعاري واتخلّى عن دراسة الادب الالماني وانتقل الى الجامعة التقنية لادرس فيها باجتهاد مديم

هندسة بناء الماكنات.

الاول في حزيران: الشاعر غوتْفريد بن، توفي في ١٩٥٦/٧/٧.

الآخر في آب: برتْولْت برشت، توفي في ١٩٥٦/٨/١٤.

قبر كلايْست: الاديب هاينْرش فون كلايْست (١٧٧٧-١٨١١) انتحر مع حبيبته هنْريتّه فوغل في ذلك الموقع في بحيرة فانْزيه.

بيشر، يوهانس ر. (١٨٩١-١٩٥٨): أديب، عضو في الحزب الشيوعي، بعد ١٩٣٣ في المنفى في موسكو. ابتداء من ١٩٥٤وزير الثقافة في ج أ د.

برونن، أرنْولت (١٨٩٥-١٩٥٩): أديب نمساوي ألّف مسرحيات تعبيرية أثارت ضجة في برلين العشرينيات.

جوزف ستالين (١٨٧٩-١٩٥٣): منذ ١٩٢٢ السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي. استطاع بعد وفاة لينين ان يقضي على منافسيه ويحكم البلد مستبدّا منذ اواخر العشرينيات .

مارينيتي، فيليبو توماسو (١٨٧٦-١٩٤٤): أديب ايطالي، مؤسس الـ"فوتورز" ("المستقبلية "في الفن.) فيما بعد من أنصار الفاشية المقتنعين.

بروغْش: بروفسور دكتور، طبيب من الاطباء الذين عالجوا برشت.

صديقي العزيز، بعد عملنا المشترك الطويل، اجدني مدفوعا الى كتابة هذه الرسالة. وكلي ثقة بان علاقة الزمالة القديمة بيننا ستدوم، مع ان كلاً منّا سار في طريقه الخاص. كذلك آمل ان تصلك هذه الرسالة السرية بأمان، وأتأسف على ان الحذر صار واجبا في وطننا المقسوم.

لكن، دعني اطلعك على الدافع لتجديد صداقتي واعلانها: في الاولّ من ايار هذه السنة وبعد ان انتهت عندكم مراحل اعادة بناء الجيش الاتحادي وعندنا الجيش الشعبي الوطني، قُلدتُ وسام الجدارة البرونزي لـ ج ش و. اثناء الحفل المكرس لتكريم نشاطي ادركتُ ان هذا التكريم لا يخصنّي وحدي، بل يخصّك ايضا الى حدّ بعيد: فكلانا عملنا معا على تطوير الخوذة الفولاذية الالمانية ويعود الفضل في هذا الانجاز الينا معا.

للاسف اغفل منظّمو الحفل التكريمي ذكر تاريخ الطراز م ٥٦ (لاسباب مفهومة، بلا شك...) أعني خلال فترة الحرب العالمية الاخيرة حين كنا مسؤولين عن انتاج الخوذات الفولاذية في مصنع الحديد والتعدين أ. ح. تاله، فأكملنا كمهندسين مختصّين تصميم الخوذتين ب وب ٢ اللتين ابتكرهما البروفسور فراي والدكتور هانْزل واخضعاهما للتجريب تحت النيران. كما تذكر بلا شك منعتنا قيادة الجيش العليا من استبعاد الخوذات م ٣٥، مع ان مساوئها – انحدار حاد للجانبين بحيث تبلغ زاوية الاصابة ٩٠ درجة – اتّضحت من خلال خسائرنا البشرية البالغة. اما الخوذات الجديدة التي تم تجريبها منذ العام ثلاثة واربعين في معهد المدفعية دوبريتس فاثبتت فعالية اكبر في مقاومة الرصاص، بفضل زوايا الانحدار الاخفّ حدة، وكذلك عند استعمال مضاد الدبابات من عيار سنتمترين وقاذفات الهاون من عيار ٨ سنتمترات، وعند استخدام المناظير واجهزة اللاسلكي دورا. اضافة الى ذلك بيّنت الخوذة حسنات اخرى اكّدتها تقارير الخبراء: وزن اخفّ يسمح للرأس بحرية التحرك عند استعمال جميع

الاسلحة والاجهزة ويحسّن القدرة على السمع عند انعدام المؤثرات الجانبية.

للاسف تشبثوا بالخوذة م ٣٥ حتى النهاية، كما تعلم. ولم يتسنَ لي إلاّ الآن، خلال اعادة بناء الجيش الشعبي الوطني، ان اكمل تطوير الطرازين ب وب ٢ في مصنع التعدين تاله واشرف على الطراز م ٥٦ المشتق منهما وعلى انتاجه بالجملة كخوذة معتمدة للجيش الشعبي الوطني. ونخطط في الوقت الحاضر لتصنيع مئة الف قطعة منها. وكُلّف معمل تاوْخا للجلود والسروجية بتنفيذ بواطن الخوذات. ويصحّ القول إن خوذتنا هذه "فرجة." وعليّ ان اؤكد في هذا الصدد ان انتقادات من يدّعي ساخرا انها تقليد للطراز التشيكي، تخلو من الموضوعية.

على العكس، يا صديقي العزيز! كما ترى، تبنّينا في جمهوريتنا (وإن على نحو غير معلن) المثال البروسي في شكل الخوذة والملابس العسكرية، حتى في الحذاء العسكري العادي وحذاء الضباط الطويل في حين ان "مصلحة بلانك" المشبوهة تريد عندكم، على ما يبدو، التخلّي عن التقاليد كلها. وهكذا يتبنّى الجيش الاتحادي مطيعا طراز الخوذة الامريكية. وميّع اللون الرمادي للملابس العسكرية ليمسي رماديا أرْدوازيا. وآمل الا تجرحك ملاحظتي التالية: صحيح ان جيشكم الاتحادي يعمل جهده ليظهر في مظهر "دارج" ومدني الى حد بعيد، لكنه لا يستطيع، رغم التنكر المضحك، ان يخفي ارادته العدوانية. إلاّ انّه لجأ، في قيادة القوات على الاقل، الى طاقم جنرالات الجيش الالماني القديم، الامر الذي نسعى اليه ايضا.

لكنّي اريد الآن ان اعود ثانيةً الى التكريم الذي صار من نصيبي (ومن نصيبك مبدئيا ايضا)، فحين استلمتُ في اطار احتفالات الاول من ايار الوسام البرونزي، خطر على بالي بروفسورنا في جامعة هانوفر التقنية، السيد شفيرت. ففي الواقع، كان البروفسور هو الذي طوّر الخوذة الفولاذية التي استُعملت للمرة الاولى في فردون عام خمسة عشر ومن ثم في قطاعات الجبهة كلّها، فحلّت محلّ الخوذة المسنّنة البائسة. ونحن نحسب انفسنا تلاميذه. على كل حال، احسستُ بالامتنان حين نلتُ (ونلتَ انت معي سرًا) هذا التكريم كلّه. ومع ذلك لم تكن سعادتي خالية من الشوائب: فللاسف يقف الآن جيشان آلمانيان بوجه بعضهما بعضا. وطننا

ممزق. بموجب ارادة السلطة الغريبة. لا يبقى لنا سوى الامل ان نستعيد في مستقبل قريب وحدتنا الوطنية. حينذاك سيكون لنا ان نجول معا جبال هارتْس، كما كنا نجولها في ايام الصبا، لا تعيقنا حدود. وسيرتدي جنودنا جميعا تلك الخوذة التي اتخذت خلال الحربين العالميتين ذلك الشكل الفعّال في وقاية النيران والملتزم بالتراث الالماني على السواء. وكان لنا، يا صديقي العزيز، ان نساهم في ذلك!

صديقك المخلص أريش

الجيش الاتحادي: جيش جمهورية ألمانيا الاتحادية. بدأ بناء الجيش في ايار ١٩٥٥. منذ ١٩٥٧ خدمة عسكرية الزامية.

الجيش الشعبي الوطني: جيش جمهورية ألمانيا الديمقراطية. تكوّن الجيش عام ٥٦ من وحدات شرطة الشعب التي تأسست ١٩٥٢.

وسام الجدارة: في الاوّل من أيار ٥٧ نال المهندس كيسان وسام الجدارة البرونزي للجيش الشعبي الوطني ومكافأة مالية قدرها ألفي مارك لاسهامه في تطوير الخوذة الفولاذية.

برفسور فراي ودكتور هانزْل: بعد الاعتداء على بولونيا كُلّف كل من فراي وهانزْل باختبار الخوذة الفولاذية الالمانية وتحسينها. أما النموذج الذي طوّراه فيشبه الى حد بعيد خوذة الجيش الشعبي في شرق المانيا، لكنه لم يُنتج خلال الحرب العالمية الثانية.

"مصلحة بلانك": في العام ١٩٥٠ عيّن أدناور النقابيَ المسيحي تيودور بلانْك مسؤولا عن اعادة تشكيل القوات الالمانية. شغل بلانْك في العامين ٥٥ و٥٦ منصب وزير الدفاع وفيما بعد منصب وزير العمل والشؤون الاجتماعية.

١٩٥٨

لا شك في ذلك: مثلما لحقت موجة السفر موجة الاكل، هكذا لحقت معجزة الآنسات الالمانيات معجزة الاقتصاد. لكن، من كانت الاولى في صور الغلاف؟ من لفتت النظر في مجلة "شترنْ" منذ العام سبعة وخمسين؟ ايّتهن من بين الجميلات الكثيرات ذُكرت باسمها حين تدفّقت موجة الآنسات ومعجزتهن، لتبلغ الشاطيء الآخر للمحيط فغطت مجلة "لايف" الحدث المثير.

كنتُ، بوصفي هاويا للنوع، مأخوذا بالتوأمين منذ اوائل الخمسينيات، حين جاءتا في عطلة الصيف من سكْسونيا الواقعة في الشطر الآخر لزيارة ابيهما الذي تخلّى عن ام التوأمين. فمكثتا في الغرب. لكن حين بدأتا، بفضل توسّطي، بالرقص في منوّعات الـ بلاديوم، بكَتا قليلا على مدرستهما للرقص الكلاسيكي في لايبْتْسِغ.. لانّ أليس و الن سعَتا الى الاعلى وحلمتا بالعمل في اوبرا دوسلدورف: "بحيرة البجع" والخ ...

كنت مأخوذا ايضا بلكنتهما السكْسونية المسلّية وهما تثرثران اثناء التنزّه امام واجهات المحلات في الشارع الرئيس. في البداية كنتُ اصحبهما الى هناك للفت الانظار – وهما ترتديان جوارب ليلكية – وفيما بعد لاثارة الضجة. وهكذا اكتشفهما مدراء الـ ليدو المتنقّلون دوما في البحث عن مواهب جديدة. فحصلت التوأمان، بعد موافقة أبيهما، على عقد يحملهما الى باريس. فحزمتُ حقيبتي ايضا. وقد بدأتُ اضجر على كل حال من مدينة دوسلْدورف وجو التصنع فيها. ويتيسر عليّ التنقل والسفر لان السيولة لا تنقصني يوما، منذ ان تكرّمت عليّ شركتنا المنتجة لمساحيق الغسيل المربحة بدفع مبلغ محترم، اذ رفضتُ، بعد وفاة امي، الاقتران بهيئتها الادارية. فيمكن لي ان اسافر وانزل في افخم الفنادق واشتري سيارة كرايْسلر مع سائق وشاليهاً في سان تروبيه، اي يمكن لي ان اعيش حياة الـ بلاي بوي. لكنّي لم اتلبّس هذا الدور المسلّي في الظاهر وحسب، إلاّ لأجل التوأمتين كسلْر. كان يجذبني جمالهما المزدوج. فصرتُ مأسورا بهاتين

النبتتين السكْسونيتين. ومنح قوامهما الرشيق والمفرط في الطول غايةً لوجودي عديم الفائدة، غاية لم ابلغها يوما... فـ ألِيس و ألن، او ألن و ألِيس حسبتاني حيوانا صغيرا اليفا، انما قادرا على الدفع ابدا.

لكن في باريس كان الاقتراب منهما ممتنعا على كل حال، وهما تحت جناح ميس بلْوبل. وكانت هذه الآنسة، الملقّبة باسم زهرة الجُرَيْس تنينا حقيقيا وتدعى في الواقع لايبْوفيتشي وتحافظ على فتيات فرقتها الاستعراضية طويلات السيقان الست عشرة، كأنهنّ تلميذات راهبات: ممنوع زيارة الرجال في غرف التلبيس! ممنوع مخالطة ضيوف الـ ليدو! وبعد الاستعراض لم تسمح بنقل البنات الى الفندق إلاّ بسيارات خاصة جاوز سائقوها الستين. وفي وسط أصحابي – كنت أخالط يومها ثلة من طلاب اللذة العالميين – قيل: "إن فك رموز خزنة حديد اسهل من فك فتاة من فتيات بلْوبل!"

بالرغم من ذلك، وجدتُ مناسبات لمرافقة توأميَّ المعبودتين في نزهات على الـ شامزاليزيه، او بالاحرى: سمحت لي حارسة الفضيلة الصارمة بذلك. كما اوكلت اليّ مهمة اخرى: تعزية التوأمين مرة تلو اخرى... لانّهما تعرضتا، بسبب من اصلهما التويتْوني لتنكيل بشع من قبل نساء الملابس والفتيات الفرنسيات. فكان عليهما، وفي قوامهما المفرط في الرشاقة، ان تتحملا المسؤولية عن جرائم حربية ارتكبها الـ بوش. فيا للعذاب! ويا لبكائهما المفطر للقلب! ولكم امتصصتُ دموعهما بشغف الهاوي!

لكن الاعتداءات خفّت فيما بعد، ومع تزايد النجاح. وفي امريكا اثار "الحدث من جرماني" اعجابا لا تشوبه شائبة من الطعن او القدح. واخيرا ارتمت باريس نفسها امام اقدامهما. من موريس شفاليه وفرانْسواز ساغان الى غراسيا باتْريسيا ده موناكو و سوفيا لورين – جميعهم تغنّوا بالتوأمين وتشبّبوا ما إن قدمتُ اليهم ألن و ألِيس كسلْر. وكانت ليس تايلور الوحيدة التي تنظر بشيء من الغيرة الى خصر الزنبقتين السكسونيتين.

اواه يا ألِيس، اواه يا ألن! مع جاذبيتهما كلّها لم يخطف قلبيهما اي من "الديوك

الشهوانية." وخلال تصوير فيلم "ترابيتس" لم يفلح الممثلان توني كورتْس وبيرت لانْكستر في مراودة الاولى او الثانية عن نفسها، ومن دون ان يكون عليّ ان احرس الفتاتين. مع ذلك، ظل الجميع اصدقاء، يمزحون وينكتون. فكلما ظهرت ألِيس وألن خلال استراحات التصوير، صاح بهما نجما هوليوود متهكمين: "أيْس كريم!" فردّت عليهما توأمايَ: "هوت دوغز! هوت دوغز!." وحتى لو نجح برت لانكستر في ان يلمّ باحداهما، كما قيل فيما بعد، فانه لم يتمتّع كثيرا، على الارجح، وهو يجهل ايّتهما معه.

كانتا من النوع الجذّاب للعين وحسب. ومتعة العين كانت مباحة لي، في اي مكان وزمان. كنتُ الوحيد المستفيد من هذا الامتياز الى ان سارتا في طريقهما الخاصة التي عبدها لهما النجاح. كان بريقهما اسطع واكثر اشعاعا من المعجزة التي تداولتها الالسن ونسبتها الى الاقتصاد الالماني حصرا... فمع ألِيس و ألن بدأت معجزة الآنسات السكْسونيات التي لا تزال تدهشنا الى اليوم.

ألِيس وألن كسلر: اشتهرتا عالميا في الرقص والغناء والتمثيل. من مواليد بلدة سكْسونية صغيرة ١٩٣٦.

ليدو: مسرح استعراضي باريسي. تأسس ١٩٤٨.

ميس بلوبل: مارغرت لايبوفيتشي، يومها في الستين من عمرها، مؤسسة فرقة الليدو الاستعراضية، لقبت بـ ميس بلوبل لزرقة عينيها.

موريس، شفاليه (١٨٨٨–١٩٧٢): مغنٍّ وممثل سينمائي فرنسي.

فرانسواز ساغان: مواليد ١٩٣٥، اديبة فرنسية.

غراسيا باتريسيا: المعروفة بـ غراس كيلي (١٩٢٩–١٩٨٢) ممثلة سينمائية ومسرحية امريكية، تزوجت ٥٦ من امير موناكو.

سوفيا لورين: مواليد ١٩٣٤، ممثلة سينمائية ايطالية.

ليس تايلر: مواليد ١٩٣٢، ممثلة سينمائية امريكية.

"ترابيتس": فيلم من انتاج ١٩٥٦، البطولة النسائية لـ جينا لولوبرِدْجيدا.

توني كورتْس: ممثل امريكي.

برت لانْكستر: ممثل سينمائي امريكي.

١٩٥٩

مثلما التقينا يوماً في مدينة برلين الكانونية القارسة على حلبة المرقص "قشرة البيض" – ويعود ذلك الى العام ثلاثة وخمسين –، هكذا كنا نرقص وقتها، أنى وأنا على حساب دار النشر (أكانت دار لوخترهْانت ام "قفير" فيشر حديث العهد؟... بالتأكيد لم نرقص على بلاط زورْكامب الملمّع... لا، بل في حانة استأجرها لوخترهانت)، اذ لا نجاة... إلاّ بعيدا عن قاعات معرض الكتاب واصداراته العشرين ألف الجديدة وابناء المهنة الكذا ألف المثرثرين... نرقص على اقدام حامية – فدائما كنا ننشد بعضنا ونتلاقى راقصين، – على موسيقى تلائم ايقاع سنواتنا الشابة: ديكسيلاند! – كما لو أنه لا يمكن لنا ان نتملّص من المعمعة، من طوفان الكتب، من الناس المهمين كلهم ومن ثرثراتهم – "يا للنجاح! بول وغرس وجونسون يفوزون في السباق –..." إلاّ ونحن نرقص على اقدام خفيفة، فنهمل ما ينتابنا من توجّس: الآن ينتهي شيء ما .. الآن يبدأ شيء ما... الآن نشتهر... ونحن نؤدّي لفّة سريعة، على اقدام مطاطية، متلاصقين او على مسافة رأس الاصبع، لانّ دمدمة قاعات المعرض – "بلْيارد ... تخمينات...، الطبل –"... وهمس السهرات – "أخيرا طلع! الادب الالماني ما بعد الحرب..." – وتشخيصات "ضباط الارتباط" – "الآن يتم الاختراق... رغم انف زيبورغ وجريدة فرانكْفورْتر ألغْماينه ..." – لا تخفت، لا تكفّ عن صكّ آذاننا إلاّ ونحن نرقص بنشوة وحمية، فتعلو موسيقى الـ ديكسيلاند ودقّات قلبينا على كل شيء، تجنّحنا وتجعلنا نحلّق، فترفع عن عواتقنا وزن المجلد – سبعمئة وثلاثون صفحة! – ونحن نتمادى ونتفعّل ونشتطّ في الرقص من طبعة الى اخرى: خمسة عشر... لا عشرين الف نسخة ... بل "ثلاثين الفا!" – يصيح احدهم ويتنبأ بعقود مع فرنسا واليابان واسكنْدينافيا... فنعفي ارجلنا من الاحتكاك بالارض، لاننّا نتفوق على هذا الرقم القياسي ايضا... واذا بـ أنى تفقد تنورتها الداخلية المزيّنة حافتها بثلاث طيات وبحاشية من شغل السنارة، اذ يرتخي خصرها المطاطي او يتخلى معنا عن كل

رادع، فتحلّق آنى منعتقة من الغطاء الداخلي الساقط وتلقفه برأس اصبع الرجل الحرة ترميه الى حيث يقف المتفرجون... زوارٌ للمعرض وقراء يحتفلون معنا على حساب دار النشر (لوخترهْانت) بالكتاب الـ بستْسلر ويصيحون "أوسكار"! و"أوسكار يرقص"!؛ غير ان الراقصين ليسا أوسكار ماتْسهرْات وسيدة من مكتب الهواتف يبدعان في الرقص، بل نحن، المدربين على الرقص، اللذين تركا ابنيهما، فرانتس وراول، عند اصدقاء وجاءا بالقطار من باريس حيث كنتُ أطعم المدفأة فحما بنيا، يقينا البرد في شقتنا الرطبة ذات الغرفتين واكتب امام حائط مبلل فصلا بعد فصل، بينما كانت أنى التي ورثت تنورتها الداخلية الساقطة عن جدتها، تعرق امام مرآة مدرسة الباليه للأستاذة مدام نورى قرب ساحة كليشي، الى ان طبعتُ الصفحات الاخيرة وارسلتُ التصحيحات الى نويفْيد وانتهيتُ من رسم الغلاف الذي يصور أوسكار بالعينين الزرقاوين فدعانا الناشر (كان اسمه رايفْرشايت) الى فرانكفورت لحضور معرض الكتاب، لنعيش معا النجاح ونختبره ونذوق نكهته الاولى والاخيرة؛ لكننا كنا نرقص دائما، منذ البداية والى أخره... حين شاعت شهرتنا وقلّ معها، من رقصة الى أخرى، ما نتبادله من كلام وغيره...

بول، هاينْريش (١٩١٧–١٩٨٥): كاتب عضو الجماعة ٤٧، حاز على جائزة نوبل. ١٩٧٢ صدرت روايته "بليارد في التاسعة والنصف" في العام ١٩٥٩.

جونْسن، أُفه (١٩٣٤–١٩٨٤): كاتب، عضو الجماعة ٤٧. عالج في رواياته الاولى التطور المتباين في شطري ألمانيا. صدرت روايته "تخمينات بخصوص يعقوب" في العام ١٩٥٩.

فرانْتس و راول: الابنان التوأمان لأنى وغونْتر غراس، مواليد ١٩٥٧.

١٩٦٠

يا للخسارة! صحيح ان الالعاب الاولبية في روما شهدت مرة اخرى منتخبا ألمانيا موحّدا، إلاّ ان التقسيم النهائي حصل عند آديداس... وذلك بسبب هاري. لا أعني ان قصده كان اثارة المشاحنات بيننا، نحن الشقيقين. لكنّه شحن صراعنا بلا شكّ، مع اننا قد افترقنا تجاريا من زمان. فأخي اسسّ هنا في جوار فورت، شركته المنافسة بوما، لكن من دون ان يبلغ ارقام انتاج آديداس، باي حال.

صحيح: سيطرت الشركتان على السوق العالمية في انتاج الاحذية الرياضية للعَدْو وكرة القدم. لكنّه يصحّ ايضا انّ أرمين هاري لعب على الحبلين واستغلّ المنافسة بيننا، اذ استعمل في سباقاته ضاربة الارقام القياسية احذية آديداس حينا و بوما حينا آخر. وقبض من الشركتين. وهكذا ارتدى في روما احذية أخي في حين انّه وقف على المنصّة، بعد ان فاز في سباقه الاسطوري بالميدالية الذهبية، وهو يرتدي آديداس. مع العلم اني قد أخذتُ أحذيته بنفسي بعد ان سجّل رقمه القياسي بعشر ثوان في زوريخ، وعرضتُها في متحفنا. فطوّرت الطراز المقبل "٩٩"، ليستعمله هاري في روما.

يا للخسارة، ان هاري قبِل عرض أخي بعيد بركة الميداليات الذهبية – وكان هاري ناجحا ايضا في سباق تتابع الاربعمائة متر–، فعمدت شركة اخي حالا الى استغلال اسمه – اشارة بليغة الى صراعنا العائلي –! وقدّمت الى الصحافة الرياضة ثمانية موديلات بوما سُمّيت على اسمه، نحو "هاري ستارت" و"هاري سبورت" و"هاري زيغ" والخ... غير أنّي أجهل كم دفعت بوما مقابل حملتها الاعلانية.

لكن اليوم، وقد فات الاوان للمصالحة واعادة المياه الى مجاريها اليوم وقد بيعت الشركة الى الخارج وتوفي أخي ودفنت معه العداوة اليوم أعلم علم اليقين المؤلم انه كان علينا ان نتحاشى هذا الشاب الذي قيل فيه بحق انه غير أمين ومثل الزئبق. وبعد حين جاءنا الحساب على كرم الاخلاق. فما إن سجّل الرقم القياسي

العالمي في العَدْو حتى ادركته الفضائح. في روما بدأ الصبي المدلل يتشاجر مع المدرّبين حول سباق التتابع. وفي السنة التالية انتهى صعوده كعدّاء للمسافات القصيرة. وذلك بعد طلوع سريع مثل المذنّب. لا، لم يتعرّض لحادث سير، بل انتهى، على ما قيل، بسبب انتهاكات فادحة لقواعد الهواة. وقيل ايضا إننا، نحن آديداس و بوما، اغوينا الصبي المسكين واوقعناه. وهذا خُلف بالطبع وإن كان عليّ ان اعترف بانّ السيد أخي النظيف كان دائما شاطرا في شراء الرياضيين، مهما كلّف الثمن. من فوتّرَر وغرمْر الى لاوْر، لم يسلم احد من محاولات رشوته. لكن مع هاري وقع أخي على انفه... مع اني ارى اليوم ان المحكمة الرياضية بالغت في حكمها على أرمين هاري، فحرمته من انتصارات وارقام قياسية جديدة، وهو كان ظاهرة فريدة في عَدْو المسافات القصيرة – حتى الزنجي جس أونس صافح الابيض هاري مهنّئا...

أصر على رأيي: يا للخسارة! حتى لو اتّضح من صيرورة هذا العدّاء العبقري ان موهبته افتقرت الى البناء التحتي الاخلاقي. فـ هاري تورّط فيما بعد في الفضائح، كوكيل عقارات ورجل اعمال. وفي اوائل الثمانينيات انزلق الى مستنقع المخطّطات التي حاكتها المؤسسة النقابية "الوطن الجديد" ومطرانية مونيخ، فسجن بتهمة الاختلاس والتزييف لمدة سنتين... لكنّي ما زلت ارى امامي الشاب الطويل – وعلى الارجح رآه أخي هكذا ايضا – وهو يقطع المائة متر بخمس واربعين خطوة في توقيت قياسي عالمي، مع العلم ان اطول خطوة له قيست بمترين وتسعة وعشرين سنتمترا.

آه، يا لانطلاقه! ما إن طلع من الخط، حتى ترك جميع العدّائين وراءه، بما فيهم السود. وظل الرقم القياسي الاخير لعدّاء ابيض في المسافات القصيرة صالحا لسنوات طويلة. يا للخسارة، بانه لم يتمكّن من التفوّق على رقمه القياسي الشهير بنفسه، أعني العشرة فاصلة صفر. فلو ظلّ أرمين هاري مع آديداس وَلو لم يتورّط مع أخي و بوما، لسجّل ٩،٩ بالتأكيد. ويقال ان جس أونس ظنّه قادرا على ٨، ٩ ايضا.

أرمين هاري: من مواليد ١٩٣٧. توقف عن العَدْو عام ١٩٦١. اما رقمه القياسي العالمي فلم يبطل إلاّ في العام ١٩٦٨.

نحن الشقيقين: آدولف دسلْر، صاحب آديداس. رودلف دسلْر، صاحب بوما.

١٩٦١

وإن كان ما من احد مهتمّ اليوم... فانّي اقول لنفسي: ذلك الزمن كان الافضل عندي. كنتُ مطلوبا وقبلتُ التحدّي. لمدة سنة واكثر عشتُ المجازفة واكلتُ اظافر يديّ خوفا وخضتُ الاخطار بلا تردد وطرح الاسئلة... حتى لو خسرتُ الفصل الدراسي القادم... فحين شُيِّد الحائط بين ليلة وضحاها، كنتُ طالبا في الجامعة التقنية ومهتمّا بنظام التدفئة المركزية.

يا للولولة! ركض الكثيرون الى المسيرات، واحتجّوا امام مبنى البرلمان او في غير محل، إلاّ انا... في شهر آب أتيتُ بـألكه التي كانت تدرس علم التربية في الشطر الآخر. وكان الامر سهلا نسبيا يومها، إن حصل الواحد على جواز سفر ألماني غربي. أما تدبير الصورة الشمسية والمستلزمات الاخرى فلم يشكّل عندها اي اشكال... لكن، ابتداء من اواخر الشهر نفسه، كان علينا ان نزوّر بيانات مرور ونعمل في جماعات. كنتُ همزة الوصل او الارتباط. وامكن لي لعب هذا الدور بجواز سفري الاتحادي الصادر في هيلْدسهْايم مسقط رأسي، حتى أوائل ايلول. بعد ذلك كان على الواحد ان يسلّم بيان المرور عند مغادرة القطاع الشرقي. ولو وجدنا قبل فوات الاوان من يزوّدنا بورق القطاع الشرقي المميز، لامكن لنا، على الارجح، ان نجتاز هذه العقبة ايضا...

لكن اليوم لا يريد احد ان يسمع هذه الاخبار. ولا اطفالي بايّ حال. يسدّون آذانهم او يقولون: "حسنا، يا بابا، كنتم يومها أفضل منّا بدرجات. الجميع يعرفون ذلك." ربما سيهتمّ احفادي يوما ما باخباري، حين اقصّ عليهم كيف أتيتُ بجدّتهم التي علّقت على الجهة الاخرى، وكيف انخرطتُ من ثم في المشروع "مكتب السفريات" كما اطلقنا على نشاطنا للتمويه. وكان بيننا خبراء يستعملون البيض المسلوق لتزييف الاختام. وفضّل آخرون الشغل اليدوي بعيدان الكبريت المبرية. كان معظمنا من الطلاب – يسار متطرف – والبقية من منظمات الشبيبة او من غير المنتمين الى أيّ تنظيم وغير الحافلين بالسياسة، مثل حكايتي...

صحيح، في الغرب كانت الانتخابات جارية وترشح حاكم برلين عن الاشتراكيين، لكني لم اصوّت لا لـ برانت ورفاقه ولا لـ آدناور العجوز، لان الايديولوجيا والكلمات الطنّانة كانت مرفوضة عندنا. كان الواقع والممارسة وحدهما مهمّين. كنا نعمل على تبديل الصور الشمسية في الجوازات الاجنبية ايضا... سويدية او هولاندية. او كنا ندبّر عبر الوسطاء جوازات تحمل صورا ومعلومات شبيهة للشخص المعني – لون الشعر، لون العينين، الطول العمر... وندبّر ايضا ما يلائم من الجرائد والعملة والتذاكر القديمة، اي من المتفرقات الصغيرة التي يحملها الواحد معه في الحقيبة... على سبيل المثال مواطنة شابة من الدانمارك... فكثرت اشغالنا وذلك كله مجانا او بسعر الكلفة.

لكن اليوم، وقد صار لكل شيء ثمنه الباهظ، لا يعود احد يصدّق باننّا لم نهتمّ بالمال حين كنا طلابا. صحيح، فيما بعد، عند بناء النفق، فتح بعضهم اليد للقبض. ولذلك لم يمش المشروع شارع برناور جيدا. يومها قبضت ثلة من ثلاثة اشخاص من شركة تلفزيونية امريكية ثلاثين الف مارك مقابل التصوير في النفق، من دون ان ندري بالامر. ظللنا نحفر لمدة اربعة اشهر. في الارض الرملية! جاوز طول النفق مئة متر. وحين صوّرونا ونحن ننقل ثلاثين شخصا تقريبا الى الغرب، بينهم عجائز واطفال، اعتقدتُ ان المشاهد ستستعمل لفيلم وثائق في المستقبل. لكن لا! عُرضت المشاهد بعد حين على شاشة التلفزيون، ولو لم يغرق النفق، رغم المضخات الغالية لانفضحت القصة كلها. لكننا أكملنا العمل في غير مكان.

لا، لم يمت عندنا احد. اعرف ان تلك القصص اكثر اثارة. كانت صفحات الجرائد تعج بالاخبار: حين قفز احدهم من نافذة الطابق الثالث لبيت حدودي ووقع في الاسفل على الرصيف... وفتحت الاطفائية شبكة النجاة... لكنه اخطأها بشعرة. او حين حاول بيتر فيشتْر، بعد ذلك بسنة، العبور عبر حاجز تشكْبوينْت تشارلي، فاصيب بالرصاص ومات نزفا، اذ لم يساعده احد... لم نسجل مثل هذه الاحداث لاننا كنا حريصين على الأمان والسلامة... مع ذلك يمكن لي ان احكي لكم حكايات لم يصدقها احد الى اليوم. وعلى سبيل المثال، اننا هرّبنا الكثيرين عبر

انفاق المجاري... وفيها رائحة نُشادر قوية. لقّبنا احد الانفاق الممتدة من مركز المدينة الى حي كرويتْسبرغ، زقاق كولونيا ٤٧١١، وفيه كان على الجميع، علينا والهاربين، ان يجتازوا المياه القذرة البالغة حدّ الركبة. فيما بعد كنتُ "رجل الغطاء"، اي كان عليّ، ما إن رحل الناس كلّهم، ان اركّب غطاء المجاري، لان أواخر الهاربين اصيبوا عادة بالذعر ونسوا إغلاق فجوة الدخول. وعند نفق مياه الامطار تحت شارع اسبلانادن في شمال المدينة، اثار بعضهم ضجة كبيرة ما إن وصلوا الى الغرب. طبعا، من كثرة سرورهم. لكن شرطة الشعب التي قامت بالحراسة على الجهة الاخرى، انتبهت للامر. فصارت تلقي قنابل مسيلة للدموع الى النفق... او قصة المقبرة التي كان حائطها جزءا من الحائط الكبير... وحفرنا اليها في التراب الرملي نفقا مدعوما للزحف يصل مباشرة الى مدافن أواني الموتى، فاستطاع زبائننا – وجميعهم من الناس العاديين الحاملين زهورا وزينة للمدافن –ان يرحلوا من دون لفت انظار. ومشت هذه الطريقة جيدا الى ان جاءت امرأة شابة مع طفل رضيع وتركت عربة الطفل قرب فجوة النزول المغلقة، فانفضحت القصة...

كان علينا دائما ان نحسب حسابا للاخطاء الطارئة. لكن، هاكم قصة اخرى – اذا اردتم – مشت فيها الامور حسب الخطة... لا؟ تكتفون بهذا القدر؟.. فهمتُ... تعوّدتُ ان يسأم الناس من هذا كله. قبل سنوات، حين كان الحائط موجودا بعد، اختلفت الامور. يومها كان زملائي الذين اعمل معهم في معمل التدفئة المركزية، يسألونني احيانا ايام الآحاد صباحا حين كنا نشرب كأسا: "كيف كانت الامور يا أولي؟ احكِ لنا كيف مشت القصة لما جئتَ بصديقتك ألكه من الشطر الاخر الى هنا..." لكن اليوم لا يريد احد ان يسمع اي شيء عن هذه الامور، ولا بأي حال هنا في شتوتْغارت، لانّ سكان سوابيا لم يلاحظوا شيئا في العام واحد وستين، حين صارت برلين مدينة مقسومة بالنصف... وحين أزيل الحائط فجأة، قلّ عدد المهتمّين. واعتقد انهم تمنّوا لو بقي الحائط، لئلا يدفعوا زيادة التضامن المتوجبة عليهم منذ ان راح الحائط. لذا ما عدت اتكلم عن الموضوع... وإن كان

ذلك الزمن هو الافضل عندي... حين اجتزنا الانفاق غارقين في القذارة حتى الركب... او حين اجتزناها زاحفين... على كل حال، مع زوجتي حق، حين تقول: "يومها كنتَ انسانا آخر. يومها كنا عائشين فعلا..."

مشروع مكتب السفريات: جماعة ساعدت ٦٠٠ مواطن تقريبا على الفرار من جمهورية المانيا الديمقراطية (الشرقية)، ظلت ناشطة حتى عام ١٩٦٢.

حاكم برلين: فيلي برانْت (١٩١٣-١٩٩٢)، صحافي وسياسي، عاد ١٩٤٥ من المنفى النرويجي الى المانيا مراسلا للصحافة الاسكندنافية، شغل منصب رئيس بلدية برلين بين ١٩٥٧ و ١٩٦٦، كان رئيس الحزب الاجتماعي الديمقراطي الالماني بين ١٩٦٤ و ١٩٨٧، وزير الخارجية بين ١٩٦٦ و ١٩٦٩، رئيس المانيا الاتحادية بين ١٩٦٩ و ١٩٧٤.

التصوير في النفق: شركة ن ب س ١٩٦٢.

بيتر فشتر: عامل معماري في الثامنة عشرة من عمره من برلين الشرقية، قُتل رميا بالرصاص عند محاولة فراره.

تشكبوينْت تشارلي: حاجز امريكي بين شطري المدينة في شارع فريدْرش.

زودة التضامن: بين العامين ١٩٩١ و ١٩٩٢وابتداء من عام ٩٥ ضريبة خاصة خُصّصت لتطوير البنية التحتية في بلدان الاتحاد الالماني الجديدة "(بناء الشرق.)"

١٩٦٢

مثلما يفعل البابا اليوم، حين يسافر ليزور انصاره في افريقيا او بولونيا، من دون ان يحدث له اي مكروه... هكذا جلس رئيس النقل الكبير في قفص مغلق من جهاته الثلاث، حين حضر عندنا امام المحكمة. كان قفصه الزجاجي مفتوحا من جهة واحدة، اعني ناحية طاولة القضاة. كان ذلك الشكل مطلوبا لاسباب امنية، فركبتُ على الجهات الثلاث الواحا من الزجاج الخاص، الزجاج المصفّح الغالي الثمن. بنتفة حظ، حصلتْ شركتي على التكليف، فزبائننا كانوا دائما من النوع الذي له رغبات خاصة. أعني... مصارف في اسرائيل كلّها، وجواهريون في شارع ديتسنْغوف يريدون عرض نفائسهم في واجهات المحلات وتأمينها ضد عمليات نهب محتملة... من زمان كان ابي ساكنا في نورنْبرغ - مدينة جميلة يومها - وكان المعلّم في معمل زجاجه الذي ارسل بضاعته حتى الى شفاينْفورت وإينْغولْشتاد. اي نعم، كان عنده شغل كثير حتى العام ثمانية وثلاثين، حين تكسّرت اشياء كثيرة، ويمكن لكم ان تتصوّروا لماذا... كنتُ اشتم وانا صبي: يا ربي العادل...! فأبي كان صارما واجبرني باستمرار على العمل في الليل.

بنتفة حظّ هربنا في آخر لحظة، أنا وأخي. نحن الوحيدين. اما الباقون - وآخرهم شقيقتاي وبنات عمي - فنقلوهم بعد بداية الحرب الى تريزينْشتاد ومن ثم، على ما اظنّ، الى سوبيبور او أوْشفْيتْس. وكانت أمي الوحيدة التي ماتت قبل ذلك بطريقة طبيعية جدا، كما يقال، أي بذبحة قلبية. لكننا لم نعلم بالتفاصيل... وحتى أخي الذي استخبر بالمنطقة واينما كان لم يخرج بنتيجة. الامر الوحيد الذي تبيّنه هو تاريخ يوم النقل. فمن نورنْبرغ التي استقرت فيها عائلتي من زمان، انطلقت قطارات كاملة.

اي نعم، والان جلس، أعني ذاك الذي سمّته الجرائد كلها "ناقل الموت"، في صندوقي الزجاجي الذي طُلب منّي ان يكون واقيا للرصاص فصار كما طلب. أعتذر منكم، فلغتي الالمانية ركيكة، على الارجح لانّي كنتُ تسع عشرة سنة حين

مسكتُ يد أخي الصغير ورحلت بالسفينة الى فلسطين. لكن الرجل الجالس في الصندوق الزجاجي والمنشغل بسماعاته لم يتكلّم احسن منّي. ذلك ما أكّده السادة القضاة الذين اتقنوا جميعا الالمانية، حين كان يركّب جملا طويلة مثل الحيّة فالتبس عليهم الامر. لكني فهمتُ تماما، انا الجالس بين المستمعين العاديين: انه فعل كل شيء انصياعا للاوامر. وان هناك آخرين كثيرين فعلوا كل شيء انصياعا للاوامر، لكن، بنتفة حظّ، يتجولون الآن احرارا. ويقبضون جيدا، وبينهم واحد يقبض من آدناور لانّه سكرتير دولة، وكان على رئيسنا بن غوريون، ان يتفاوض معه بشأن المال.

فقلتُ لنفسي: اسمع يا ينْكاله! كان عليك ان تبني مائة لا بل الفا من تلك الاقفاص الزجاجية المصفّحة. لو شغّلت شركتك بعض العمّال الاضافيين لامكن لك ان تنجز ذلك... على دفعات... أي نعم... ولامكن ساعتها، كلّما يُذكر اسم جديد – مثل آلويس برونر – ان توضع ورقة بالاسم المذكور في صندوق من الصناديق الزجاجية الصغيرة جدا ويوضع الصندوق بشكل رمزي بين أيشْمان ومقعد القضاة... على طاولة خاصة... ولامتلأت الطاولة في النهاية.

وكم كتبوا عن ذلك كلّه... اي نعم... عن الشرّ وعن انّ الشرّ مبتذل نوعا ما. ولم تقلّ الكتابات إلاّ بعدما شنقوه من رقبته. لكن، طالما كانت المحاكمة جارية، كانت الجرائد تعج باخبارها. وحده غاغارين، ذلك الانسان السوفياتي في علبته الفضائية الذي احتفلوا به، كان منافسا لـ آيشْمان، فغار ابناء بلدنا والامريكيون من غاغارين. لكني قلتُ لنفسي يومها: ألا تعتقد يانْكله، ان الاثنين في وضع مشابه. مع الفرق الوحيد ان هذا الغاغارين اكثر توحّدا بكثير من آيشْمان الذي يجد دائما احدا يتحدث اليه، منذ ان أخذه اخواننا من الارجنتين عندما كان يربّي الدجاج. وهو يحبّ الكلام. وموضوعه المفضّل هو كيف كان بودّه ان يرسلنا، نحن اليهود، الى مدغشقر وليس الى الغاز. وهو يكنّ لنا اعجابا ايضا، بسبب فكرة الصهيونية، لانّ فكرة بمثل هذا الجمال تصلح للتنظيم، على حد قوله. ولو لم يطع أمر تأمين النقل، لكان الشعب اليهودي ممتنّا له الى اليوم على الارجح، لانّه اعتنى

شخصيا بالتهجير الجماعي.

وقلتُ لنفسي: وانت ايضا، يانْكله، يجب ان تكون ممتنّا لـ آيشْمان على نتفة الحظ الذي اسعف أخاك الصغير، غرسون فاستطاع ان يغادر معك في العام ثمانية وثلاثين. لكن، ليس عليك ان تكون ممتنّا لأجل البقية من العائلة، لا لأجل الأب ولا الأعمام والعمات ولا الشقيقات ولا بنات اعمامك الجميلات كلّهن، اي لأجل العشرين نفرا تقريبا... كنتُ اودّ ان اتكلم معه حول هذا الموضوع، لانّه كان يعلم تماما ماذا حدث... أعني اهداف النقل ... والى اين ساقوا اخواتي والاب الصارم في نهاية المطاف. لكنهم ما سمحوا لي بذلك. كان عندهم ما يكفي من الشهود. عدا عن ذلك كنت راضيا بان كان لي ان اهتمّ بآمانه. وعلى الارجح، كان معجبا بقفصه الزجاجي المصفّح. فهكذا بدا عليه، حين كان يبتسم قليلا.

رئيس النقل الكبير: أدولف أيشْمان (١٩٠٦-١٩٦٢) كان منذ ١٩٣٩ رئيس "شعبة اليهود" في مصلحة امن الرايخ ونظم نقل اليهود الى معسكرات الابادة في المناطق الشرقية المحتلة. عاش بعد الحرب في المنفى الارجنتيني حيث عثرت عليه المخابرات الاسرائيلية فخطفته الى اسرائيل في العام ١٩٦٠. في اواخر ١٩٦١ حكمت عليه محكمة في القدس بالاعدام.

سكرتير دولة: هانس غلوبكه (١٨٩٨-١٩٧٣) قضائي، عمل على قوانين نورنْبرغ المعادية للسامية، بين ١٩٣٨ و١٩٤٥ في وزارة الداخلية للرايخ، بين ١٩٥٣ و١٩٦٣ سكرتير دولة في المانيا الاتحادية.

بن غوريون (١٨٨٦-١٩٧٣): نظّم بين ١٩٣٥ و ١٩٤٨ هجرة اليهود غير الشرعية الى فلسطين. رئيس الوزراء الاسرائيلي بين ١٩٤٨ و١٩٥٣وبين ١٩٥٥ و ١٩٦٣.

...الشرّ وان الشرّ مبتذل: من كتاب هانى آرنْت "آيشْمان في القدس. تقرير حول ابتذال الشرّ"، ١٩٦٣.

غاغارين (١٩٣٤-١٩٦٨): رجل فضاء سوفياتي، اول انسان دار في مركبة فضائية حول الارض في ١٩٦١/١٢/٤.

حلم يمكن الركون اليه. ظاهرة مستقرة وراسية في امان. اوّاه، كم كنتُ متحمّسة لها! سفينة شراعية مصمّمة بجرأة وباخرة موسيقية على السواء، ترسو بلونها السلْموني في جوار الحائط القبيح الذي يقسم كل شيء، سفينة بلغت شاطيء القفر، تناوىء البربرية بمقدمتها الشامخة، تسمو الى ربوع تجاوز الواقعي، تسمو – كما اتضح فيما بعد – على أي مبنى قريب... مهما بدا حديث الطراز.

قيل عن اغتباطي انه نابع من روح الفتاة الصغيرة او المراهقة لكني لم اخجل من حميّتي. بِصبر، بل بِرزانة وكبرياء، ربما، تحمّلتُ تهكّم نساء الملابس الاكبر مني سنا، وانا اعلم ان الاصرار العنيد على الرأي الخاص لا يليق بي، انا بنت عائلة فلاحية من منطقة فيلْسترْمارش، تدرس الموسيقى باجتهاد وبفضل منحة، ولا تؤدّي خدمتها كامراة ملابس إلا بين حين وآخر لأجل المال الذي لا غنى عنه. اضافة الى ذلك كان تهكّم زميلاتي الناضجات خلف طاولة الملابس من النوع الطيّب الخاطر. كن يقلن لي": فتاة الناي تتمرّن ثانية على عزف أعلى الاصوات"، ويلمحن الى آلتي الموسيقية: الناي.

وللواقع يقال: ان استاذي المعبود، أوريل نيكوليه، هو الذي شجّعني – وشجّع بلا ريب طالبات اخريات يملن الى الحلم والحمية – على ان اعبّر ببلاغة عن كل ما يثير حماسي، من فكرة تخدم الانسانية الى سفينة راسية تدعى فيلْهارْمونيا. فهو مثلي رأس ناري، يلتهب على هامته الشعر الاحمر المجعّد ويضفي على محياه – كما بدا لي في السابق – بريق الاغراء. على كل حال، نقل الاستاذ تشبيهي بالسفينة الراسية حالا الى اللغة الفرنسية:Bateau echoue

أما البرلينيون فتوسّلوا كالعادة روحيتهم الفطنة، فمزجوا بين عناصر المبنى الشبيهة بخيمة السيرك وموقع قائد الاوركسترا المركزي ملخّصين التصميم بالصيغة اللائقة "سيرك كراياني." وتذبذب آخرون بين المدح والقدح، وعبّر زملاء

في الهندسة المعمارية عن شيء من الحسد او الغيرة. وحده البروفسور يوليوس بوزنر الذي أحترمُه ايضا، ابدى ملاحظة مصيبة: "انه امتياز محفوظ لـ شارون حصرا ان يبني فضاء بيرانيزيا ويقلب طابعه السجني الى احتفال مهيب..." مع ذلك اظل ارى: انها سفينة، واذا اردتم سفينة سجن، تقطن في باطنها الموسيقى، واذا اردتم الموسيقى المسجونة في الفضاء والمنعتقة منه على السواء، لتهيمن عليه وتمنحه روحها.

والهندسة الصوتية؟... مدحها الجميع، الجميع تقريبا. كنتُ حاضرة بل كان لي ان احضر تجريبها شخصيا. قبل حفل الافتتاح بقليل – وقد تصمّم كارايان بالطبع على التاسعة – تسللتُ من دون اذن الى القاعة المعتمة. صعب عليّ ان اميّز صفوف المقاعد. والمنصة الواقعة في الاسفل وحدها منورة بالاضواء الكاشفة المنخفضة. واذا بصوت عميق لطيف ينادي بي من الظلمة: "لا تبقي جالسة، يا ابنتي. نحتاج الى المساعدة. يلاّ بك الى المنصة!" وانا، ابنة الفلاحين العنيدة التي لا تبخل في الاعتراض عادة، سارعت الى الانصياع نزلت الادراج قافزة، ووقفتُ بعد لف ودوران في الضوء فسمحت لرجل تعرفته بعد حين بصفته مهندس الصوت، بان يضع في يدي مسدسا شرح لي استعماله. واذا بالصوت العميق يعلو ثانية من ظلمة القاعة المحيطة بي مثل اقراص العسل في قفير النحل، يقول: "الطلقات الخمس كلها بالتوالي. لا تخافي، يا ابنتي، الرصاصات ليست ذخيرة حية حقيقية. الآن اعطيك الاشارة: الآن!"

لحظتها رفعت طائعة المسدس وقمت بالمطلوب غير خائفة وانا ابدو على ما قيل لي فيما بعد، جميلة كالملاك. وقفتُ اذن هناك واطلقت خمس طلقات متتالية، كي يمكن للتقنيين ان ينفّذوا القياسات الصوتية. وبالفعل نجح كل شيء. اما الصوت العميق من الظلمة، فكان صوت مهندس البناء هانْس شارون الذي اعبده منذ ذلك الوقت مثلما كنتُ اعبد استاذ الناي. لذلك – وعلى الارجح ملبّية نداء صوتي الداخلي – تخلّيت عن الموسيقى وادرس الآن بحماس الهندسة المعمارية. لكن، بين حين وآخر – ولاني ادرس الان بلا منحة – اعمل في القاعة الموسيقية كامرأة

ملابس. وهكذا اختبر من حفلة الى اخرى ان الموسيقى وهندسة البناء تكملان بعضهما بعضا الى حدّ بعيد، وبخاصة حين يعمد معلّم في بناء السفن الى سجن الموسيقى وتحريرها على السواء.

اوريل نيكوليه: من مواليد ١٩٢٦، عازف ومعلم فلوت سويسري، بين ١٩٥٠ و ١٩٥٩عازف في اوركسترا برلين الفلهارموني.

شارون، هانس (١٨٩٣–١٩٧٢): مهندس معماري، بروفسور في عمران المدن في جامعة برلين التقنية، بين ١٩٥٥ و ١٩٦٨رئيس اكاديميا الفنون في برلين.

كارايان: هربْرت فون (١٩٠٨–١٩٨٩)، قائد اوركسترا نمساوي، بين ١٩٥٥ و ١٩٨٩قائد اوركسترا برلين.

١٩٦٤

صحيح، اني لم انتبه للامور المرعبة التي حصلت من زمان والى كل ما يتعلق بها، إلاّ فيما بعد، حين كان علينا ان نتزوّج لاني حامل. يومها ذهبنا الى دار رومر التي تضمّ عندنا مكتب الاحوال الشخصية... فضعنا في المبنى... صحيح، لكثرة السلالم وشدّة الاضطراب. على كل حال، قيل لنا: "لستم في المكان الصحيح. مكتب الزواج اسفل بطابقين. هنا تجري المحاكمة." – فسألتُ: "اي محاكمة؟" – "محاكمة الفاعلين في اوشفْيتْس طبعا. ألا تقرؤون الجرائد؟ كلها ملآى باخبار القضية."

فرجعنا نزلنا السلالم ووجدنا شهود الزواج في انتظارنا... صحيح اهلي لم يأتوا، لانّهم عارضوا الزواج في البداية، لكن أم هاينْر كانت هناك، متوترة الاعصاب، وصديقتين من مكتب الهاتف. بعد الرسميات ذهبنا جميعا الى "حديقة النخيل"، المطعم الذي حجز فيه هاينْر طاولة لنا، فاحتفلنا على الاصول. لكن بعد العرس لم استطع ان انسى قصة المحاكمة... فرجعتُ الى هناك بين فترة واخرى... حتى عندما صرتُ في الشهر الخامس او السادس... وبقيت اتابع المحاكمة بعد ان نقلها القضاء الى شارع فرانكنْ أليه حيث كانت في دار غالوس قاعة كبيرة تسع لعدد اكبر من المتفرّجين.

لم يأت هاينْر معي يوما. تنصّل من مرافقتي... حتى حين كان يؤدّي خدمته الليلية في محطة القطارات حيث اشتغل... اي حين كان متفرغا خلال النهار. لكني قصصتُ عليه ما يُقصّ من تلك الامور... فمن المستحيل على الواحد ان يفهم الارقام المرعبة كلّها التي بلغت الملايين... واختلفت من مرة الى اخرى... صحيح، مرة قالوا ثلاثة ملايين ومرة مليونا ضحية، لا اكثر... ماتوا في افران الغاز او بغير طريقة. لكن الامور الاخرى التي تبيّنت امام المحكمة لم تكن ارحم، بل افظع بالاحرى، لاني كنتُ اتخيّلها واخبرتُ هاينر بها، الى ان قال لي: "كفى! يومها كان عمري اربع سنوات او خمس، وانت كنتِ طفلة رضيعة."

صحيح... لكن والد هاينز وعمّه كورت، وهو انسان لطيف جدا، كانا جنديين وراحا الى عمق روسيا، كما اخبرتني ام هاينْز مرة... لكن، حين اردتُ ان احكي لهما عن القضية في دار غالوس وعن كادوك و بوغر – بعد تعميد بنتنا بئاته حين التقت العائلة كلها اخيرا – ردّا عليّ: "يومها ما سمعنا بهذه الامور اطلاقا... متى، قلت، حدث ذلك؟ ثلاثة واربعين؟ كنا مشغولين بالانسحابات..." وقال العم كورت: "لما كان علينا ان ننسحب من جزيرة كريم وعدتُ أخيرا في الاجازة، كان بيتنا مدمّرا من القصف. لكن لا احد يتكلم عن الارهاب الذي تعرضنا له على يد الامريكيين والانكليز. طبعا، لانهم انتصروا علينا... والمذنبون هم الآخرون دائما وحصرا. كفانا الكلام عن هذه الامور، يا هايْدي!"

لكن هاينْز، كان عليه ان يسمعني... اجبرتُه... فنحن لم نضلّ الطريق صدفةً في دار رومر حين رحنا لنتزوّج... فسمعنا بـ أوْشْفيتْس، والاسوأ ايضا، بـ بيرْكْناو حيث كانت الافران. في البداية رفض ان يصدّق ذلك كلّه، وعلى سبيل المثال ان احد المدّعين العامين أمر سجينا من السجناء ان يغرق والده فجنّ جنون السجين ولذلك، لذلك وحده، اطلق المدعي العام الرصاص على السجين وقتله فورا... او ما حدث في الباحة الصغيرة بين المجمّعين ١٠ و ١١ امام الحائط الاسود... اعدامات! بالآلاف... ولا احد كان يعلم بالعدد الدقيق حين طُرحت القضية اثناء المحاكمة... على العموم كانت الذاكرة ضعيفة في هذه الامور. وحين اخبرتُ هاينْز عن الإرجوحة – وهي آلة اخترعها فيْهلم بوغر ليدفع المعتقلين الى الكلام والاعتراف فسُمّيَت باسمه – لم يفهم عليّ في البداية. فرسمتُ له على ورقة بدقة ما شرحه احد الشهود للقاضي بواسطة نموذج صغير صنعه خصيصا للمحاكمة: كانت دمية سجين في الملابس المخطّطة الاصلية معلقة على القضيب الفوقاني، والسجين مربوط بطريقة سمحت لـ بوغر ان يضربه على المنطقة بين الفخذين، على الخصيتين ... نعم، على الخصيتين. وقلتُ: "تخيّل، يا هاينْز لما اخبر الشاهد المحكمة بذلك كله، كان بوغر الذي جلس على كرسي الاتهام، خلف الشاهد من جهة اليمين، يبتسم ابتسامة رضا ملء الشدقين..."

صحيح! لقد سألتُ نفسي ايضا... أما زال ذلك الرجل انسانا؟ بالرغم من ذلك حضر شهود ادّعوا بان بوغر هذا كان عموما يلتزم بالنظام ويعتني دائما بالزهور في غرفة القيادة. وبانه كان يكره البولونيين وحدهم كرها شديدا واليهود اقل منهم... ماذا أقول بعد؟... إن قصة غرف الغاز والافران في بيرْكْناو وفي المعسكر الاساسي الذي سُجن فيه عدد كبير من الغجر في زنزانات خاصة وقُتلوا جميعا بالغاز، هي اكثر تعقيدا واصعب على الفهم من قصة الارجوحة. لكنّي كتمت بالطبع ان بوغر هذا يشبه الى حدّ ما العم كورت، وخاصة في نظراته الطيبة... لان كلاما من هذا النوع لا يقال وكان سيجرح العم كورت، وهو في الواقع الطيبة واللطافة بعينها.

مع ذلك علّقت قصة الارجوحة والحقائق الاخرى في ذهني وفي ذهن هاينْز ايضا. وكلما احتفلنا بعيد زواجنا نتذكر... وذلك ايضا، لاني كنتُ يومها حاملا ببئاته، فقلنا في سرنا: "نأمل ألا تكون الطفلة أحسّت بشيء من تلك الامور..." لكن، في الشتاء الفائت قال لي هاينْز: "ربما نسافر في الصيف، حين أحصل على اجازة، الى كراكاو و كاتويتْس. تتمنّى أمي ذلك من زمان، لانّها بالاساس من شليزيا العليا... ذهبتُ الى اوربس... مكتب السفريات البولوني..."

لكني لست ادري ما اذا كان ذلك مناسبا لنا او ما اذا تحقّق فعلا... مع ان الحصول على فيزا صار سهلا اليوم... صحيح، يقال ان الطريق من كراكاو الى أوْشْفيتْس ليس بعيدا. ويمكن زيارة المكان، على ما كُتب هنا في دفتر مكتب السفريات...

كادوك، اوسْفالْد: مواليد (١٩٠٦)، عضو في فرق الهجوم الفاشية، مسؤول في معسكر الاعتقال اَوشْفيتْس حوكم في العام ٤٧ من قبل قوات الاحتلال السوفياتية بالاشغال الشاقة، أُطلق سراحه ١٩٥٦، ثم حوكم في محاكمة فرانكْفورت بالسجن المؤبّد، اطلق سراحه ٨٨.

بوغر، فلهلم: (١٩٠٦–١٩٨٩)، عضو في الحزب النازي وفرق الهجوم، شغل منذ ١٩٤٢ مناصب مختلفة في معسكر أوشْفيتْس، حوكم عليه بالسجن المؤبّد ومات في السجن.

١٩٦٥

مرة اخرى ألتهم الكيلومترات وانا انظر الى مرآة الخلف... في الطريق من بساو الى كيل... من منطقة الى أخرى أتنقّل... صيدا للاصوات. امام مقود السيارة المستأجرة غوستْاف شتْفن، طالب من مونْستر، يدرس في المعاهد الليلية وينهج اذن ما يسمّى بـ طريق التثقيف الثانية بعد ان انهى تعلّم مهنة الميكانيكي، لانّه لا يتحدّر من عائلة عريقة، بل ترعرع في بيئة عمالية كاثوليكية – كان ابوه سابقا في "الوسط" –، وهو يريد شأنه شأني، ان يجمع اصواتا للاشتراكيين، فيتحقّق الآن من مواعيد رحلتنا الانتخابية بدقّة وعقلانية، يقول: "نحن شكل آخر: لا نتأخّر!" ويستطرد: "بالامس في ماينتس، اليوم الى فرتْسبْورغ ... كنائس واجراس كثيرة... ضيعة سوداء وعلى هوامشها ظلال بلون افتح..."

وها نحن نوقف السيارة امام قاعات هوتن... ولانّي اعتمد على صورة المرآة، اقرأ شعار اللافتة، التي يرفعها شباب الاتحاد الفتي المشطّون والمهندسون وكأنّها بشارة العنصرة... أقرؤه بصورة معكوسة ومن ثم بالشكل الطبيعي: "ماذا يريد الكافر في مدينة القديس كيليان؟"، ولا يسعني ان ادلي بجواب يهدّئ الجلبة العامة إلاّ بعد دخول القاعة المكتظّة التي يحتلّ صفوفها الاولى طلاب منظّمون اتعرّفهم من قبعاتهم المميزة، اقول: "جئتُ بحثا عن تيلْمان ريمنْشنْايدْر!"، مستحضرا اذن ذلك النحّات الذي كان رئيس بلدية المدينة ووقع ايام الحروب الفلاحية ضحية السلطة الاسقفية التي شوّهت يديه... فاركن اليه الآن، بعد استحضاره الصريح، ليرافق خطابي من مقطع الى آخر ويضمن له، إن امكن، آذانا صاغية: "بكِ اتغنّى، ايّتها الديمقراطية!" كلام مستوحى من والت وايتْمان بتحريف يفيد غايات المعركة الانتخابية...

لكن ثمة ما لا يمكن قراءته في المرآة، بل في الذاكرة وحسب: نظّم هذه الرحلة طلابٌ من الاتحاد الاشتراكي الجامعي ومن اتحاد الطلاب الليبراليين، وهم اينما كانوا – في كولونيا وهامبْرغ و توبينغن – ثلل ضائعة... قد طبختُ لهم في شارع نيد، يومَ كان كلُّ شيء مجرّد خطّة ملقّحة بالامل، قدراً من شوربة العدس

التآمري. الى ذلك الحين لم يعلم رفاق الحزب الديمقراطي الاجتماعي الالماني بحظّهم غير المستحقّ إلاّ انهم صرحوا بعد ان بدأنا رحلتنا، ان الملصق ناجح جدا... وعليه ديكٌ من تصميمي يصيح أس بي دي، اي حروف الحزب المذكور. واندهش الرفاق ايضا من الازدحام في الصالات، مع اننا قد بعنا تذاكر للدخول. لكن على صعيد المضمون وجدوا امورا كثيرة تعارض ذوقهم، وعلى سبيل المثال، رغبتي في الاعتراف بحدود اودر–نايْسه التي صرحتُ بها اينما كان، اي التنازل الصريح عن بروسيا الشرقية و شليزيا و بومرن و دانْتسِغ – وسبّب لي التنازل عن المنطقة الاخيرة آلآما خاصة... فتلك الامور جاوزت القرارات الحزبية كلها.. وكذلك حملتي على المادة... ٢١٨ لكن من ناحية اخرى لاحظوا اننا نستقطب عددا كبيرا من المنتخبين الشباب، وعلى سبيل المثال في مونيخ...

اليوم امتلأت كل المقاعد في خيمة السيرك كرونه التي تسع ثلاثة آلآف وخمسمائة نفر. مداواةً للجلبة الوبائية من طرف ثلّة يمينية متطرفة انشد قصيدتي "مؤثرات المِرْجَل" التي اولدتها الظروف وتلائم دائما – وهنا ايضا – لتحسين الاجواء: "...انظروا الى هذا الشعب الموحّد في الفحيح! هوس الفحيح، سطوة الفحيح، حب الفحيح. يضمن الفحيح المساواة، لا يكلف غاليا ويدفّئ الاطراف. لكنّه كلّفنا غاليا ان نثقّف هذه النخبة التي تفحّ بألمعية..." كم يريحني ان ارى في خيمة السيرك، وانا انظر الى مرآة الماضي عددا من الاصدقاء، بينهم من قد ماتوا... هانْس فرنْر رشْتر عرابي الادبي الذي كان شكّاكا في البداية، حين بدأتُ رحلاتي وقال فيما بعد: "هيّا بك. انا تركتُ ذلك كله ورائي: دائرة غرونْفالد مكافحة الموت النووي... الآن جاء دورك ان تنفد نفسك في الاحتكاك..."

لا، يا صديقي العزيز، لا أستنفد. انّي اتعلّم الجديد، اسبر روائح مكبوتة عتيقة، اقتفي آثار الحلزونة، ازور مناطق ما تزال تعيث فيها حرب الثلاثين سنة... وعلى سبيل المثال هنا في كلوبنْبورغ... بلدة اكثر سوادا من فالسهْوفن او بيبرنْاخ على نهر رِس. يقودنا غوستْاف شتفن عبر سهول بلاد مونْستر وهو يصفر... ابقارٌ، في كل محل ابقار... تتكاثر في المرآة وتطرح السؤال عما اذا كانت الابقار نفسها كاثوليكية في هذه البلاد... وعدد متزايد من الجرّارات التي تكرج مثلنا في

اتجاه كلوبنْبورغ وتحمل عائلات فلاحية متعددة الرؤوس تريد الحضور حين يتكلّم في قاعة مونْسترلاند، التي استأجرناها، الشيطان الرجيم...

احتاج الى ساعتين لالقي خطابي "الاختيار لنا" الذي انهيه عادة في ساعة. ولو انشدتُ قصيدتي "مديح فيلي" او قرأتُ قصةَ "ملابس القيصر الجديدة"، لما اختلف الامر: ولو قرأتُ من الانجيل، لما هدأت هذه الجلبة. اما القذف بالبيض فاردّ عليه باشارات الى تمويلات للزراعة مبعثرة... هنا لا يفحَون. هنا يستعملون اساليب اكثر غلاظة. لكن بعض الفلاحين الشباب الذين قذفوني بالبيض واصابوا، سيدعونني، بعد ذلك باربع سنوات، الى الدورة الثانية في كلوبنْبورغ وقد اعتنقوا الاشتراكية. أما هذه المرة فاحذّر قاذفي البيض ناهلا من علمي الكاثوليكي العميق عمق المستنقع: "اوقفوا هذا يا شباب! وإلاّ سيكون عليكم السبت القادم ان تعترفوا للسيد القسيس بـ..."

حين نغادر موقع الجرم ونحن نحمل هديتنا: سلة مليئة بالبيض – تشتهر المنطقة في جوار فشتا و كلوبنْبورغ بمزارع الدجاج النشطة – وانا العب دور سائق الاحتياط في ملابسي الملوّثة، يقول غوستْاف شتْفن (الذي سيموت بعد ذلك بسنين قليلة في حادث سير...) يقول وهو ينظر الى المرآة: "لا اضمن نتيجة الانتخابات. لكن حضورنا هنا يضمن اصواتا كثيرة."

بعد العودة الى برلين يندلع – وانا نائم مثل جثة هامدة – حريق في باب البيت يفزع أني والاطفال. منذ تلك الايام تغيّرت امور كثيرة في المانيا... باستثناء قصة افتعال الحرائق.

الاتحاد الفتي: منظمة للشبيبة تابعة لحزب الاتحاد المسيحي الديمقراطي.

القديس كيليان: واعظ جوال من ايرلاند، قُتل في فرتْسبورغ في العام ٦٨٩.

ريمنْشنايدر: ١٤٦٠–١٥٣١.

حروب الفلاحين: انتفاضة للفلاحين في المانيا الجنوبية والوسطى بين ١٥٢٤ و ١٥٢٦.

والْت وايتْمان (١٨١٩–١٨٩٢): اديب وشاعر امريكي.

هانْس فرنْر ريشتْر (١٩٠٨–١٩٩٣): اديب، مؤسس جماعة ٤٧.

١٩٦٦

الكون او الكينونة... فجأة كفّت تلك الالفاظ السامية كلها، على اختلاف صيغتها – الماهية، المبدأ، كل كائن، العدم العادم – كفّت عن قول شيء ما. فجأة، وكأنها لا تعدو ان تكون طنطنة لفظية، أجد نفسي علامة استفهام، أحسّ نفسي مجبرا على ان ادلي هنا بشهادة. بعد فرار من الاعوام قد طال من دون ان أنتبه اليه، لانّ العالم من حولي ألهاني عنه، العالم المحتفل في معمعته الراهنة بشتى الامور التي تبدو له جديدة – من المارك الالماني الذي بدأ يكرج قبل خمسين سنة الى العام ثمانية وستين الغريب العجيب –، بل العالم المتهافت عليها مثلما يتهافت على تنزيلات آخر الموسم؛ بعد هذا الفرار أدوّن اذن ما حدث لي في عصر يوم من ايام الفصل الدراسي الجاري... فيومها، وبعد ان استهللتُ درسي الاربعائي بإلماحات حذرة الى تعالق نصي بين قصيدتي "نغمة الموت" و"توتْناوبْرغ"، من دون ان اذكر اللقاء، الجدير بالتفكر فيه، بين الفيلسوف والشاعر، وبينما كنتُ انصت الى مساهمات طلابي وطالباتي المنزلقة الى افاهيم اعتباطية، بدأتْ تداهمني فجأة اسئلة لها علاقة ملحّة بالزمان، فلا يجدر بي اصلا ان انسب اليها "وزنا وجوديا" نحو: من كنتُ يومها؟ من انا اليوم؟ ماذا جرى لذلك "الراكب موجة ثمانية وستين"، الناسي الكينونة والمتطرف على السواء الذي كان حاضرا مصادفة، قبل ٦٨ بسنتين، حين تشكّلت في برلين لاوّل مرة حركة احتجاج ضد حرب فيتْنام؟

لا لا لا، لم يحتشد يومها خمسة آلاف، بل ألفان على الاكثر ساروا متعاضدين وبصيحات عالية – وبموجب رخصة رسمية – من ساحة شتاين عبر شارع هاردنْبرغ الى دار امريكا. نظّمت المسيرة شتى الجماعات والثلل: رابطة الطلاب الالمانية الاشتراكية والرابطة الجامعية الاجتماعية الاشتراكية ورابطة الطلاب الليبراليين ونادي المحاجّة وخلية الطلاب الانجليين... قبل المسيرة قصد بعضهم – وأنا منهم بالتأكيد – محلات هوفْمان لشراء البيض من ارخص نوع. وبه قصفنا، كما قيل، "المستوطنة الامبريالية." فيومها درج القصف بالبيض، لا عند فلاحين متمرّدين وحسب، بل في الاوساط الطلابية ايضا. اجل، قصفتُ ايضا

بالبيض وصحتُ مع آخرين "اخرجوا من فيتْنام يا أمريكان!" و"جونسن قاتل!." في الواقع، كان من المفروض ان نجري نقاشا مع مدير دار امريكا الذي بدا رجلا ليبراليا ومستعدا للتفاوض لكن سرعان ما طار البيض وبعد القصف الجماعي انسحبنا، والشرطة تنظر إلينا، عبر شارعي كورفورستنْدام و اولاند الى ساحة شتايْن. اذكر الشعارات على بعض اللافتات، وعلى سبيل المثال "احزموا امتعتكم يا اصحاب الرقبات الجلدية!" او "موحّدون ضد الحرب!." لكن للاسف تغلغل بعض من كادرات الحزب الاشتراكي الالماني الموحّد من الشطر الاخر في مسيرة الاحتجاج بهدف تحريضنا. صحيح اننا لم نتجاوب، لكن حضورهم كان لقمة سائغة لصحافة شبرْينْغر.

لكن، ماذا بي انا؟ ماذا دفعني لامشي في صفّ؟ لأتعاضَد؟ لاصرخ الى ان يبحّ صوتي؟ لالقي البيض مع آخرين؟... ترعرعتُ في بيئة برجوازية ومحافظة الى حدّ ما، درستُ علم اللاهوت عند تاوبس وقليلا من الفلسفة، ذقتُ هوسرلْ، تمتّعتُ بشيلر، استنشقتُ هايدْغر، رأيتُ نفسي ماشيا على دربه في الحقول اعرضتُ عن كلّ تقنيّ، عن مجرد "الهيكل"، رفضتُ كلّ قريب، كالسياسة بوصفه "ناسيا الكينونة..." وبعد حين تحزّبتُ فجأة وقدحتُ برؤساء امريكا وحلفائها، دكتاتور فيتْنام الجنوبية تيو وجنراله كي، غير اني لم اكن مستعدا بعد للتخلّي عن كلّ كبت بالانضمام الى الصيحات "هو-هو-هو تشي مِنه!" مَن كنتُ اذن في الواقع، آنذاك، قبل ثلاثين سنة؟

بينما كانت مساهمات الحلقة الدراسية – ثلاث او اربع محاضرات قصيرة – تتطلّب نصف انتباهي فقط، ظلّ هذا التساؤل يفرض نفسه عليّ. ربما لاحظ طلابي غياب برفسورهم الجزئي، لكن السؤال المطروح عليّ مباشرة من قبل احدى الطالبات: لماذا شذّب مؤلف توتْناوبْرغ قصيدته "... في القلب، اليوم، أملٌ بأنْ تأتي (وتأتي حالاً) كلمةُ مفكّرٍ؟" فالكلمتان في المزدوجين غير موجودين في الصيغة النهائية التي يضمّها الديوان "اجبار على النور..." ان هذا السؤال المركزي ارجعني الى الحياة اليومية الجامعية واستحضر، لطرحه المباشر الغليظ، وضعاً قد رأيتُ نفسي ملقى فيه منذ ايام شبابي: قبل بداية الفصل الدراسي الشتائي

ستة وستين/سبعة وستين غادرتُ رصيف برلين المضطرب، الذي غمرته مسيرات احتجاج متزايدة الحجم، لأدرس في فرايبْورغ.

هذه المدينة هي مسقط رأسي. والى ذلك كنتُ مولعا باستاذ الادب الالماني باومان. حاولتُ تأويل عودتي بوصفها "عطفة" هايدغرية. اما الطالبة التي ارادت بسؤالها الاستفزازي ان تحثّني على ردّ "ياتي حالا"، فعللتُها بجواب مبهم وغير واف، مشيرا الى القرابة الزمنية للفيلسوف المنازع فيه من دولة الفوهرر والى صمته الحاجب كلّ سيئة، لأعود بعد ذلك فورا الى مساءلة نفسي حصرا.

اجل، فررتُ الى فرايبْورغ لانّي اردتُ ان اكون قريبا من "العرّاف" الكبير. كان يجذبني – هو نفسه او هالته... وقد اعتدتُ من زمان على الالفاظ السامية... وكان ابي الطبيب في مستوصف في شوارتسفْالد الذي يقضي اوقات فراغه القصيرة متنزّها، يصحبني منذ طفولتي من توتْناو الى توتْناوبرغ من دون ان يفوّت ولا مرة الاشارة الى كوخ الفيلسوف المتواضع...

توتْناوبْرغ: بلدة في منطقة شوارتسفالد (الغابة السوداء)، التقى فيها هايْدغر وتسيلان فألّف تسيلان قصيدة بالعنوان نفسه.

الفيلسوف: هايدغر، تلميح الى كتابه "كونٌ وزمان." مُنع هايدغر من التدريس بين ١٩٤٥و ١٩٥١ لقربه من الحركة النازية، نال تقاعده الجامعي في ١٩٥٢.

الشاعر: باول تسيلان (١٩٢٠ – ١٩٧٠)، شاعر ناطق بالالمانية ولد في رومانيا. حاز ١٩٦٠ على جائزة بوشْنر. بعد دخول القوات الالمانية الى رومانيا ١٩٤٢ تم ترحيل ابويه اليهوديين ونُقل تسيلان الى معسكر للاشغال. منذ ١٩٤٨ عاش تسيلان في باريس.

رابطة الطلاب الالمانية الاشتراكية: رابطة طلابية اسسها الحزب الديمقراطي الاجتماعي عام ١٩٤٦، انفصل الحزب عنها ١٩٦١ لتوجّهها الماركسي.

الرابطة الجامعية الاجتماعية الاشتراكية: تنظيم طلابي للحزب نفسه حلّ محل رابطة الطلاب.

هوسرلْ، أدْمونْت (١٨٥٩–١٩٣٨): فيلسوف، مؤسّس الـ فينومنولوجيا.

شيلر، ماكس (١٨٧٤–١٩٢٨): فيلسوف، ممثل مذهب هوسرلْ، ساهم في اعادة تأسيس الانتروبولوجيا الفلسفية.

كي: الجنرال كاو كي قام ١٩٦٥ بالانقلاب العسكري في فيتنام الجنوبية. انتخب رئيسا للوزراء عام ١٩٦٧.

١٩٦٧

بالرغم من انّ درسي الاربعائي المطّاط بدا مسكونا ببعض الضجر – باستثناء فراشة ضلّت طريقها عبر النافذة المفتوحة – إلاّ انه كان مُزلقا بما يكفي ليلقيني مرة تلو اخرى في كينونتي الغائبة تحت الاعوام المتكدّسة، وليطرح عليّ اسئلة من العيار الثقيل: ماذا – يا ترى – دفعني للابتعاد عن برلين؟ ألم يكن عليّ ان اكون حاضرا في الثاني من حزيران؟ ألم يكن عليّ ان انضمّ الى المحتجّين امام دار بلدية شونهبْرغ؟ ألم اكن ايضا – انا الذي ظننتُ نفسي معاديا لشاه ايران – هدفا ملائما للايرانيين الموالين الذين هاجموا المتظاهرين بقضبان خشب؟

عن هذه الاسئلة كلّها وجب الاجابة بنعم، مع تحفظات قليلة. بلا ريب، كان يمكن لي ايضا ان اتضامن مع "اطلاق سراح الطلاب الايرانيين الفوري!" واحمل لافتة تظهر موقفي للشرطة. وبما ان زيارة الشاه تزامن مع اجتماع لجنة برلمانية تتشاور في دار البلدية حول رفع الاقساط الجامعية، فكان يمكن لي بكلّ سهولة ان انضمّ الى غناء المتظاهرين الآخرين واردّد معهم اغنية الكارنفال القديمة المبتذلة "من سيدفع الحساب؟." ولو لم انسحب بجبن الى فرايبْورغ حين زار الشاه وزوجته فرح ديبا مساءً دار الاوبرا الالمانية في شارع بِسمْارك يرافقهما رئيس بلدية المدينة البرتْس بهيبة رجل دولة، لامكن لفرق الشرطة ان تدفعني ايضا الى الكمين بين شارعي كرومه و زيزنْهايْمر، ولتسنّى لها – بينما كان البرنامج الاحتفالي جاريا في الاوبرا – ان تصيدني ايضا بالمضارب. ألم يكن ممكنا اذن – تساءلتُ او سُئلتُ في صميمي –ان أكون انا الذي يصير هدفَ رصاصة تُطلق من مسافة قريبة اثناء تنفيذ الخطة البوليسية "صيد الثعالب"، بدل ان يكون هدفها طالب الاداب الالمانية والرومانية بينو أونهزْورغ؟...

كان اونهزْورغ، شأنه شأني، يرى نفسه من انصار اللاعنف وكان عضوا في الخلية الطلابية الانجيلية. وبلغ عمره، شأنه شأني ستّا وعشرين سنة. وفضّل في الصيف، شأنه شأني، لبْسَ الصندل من دون جوارب. أجل، كان يحتمل ان اصير

انا الهدف واتعرّض للتصفية! لكني هربتُ يومها وحفظتُ على مسافة انطولوجية بيني وبين الحدث... بفضل فيلسوفٍ تفانى بعد المنعطف في رزانة عميقة. هكذا صار أونهزْورغ هدف الضرب، ليس انا. وهكذا لم يوجّه الشرطي كوراس في الملابس المدنية مسدّسَه البوليسي المهيّأ للاطلاق من طراز ب ب ك على رأسي، بل انه اصاب بينو أونهزْورغ فوق أذنه اليمنى، فاخترقت الرصاصة دماغه وهشّمت جمجمته...

فجأة، أربكتُ طلاّبي المسترسلين في تأويل قصيدتين مهمتين بقولي عاليا: "يا للعار! ان الشرطي كوراس بُرِّيء في محاكمتين وظل يعمل حتى التقاعد في مركز اللاسلكي لشرطة برلين..." ثم عدتُ الى السكوت، وانا أرى نظرة الطالبة المذكورة موجّهة اليّ باستفزاز وتهكّم... بل أحسستُ بها تسبرني من دون خجل... إلاّ اني رأيتُ نفسي ايضا محاصراً بالاسئلة التي تضيق بكينونتي القلقة منذ ايام الطفولة. متى حدثت عطفتي؟ ماذا املى عليّ ان أُودّع مجرّدَ الكائن؟ متى بالضبط، في مجرى فراري من الاعوام، تملّك مني السامي –رغم اعراض موقّت عنه – ليلازمني ابدا، من دون ان يفارقني؟

أحدث ذلك بعد الاحداث المذكورة بشهر، في الرابع والعشرين من تموز، حين وصل الشاعر بعد شفائه من مرض طويل الى فرايبْورغ حيث تغلّب على تردّده البدئي والتقى رغم التحفّظات بالفيلسوف الذي حيّره ماضيه المشبوه، فقرأ علينا جميعا من اشعاره في جو مهيب؟... لكن باول تسيلان لم يرغب في تصوير لقطة تذكارية فوتوغرافية تجمعه مع هايْدغر. مع ذلك وافق فيما بعد على التصوير، لكن الوقت امسى ضيّقا لالتقاط صورة تلائم ذلك اللقاء التاريخي.

هذه النادرة وغيرها قصصتُها على طلاّب درسي العصري، وقد تنصلّتُ موقّتا من مساءلتي الداخلية، لان المداخلات الماهرة للطلاب ولتلك الطالبة بالذات استطاعت ان تحرّرني من قهري الرجعي وتحثّني على الثرثرة بصفتي شاهدا على تلك المواجهة الاشكالية... فيومها كنتُ انا الذي اوكله البروفسور باومْان بالاشراف على واجهات المكتبات في فرايبْورغ. كان المطلوب، تلبية لرغبة

الفيلسوف، ان تعرض دواوين الشاعر كلّها بطريقة لانقة. فتحقّق المطلوب وبَانَ كلُّ ما يصعب استيعابه وصار في متناول اليد، من الديوان القديم "خشخاش وذاكرة" الى المجلَدين "اسياج لغوية" و"وردة اللا احد": حتى الطبعات النادرة ظهرت للعيان... بفضل حماسي الذي استلّها من مخابئها.

ومنذ فجر اليوم التالي، كنتُ انا الذي تسنّى له ان يهيِّيءَ بعناية كل شيء لزيارة الشاعر في أعالي الغابة السوداء، حيث كان كوخ الفيلسوف في انتظاره. لكن تسيلان بدا مرة ثانية متحفّظا من تصرّف الفيلسوف خلال السنوات القاتمة وسمّاه، على ما قيل، "معلّما من ألمانيا"، مستشهدا اذن من شعره الخاص ومضمرا الى الموت. وهكذا ظل غير محسوم، ما اذا كان سيقبل الدعوة ام لا... وظل الشاعر يتأرجح طويلا بين الرفض والقبول وبدا عليه بعض البرودة.

مع ذلك انطلقنا باكرا، وقد تلبّدت السماء بغيوم رصاصية. بعد زيارة الكوخ، وبعد ذلك الحوار او الصمت التاريخي الذي لم يُسمح لايّ شاهد بحضوره، التقى الجمع في سانت بلازين واستضيف الجميع في مقهى من مقاهي البلدة. بدا الجو خاليا من غربة او مجافاة. وبدا ان المفكّر نال الآن حظوة الشاعر. بعد حين انطلق الاثنان معا في الطريق الى مستنقع هوربْاخ، ولحقنا بهما جميعا نتنزّه من الطرف الشرقي للمستنقع على طريق معبدة بقضبان خشب. لكن الطقس ظل رديئا واحذية الشاعر كانت ملائمة لرصيف المدينة او كما قال "انها ليست ريفية كفاية"، فقررا عدم مواصلة النزهة. قصدنا مطعما ريفيا، تناولنا فيه وجبة الغداء في ركن مريح وجو حميمي اليف. كلا، لم يتطرّق الحديث الى السياسيّ الراهن، الى الاضطرابات في برلين، على سبيل المثال، وموت الطالب الذي افادته الاخبار وقتها؛ تناول الحديث عالم النبات، وتبيّن ان الشاعر كان يعلم من اسماء الاعشاب بقدرما يعلم المفكر او اكثر. الى ذلك اجاد باول تسيلان تسمية عشبة ما لا باسمها اللاتيني وحسب، بل باسمها الروماني والمجري واليِدّي ايضا. فهو تحدّر من تْشرنْوفيتْس الواقعة في منطقة بوكوفينا متعدّدة اللغات.

ذلك كلّه وغيره مما يجدر الذكر كشفتُه لطلاّبي، لكني لم استطع ان اجيب عن

السؤال، المطروح عليّ من طرف خاص، عما دار عليه الكلام او الصمت في الكوخ... فاكتفيتُ بالاشارة الى قصيدة "توتْناوبْرغ" التي تلقي ضوءا على مسألة ما. وعلى سبيل المثال، يسمح اللفظ أرنيكا، الذي يترجمه العارف بـ"عزاء العين"، بتأويلات شتى؛ وللبئر امام الكوخ ايضا دلالة غنية في هذا السياق، وهي مزيّنة بـ"الزهر النجمي" البليغ. الى ذلك يرد في موضع مركزي، اي في قلب القصيدة، ذكرٌ لكتاب الضيوف الذي سجّل فيه الشاعر السؤال القلق "اسم من ضمّ الكتاب قبل اسمي؟"، واضاف اليه "وفي القلب اليوم، أملٌ بان تأتي كلمة مفكّرٍ..."، مع العلم انه يجب القول مرة ثانية، ان الكلمتين الواردتين بين المزدوجين (وتأتي حالا) التي شطبهما الشاعر فيما بعد، هما تعبير بليغ عن الحاح رغبته التي لم تُلبَّ، كما هو معلوم. اما ما وجَد طريقه الى الكلام او ما سكت عنه في الكوخ، فهو مجهول ويبقى في فضاء الغامض يبقى عصيا على التكهّن به او يكاد، فكأنْ يريد ابقاء الجرح مفتوحا...

على هذا المنوال او ما يشبه، تكلّمتُ الى طلاّبي من دون ان ابوح لهم او للانسانة المذكورة، كم مرة تخيّلتُ الحوار في الكوخ... فبين الشاعر الـ بلا مكان والمعلّم من ألمانيا، بين اليهودي بنجمته الصفراء غير المرئية والعميد السابق لجامعة فرايبْورغ بشارته الحزبية الممحية ايضا، بين مَن يسمّي ومَن يسكت عن... بين الناجي المعلِن عن موته باستمرار والمبشّر بالكينونة والإله الآتي، كان يجب على العصي على القول ان يجد كلمات يقولها... لكن لا كلمة وُجِدت، ولا واحدة.

وظل هذا الصمت يصمت ويمعن في الصمت. وأنا بدوري كتمتُ عن الطلاّب اسبابَ فراري من برلين، وسمحتُ لنظرات تلك الطالبة بان تسبرني من دون ان اتأثّر او ابوح بما غرّبني موقّتا عن السامي ودفعني في العام التالي الى فرارٍ آخر، من فرايبْورغ الى معمعة فرانكفْورت، اي الى المكان الذي صاغ فيه باول تسيلان، فور مغادرته مدينتنا الجامعية، القصيدة "توتْناوبْرغ" في صياغتها الاولى.

شاه ايران: محمد رضا بهلوي (١٩١٩–١٩٨٠)، متزوج من فرح ديبا (زوجته الثالثة)، حاكم ايران المستبد، اضطر الى مغادرة البلد عام ١٩٧٩.

ايرانيون موالون: جمع من الايرانيين الشباب، ارادوا ان يهللوا للشاه. نكّلوا بالمتظاهرين اثناء مسيرة معادية للشاه. وجدت الشرطة في حوزتهم بعض الاسلحة التي تستعملها المخابرات الايرانية.

ألبرتْس، هاينْرش (١٩١٥–١٩٩٣): قسيس وسياسي، بين ١٩٦٦ و ١٩٦٧رئيس بلدية برلين الغربية.

بينو أونهزْورغ: طالب من هانوفر.

كوراس، كارل – هاينْتس: شرطي، يومها في التاسعة والثلاثين من عمره.

خشخاش وذاكرة / اسياج لغوية / وردة اللا أحد: مجموعات تسيلان الشعرية، اصدار ١٩٥٢/١٩٥٩/١٩٦٣ بالتوالي.

معلّمٌ من ألمانيا: يورد متكررا في قصيدة تسيلان "تسلسل الموت": "ان الموت معلمٌ من ألمانيا...".

١٩٦٨

بدا الصفّ في سلام، لكنّي بقيتُ قلقا. فما إن نجحتُ – بفضل سلطتي الممارسة برفق – في قراءة قصيدة الكوخ صدىً متأخّرا لـ"تسلسل الموت" وتحدّياً لشخصية "المعلم من ألمانيا" المرموقة التي تجسّد الموت في الوقت عينه، حتى خبرتُ نفسي ثانيةً موضعَ استفهام ملحّ: ماذا دفعك بُعيد عيد الفصح في العام التالي الى الهجرة من فرايْبورغ؟ اي عطفة حوّلتك الى راكب متطرّف لموجة ثمانية وستين... انت المُنصت الى الصمت بين الكلمات، المولع بالمتشذّر السامي وبجنح الشاعر هولْدرلين الى الصمت؟

أما جعلك ثوريا – لفظيا على الاقل – هو محاولة اغتيال رودي دوتْشكه، ام اغتيال الطالب بينو أونهزْورغ الذي أثّر فيك بمفعول رجعي؟ فأعرضتَ عن لهجة الـ أصلية وبدأتَ تثرثر في لهجة اخرى: الجدلية؟ هكذا تساءلتُ وأولتُ نفسي من دون ان اقف السبب العميق لتبديلي اللغوي. هكذا حاولتُ، بينما ظلّ صفّي الاربعائي يعمل تلقائيا، ان اهدّئ ثورة أخطائي الداخلية العنيفة.

على كل حال، قطعت يومها دراستي للادب الالماني في فرانكفْورت موقّتا وتسجلّت، برهانا على عطفتي، في مادة العلوم الاجتماعية. حضرت هابرماس وادورنو... وبدأنا نمنع الاخير من الكلام – وقد صرتُ عضوا في رابطة الطلاب الالمانية الاشتراكية – اذ حسبناه سلطة يمكن الطعن فيها. وبما ان الطلاب تمرّدوا يومها على أساتذتهم اينما كانوا، وفي فرانكفْورت بشدة خاصة فقد احتلت الجامعة... ثم اخليت بعد امد قصير، لانّ أدورنو، أدورنو الكبير، رأى نفسه مجبرا على ابلاغ الشرطة. واعتُقل واحد من ناطقينا الاقوى كلاما، أعني هانس يورغن كرال الذي تأثّر ببلاغته معلّمَ النفي نفسه، والذي كان قبل ذلك بعدة سنوات، على فكرة، عضوا في اتحاد لودنْدورف الفاشي وانضمّ بعد ذلك الى الاتحاد الفتي الرجعي ورأى نفسه يومها سلطة مضادة وخليفة مباشرا لـ دوتْشكه – اعتقل اذن كرال هذا... لكن بعد ايام قليلة اطلق سراحه، فصار ناشطا في الحال، يحرّض

ضد قوانين احوال الطواريء وضد استاذه المبجل رغم كل شيء. وهكذا كان يحرّض في اليوم الاخير لمعرض الكتاب، في الثالث والعشرين من ايلول، حين دار في دار غالوس – حيث انتهى في العام خمسة وستين محاكمة اوشْويتْس الاولى – نقاشٌ كاد يغرق في المعمعة ووقع أدورنو ضحيته في النهاية .

يا لذلك الزمن العنيف! حاولتُ، انا المحفوظ في صفّي الخالي من رياح ثورية، أنا الآمن الذي لا تربكه سوى الاسئلة الاستفزازية لسيّدة شابة عنيدة، حاولتُ ان اقفز فوق فراري من ثلاثين سنة معيشة واعود أحبك خيط نقاش امسى يومها محاكمة... كم التذذنا بالكلمة العنيفة...! ها انا، وسط الحشود، اتدخّل بصيحات، اتبرّع بالفاظ دارجة، اظن نفسي مجبرا على التفوّق على حماس كرال، اعمل جهدي، بالتعاون مع آخرين، ان انزع كلّ غطاء عن معلّم الجدلية التي تفكّك كل شيء وتحيله الى تناقض، عن المعلّم الصامت المربك العاجز عن الكلام... وينجح الامر... وامام قدمي البروفسور تجلس في صف متراصّ، طالباتٌ قد كشفن له مؤخّرا عن صدورهن فاجبرنه على ايقاف درسه... والآن يردن ان يرينه عاريا ايضا... ذلك الانسان الحساس، بجسمه البدين المشدود الذي يفضّل اللباس البرجوازي المترسّم ... يجب نزع الستار عنه... والاحرج ايضا: عليه ان يخلع النظرية الواقية قطعةً قطعة، عليه ان يسرّح استعمال سلطته المزقة للتو – وفي حالتها المرقّعة هذه – خدمةً للثورة. أجل، هذا ما يطلبه كرال والآخرون، يقولون إن عليه ان يكون خدوما... انه ما تزال هناك حاجة اليه... وعلى سبيل المثال، في المسيرة الى بون عما قريب... وإنهم يرون انفسهم مجبرين على استغلال سلطته في مناوأة الطبقة الحاكمة... لكن من حيث المبدأ، يجب الغاؤه...

على الارجح، قد صحتُ انا العبارة الاخيرة. ام من او ماذا في داخلي صاحها؟ ماذا دفعني الى الدفاع عن العنف؟... ما إن عدتُ ارى امامي وجوه طلابي المتابعين حصة تسيلان باجتهاد معتدل، حتى شكّكتُ في اني كنتُ متطرّفا في يوم من الايام. ربما كان كل ما اردناه، او اردتُه، هو اللهو والتسلية... او ربما كنت مضطربا واسأت فهم بعض المصطلحات، مثل التسامح القهري كما سبق لي ان اسأتُ

تأويل حكم المعلّم على نسيان الكينونة.

كان كرال الذي اعتبر طالب ادورْنو الاكثر مهارة وموهبة، يحبّ ان يشدّ الحبل تدريجيا ليحكم المصيدة، ليدفع الافهومة غير المبرية الى حدة الذروة. طبعا، كنا نسمع ايضا بعض الاعتراضات. وعلى سبيل المثال، من قبل هابرماس. لكن، منذ مؤتمر هانوفر كان قوله يضمر التحذير من خطر الفاشية اليسارية، فكان بالنسبة لنا منتهيا... او من قبل ذلك الكاتب ذي الشاربين الطويلين الذي باع نفسه الى الحزب الديمقراطي الاجتماعي وظنّ ان له الحق في عتابنا على "تمرّدية عمياء." كانت القاعة في حالة من الهيجان. وعليّ ان ارجّح اني كنت ايضا مهتاجا... لكن، ماذا دفعني الى مغادرة الصالة المكتظة بالناس قبل الاوان؟ أكان تطرّفي ناقصا؟ ام انّ منظر كرال الاعور الذي كان يلبس باستمرار عوينات سوداء، بدأ يثير اشمئزازي؟ ام اني فزعت من المنظر المؤلم لـ تيودور و. ادورنو المذال؟

قرب المخرج الى المدينة حيث كان الجمهور لا يزال محتشدا، خاطبني سيد متقدم في السن كان في الظاهر من زوار معرض الكتاب، قال لي بلكنة اجنبية خفيفة: "يا للخلف في كلامك! عندنا في براغ تنتشر منذ اكثر من شهر دبابات سوفياتية وانتم تهذون هنا حول سيرورة تعلم الشعب الجماعية. تعال وسافر سريعا الى بوهيميا الجميلة. هناك تستطيع ان تتعلم جماعيا معنى السلطة ومعنى الشلل... لا تعرفون شيئا، وتظنون انفسكم اعلم بكل شيء"...

فجأة قلتُ فوق رؤوس طلابي الذين فزعوا وتركوا تأويلاتهم لنص القصيدتين جانبا ونظروا الي: "... نعم، حدث شيء آخر ايضا في اواخر صيف ثمانية وستين. تم احتلال تشيكوسلوفاكيا، واشترك في ذلك جنود المان... وبعد سنة او اقل مات أدورنو. قيل: ذبحة قلبية... وفي شباط سبعين وقع كرال، على فكرة، ضحية حادث سير ومات ايضا... وفي العام نفسه، قصد تسيلان من دون ان ينال الكلمة المأمولة من هايدغر، جسرا في باريس والقى ما تبقّى من حياته في مياه النهر... ولا نعرف بالضبط في اي نهار وقع الحادث..."

بعد ذلك خرج طلاّب درسي الاربعائي. وحدها الطالبة المذكورة ظلت جالسة.

وبما انها فرغت من الاسئلة وبقيت صامتة، فقد بقيتُ صامتا بدوري. على الارجح، اكتفت بالاختلاء بي مدة من الزمن. وهكذا صمتنا. لم تقدم لي ما بقي لديها من كلام إلاّ مع خروجها: "انا ذاهبة" – قالت – "فبأيّ حال، لا يُتوقّع منك المزيد."

هولدرلين، يوهان كريستيان فريدرش (١٧٧٠–١٨٤٣): شاعر، اصيب منذ ١٨٠٦ بمرض عقلي لا شفاء له.

رودي دوتشكه (١٩٤٠–١٩٧٩): عضو في رابطة الطلاب الالمانية الاشتراكية، قائد معروف لحركة ٦٨ الطلابية ١٩٦٨. محاولة لاغتياله. توفي فيما بعد بسبب جروحه البالغة.

لهجة الاصل: ١٩٦٤ نشر أدورنو بحثه "لهجة الاصل. في الايديولوجيا الالمانية"، وهو يدور على تحليل صور الانحطاط اللغوي المنتشر في صفوف المثقفين. ويضمّ البحث نقدا للحركة الطلابية وعتابا لها.

هابرماس، يورغن: مواليد ١٩٢٩، فيلسوف وعالم اجتماع. الى جانب أدورنو من اهم ممثلي النظرية النقدية.

أدورنو... معلم النفي، تيودور: (١٩٠٣–١٩٦٩) عالم اجتماع ومنظّر موسيقي. ينتقد في "الديالكتيك السلبي" هايدغر وغيره.

ذلك الكاتب ذو الشاربين...: غونتر غراس.

عندنا في براغ: في ٢١ آب وضعت قوات حلف وارشو حدّا لـ"ربيع براغ."

١٩٦٩

بالتأكيد كان ذلك الزمن زمن اضطرابات وعواصف... مع ذلك حسبوني أنا بالذات صعبة. طالما قالوا: كارمن صعبة او صعبة جدا او كارمن طفلة "تثير المشكال..." وعلى الارجح، ليس فقط لانّ امي كانت على وشك الطلاق من أبي الغائب في اشغاله معظم الاوقات... لكنْ في الروضة التي كنتُ اروح اليها كان يوجد اشقياء غيري... بعضهم بالغون... أعني مثل طلاّبنا من جامعة رور الذين أسّسوا الروضة للامهات الوحيدات... فكانوا يريدون ان يدبّروا فيها كل شيء بطريقة لا سلطوية، واعني من الألف للياء... حتى مع اطفال "البروليتاريا"، كما سمّونا حين جئنا اليها. في البداية ادّى ذلك الى شجار، لانّنا كنا معتادين على يدٍ صارمة... وبالطبع اهلنا ايضا....

لكنّ امّي – وهي التي كانت تتولى تنظيف غرفتي المكتب السابق لانّ الامهات الطالبات عففن من هذه الاعمال – قالت للامّهات الاخريات: "دعن الحمر يجرّبون كيف تمشي الامور...!" وذلك لانّ المجموعة التي قامت بالمبادرة وأسّست الروضة في بوخوم كي تفتح ابوابها لاطفال الطبقات المحرومة ايضا، كما سمّوهم، كانت مجموعة يسارية متطرفة... وادّى ذلك دائما الى تكتّلات، على ما قالوا، والى تفجّرات خلال اجتماعات الاهل التي كانت تمتد عادة الى منتصف الليل على ما أخبرتْني أمّي...

لكن يومها كانت الفوضى عارمة وعامّة، على حدّ قولهم، وغير مقتصرة على عالمنا الطفولي... في المجتمع كله، واينما نظرت، ساد الصراع... وجرت ايضا معركة الانتخابات... لكنْ امام روضتنا رفعوا شعارا كتبوا عليه، على ما تتذكّر امي، "الصراع الطبقي بدل المعركة الانتخابية...!" وهذا ما حصل فعلا... على طول مشاجرات ومشاحنات... لان كل واحد منّا، وبخاصة نحن الاطفال البروليتاريين كان يريد الالعاب لنفسه فقط... وقالت امي اني كنت عنيدة بصورة خاصة، أريد الالعاب التي جمّعها الطلاب اليساريون لروضتنا... لكن هذا كلَّ ما

رأيناه من معركة الانتخابات... مرّة واحدة فقط، أخذنا طلاّبنا لنحضر مظاهرة امام مبنى الجامعة – كتلة ضخمة من الاسمنت ... وهناك كان علينا ان نصيح مع الاخرين: "من خاننا؟ الديمقراطية الاجتماعية...!" وهم فازوا بمرشّحهم فيلي في الانتخابات، على ما أظن... لكنّنا، نحن الاطفال، لم نسمع بذلك، لانّ التلفزيون عرض طيلة الصيفية برنامجا آخر: الهبوط على القمر! وكان هذا الحدث اكثر اثارة عندنا من معركة الانتخابات، فنتسمّر امام الشاشة في البيت او عند الجيران... وصرنا نرسم على جدران روضة الاطفال كلها صورا تشبه الهبوط على القمر... نستعمل اقلاما ملونة عريضة والوانا مائية... بطريقة "لا سلطوية..." اي كلّ واحد منّا رسم ما شاء له... بالطبع: الرجلين على القمر في لباسهما الغريب العجيب ... والمركبة القمرية التي سُمّيت في الالمانية "النسر..." واظنّ ان ذلك كلّه كان في الواقع مفرحا ومسليا جدا... لكنّي، انا الطفلة الشقية المشكلاتية، لم اكتف بذلك: لم اخربش على الجدار الرجلين – **ارمْسترونغ والدرين** – فقط، بل اضفت بالواني العلم الامريكي بنجومه وخطوطه الكثيرة كما رأيته بوضوح على شاشة التلفزيون مرفرفا على سطح القمر! وسبّبت بذلك مشاكل في اجتماع الاهل، لان الصورة كانت معارضة لمواقف طلابنا، أعني طلابنا اليساريين جدا، على كل حال. فاستدعى الموقف حملة تربوية كبرى...! لكن محاولات الاقناع بالكلام اللطيف ما فادت عندي. وتتذكّر امي ان اقلّية صغيرة من الطلاب – اللاسلطويين الذين لم يكونوا ماويين ولا ثوريين – صوّتتْ ضدّ قرار مجلس الاهل الذي طالب بمحي رسمتي "ستارْس انْد سترايبْس"، على حد قول أمي، عن جدار روضة الاطفال محيا كليا... لا، لم ابك عليها اطلاقا... لكنّي عاندتُ حين اراد احد الطلاب – صحيح، هو اليوم سكرتير دولة في بون – ان يقنعني بزرع علَم احمر قان على سطح القمر... لم اوافق، ولم اقبل مناقشة المسألة... لا، لم يكن عندي موقف ضد اللون الاحمر... كل ما في الامر هو انّ التلفزيون لم يرني علما احمر، بل العلم الآخر...

لكن ذلك الطالب كان متشبثا برأيه يلحّ عليّ... فانفجرتُ، سبّبتُ فوضى عارمة: ادعس على الاقلام الجميلة، على الطباشير، على انابيب الالوان المائية، وكلها كانت

لي وللاطفال الاخرين ايضا... فتعذّبتْ أمّي فيما بعد في حفّ المزيج الملون عن الارضية الخشب وهي كانت تنظّف الروضة يوميا، كما قلتُ، مقابل أجرٍ تدفعه لها الطالبات اللواتي كنّ امّهات ايضا. لذلك لا تزال امي تقول حين تلتقي بأمّهاتٍ من تلك الايام: "إن ابنتي كارمن كانت يومها فعلا طفلة شقية..."

على كل حال، قررتُ ان أربّي اطفالي – إن رزقت باطفال – بطريقة مختلفة... اعني أربّيهم تربيةً عادية... وإن صحّ القول إن تلك السنة التي طلعوا فيها على القمر وصوّتت فيها أمي لمرشّحها فيلي، كانت سنة صاخبة وحافلة... وإنّي أحيانا، لا ازال احلم بروضة الاطفال... وانفعل كثيرا لحيويّة احلامي...

روضة الاطفال: مؤسسات مخصصة للتربية اللاسلطوية انشأتها يومها المبادرات الطلابية.

لن تقبل الجريدة هذا المقال... يريدون الكلام المعسول ومسح الجوخ: "تحمّل الذنب كلّه..." او "فجأة ارتمى رئيس الاتحاد على ركبتيه..." او على نحو اقوى مداهنة: "ركع لأجل المانيا!"

ويا عيني على الفجائية...! القصة مدبّرة بحنكة. وانا متأكد بان هذا الشاطر – وسيطه والناطق باسمه الذي يتقن تحريف التنازل المعيب عن ارض ألمانية اصيلة الى صفقة مربحة – قد وسوس له اتباع هذه النمرة الخاصة. والآن يحاكي رئيسه، هذا السكير، موقف الكاثوليكي... ويركع... مع العلم انه لا يؤمن بشيء... كل هذا مجرد استعراض... لكن الموقف هو خبر الساعة، ومن الناحية الصحافية البحتة ناجح تماما. اصاب مثل القنبلة... والجميل في الامر انه جرى خارج البروتوكول... توقّع الجميع ان يحضروا المسرحية المعهودة: وضع اكليل القرنفل تضبيط ربطة الاكليل، خطوتان الى الوراء، النكس بالرأس، رفع الذقن من جديد، تثبيت البصر في البعيد، ثمّ الانطلاق بالمزامير الى قصر فيلانو، هذا المقرّ الراقي، حيث تكون القنينة وكؤوس الكونياك في الانتظار... كلا! عليه ان يسمح لنفسه بعرض خاص: لا، ليس على اولّ الادراج حيث لا مجازفة في الامر، بل مباشرة على الصوان الرطب... من دون ان يسند ثقل جسمه على احدى يديه، ينزل بلياقة من الركبتين، ويبقي اليدين متشابكتين امام ذكره، ويلبس وجه الجمعة الحزينة وكأنه اكثر قداسة من قداسة البابا... ينتظر (تكّات) آلات التصوير لثلّة المصوّرين، يصمد بصبر دقيقة طويلة قوية... وينهض، لا بالطريقة الآمنة – الرجل الاولى ثم الثانية – بل دفعة واحدة، وكأنّه تدرّب على ذلك اياماً امام المرآة... يرتفع دفعة واحدة، ينتصب وينظر فوق رؤوسنا جميعا، وكأن الروح القدس تجلّت له شخصيا... فعليه ان يبرهن، لا للبولونيين وحدهم بل للعالم اجمعه، ان الاستغفار يمكن ان يكون مشهدا جميلا للتصوير. صح، يجب الاعتراف بان ذلك كله كان متقنا. حتى الطقس المقرف لعب دوره في العرض. لكنّ الجريدة لن تتقبّل منّي هذا

التقرير الموارب المعزوف على بيانو الكلبية، حتى لو تمنى رؤساء التحرير ان يُزاح هذا الرئيس الراكع فورا... لو اسقط او اقيل او خُلع باي طريقة كانت!

عليّ اذن ان آخذ نفسا عميقا واعزف على الأُرغن الثقيل: في الموقع الذي وقع فيه يوما غيتو وارسو الذي دمر في ايار عام ١٩٤٣ ومحي بوحشية غير معقولة، في ذلك الموقع يركع الآن رئيس الاتحاد الالماني امام نصب تذكاري تشتعل فيه يومياً، وفي هذا اليوم الكانوني البارد الممطر ايضا، ألسنةٌ نارية تتلاعب بها الرياح، ويعبّر عن ندم... ندم على الفظائع كلها التي ارتكبت باسم المانيا يتحمّل الذنب العظيم، هو الذي ليس مذنبا بذاته، يركع مع ذلك...

هذا هو... هذا كلامٌ تطبعه جميع الجرائد: حامل الاوزار والآلام...! ربما أضيف قليلا من الصبغة المحلية...؟ بعض البهارات الملطّفة... لا يضرّ ذلك على الاطلاق... على سبيل المثال: استغراب البولونيين من ان ضيف الدولة الكبير لم يركع امام نصب الجندي المجهول الذي لم يعد هنا موقعا وطنيا مقدسا، بل امام نصب اليهود بالذات... يكفي ان يجري الواحد بعض التحقيقات ويسبر الاغوار، حتى يكتشف ان البولوني القح معادٍ للسامية. لم يمض زمن طويل على الاحداث الاخيرة... جرت قبل سنتين... حينها ظنّ الطلاب البولونيون هنا انّ لهم الحقّ في التدرّب على "الجنون" مثل الطلاب عندنا وفي باريس. لكن الشرطة وعلى رأسها وزير الداخلية المحلي موتشار، قامت بقمع المستفزين الصهاينة، على ما قيل. وتمّت ملاحقة عدة آلاف من كوادر الحزب واساتذة الجامعة والكتاب وغيرهم من فطاحل الفكر، ومعظمهم من اليهود فحزموا امتعتهم ورحلوا الى السويد او الى اسرائيل. على تلك الاحداث لم يعد يتكلّم احد هنا. لكن تحميلنا الذنب كلّه جزءٌ من مكارم الاخلاق. يهذون حول "موقف كاثوليكي قريب على قلب كل بولوني صادق"، حين يأتي هذا الخائن للوطن، الذي ناضل ضدنا – نحن الالمان – في اللباس العسكري النرويجي، ويقوم بزيارة مع وفد كبير – مدير كروب السيد بايتْس، بعض الكتاب اليساريين وغيرهم من فطاحل الفكر – ويقدّم (للبلونية) مناطقنا بومرن وشليزيا وبروسيا الشرقية على طبق من فضة، ويضيف الى ذلك، كما لو

كان في السيرك، ركعةً سريعة.

هذا غير مقبول... لن يُطبع هذا الكلام. تفضّل جريدتي السكوت عن الموضوع... نبأ من وكالة الانباء وانتهى... وماذا يخصّني الموضوع؟ اصلي من كريفيلد... انسانٌ مرح الطبع من منطقة نهر راين. فلماذا انفعل وازعل؟ برسْلاو، شْتَتين، دانْتسيغ؟ لماذا اهتم بذلك كله؟ ساكتب بكل بساطة عن الجو: حول قبلة اليد على الطريقة البولونية وجمال المدينة القديمة، حول قصر فيلانو وبعض المباني الفخمة الاخرى التي تم اعادة ترميمها، على الرغم من ان الوضع الاقتصادي مُزرٍ اينما نظرتَ... واجهات فارغة ... صفوف امام كلّ قصّاب... وبولونيا اجمعها تنتظر قرضا بالمليارات قد وعد به هذا الرئيس الراكع لاصدقائه الشيوعيين بالتأكيد... هذا القاعد بالمنفى! كم اكرهه! ليس لانه ابن غير شرعي... هذه الامور قد تحدث... لكن الباقي... ايماءاته كلها... وكيف ركع تحت المطر الخفيف... مقرف... كم اكرهه.

آه، سوف يرى العجائب حين يعود الى الوطن. سيمزّقونه واتفاقياته الشرقية... ولا أعني في جريدتي وحسب -. لكن الركعة كانت متقنة... هكذا... بكل بساطة... على الركبتين...

فجأة ارتمى الرئيس على ركبتيه: بعد توقيع اتفاقية اودر-نايسه التي تعترف بحدود بولونيا الغربية، زار الرئيس فيلي برانْت النصب التذكاري - غيتو وارسو.

وسيطه والناطق باسمه، أيغُن بار: مواليد (١٩٢٢) بين ١٩٦٩ و١٩٧٢سكرتير دولة، شارك في تجديد منهج السياسة الشرقية الالمانية (التغيير من خلال الاقتراب.)

بعض الكتاب اليساريين: منهم غونْتر غْراس وزيغفْريد لنتْس.

١٩٧١

فعلا، يمكن لي ان اكتب عنها رواية. كانت افضل صديقة لي. كنا نغزل معا اكثر الامور جنونا وخطورة ايضا، لكننا لم نحسب حسابا لهذه المأساة. بدأت القصة حين افتتحت اينما كان محلات ديسكوتيك. اقنعتُ اوشي بان نجرّب معا شيئا جديدا، انا التي كنتُ أفضّل أصلا حضور حفلات الموسيقى الكلاسيكية واستفيد من الاشتراك المسرحي الذي لامي غير المتعافية. قلنا إننا سنشمّ الجو قليلا لا اكثر، لكننا تعلّقنا حالا في الديسكوتيك الاول الذي دخلناه.

كانت تبدو فعلا جميلة و"مهضومة" بشعرها المجعّد الاحمر والنمش على انفها الصغير... ولكنتها المحلية السوابية، ألس كذلك... كانت دائما على بعض الجسارة المزوجة بروح الدعابة. كنتُ اقول لنفسي كم احسدها على هذه الخفة في اثارة الشباب وهي لا تعطي للموضوع جدية، في حين اني رأيت نفسي متثاقلة واحسب لكل كلمة الف حساب.

ومع ذلك، كنتُ أتمتّع يومها بالموسيقى المدوّية الصاخبة: "هولْد ذَت ْتْرايْن...". كنا نستمع بالطبع الى بوب ديلن وفرقتي سانْتانا وديب بوربل. وكنا نحبّ فرقة بينْك فلويدْ... كم اثارتنا تلك الموسيقى... "أتوم هارْت موثِر..." لكن فرقة اوشي المفضّلة كانت ستْبَنْفْولْف: "بورن تو بي وايلْد..." عندها استرسلت تماما، الامر الذي لم اتوصل اليه البتة.

لا، لم تكن الاحوال فالتة كليا... جوينْت واحد للكل او اثنين، لا اكثر. وصراحة، من امتنع يومها عن التحشيش؟... لم تكن القصة خطرة فعلا. وعندي كانت الروادع النفسية قوية، على كل حال: كنتُ على وشك الامتحان النهائي كمضيفة طيران، وبعد قليل بدأتُ اعمل على الخطوط الداخلية، فما بقي لي الكثير من الوقت لمراودة الديسكو، وغابت أُوشي قليلا عن انظاري... كان ذلك مؤسفا، لكن امرا لا مفرّ منه... خاصة حين بدأتُ في آب سبعين أعمل على الخطوط الجوية البريطانية الاوربية واتردّد بها الى لندن، فقصرتْ اقاماتي في شتوتْغارت، حيث كانت تنتظرني

بسبب مرض امي المتفاقم، مشاكل اخرى كليا وابي... لكن، لنترك ذلك جانبا...

على كل حال، انتقلتْ أُوشي خلال غيابي في الظاهر الى مخدّرات اقوى... نيبال شيت، على الارجح... وبعد ذلك تعلّقتْ فجأة بالابرة وصارت تأخذ هيروويين. لم اعرف بكل ما جرى إلاّ بعد فوات الاوان، من ابويها، وهما فعلا شخصان عاديان ولطيفان... لكن حالتها تفاقمت وتأزّمت فعلا، حين حملت ولم تعرف ممن... ويمكن القول بلا شكّ: إن ذلك كان نكبة لها، لانّ الفتاة كانت لا تزال تتعلّم في معهد الترجمة، لكنها ارادت اصلا ان تصير مضيفة مثلي. "السفر بعيدا، رؤية العالم!" يا الله! كم كانت لها تصورات ساذجة وطفولية حول مهنتي الشاقّة، المرهقة خلال الرحلات البعيدة. لكن أُوشي كانت افضل صديقة لي. لذلك شجّعتُها: "بامكانك ان تنجحي، فانت ما زلت صغيرة في السن، أليس كذلك..."

وبعد حين وقعت المصيبة. قررت أُوشي الاجهاض لتعلّقها بالهيروويين مع انها ارادت في البداية الاحتفاظ بالجنين، فصارت تركض من دكتور الى آخر... عبثا بالطبع... وحين اردتُ ان اساعدها وارسلها الى لندن – لانّ العملية تُجرى هناك حتى الشهر الثالث بالف وبعده بزيادة صغيرة وقد عرفتُ من زميلة لي بعناوين، على سبيل المثال الـنورسينغ هوم في شارع كروس رود – وعرضتُ عليها تذكرة السفر ذهابا وايابا والتكاليف كلها بما فيها المبيت، رفضتْ أوشي، رفضت مساعدتي... ولم يكن الذنب ذنبي بالتأكيد بانها صارت في المعاشرة اكثر صعوبة وعنادا.

في مكان ما، في جبال الب السوابية، قامت فيما بعد بالاجهاض عند واحد من الدجّالين – وقيل انهما كانا زوجين... الزوج بعين زجاجية... كان الامر رهيبا جدا، بالفعل: بمحلول من صابون الغسيل وابرة ضخمة مباشرة الى عنق الرحم... لم تستغرق العملية طويلا... بعد اسقاط الجنين أندلق كل شيء حالا في حوض المرحاض ... وشُفط بماء الحمام... قيل انه صبي...

ذلك كله ارهق اوشي اكثر من الادمان على الهيروويين. لا... على الارجح يجب الافتراض ان الامرين، الابرة التي لم يكن لها ان تتخلّص منها والزيارة الفظيعة

عند زوجي انكلْماخر دفعاها الى الهاوية. بالرغم من ذلك حاولت ان تتماسك بكل شجاعة. لكنها لم تتغلب على الادمان تماما... الى ان نجحتُ اخيرا عن طريق جمعية خيرية، في الحصول على عنوان في الريف، قرب بحيرة بودن... قرية للمعالجة، لا بل في الحقيقة مزرعة كبيرة تديرها مجموعة من الانترُبوصوفيين اللطفاء جدا... يحاولون ان ينشئوا فيها نوعا من المركز العلاجي الذي يتبنّى مناهج رودولف شتاينر، اي الاشفاء من خلال نشاطات كالرقص التعبيري والرسم وزرع الخضار وتربية المواشي بطرق طبيعية، ويستثمرون هذه المناهج ليخلصوا مجموعة اولى من المدمنين على المخدرات من تعلقهم بالابرة.

هناك دبّرتُ اقامة لـ أُوشي. واعجبها المكان فعلا. عادت تضحك قليلا وتنتعش، مع ان الحياة في المزرعة كانت قاسية ايضا من نواح اخرى: كانت الابقار تفلت باستمرار من حظائرها وتسحق بأظلافها المزروعات... والحمامات...! أبسط الامور كانت غير متوفرة لان البرلمان الاقليمي في مدينة شتوتْغارت رفض دفع اي تمويل للمشروع... وتعسّرت ايضا امور اخرى، خاصة في المناقشات الجماعية... لكن أُوشي لم تزعل ولم تنزعج... لا، كانت تضحك من هذه الامور... حتى بعد ان احترق المبنى الاساسي للمجمّع الاستشفائي لانّ الفئران – على ما اتضح فيما بعد – عشعشت فوق انبوب مخفي للمدفأة وملأته بالقشّ مما ادّى الى اشعال حريق كبير، مكثت أُوشي في المزرعة وساعدت في تحضير ملاجئ موقّتة في مخزن الغلال... ومشت كل الامور جيدةً الى ان نشرت احدى المجلات المصوّرة تحقيقا ومناشير عريضة تقول: "قمنا بالاجهاض!"

للاسف كنتُ انا التي احضرت لها هذا التقرير المصوّر بغلافه المثير حين زرتُها في يوم من الايام المخصّصة للزيارات. لقد اعتقدتُ ان ذلك التحقيق سيساعدها معنويا: عدة مئات من النساء كشفن عن هوياتهن من خلال صور شمسية، وبينهن عدد لا بأس به من المشاهير: زابينه زنْين رومي شنايْدر، زنْتا برغر – كلهن من نجمات السينما اللواتي كن عندنا على قائمة الشخصيات المهمة... طبعا، كان على النيابة العامة ان تجري تحقيقا... وهذا ما حصل على الأرجح، لانّ الاجهاض

كان يومها فعلا مخالفا للقانون. لكن النساء المعترفات لم يُلاحقن قانونيا، لانّهن كن شهيرات جدا... هكذا تجري الامور! لكن أُوشي تأثّرت بهذه الحملة الشجاعة وانتشت تماما، على حد قولها، وارادت ان تشترك فيها. لذلك كتبتْ الى رئاسة التحرير وارفقت سيرة حياتها وصورة شمسية. جاء الرفض حالا. قيل ان وصفها التفصيلي للادمان على الهيروين والاجهاض عند احد الدجّالين مفرط في التطرّف. وان نشر حالة قاسية كهذه سيضرّ بالقضية. عسى ان يُنشر الموضوع في المستقبل القريب... فالنضال ضد المادة ٢١٨ لم يسفر بعد عن اي نتيجة.

... امر لا يُصدّق... هذا الموقف البارد الاعصاب... لم تتحمّل أوشي الوضع... بعد الرفض بايام قليلة اختفت... بحثنا عنها في كلّ مكان... أنا وأهلها... كلّما سمحت لي الظروف بالغياب عن الخدمة، كنتُ أتجوّل أبحث عنها في محلاّت الديسكو كلّها. لكن البنت اختفت وظلت مختفية... حين عثروا عليها أخيراً في محطّة قطارات شتوتْغارت، كانت ممدودة على ارض الحمّام النسائي... الجرعة الفائقة المعهودة... "الطلقة الذهبية"، كما يقال.

بالطبع لُمتُ نفسي ولا ازال... فبالنهاية، كانت أُوشي افضل صديقة لي. كان وجب عليّ ان امسك بيدها واطير معها الى لندن وآخذها الى كْرُوس رود وادفع مسبقا وانتظرها وآخذها تحت جناحي واسندها نفسيا... أليس كذلك، يا أُوشي؟... في الاساس كنتُ أريد ان أسمّي إبنتنا الصغيرة على اسمها: أُورزْولا. لكن زوجي – وهو فعلا متفهّم ويعتني بطفلتنا جيدا لانّي ما زلت اعمل على الخطوط الجوية البريطانية الاوربية – زوجي رأى انّه من الافضل ان اكتب عن أُوشي...

"هولد ذت ترايْن": للفرقة سْتيمهْامر على الاسطوانة "ماونْتنْز" (١٩٧٠).

بينْك فلويْد: "...أتوم هارْت ماثر" ١٩٧٠.

سْتيبنْوُلْف: "...بورن تو بي وايلْد" ١٩٦٨.

مناهج رودلف شتاينْر، شتاينْر: (١٨٦١–١٩٢٥)، مؤسس الـ أنترُبوصوفيا وحركة مدارس فالْدورف. تستفيد الانترُبوصوفيا في علاج الادمان على المخدرات من عناصر فنية كالرقص التعبيري.

"قمنا بالاجهاض": حملة لالغاء منع الاجهاض بادرت بها الصحفية والمناضلة لحقوق النساء أليس شفْارتْسر.

١٩٧٢

أنا الآن هو. انه يسكن في هانوفر–لانغنْهاغن ويعمل معلّما في مدرسة ابتدائية. هو – ليس انا – تعذّب في حياته. ترك المدرسة الثانوية بعد الصف السابع. ثمّ التحق بالتعليم التجاري ولم يكمله. عمل بائعا للسجائر، ترقّى في الجيش الى رتبة ملازم عاد الى معهد تجاري خاصّ ورُفض في الامتحان النهائي لانّه لا يحمل شهادة إنتهاء الثانوية. راح الى بريطانيا ليحسّن كفاءاته اللغوية. عمل هناك في مرأب يغسل السيارات. اراد ان يتعلّم الاسبانية في برشلونا. لكنه لم يتشجّع إلاّ في فيينا، حيث حاول صديق له ان يسند ظهره بما يسمّى سيكولوجيا النجاح، فجمع قوته والتحق في هانوفر بالاكاديمية الادارية ونجح. سُمح له بالدراسة، حتى من دون شهادة البكالوريا، فحاز على دبلوم التعليم... وهو الآن عضو في نقابة التربية والعلوم، ورئيس لجنة المعلّمين الشباب، ويساري براغْماتي يريد تغيير المجتمع خطوة خطوة، ويحلم بذلك حين يجلس في مقعده ذي السندين للاذنين الذي اشتراه بسعر مناسب من محلّ يتاجر بالاغراض المستعملة... واذا بالجرس يرنّ في منزله في شارع فالْسرْودر في الطابق الثاني على اليمين.

فافتح انا، أعني يفتح هو الباب. فتقف أمامه فتاة بِشعر بنّي طويل تريد ان تكلّمني، تكلّمه. "هل يمكن لشخصين ان يبيتا عندكما لفترة قصيرة؟" – تقول "عندكما" لانّها عرفت من احدهم بانّه او بانّي اعيش مع صديقتي. نعم – نقول، هو وانا.

يقول: بعد قليل راودتني الشكوك وراودت صديقتي ايضا التي قالت عند الفطور: "قد يظنّ الواحد...". لكنّنا قرّرنا ان نذهب اوّلا الى المدرسة، فصديقتي تدرّس ايضا، لكن في مدرسة عامّة. أما أنا فكان على برنامجي رحلة مدرسية الى حديقة العصافير... وهي في جوار فالْسرْوده. بعد ذلك كنا لا نزال نتشكّك ونحتار: "اخشى انهما قد انتقلا الى البيت، لانّي اعطيتُ البنت طويلة الشعر المفتاح..."

فراح يكلّم صديقا، كما كنتُ انا ساكلّم ايضا صديقا حميما. يقول الصديق

ما سبق للصديقة ان قالته عند الفطور: "إتّصلْ بالرقم... ١١٠" فيطلب (بموافقتي) الرقم ويطلب الوحدة الخاصة ب م. ينصت رجال الوحدة الخاصة بانتباه ويقولون: "سنتحقّق من الامر"، فيقومون بالمراقبة في لباس مدني. بعد حين يتفقّدون سلالم المبنى برفقة البوّاب. فيلتقون بامرأة في صحبة رجل شاب يرتقيان السلّم. يستفسر البوّاب عن الشخص الذي يريدانه. يريدان المعلم. فيقول البوّاب: "اي نعم. يسكن في الطابق الثاني. لكنه، على ما أظن ليس في البيت." بعد مدة يرجع الرجل الشاب ويذهب الى كشك هاتف. فيُعتقل حين يضع القطع النقدية في جهاز الهاتف... ومعه مسدس.

لا ريب في ان المعلّم اكثر يسارا منّي على الصعيد السياسي. احيانا، عندما يجلس في مقعده المستعمَل، يحلم، على نحو تقدّمي بالمستقبل. يؤمن بـ"سيرورة المحرومين التحرّرية." ويتبع خطّ بروفسور من هانوفر نال في الاوساط اليسارية شهرة تكاد تناهز شهرة هابرْماس. وقيل إنه قال في صدد الـ ب م: "ان المعالم الكاشفة المضيئة التي يريدون زرعها بقنابلهم، هي بالاحرى أضواء ضالّة." وهو يوافق على هذا الرأي مردّدا: "هؤلاء زوّدوا اليمين بحجج مقنعة لتشويه سمعة اليسار بملله كلها."

يتطابق ذلك مع رأيي. لذلك طلبنا، هو وانا، هو كمعلم ونقابي وانا كانسان يعمل بشكل حر، الرقم ١١٠. لذلك يوجد الآن موظفون للشرطة الجنائية الاقليمية في منزلٍ هو منزل المعلّم وفيه مقعد مستعمل ذو سندين للاذنين. تبدو المرأة التي فتحت باب المنزل بعد ان دقّ الشرطيون، في صحة سيئة، ولا شبه لها، بشعرها القصير غير الممشّط وجسمها النحيل، بالصورة الواردة في سجل المطلوبين. ربما ليست هي المطلوبة. قيل عدة مرات انها قد ماتت. وافادت الصحف انها توفيت نتيجة تورّم في الدماغ.

"يا خنازير!" تصرخ عند الاعتقال. لكن الموظفين لا يتأكدون من هوية من قبضوا عليها إلاّ حين يجدون في منزل المعلّم مجلةً مصورة مفتوحة تحتوي على صورة اشعة لجمجمة الانسانة المطلوبة. بعد ذلك يعثر الموظفون على المزيد في

منزل المعلّم: ذخائر، اسلحة، قنابل يدوية، حقيبة للماكياج من ماركة رويال فيها قنبلة من وزن اربعة كيلو ونصف.

يقول المعلم بعد ذلك في مقابلة: "لا، كان عليّ ان اتصرف على هذا الشكل." وانا اشاطر رأيه، وإلا تورط مع صديقته في هذه القضية. يقول: "مع ذلك انتابني شعور غير مفرح. فبالنهاية كنت اوافق في السابق على رأيها احيانا، أعني قبل ان تورّطت بالقنابل... وعلى سبيل المثال، على ما كتبتْه بعد الاعتداء على مخزن شنْايْدَر في فرانكْفورت في مجلة كونْكْريت: "يجب رفض اشعال الحرائق لانّها تعرّض اناسا للخطر لا يريدون ان يتعرّضوا له..." لكنّها شاركت مع ذلك في برلين حين تم تحرير بادر. وجُرح موظف بسيط بجروح بالغة. بعد ذلك اختفت. بعد ذلك وقعت ضحايا على الجانبين. بعد ذلك جاءت اليّ. بعد ذلك قمتُ بـ... لكن في الواقع اعتقدتُها ميتة."

الآن يريد المعلّم – الذي ارى نفسي فيه – ان يخصّص المكافأة الكبيرة المستحقّة له من قبل المجلس لانّه طلب ١١٠، للمحاكمة المقبلة، كي يمكن لجميع من قبضوا عليهم حتى الآن – بما فيهم غودرْون انسلْين التي لفتت الانظار حين دخلت محلا راقيا في هامبْورغ – ان يحصلوا على محاكمة عادلة ستظهر، على حد قوله الترابطات الاجتماعية..."

كنتُ ساتصرّف على نحو مختلف. حرام على المبلغ الكبير! لماذا يستفيد منه اولئك المحامون، شيلي وامثاله؟ يجدر به ان يتبرّع بالمبلغ لمدرسته وغيرها من المدارس لصالح المحرومين الذين يعتني بهم. لكن مهما قرّر معلّم الابتدائية في صدد التبرّع، سيظل منقبضا، لانّه سيبقى طوال عمره الرجل الذي طلب... ١١٠ وأنا من ناحيتي، أحسّ بما يشبه احساسه.

يسكن في هانوفر–لانْغنْهاغن: فريتس رودهفالْت.

بنت: أولْريكه ماينْهوف (١٩٣٤–١٩٧٦)، صحفية مساهمة في تأسيس جماعة بادر–ماينْهوف / جناح الجيش الاحمر.

الوحدة الخاصة ب م: فرقة خاصة للشرطة لمكافحة جماعة بادر–ماينْهوف.

بروفسور في هانوفر: أوسْكار نيغْت.

مجلة مصورة مفتوحة: "شتيرن"، حزيران ١٩٧٢.

"كونكريت": في ١٩٦٨/٤/٣ قام أندرئاس بادر وغودرون أنسلين وآخرون باشعال الحريق في مخزن فرانكفورت الكبير. في ١٨ تشرين الثاني علّقت أولريكه ماينهوف على الاعتداء في مجلة "كونكريت"، بعد ان رُفض استئناف الحكم على بادر.

بادر، أندرئاس: (١٩٤٣–١٩٧٧)، بلا مهنة، شارك في تأسيس جناح الجيش الاحمر.

غودرون أنسلين: (١٩٤٠–١٩٧٧) طالبة للادب الالماني شاركت في تأسيس جناح الجيس الاحمر.

شيلي، أوتو: مواليد (١٩٣٢)، محام، يومها المدافع عن أعضاء الجيش الاحمر، اليوم وزير الداخلية.

١٩٧٣

الصدمة الشافية؟ هيهات! لا تعرفون ازواج بناتي الاربعة! ليسوا متزوجين من بناتي، بل ضمنيا من سيارتهم... يلمّعونها باستمرار، حتى أيام الآحاد. يشتكون من ادنى خدشة. يتكلمون باستمرار عن سيارات غالية، بورشه والخ، وينظرون اليها خلسة كما لو كانت فتيات جذّابات يدعينهم لمتعة سريعة... والآن، صفوف امام كل محطة بنزين... ازمة النفط! هذه ضربة، اقول لكم... صدمة، لكنّها ليست شافية. طبعا، راحوا يخزّنون... الاربعة كلهم... وغيرهارت الذي يتكلّم عادة مثل واعظ للحياة الصحية – "أعوذ بالله، ما تعطوني لحمة! ولا دهونا حيوانية!" ويصر على الخبز الاسمر – مصّ الانبوب عند نقل البنزين الى علب اشتراها بالجملة الى ان اوشك على التسمّم بالبنزين: احساس بالتقيّؤ، آلآم في الرأس... فشرب ليترات من الحليب... وهاينتس – ديتر عبّأ حتى البانيو في الحمام، فامتلأ البيت بالرائحة وأغمي على سوفي الصغيرة.

السادة ازواج بناتي...! والاثنان الآخران ليسا افضل من المذكورين... يتذمّران باستمرار من القرار بمنع تجاوز سرعة المائة كيلومتر في الساعة. وفي مكتب هورست خفّضوا حرارة الغرفة الى ١٩ درجة، فيظنّ ان عليه ان يرجف مثل رجل الثلج... ويتغنج باستمرار: "كل الحقّ على العرب، سائقي الجمال!" ثم يحط الحقّ على الاسرائيليين لانهم شنوا حربا جديدة، فازعلوا السعوديين المساكين. ويصيح هورست: "مفهوم، انهم اغلقوا صنبور النفط حتى نعاني من الشح وتدوم الحالة، إن امكن..." فيوشك هاينتس –ديتر على البكاء: "ما عاد في فائدة ان يصمد الواحد ليشتريَ الـBMW الجديد، ان كان على الكل ان يتقيّدوا بالمائة كيلو على الطريق السريع وبالثمانين على الطرقات العادية" – "... هذه تسوية على الطريقة الاشتراكية. هذا ما يريده لاوريتسن هذا، وهو عار على منصب وزير المواصلات..." صرخ ايبرهارت الاكبر بين ازواج بناتي وتشاجر مع هورست لانّ الاخير رفيق – انما مهوس بالسيارات ايضا: "سوف ترون عندما تأتي

الانتخابات القادمة..." آه، كم تشاجرا وتقاذفا بالسباب...

فقلتُ: اسمعوني كلّكم، عندي فكرة ممتازة، انا حماتكم المستقلة وهاوية المشي من زمان! "فمنذ موت زوجي، حين كانت بناتي مراهقات صرتُ" رب العائلة. "صحيح اني أتوتر احيانا، عند الضرورة، لكنّي احافظ ايضا على التماسك وادلّ الجماعة احيانا، في الحالات الطارئة على الطريق الصحيحة. وعلى سبيل المثال، حين نواجه ازمة طاقة حقيقية حذر منها بالحاح جماعة نادي روما، فتعتقد عائلتي كلّها ان لها الحقّ في الجنون. قلتُ لهم على الهاتف: "اسمعونا كلّكم، تعرفون اني كنتُ على طول ارى نهاية للازدهار. والآن وقعت المصيبة. لكن لا داعيَ للاكتئاب، حتى لو كان غدا احد الموتى. على كلٍّ، ستُمنع سياقة السيارات منعا باتا، مثل كل ايام الآحاد المقبلة. فدعونا نعمل نزهة عائلية. طبعا، سيرا على الاقدام. بالاول نأخذ الترامواي رقم ٣ حتى المحطة الاخيرة. بعدها نكمل مشيا... تعرفون ان كاسل محاطة بكل هذه الغابات الجميلة. نروح اذن الى غابة هابيشت!"

يا لولولتهم! "واذا أمطرت؟" – "اذا امطرت بشدّة، نطلع الى قصر فلهلمسهْويه فقط، نتفرّج على رمبْرانت واللوحات الاخرى وننزل مشيا" – "سئمنا من تلك التحف العتيقة" –. "واي مجنون يذهب في كانون الى الغابة حينما تكون على الشجر ورقة واحدة؟ –" "اذا كان ولا بدّ من لقاء عائلي، دعونا نذهب كلنا الى السينما" – ... او نلتقي كلنا عند ايبرهْارت ونشغل المدفأة في الغرفة ونلتفّ حولها جميعا..."

قلت: "ابدا! بلا حجج! الاطفال فرحون..." وهكذا انطلقنا اذن جميعا في طقس ممطر قليلا، من المحطة الاخيرة في وادي دروسه الى غابة هابيشت التي لها جمالها، حتى حين تكون جرداء. لبسنا معاطف المطر وأحذية الكاوتشوك، نطلع الجبال وننزلها. رأينا حتى غزلانا من بعيد، تتطلع الينا وتقفز هاربة. وشرحتُ للاولاد انوع الاشجار: "هذه شجرة الزان، وهذه شجرة البلوط... واشجار الصنوبر هناك، على القمم، متآكلة في ذراها، بسبب الصناعة والسيارات الكثيرة، الكثيرة... الغازات السامة مسؤولة... أتفهمون منّي؟"

ثم أريتُ للاولاد ثمار البلوط والزان وقصصتُ عليهم كيف كنا نجمعها في

الحرب. ورأينا سناجيب تطلع وتنزل جذوع الاشجار. كم كان ذلك جميلا! ثم اشتد المطر فالتجأنا الى أحد المقاهي، فدعوتُ انا الحماة الشريرة والجدة الطيبة، العشيرة كلها لشرب القهوة وتناول الحلويات. وشرب الاطفال عصير الليمون. وطلبنا، طبعا، الخمر في كؤوس صغيرة. فتندرت اقول لازواج بناتي: "اليوم نسمح حتى لسائقي السيارات بالشرب." وحكيتُ للاطفال عن كل الاشياء التي كانت غير متوفرة في الحرب، الى جانب البنزين، واننا كنا نعصر ثمار الزان بعد ان نقشّر كمية منها، ونحصل على زيت للاكل.

لكن، لا تسألوني عن البلبلة عندنا بعد هذه النزهة. واذا اعتقدتم ان ازواج بناتي كانوا ممتنين، فانتم لا تعرفونهم! لا، صاروا يتذمّرون من هذا المشي السخيف في الطقس المزري. وقالوا ايضا اني ضللتُ الاطفال بـ" تبجيلي العاطفي لاقتصاد الشح." وصرخ هاينْتْس –ديتْريش: "لا نعيش في الزمن الحجري...!" و ابرهْارت الذي يدّعي عند كل مناسبة غير مناسبة بانه ليبرالي، تشاجر مع غودرْون ابنتي الكبيرة... وفي النهاية أخذ فرشته وترك غرفة النوم. وهل تعرفون اين نام المسكين؟ صحيح، في المرأب. في سيارة الـ اوبل القديمة، التي يلمّعها ويلمّعها كلّ يوم أحد...

أزمة النفط: في تشرين الاول ١٩٧٣ قررت منظمة الدول العربية المصدّرة للنفط تخفيض انتاج النفط وتصديره الى ان يتم الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المصرية والاردنية المحتلة. ادت الازمة في المانيا الى اتخاذ قرار بمنع سياقة جميع السيارات في بعض ايام الآحاد وبفرض سرعة قصوى للسوق.

لاورْيتْسن، لاورْيتس: (١٩١٠–١٩٨٠) سياسي (الحزب الديمقراطي الاجتماعي)، بين ١٩٧٢و ١٩٧٤وزير المواصلات.

نادي روما: جمعية متألفة من علماء وسياسيين واقتصاديين تأسست عام ١٩٦٨، هدفها ان تبحث في مشاكل عالمية وتعرضها. نشرت في ١٩٧٢ "حدود النمو. تقرير نادي روما حول وضع الانسانية."

١٩٧٤

ماذا يحسّ الواحد، حين يختبر نفسه امام الشاشة في هويته المزدوجة؟ أظنّ انّ المتمرّس في السير على سكّتين، لا يحتار كثيرا اذا التقى بذاته مجزّأة، في مناسبات خاصة... وتبقى دهشته في حدود... وقد تعلّم الواحد خلال فترة تدريب قاسية وعلى ارض الواقع ايضا كيف يتعامل مع هذا الانا المزدوج ويتصرّف به. وفيما بعد، وقد قضى الواحد اربع سنوات من مدّته في سجن راينْباخ ولم يحصل على السماح بتشغيل تليفزيون خاص به إلاّ بعد رفع قضية مستعصية وبموجب قرارٍ صادر عن غرفة تنفيذ العقوبات الجنائية، فقد امسى الواحد واعيا، منذ أمد طويل، بوجوده المعلّق والمحفوظ في الازدواجية. لكن في العام اربعة وسبعين، حين كان الواحد لا يزال موقوفا قيد التحقيق في سجن كولونيا–أوسنْدورف حيث حصل بلا جدل على جهاز تلفزيون ليشاهد في زنزانته المباريات العالمية في كرة القدم... حينها مزّقتني المجريات على الشاشة من نواحٍ عديدة.

لم يحدث ذلك حين أدهش البولونيون العالم بلعبهم الاسطوري تحت المطر الشبيه بالطوفان، ام حين انتصرنا على اوستراليا ولعبنا ضد تشيلي بالتعادل... حدث ذلك حين لعبت المانيا ضد المانيا. مع مَن كان الواحد؟ مع مَن كنتُ أنا وأنا الأخر؟ لايّ من الطرفين كان للواحد ان يهلّل؟ أيٌّ من الدولتين الالمانيتين ستفوز؟ ماذا، بل ايّ صراع داخلي تفجّر فيّ، اية قوى تجاذبتني، حين سجّل شبْارفاسر الهدف؟

معنا؟... ضدنا؟... كان الرجال من مصلحة البوليس الجنائي الاتحادية يسوقونني كل صباح الى باد غودسبْرغ للاستجواب، فكان عليهم ان يدركوا تماما ان تلك الاختبارات لقدرة المرء على مناوأة التمزّق ليست غريبة عليّ. لكنها لم تكن اختبارات، في صحيح المعنى، بل كانت سلوكية تعود الى ازدواجية الدولة الالمانية، وكان تبنيّ هذه السلوكية واجبا مثنّى على الانسان. ويمكن القول إني كنتُ قادرا على تحمّل هذا التوتر ولم اختبره صراعا، طالما تسنّى لي ان انجح في اثبات

نفسي على نحو مزدوج، أي من ناحية بوصفي اكثر مساعدي الرئيس آمانا، ومن ناحية اخرى بوصفي محاورا في ظروف موحشة... ويصحّ ذلك بخاصة في ضوء نجاحي... فالرئيس لم يكن الوحيد الراضي بما أنجزتُه، بل كان هناك المركز البرلْيني الذي اعرب لي عبر وسطاء عن رضائه ايضا... ونلت ثناءً على نشاطي من أعلى مكان... من الرفيق ميشى... كان المركز على يقين بان ثمة تناغما بنّاءً بيننا: هو الذي رأى نفسه "رئيسا للسلام"، وأنا الذي زاولتُ مهمّتي كـ"مستطلع للسلام." كان زمنا جيدا تناغمت فيه تواريخ حياة الرئيس مع مواعيد مساعده في صدد السلام. على كل حال، كان الواحد يؤدّي خدماته باجتهاد.

لكنّ، حين بدأتْ في الثاني والعشرين من حزيران، في ملعب حديقة الشعب في هامْبورغ امام اكثر من ستين الف مشاهد، المباراة بين جمهورية المانيا الديمقراطية وجمهورية المانيا الاتحادية، خبرتُ نفسي ممزّقا، متجاذبا. صحيح ان الشوط الاول انتهى بلا اهداف لكن حين كاد مولر الحرك القصير يسجّل هدفا لصالح المانيا الاتحادية في الدقيقة الاربعين واخطأ المرمى على شعرة واصاب العمود، كدتُ اخرج عن طوقي صائحا غول، غول، غوول...! كنتُ ساهلّل في زنزانتي اذن لفوز الدولة الغربية الانعزالية... واردتُ ان اهلّل ايضا، حين تفادى لاوْك خصمَه اوفراك ببراعة وتخلّص فيما بعد حتى من نَتْسر... فاخطأ للأسف المرمى الالماني الاتحادي بقليل.

كم وجد الواحد نفسه معرَّضا لضربة ساخنة وضربة باردة... وكان يعلّق حتى على قرارات الحكم من اوروغواي تعليقات متحيّزة جاءت حينا لصالح المانيا تلك وحينا آخر لصالح المانيا الاخرى. شعرتُ بنفسي غير منضبط، ومقسوما إن صحّ التعبير. بالرغم من اني قد نجحتُ في الصباح، حين استجوبني الكوميسير فيدراو من الشرطة الجنائية، في ان التزم تماما بالنص الحرفي المعطى. لدار التحقيق على نشاطي في الحزب الديمقراطي الاجتماعي في محافظة هيسن الجنوبية التي تعدّ يسارية جدا... وحسبوني هناك يومها رفيقا نشيطا، انما محافظا. فاعترفت بسرور اني انتمي الى الجناح اليميني البراغماتي للديمقراطيين

الاجتماعيين. ثم عُرض عليّ العدة المصادرة من مختبري الفوتوغرافي. وفي حالة كهذه، يصرّ الواحد بكل بساطة على الانكار ويشير الى نشاطه السابق كمصور محترف تخلّى عن الحرفة ويكتفي بالتقاط الصور في العطلات السياحية. لكن بعد ذلك ظهرت آلة الكاميرا الخاصة بي، طراز ثمانية ميليمتر سوبر، وعلبتان بافلام خامة حساسة جدا ومخصّصة، كما قيل، " للنشاط التجسّسي. "صح، كان ذلك دليلا، لكنه لم يكن برهانا على شيء. وبما اني استطعت ان التزم بالنص، فقد رجعتُ الى زنزانتي مطمئنا اترقّب بسرور المباراة.

على الجهتين كان لا احد يظنّني هاويا لكرة القدم. الى ذلك الحين لم أعلم ان يورْغن شبْارفْاسر يلعب في الوطن بنجاح في نادي ماغْدهبْورغ. والآن شاهدتُه بنفسي، رأيت كيف استلم الكرة من هامان برأسه، وشنّ هجوما على مرمى الخصوم، متفاديا فوغْت، ذلك اللاعب القوي، وهوتْغس ايضا، وقذف الكرة بقوة الى الشبكة بحيث عصى على حارس المرمى مايْر ان يلقفها.

واحد: صفر لالمانيا. لكن، لاي المانيا؟ لبلدي ام لبلدي؟ نعم، على الارجح صحتُ في زنزانتي غول، غول، غووول!، لكن في الوقت عينه تألّمتُ لخسارة المانيا الاخرى. وحين حاول بكنْباوْر ان يشنّ هجوما، شجّعتُ المنتخب الالماني الاتحادي. وارسلتُ لرئيسي الذي لم يسقط بسبب امثالي – بل بسبب نولاو وفَيْنر وغنْشر، على الارجح – بطاقة بريدية اعربت فيها عن أسفي على نتيجة المباراة، كما ظللت اراسله فيما بعد في الاعياد والثامن عشر من كانون الاول، تاريخ عيد ميلاده. لكنه لم يجاوب. مع اني متأكد بانه شاهد هدف شبْارفْاسر ايضا باحاسيس متضاربة .

الواحد: غونْتر غِيوُم (١٩٢٧–١٩٩٥)، جاسوس لالمانيا الشرقية في ادارة الرئيس الاتحادي (المساعد الشخصي لـ فيلي برانْت.) أدّى الكشف عن غطائه عام ١٩٧٤الى استقالة الرئيس. قد أرسل غِيوُم الى المانيا الغربية عام ١٩٥٦.

انتصرنا على اوستراليا...: المانيا الشرقية – اوستراليا. ٢:٠.

... ضد تشيلي بالتعادل: المانيا الشرقية – تشيلي ١: ١.

يورْغن شبْارفاسر: مواليد (١٩٤٨)، لاعب ممتاز في نادي ماغْدهبْورغ. كان غير معروف في المانيا الغربية قبل ان يسجّل الهدف الحاسم.

بيكنْباوْر، فرانْتس: مواليد (١٩٤٥)، لاعب في نادي مونيخ، بين ١٩٨٤ و١٩٩٠ رئيس المنتخب الالماني الوطني.

نولاوْ، غونْتر: مواليد (١٩١١)، بين ١٩٧٢ و١٩٧٥رئيس المصلحة الاتحادية لحماية الدستور.

فينر، هربْرت: (١٩٠٦–١٩٩٠)، بين ١٩٦٩ و١٩٨٣رئيس جناح الحزب الديمقراطي الاجتماعي في البرلمان الاتحادي.

غنْشر، هانْس–ديترش: مواليد (١٩٢٧)، قضائي وسياسي، بين ١٩٦٩ و١٩٧٤ وزير الداخلية الاتحادي، بين ١٩٧٤ و١٩٩٢ وزير الخارجية.

١٩٧٥

عام كغيره من الاعوام؟ ام زمنٌ بات رصاصيّاً واصمَّ بفعل صراخه الخاص؟ لا يمكن لي ان اتذكّر إلاّ على نحو ضبابي، اتذكّر في أحسن الاحوال، اضطرابا ما يهيم تحت سقفي في فْريدناو وسقفي الآخر في فيولْسفْليت على نهر شتور، لانّ الاحوال كانت غير مستقرة، لانّ أنى... لانّني... لانّ فيرونيكا... فاضطرب الاطفال وتركوا العشّ فهربتُ انا – الى اين؟ – الى الكتابة... غصتُ في مسوّدة روايتي "سمك موسى" المتزايدة الحجم ونزلتُ ادراج القرون واقمتُ عند تسع طباخات او اكثر ملأن لي الملعقة برفق حينا وبصرامة حينا آخر... بينما اصطخب الحاضر ما وراء آثار فراري ولطّف العنف مناهجَه اينما كان... في صفّ الزنزانات في شتامْهايم ام حول ورشة الإعمار لمفاعل الطاقة النووية في بروكْهوف... لكن ما عدا ذلك، لم يحدث الكثير منذ ان راح برانْت وصار المستشار الجديد شْميت يُشَيِّئنا جميعا ؛ على الشاشة وحدها ساد ازدحام.

أصرّ واكرّر: لم يكن ذلك العام فريدا او كان فريدا وحسب لاننا، اربعة او خمسة مواطنين غربيين، كنّا نجتاز الحدود ونسمح لهم بتفتيشنا، فنلتقي في برلين الشرقية بخمسة او ستة مواطنين شرقيين يأتون ايضا حاملين مسوّداتهم على القلوب. وكان كل من راينر كيرش وهاينْتس تشيشوفسكي يأتيان الى برلين من مدينة هاله البعيدة. في البداية كنا نقبع عند شيدلْيش ثم عند سارى كيرْش او زبيله هنتشكه... فننتقل بعد القهوة والفطائر (والنكات الشرقية–الغربية المعهودة) الى قراءة قصائد موزونة ونثرية، وقصص قصيرة وفصول مفرطة في التطويل، اي الى قراءة ما عولج يومها على جانبَي الحائط وما يدلّ في تفاصيله الى العالم.

أكانت هذه الرحلات المزاولة مثل طقس من الطقوس – انْ نتحمل التفتيش البطيء او الاسرع قليلا على الحدود، ونذهب الى الملتقى (شارع روتكبشن او لنباخ)، وننشد المراثي الالمانية الشاملة انشادا هزليا او حزينا، ونقرأ سيل الحبر

لمؤلفين مهوسين بالكتابة، وننقد المقروء من ثم نقدا عنيفا او كسولا، محاكين جماعة ٤٧ باختزال على الحميمي، ونعود أخيرا بعجلة قبيل منتصف الليل ونتحمل التفتيش في محطة شارع فريدرْش – أكان هذا الطقس اذن هو الحدث الوحيد اللافت الذي بقي في روزنامة ذلك العام؟

على شاشة التلفزيون، بعيدا عنّا وقريبا منّا على السواء، سقطت سايْغون. في حالة من الذعر غادر آخر الامريكيين فيتنام من سطح سفارتهم. لكن النهاية هذه كانت واضحة ولم تكن موضوعا لنا نحن المجتمعين على انواع الحلويات المحلية... ولا ارهاب جناح الجيش الاحمر الذي لم يختصر مسرحه على ستوكْهُلم وحدها (اخذ الرهائن)، بل امسى شكلا من اشكال الحياة اليومية عند السجناء في شتامْهايم... الى ان قامت أُولْريكه ماينْهوف، في العام التالي، بالانتحار شنقا في زنزانتها... او شُنقت فيها .... لكنّ حتى هذه المسألة التي دارت طويلا على الالسنة لم تؤثّر فينا كثيرا، على الارجح، نحن حاملي الاقلام المجتمعين. بعد جفافٍ صيفي، كان الجديد، وقتها، حرائق ضخمة في منطقة لونهبْورغ هايدْه حصَدت في انتشارها على مساحات كبيرة خمسة ضحايا من رجال الاطفائية الذين حاصرتهم ألسنة النارية.

ولم يكن ذلك موضوعا شرقيا – غربيا بدوره... لكن، قبل ان قرأ نيقولاس بورن من "الجهة المشاحة عن الارض"، وقدّمت سارى قصائدها بنكهة منطقة مارك في لهجة برلينية، وصدمنا شيدلْيش بقصة من تلك القصص التي نُشرت فيما بعد في الغرب تحت العنوان "محاولة قُرْب"، وجرّبتُ انا شذرة من "سمك موسى"، تناولنا، ربما، الحدث الذي اثار في شهر ايار ضجة على الجهة الغربية للمدينة وملأت اخباره العناوين الصحفية العريضة: في منطقة كرويتْسبرْغ في جوار نقطة الحدود جسر اوبربْاوم، وقع صبي تركي يبلغ الخامسة من عمره (ويُدعى سيتن) في قناة نهر شبريه الذي يشكّل هناك الحدود بين شطري المدينة. لذلك لم يستطع او لم يرد احد ان يساعد الصبي: لا الشرطة البرلينية الغربية ولا عناصر الجيش الشعبي في قاربهم. وفي الغرب، لم يجرؤ احد على النزول الى الماء وفي الشرق كان عليهم ان

ينتظروا قرار ضابطٍ أعلى رتبةً، فمضى الوقت الى ان فات الاوان لانقاذ سيتن. حين سُمح للاطفائية اخيرا بانتشال الجثة، بدأت النساء التركيات على ضفة القناة الغربية بنحيبهن. واستمر النحيب طويلا وسُمعت اصداؤه، على ما قيل، الى عمق الاراضي الشرقية...

وماذا عسى ان يتناوله المرء من اشياء اخرى مع القهوة والفطائر في ذلك العام الذي مضى كغيره من الاعوام؟

في ايلول، حين التقينا من جديد حاملين مسوداتنا، انتهزتُ موت القيصر في أثيوبيا – أمات قتيلا ام لسرطان البروستاتا؟ – فرصةً على ما اظن، لأسرد حادثا من ايام الطفولة. كنت يومها هاويا للسينما، فشاهدتُ في مجلة فوكس السينمائية النجاشي هيلا سيلاسي وهو يزور ميناء من الموانيء (هامبْورغ، ربما؟) في طقس ممطر اعتدناه في انحائنا. كان واقفا بقامته القصيرة ولحيته وخوذته الاستوائية في قارب ذي محرك، تحت مظلّة يحملها خادمه. بدا حزينا او مهموما... تعود هذه اللقطات على الارجح الى العام خمسة وثلاثين، قبيل دخول جنود موسوليني الى بلاد الحبشة كما سميّت أثيوبيا يومها. كنت اتمنّى، وانا طفل، ان أكون صديق النجاشي، فأرافقه في تجواله من بلد الى بلد، فرارا من قوات ايطاليا الغازية.

لا، لستُ متأكدا ما اذا تكلّمنا في لقاءاتنا الغربية – الشرقية على النجاشي او على الشيوعي منغيستو، احدث الحكّام الاثيوبيين... ثمّة أمر واحد فقط لا شك فيه: مرورنا قبل منتصف الليل بقاعة التفتيش الحدودية، الملقّبة بـ"قصر الدموع"، حيث كان علينا ان نبرز الهويات وتأشيرات الدخول. ومن المؤكد ايضا ان الاحوال كانت مضطربة في برلين الغربية وفي فيولْسفليت، اي اينما بحثتُ وكتابي المتشذّر "سمك موسى" عن سقف فوق الرأس.

أنا: غونْتر غراس.

صفّ الزنزانات في شْتامْهايْم: سجن محصّن شُيِّد خصيصا للسجناء من مجموعة بادر– مايْنْهوف. أنجز بناؤه عام ١٩٧٤.

ورشة بناء بروكْدورف: في اواخر عام ١٩٧٣ تشكّلت معارضة من المواطنين ضد بناء معمل

الطاقة النووية على ضفة نهر ألبه قرب بروكْدورف. ابتداء من عام ١٩٧٦ نظّمت المعارضة تظاهرات كبرى قمعتها الشرطة بالمضارب والغاز المسيل للدموع.

رايْنر كيرش: مواليد (١٩٣٥)، كاتب شعر ونثر ومسرحيات متزوج من سارى كيرش بين ١٩٥٨ و ١٩٦٨.

هاينْتس تشيشوفْسْكي: مواليد (١٩٣٥)، يعمل في عدة مسارح، وهو ناشر وشاعر.

شيدلْيش، هانْس يوآخيم: مواليد (١٩٣٥)، قصّاص هاجر الى المانيا الاتحادية عام ١٩٧٧.

سارى كيرش: مواليد (١٩٣٥)، شاعرة، هاجرت الى برلين الغربية عام ١٩٧٧.

سايْغون: في اواخر ايار عام ١٩٧٥ غادر آخر الجنود الامريكيين فيتنام.

ستوكْهُلم (اخذ الرهائن): في الرابع والعشرين من نيسان اقتحم عناصر من جناح الجيش الاحمر السفارة الالمانية في ستوكْهولم وطالبوا باطلاق سراح سجناء شْتامْهايْم.

نيقولاس بورن: (١٩٣٧–١٩٧٩)، كاتب.

سيلاسي: الملك الاثيوبي (النجاشي منذ ١٩٢٨)، ثم القيصر (منذ ١٩٣٠)، أعطى أثيوبيا دستورها الاول، بين ١٩٣٦ و ١٩٤١في المنفى البريطاني، خُلع عن العرش ١٩٧٤.

مانْغيستو، هيلا مريام: مواليد (١٩٣٧)، ضابط وسياسي أثيوبي، له دور مهم في خلع سيلاسي، منذ ١٩٧٤ رئيس اللجنة التنفيذية للمجلس العسكري الموقت، منذ ١٩٧٧ رئيس الحكومة اسقط ١٩٩١.

١٩٧٦

كنّا نظنّ – اينما التقينا في برلين الشرقية – انّهم يتنصتّون علينا. توجّسنا بوجود اجهزة التنصّت الصغيرة في كل محل: داخل الجدران، في أضواء السقوف، في سطول النباتات. لذلك كنا نثرثر بنبرة ساخرة، نُلمّح الى عناية الدولة وتعطّشها الى الامن الذي لا يمكن ارواؤه... بِوضوحٍ وبطءٍ يسمح بتدوين الاقوال، كنا نبوح باسرار تفضح الطابع التآمري الملازم للشعر وتنسب الى الاستعمال الهادف للمضارع المنصوب مقاصد تآمرية. ونصحنا الشركة – اللقب الحميمي لجهاز امن الدولة لسلطة العمال والفلاحين – بانْ تطلب المساعدة من المنافسة الغربية (بولاخ او كولونيا)، إنْ تبيّن انّها عاجزة عن فكّ رموز تحذلقاتنا المثقّفة ومجازاتنا المنحطّة وانّ حلّ الالغاز لا يمكن إلاّ عند عبور الحدود، اي بالتعاون الالماني الشامل. كنا نتلاعب مع امن الدولة بكبرياء، مرجّحين بِجدّية او مزاح انّ في حلقتنا جاسوسا واحدا على الاقل، مطمئنين بعضنا بعضا بِودّية انّ كلّ واحد منّا مشبوه "من حيث المبدأ."

بعد ذلك بعقدين ارسل لي كْلاوس شْلْيزِنْغر بعضا من التقارير الجاسوسية المتعلّقة بلقاءاتنا التآمرية (في اواخر السبعينيات). وقد استخرج من ملفّات المصلحة التي تنشط الآن تحت الاسم "غاوك"، تقارير الـ شتازي كلّها التي تعنيه شخصيا. لكن فيها وردت حصرا معلومات نحو: من التقى بمن امام المكتبة قرب محطّة شارع فريدْريش... من استلم ممن او من سلّم لمن هدايا للترحيب، مثل زجاجات مغلّفة بورق ملوّن... بِسيارة مَن طراز ترابي (رقم التسجيل) انتقل الشخص المعني الى اين... ايّ مبنى (الشارع والرقم) دخل الاشخاص المراقبون جميعا، وفي ايّ وقت وايّ تاريخ... او: غادر الجميع المبنى المسمى بعد اكثر من ست ساعات من المراقبة... انصرفوا الى وجهات مختلفة... الغربيون بينهم الى نقطة الخروج... بعضهم بضجّة وضحك، بعد تناول كميات كبيرة من الكحول، على ما يبدو...

لا اجهزة تنصّت اذن. ولا جاسوس في حلقتنا. ولا كلمة على تمارِيننا في القراءة. ولا شيء – يا للخيبة –! حول الشعر الموزون والنثري وما فيه من موّاد متفجّرة. ولا اشارة الى ثرثرتنا التآمرية على القهوة والفطائر... هكذا لم يعلم احد بما نقله الغربيون من اخبار مثيرة حول الفيلم "سمك القرش الابيض" الذي عُرِض يومها في احدى الصالات بجوار الـ كودام. وتناثر صدى التخمينات حول المحاكمات الطويلة ضد حكام الطغمة في آثينا من دون ان يسمع احد بها. وحين قدّمتُ، انا العارف بالمواقع، لاصدقائنا تقريراً عن المعركة الدائرة حول مفاعل الطاقة النووية بروكْدورف، شارحا انّ الشرطة استعملت فيها للمرة الاولى "المضرب الكيميائي" المجرّب بِنجاح في امريكا، وطاردت بعد ذلك آلافا من المدنيين المحتجّين بِمروحيات تحلّق على انخفاض، فوّتت المصلحة الشرقية ايضا فرصة الاطلاع على فعالية الحملات البوليسية الغربية.

... او يعقل ان حلقتنا لم تأت على ذكر بروكْدورف؟ ام اننا خفّفنا عن زملائنا المعزولين وراء الحائط ولم نخدش صورتهم الوردية جدا للغرب، فوفّرنا عليهم استعمال المضرب الكيميائي والوصف المثير للاكتئاب لشرطيين ينكّلون حتى بالنساء والاطفال؟ أرجّح بالاحرى انّ بورن او بوخ او انا جئنا بموضوعية مقصودة على ذكر ذلك الغاز الذي لا يُلفظ اسمه (كلوراتسيدوفون) والذي استعمل في بروكْدورف في علب الرش، فربطنا بينه وذلك الغاز الذي درج استعماله منذ الحرب العالمية الاولى تحت الاسم "الصليب الابيض"؛ وأرجح ايضا انّ سارى او شيدلْيش شْلْيزِنْغر او رايْنر كيرش علّق على ذلك بالملاحظة إنّ شرطة الشعب ليست مزودة بهذه التكنولوجيا بعد... وإنّ الوضع سيتغيّر ما إن توافرت كمّيات كافية من العملة الصعبة... فمن حيث المبدأ قد تكون منجزاتُ الغرب غاياتٍ يصبو اليها الشرق ايضا.

تأملات لا فائدة لها... اذ لا أثر لها في اوراق الـ شتازي التي دبّرها شْلْيزِنْغر... وما لا يرد فيها، لم يكن موجودا البتة... لكن كل معلومة دُوّنت حبرا على الورق، بِذكر الزمان والمكان ومواصفات الشخص المعني، هي واقعة لها وزنها وتقول

الحقيقة... هكذا استطعتُ ان اقرأ في هدية شلْيْزينْغر – التي جاءت نسخا مصوّرة عن الاصل – انّ احدهم رافقني خلال زيارة من زياراتي الى برلين الشرقية – وكنتُ اثناءها تحت المراقبة وصولا الى باب المبنى – او بالاحرى انّ احداهنّ رافقتني: امرأة طويلة القامة وشقراء الشعر، مولودة على جزيرة هيدنْزيه في البحر البلطيقي – كما تبيّن من تقارير شرطة الحدود – تحمل معها شغل الصوف وهي غير معروفة في الاوساط الادبية، على ما ذُكر.

هكذا دخلت أوته الملفّات. ومنذ ذلك الحين هي حقيقة، وما من حلم يستطيع ان ينتزعها منّي. ومنذ ذلك الحين لم يكن عليّ ان اتيه بين هنا وهناك حيث كانت احوال البيت مضطربة. بل كنتُ اكتب فصول كتابي في ظلّها، الحامي من الرياح، احفرها في جلد سمك موسى الحجري، واواظب على القراءة، كلما اجتمعنا بالاصدقاء... مرةً قطعة غوطية عن "اسماك الرنْجة"، ومرة أخرى مثال مزخرف عن "وزر الزمن الرديء." لكن ما قرأه كلّ من شيدليش وبورن وساري وراينْر كيرش او ما قرأتُه فعلا في اماكن متبدلة، ليس واردا في اوراق شلْيْزينْغر، وليس متحقّقا بالتالي، ولم ينل بركة الـ شتازي ولا بركة مصلحة غاوك. ولي ان أرجّح، في احسن الاحوال، اني قرأتُ – بعد ان اصبحت أوته واقعةً – الاسطورة المتسلسلة "الحقيقة الاخرى" وان شيدليش قرأ علينا يوما، او في السنة التالية لها، بداية كتابه "تالْهوفر"، قصّة الجاسوس الخالد...

بولاخ: في جوار مونيخ، مركز المخابرات الاتحادية (الغربية.)

كولونيا: المصلحة الاتحادية لحماية الدستور.

كْلاوس، شلْيْزنْغر: مواليد (١٩٣٧)، كاتب، غادر ج أ د (الشرقية) عام ١٩٨٠.

المصلحة التي تنشط تحت الاسم "غاوك": مصلحة مختصّة منذ تشرين الاول عام ١٩٩٠ بالحفاظ على ملفّات وزارة أمن الدولة (شتازي.) في كانون الاول ١٩٩١صدر قانون يحقّ بموجبه لكل مواطن الاطلاع على الملفات التي تعنيه شخصيا. سُمّيت المصلحة (على نحو غير رسمي) على اسم مديرها السيد غاوك، وهو قسيس وعضو سابق في الحركة المعارضة في ج أ د (الشرقية.)

ترابي: سيارة صغيرة من انتاج ج أ د.

المحاكمات الطويلة ضد حكام الطغمة: منذ اوائل عام ١٩٧٥ جرت المحاكمات ضد بعض الضباط المنتمين الى الطغمة العسكرية اليونانية بين (١٩٦٧-١٩٧٤).

أنا العارف بالمواقع: عاش غونتر غرس يومها في فيولْسفْليت قرب بروكْدورف.

"المضرب الكيميائي": (كميكل ماس)، جهاز لرشّ الغاز المشبّع بمادّة مسيلة للدموع، استعمل لاول مرّة في ألمانيا عام ١٩٧٦ في بروكْدورف.

بوخ، هانْس كريستْوف: مواليد (١٩٤٤)، باحث في الادب الالماني وكاتب، نشر ١٩٧٩ "تقرير من داخل القلق" حول النضال ضد بناء منشآت لتخزين النفايات النووية في غورلْيبن بجوار نهر ألبه.

أوته: غراس، مولودة غرونرت.

١٩٧٧

كانت للقصة عواقبها. لكن، هل ثمة ما ليس له عواقب؟ ارهابٌ اخترع ارهابه المضاد... واسئلة بقيت بلا غطاء... فلا ازال اجهل الى اليوم، كيف وصل مسدّسان معبّآن بالذخيرة الى السجن المحصّن في شتامْهايْم، قيل فيهما إنّ بادر و راسبْه استعملاهما للانتحار، وكيف امكن لـ غودرْون أنسلْين ان تشنق نفسها بسلك مكبّر الصوت...

كانت للقصة عواقب. لكن، هل ثمة ما لم يكن له عواقب، يومها؟ وفي السنة الفائتة على سبيل المثال، نزع المواطنية عن مؤلّف الاغاني فولْف بيرمْان، الذي بات يفتقر بعد ذلك – وما إن غنّى على مسرح الغرب – الى دولة العمّال والفلاّحين المحصّنة بالاسوار لتردّد صداه. لا أزال أذكر الى اليوم زيارة قصيرة سمحت له بها دولتُه، ولا أزال اراه أمامي في شارع نيد بمنطقة فريدناو وهو يتكلّم على مائدتنا بمزاجية عن نفسه، وعن الشيوعية الحقيقية، وعن نفسه ثانية... ثمّ أراه يجرّب في محترفي عازفا على آلة الغيتار أمام جمهور محصور – أوته والاطفال الكثيرين واصدقائهم – برنامجه المحضّر للعرض الكبير في كولونيا الذي سُمح له بتقديمه... وأذكر انّنا شاهدناه في اليوم التالي يعيد البرنامج "لايْف" على شاشة التلفزيون، لانّه قد تدرّب على كلّ شيء، على كلّ صرخة ضد استبداد الحزب الحاكم، على كلّ ضحكة هازئة من جاسوسية ملكية الشعب، على كل نحيب على الشيوعية التي خانها الرفاق الحاكمون، على كل نغمة شاذة وكل حشرجة ولّدها الالم، وصولا الى كل زلقة لسان تلقائية، كل غمزة عين، كل مسحة مهرّجة او متألمة، أقول: تدرّب عليها منذ شهور وسنوات، منذ ان اصمته الحكام بمنعه من الظهور خارج كهفه (الواقع مقابل "التمثيلية الدائمة")، تدرب على العرض الكبير، رقماً رقماً، لانّ كلّ ما هزّ المتفرّجين المنصتين في كولونيا، قد ادهش في اليوم السابق الجمهور الصغير... الى ذلك الحد كان غنيا بالقصد المتدرب عليه... الى ذلك الحد كان متوخيا اصابة الهدف... وهكذا جاءت شجاعته من المسرح فعلا مجربًا.

ما إن جُرد من مواطنيته، حتى كنا جميعنا على امل ان يكون لشجاعة من ذلك النوع عواقبها، ان تثبت هذه الشجاعة نفسها في الغرب. لكنّها لم تولّد الكثير... بعد ذلك، بعد ذلك بأمد طويل، حين انقلب الحائط، كان مستاءا، لان ذلك الحدث حدث من دون مشاركته. مؤخرا كُرّم بتقليده الوسام الوطني.

بعد تجريد بيرمْان من مواطنيته اجتمعنا للمرة الاخيرة في شرق المدينة، في بيت كونرْت المليء بالقطط. في البداية أقرأنا بعضنا بعضا (كما لو تدرّبنا على ذلك)، ثم انضمّ الينا آخرون قد احتجّوا علنا على نزع المواطنية عن بيرمْان، فكان عليهم تدبّر امورهم في ظل عواقب الموقف. كانت عاقبة من العواقب ان كثيرين (ليس الجميع) رأوا انفسهم مضطرين لطلب مغادرة دولتهم. فرحلت عائلة كونرْت مع قططها. ورحل يوخن شيدلْيش وسارى كيرش مع الاطفال والكتب وعفش البيت.

وكان لذلك عواقب ايضا. لكن، أكان ثمة ما ليس له عواقب؟... فيما بعد رُحل نيقولاس بورن عنا جميعا. وفيما بعد، فيما بعد بكثير، تفكّكت صداقاتنا... أضرار التوحيد...! اما مسوّداتنا التي قرأنا منها مرة تلو مرة، فنزلت الى السوق. وسبح "سمك الموسى" ايضا حرا في مياه سوق الكتب... صحيح... وفي اواخر سبعة وسبعين مات تشارلي تشابلْن. تخطل صوب الافق وتوارى بكل بساطة ومن دون ان يترك خليفا يتبع خطّ خطواته.

بعد فشل الضغط لاطلاق سراح اعضاء جناح الجيش الاحمر المسجونين (خطف هانْس مارتين شلاير وخطف طائرة لوفتْهانزا) عُثر في ١٣/١٠/١٩٧٧ على كل من أنْدرْناس بادر ويان كارل راسبه وغودرون أنْسلين ميّتين في زنزناتهم. واثارت ظروف الحادثة شكوكا في ما اذا كان سبب موتهم الانتحار كما أُدعيَ.

بيرمْان... الوسام الوطني، فولْف: مواليد (١٩٣٦)، شاعر ومؤلف أغاني، هاجر عام ١٩٥٣الى ألمانيا الديمقراطية (الشرقية). منُع منذ ١٩٦٥ من الظهور للجمهور. نُزعت عنه المواطنية في تشرين الثاني عام ١٩٧٦ حين قام باول رحلة فنية الى ألمانيا الاتحادية (الغربية.) نال عام ١٩٩١ جائزة بوشنْر.

كونرْت، غونتر: مواليد (١٩٢٩)، كاتب، يعيش منذ ١٩٧٩ في ألمانيا الاتحادية.

١٩٧٨

معكم حقّ، غبطته، كان عليّ ان آتي من زمان واخفّف عن قلبي. لكني اعتقدت ان الطفلين سيعودان الى صوابهما. كنا واثقين انا وزوجي، فلم ينقصهما شيء وكنا نحيطهما بالحب. ومنذ ان سكنا في فيلا اب زوجي، نزولا عند رغبته على فكرة، بديا لنا وكأنهما سعيدان، او راضيان على الاقل... البيت الكبير... الاراضي الواسعة مع الاشجار القديمة... ومع أننا نسكن منعزلين قليلا، لا يبعد عنا مركز المدينة كثيرا، كما يعلم غبطته. كان رفاقهما في المدرسة يزورونهما باستمرار. وعند الحفلات في البستان كانت الاجواء مرحة جدا. وطرب لها حتى اب زوجي، الجد الذي يحبه طفلانا حبا جما. وفجأة تغيّر الاثنان. بدأت القصة بـ مارتين. لكن مونكا ظنت ان عليها التفوق على أخيها. كان الصبي فجأة حليق الرأس ما عدا ضمة من الشعر فوق الجبين، وصبغت البنت شعرها الاشقر الجميل جزئيا باللون الليلكي وجزئيا باللون الاخضر الفاقع. صح، كان يمكن التغاضي عن هذه الامور، وهذا ما فعلناه، انا وزوجي، لكن... حين جاءا بتلك الثياب القذرة، صُدمنا كثيرا، وانا اكثر من زوجي. جاء مارتين الذي كان يفضل الى ذلك الحين زي النخبة في بنطلون جينز ممزق معلق بسلسال مجنزر. وارتدى معه جاكيتاً أسودَ مخرّماً بالياً؟ مغلقاً بقفل ضخم فوق الصدر. وارتدت مونيكا ملابس جلدية رثة وأحذية مربّطة. والى ذلك كله كنا نسمع من غرفتيهما تلك الموسيقى، إن امكن تسمية هذه الضجة العدوانية موسيقى. ما إن عادا من المدرسة، حتى بدأ هذا الضجيج. ومن دون مراعاة جدنا الذي لا يحب إلاّ السكينة، كما ظننا عن طيبة خاطر؟، منذ ان تقاعد...

نعم يا غبطته، أظن ان هذا العذاب للآذان يسمى "سكْس بستْولس..." على ما يبدو، تفهمون بتلك الامور... نعم، بالتأكيد... حاولنا كل شيء... الاقناع بالكلام اللطيف، لكن بالصرامة ايضا. وعمد زوجي، وهو عادة انسان صبور جدا، الى وقف الدفعات الاسبوعية للطفلين. لكن لا شيء احفل. كان الاثنان يقضيان

وقتهما خارج البيت في صحبة رديئة. توقف رفاقهما في المدرسة، وجميعهم من عائلات راقية، عن زيارتهما. ساد عندنا الجحيم، لانهما اتيا بهؤلاء الاشكال البانْكْس، الى البيت. ما عدنا بامان منهم في اي مكان. قبعوا على السجادات. تكاسلوا في غرفة التدخين في المقاعد الجلدية... وتلك اللغة المنحطّة... نعم، يا غبطته، هكذا كانت الامور... باستمرار هذا الكلام ان ما من مستقبل... الى ان... كيف اقول لكم... الى ان جنّ جنون جدّنا... وذلك من ليلة الى ضحاها. انا وزوجي أمسينا في حالة اضطراب، لانّ اب زوجي...

تعرفونه، هذا السيد الانيق المهذب المرهف الذوق، المزين بلطف الشيوخ وروح دعابة ناعمة غير مؤذية، الذي تقاعد عن شؤونه المصرفية فصار يعيش لحبه للموسيقى الكلاسيكية ولا يغادر غرفته إلاّ نادرا فيجلس بين الحين والاخر على مصطبة البستان، غارقا في الافكار وكانه ترك الخبير المالي الرفيع المستوى وراءه تماما – تعرفون، غبطته انه كان من الكوادر القائدين في البنك الالماني –، هو الذي لا يتكلم عن نفسه وعمله الطويل – وهو التكتم بعينه – اذ حين سألتُه مرة بعد زواجي بقليل عن نشاطه المهني اثناء زمن الحرب المرعب، أجابني على طريقته بسخرية خفيفة "إن ذلك يبقى من الاسرار المصرفية" وحتى أرْفين الذي يعمل ايضا في الشؤون المصرفية، لا يعرف إلاّ القليل عن محطات طفولة ابيه وعن صيرورته، وكما ذكرت غبطته صار من يوم الى الثاني انسانا آخر...

تخيلوا: فاجأنا، لا بل صدمنا عند الفطور بهذا الزي الفظيع. حلق شعره الأشيب الجميل، الذي ظل كثيفا مع تقدم عمره، ما عدا شريطا من الشعر الشعث في منتصف الرأس، ثم صبغ البقية البائسة باللون الاحمر الثعلبي. ويرتدي مع زينة الشعر هذه ملابس ملائمة حقا: قميصا رقعه، على ما يبدو سراً، من قطع قماش بيضاء وسوداء وبنطلونه القديم الذي كان يلبسه من زمان في جلسات الهيئة الادارية. بدا مثل سجين. وكانت ملابسه كلها مثبتة بدبابيس مشبك، حتى فتحة البنطلون. كذلك خرم اذنيه – لا تسألوني كيف –... بدبوسين كبيرين جدا. اضافة الى ذلك حصل من محل ما على زوجين من الكلبشات التي يلبسها عند الخروج

وحسب.

اجل، غبطته، ما من احد استطاع ان يقف بوجهه. كان خارج البيت باستمرار وصار مهزلة الناس، ليس هنا في رات وحسب، بل، على ما قيل لنا، في مركز المدينة وشارع الملك ايضا. وهكذا تجمّعت حوله بعد حين ثلة من هؤلاء الـ بانكس، فعاث معهم في المنطقة وصولا الى غيرسهْايْم شمالا... لا، غبطته، حتى عندما وبّخه أرفين، كان يقول: "يخرج السيد أبس الآن. على السيد ابس ان يتولى مصرف بوهيميا الاتحادي وبنك فيينا. اضافة الى ذلك على السيد أبس ان يؤاري قريبا بعض الدور التجارية الشهيرة في باريس وامستردام. وطُلب الى السيد أبس ان يعالج هذه الامور بتكتّم وذوق كما سبق له ان عالج قضية مصرف مندلسُن. يُشهد للسيد ابس بتكتّمه وهو يرجو ألا يُلحّ عليه بالاسئلة..."

كان علينا ان نسمع تلك العبارات وغيرها يوميا، غبطته. صحيح كما تقولون. ان جدّنا اقتبس شخصية رئيسه السابق الذي كان معه على اوثق علاقة، لا خلال مرحلة اعادة الاعمار في السنوات ما بعد الحرب وحسب، بل، على ما يبدو، خلال سنوات الحرب ايضا... اجل اعني هرمان يوسف أبس الذي كان له يوما ان يقدّم المشورة لرئيس الاتحاد في المسائل المالية المهمة. وهو يتخيل باستمرار ان عليه ان يعمل وسيطا للسيد آدناور في حل مسائل التعويض الحرجة، إن تعلقت بالدفعات المتوجبة على الشركة بالمزيد من المطالب من قبل اسرائيل. فيقول: "إن السيد أبس يرفض المطالب كلها. وسيضمن ان نبقى اقوياء ماليا..." كلما كان يغادر الفيلا، نادى به اولئك الـ بانكس القذرون بذلك اللقب: "بابا أبس!" وكان يطمئننا مبتسما: "لا داعي للقلق. إن السيد ابس يقوم برحلة مهنية."

والطفلان؟ لن تصدقوا، غبطته. انهما شفيا بين ليلة وضحاها... الى ذلك الحد صدمهما جدّنا: مونكا رمت ملابسها الجلدية وتلك الأحذية المربوطة القبيحة الى سطل الزبالة. وهي تحضر نفسها الآن لامتحان الباكالوريا. ومارتْين عاد واكتشف ربطات عنقه الحريرية. وهو يريد، كما عرفتُ من أرفْين، ان يسافر الى لندن ويدرس في الكوليج. فإن صرفنا النظر عن النتائج المأساوية علينا ان نكون

ممتنّين للسيد العجوز على انه اعاد حفيديه الى رشدهما.

بالتأكيد، غبطته. تعذّبنا كثيرا حتى اتخذنا ذلك القرار الذي يبدو قاسيا، كما اعلم. قضينا ساعات طويلة نتشاور مع الطفلين لايجاد حل. أجل، إنه الآن في غرافنبْرغ. صحيح، كما تقولون... للمؤسسة سمعة طيبة. نزوره بانتظام. بالتأكيد، الطفلان ايضا. لا ينقصه اي شيء. لكن، للاسف، لا يزال يدّعي انه "السيد ابس..." إلا انه يخالط المرضى الآخرين، كما أكد لنا احد المرضين... ومؤخّرا صادق مريضا ينتحل شخصية آدناور. ويُسمح للاثنين بان يتمتّعا بلعب البوكاجيا.

"سكْس بسْتلْز": فرقة بانْك انكليزية ١٩٧٧-١٩٧٩.

بانكس: ظهر الـ بانك في السبعينيات في بريطانيا في اوساط شبيبة الطبقات الفقيرة العاطلة عن العمل. رأى هؤلاء الشباب ان العالم منحط ولا مستقبل لهم، فاعلنوا عن رفضهم للمجتمع بسلوك استفزازي وملابس مرقعة وشعر مصبوغ بالوان فاقعة. انتشرت الظاهرة في المانيا بين عامي ١٩٧٧ و١٩٧٨. على خلاف بريطانيا، تحدر قسم كبير من انصارها في ألمانيا من عائلات برجوازية.

المصرف الالماني: اكبر مصرف الماني للقروض الشخصية أُسّس عام ١٨٧٠.

دبابيس مشبك: ادرجتها الفرقة المذكورة كماليات لمظهر الـ بانك.

أبس، هرمان يوسف: (١٩٠١-١٩٩٤)، منذ ١٩٣٨ عضو في رئاسة المصرف الالماني، بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٦٧ الناطق باسم رئاسة المصرف، بين ١٩٦٧ و ١٩٧٦رئيس هيئته الادارية.

I. G. Farben اتحاد لشركات الصناعة الكيميائية تشكّل عام ١٩٢٥، أعضاؤه بايْرن هوشْسْت ب أ س ف واخرى. في صيف ١٩٤٥ صادرت قوات الاحتلال الاربع اموال الاتحاد كلها. في القطاعات الغربية تأسست فيما بعد ١٢ شركة متفرعة من الاتحاد.

١٩٧٩

دعك من هذه الاسئلة كلها...! وماذا تعني بـحبّي الحقيقي؟... أنت حبّي طبعا، انت كْلاوْس شتيفان العصبي الغيور، في حين انّي...

حسنا... حتى نخلص من الموضوع... أعتقد ان ما تقصده بالحبّ هو شيء يشبه حالة خفقان القلب وتعرّق اليدين وتلعثم اللسان ما قبل الهذيان... أجل، مرةً احسستُ بذلك، حين كنت في الثالثة عشرة من عمري. وستندهش بالتأكيد اذا قلتُ لك اني أغرمتُ يومها بسائق منطاد، أغرمت به الى حد الاغماء... او أغرمتُ بالاحرى بابن سائق منطاد، او بالابن الاكبر لاحد السائقين... فيومها – متى كان ذلك؟ قبل اثنتي عشرة سنة، في منتصف ايلول – طار رجلان مع عائلتيهما بمنطاد من منطقة تورينْغن الى الشطر الآخر في فرانْكن. لا، لم تكن رحلة للتنزه! انك لا تفهم شيئا، او لا تريد ان تفهم. اجتازوا الحدود. بجسارة فوق الاسلاك الشائكة، والالغام ومعدات اطلاق النار، وشريط الموت، وطاروا الينا مباشرة. كما تذكر، كنتُ اعيش في نايْلا، قرية في منطقة فرانْكن. وعلى بعد خمسين كيلومترا عنا او اقل، تقع بوسْناك، البلدة التي هربت منها العائلتان، وهي كانت يومها جزءا من ألمانيا الاخرى. نعم، كما قلتُ لك: بواسطة منطاد، او بالاحرى بمنطاد خاطوه بانفسهم. وصارت قريتنا شهيرة بفضل هذا الحدث وانتشرت اخبار نايْلا في الجرائد والتلفزيون، لانَ المنطاد هبط عندنا... لا على عتبة البيت، لكن على المروج في ضواحي القرية... وفيه اربعة كبار واربعة اطفال. احدهم فْرانك، صبي في الخامسة عشرة من عمره... وهو الذي أغرمتُ به... واعني حالا، حين كنّا نحن الاطفال الآخرين، واقفين وراء الحاجز نتفرّج كيف تصعد العائلتان مرة ثانية الى سلة المنطاد... ويلوّحون لكاميرات التلفزيون نزولا عند رغبة الصحفيين... إلاّ فرانكي... ظل جامدا... انحرج وزهق من الطنطنة... أعني التصنّع لأجل وسائل الاعلام. كان يريد النزول من السلة، لكنه مُنع من ذلك. اما انا فأغرمت به حالا. كنت اريد ان اذهب اليه او ان ابتعد عنه. بالضبط، كانت تلك القصة مختلفة عن

قصتنا التي تطورت تدريجيا وافتقرت الى التلقائية. لكن قصتي مع فرانك كانت حبّا من النظرة الاولى. على مؤكد... تحدثتُ اليه! أعني، ما إن خرج من سلة المنطاد حتى وجهت اليه الكلام. أما هو فكان قليل الكلام... خجولا ومكبوتا الى حد ما ولذيذا فعلا... لكنّي الححتُ عليه واردت ان اعرف كل شيء، اعني القصة كلها من الاول الى الاخير... كيف قامت العائلتان بمحاولة اولى قد فشلت... يومها ساد الضباب، فتبلّل المنطاد وهبط قبيل الحدود، فاحتار الجميع: اين نحن؟... كانوا محظوظين بان لم يقبضوا عليهم في الشرقية... ثم قص علي فرانْك تتمة القصة... كيف لم يستسلم افراد العائلتين، بل عادوا اشتروا قماشا خاصا بمعاطف المطر من محلات متفرقة على طول جمهورية المانيا الديمقراطية السابقة وعرضها... وعلى الارجح لم يكن ذلك سهلا يومها... في الليالي كان الرجلان والمرأتان يخيطون المنطاد الجديد قطعة قطعة على ماكنتي خياطة. لذلك ارادت شركة سنْجر فور فرارهم الناجح ان تهدي لهم ماكنتين حديثتين على الكهرباء، اذ ساد الاعتقاد ان المنطاد قد صُنع على ماكينات عتيقة تشتغل على طاقة الرِجل... لكن ذلك كان غير صحيح... كانت ماكنتان من انتاج شرقي... وعلى الكهرباء ايضا... ما من هدايا فخمة اذن... طبعا، لان الدعاية كانت ستفقد معناها... ولا يُعطى شيء مقابل لا شيء... على كل حال كان يحكي لي فرانك هذه الحكاية كلها بالتدريج، كلما التقينا سرا على المروج قرب الغابة حيث هبط المنطاد. في الحقيقة كان خجولا ومختلفا كليا عن الصبيان هنا في الغرب. تسألني عما اذا تبادلنا القبلات؟ ليس في البداية، لكن فيما بعد. حينذاك بدأت المشاكل مع أبي. اذ كان على رأي – ومعه بعض الحقّ – ان كبار العائلتين تصرفوا بلا مسؤولية وعرّضوا عائلتيهما للخطر. لكني لم اقتنع بذلك. بل قلتُ لأبي، وكان معي حق ايضا: إنَك تغار، لان هذين الرجلين خاضا مجازفة تخاف انت منها بالتأكيد... ما هذا! الآن يريد حبيب قلبي العزيز كلاوس شتيفان ان يلعب ايضا دور الغيور، يريد ان يتشاجر معي او ينهي العلاقة بيننا، كما سبق له ان هدد بذلك... لمجرد اني... قبل سنوات... حسنا، اذن: ت اكذب. كل ما قلتُه هو من اختلاقي. فلما كنتُ في الثالثة عشرة من عمري كنت

خجولة جدا ولم اجرؤ على التحدث الى الصبي. كنت انظر اليه، لا اكثر. فيما بعد ايضا، حين كنت اراه في الشارع. فهو صار تلميذا في مدرسة نايْلا الرئيسة التي تقع في جوار بيتنا. في شارع البن – كلوفر الذي لا يبعد كثيرا عن المروج التي هبط فيها المنطاد... فيما بعد غيّرنا محل سكننا، نعم، انتقلنا الى أرلانْغن، حيث حصل أبي على عمل عند زيمنْس في قسم ترويج المنتجات... لكن فرانك... لا لم اكن مغرمة به قليلا، بل كنت أحبّه حبّا حارّا وشغفا، إن أعجبك الامر ام لا... حتى لو لم يحصل بيننا اي شيء... لا أزال أحبّه... وإن كان فرانك لا يعلم بذلك على الاطلاق.

في ليلة الخامس عشر من ايلول عام ١٩٧٩ فرّت عائلتان متألفتان من ثمانية اشخاص بمنطاد قد صنعوه بانفسهم من جمهورية ألمانيا الديمقراطية الى ألمانيا الاتحادية. وكان اكبر الاطفال سنا في سلة المنطاد هو الصبي فرانك الذي بلغ يومها الخامسة عشرة من عمره.

١٩٨٠

من بون الى هنا مسافة قصيرة، لا اكثر... قالت لي زوجته على الهاتف. ليس لديكم فكرة، حضرة السيد سكرتير الدولة، عن مدى سذاجة هؤلاء الناس ولطفهم. "لماذا لا تأتي بنفسك في زيارة قصيرة، لترى كيف تمشي الامور عندنا من الصباح الى المساء والخ..." فرأيت نفسي كمدير القسم المختص مجبرا على معاينة الامر، وعلى الاقل، من اجل رفع تقرير اليكم، وقت الحاجة. وعلى فكرة، لا يبعد المكان فعلا عن دائرة الخارجية سوى "مسافة قصيرة..."

لا لا... إن المركز، او ما يسمّى بـ"المركز"، موجود في مبنى من تلك المباني السكنية العادية. وهناك يظنون ان بامكانهم التدخل في مجريات العالم بقرارات سريعة او ممارسة الضغط علينا للتحرك وقت الحاجة. وهكذا اكدت لي زوجته بانها قادرة على "تدبر الامور التنظيمية كلها"، رغم اشغال البيت والاطفال الثلاثة الصغار. تفعل ذلك، على حد قولها، "بالاصبع الصغير" وهي باستمرار على اتصال بالسفينة المعنية في البحر الصيني الجنوبي وتوزّع في الوقت عينه اموال التطوّع التي لا تزال تتدفّق بغزارة. قالت، همّهم الوحيد هو حلّ المشاكل معنا، مع "البيروقراطية." ما عدا ذلك تتكل على شعار زوجها "كونوا عقولين وجازفوا باللامعقول!"، الذي لقطه قبل سنوات في باريس، اي ثمانية وستين حين كان الطلاب لا يزالون يجازفون والخ. قالت انها تنصحني، اي دائرة الخارجية، باتباع هذا الشعار ايضا... اذ من دون جرأة سياسية سيغرق المزيد من ركاب المراكب او سيموتون جوعا على جزيرة الجراذين بولاو بيدونغ. على كل حال، قالت، يجب ان يسمح للسفينة المتوجهة الى فيتنام التي استأجرها زوجها لعدة اشهر بفضل تقدمات مالية كبيرة، بان تستقبل ايضا لاجئين من سفن اخرى، وعلى سبيل المثال اولئك المساكين الذين إلتقطتهم سفينة الشحن الدانماركية من خط مَرْسك. وهذا ما تطالب به. فهذا واجب على الانسانية والخ.

بالطبع، حضرة السيد سكريتير الدولة، لفتُ نظر السيدة الى الوضع، اكثر من

مرة وحسب الترشيدات. فاتفاقية قانون البحر العائدة الى العام ١٩١٠ تضم في النهاية الارشادات الوحيدة التي يمكن لنا ان نعتمدها في هذا الوضع الحرج. وهي تنص، كما اكدتُ لها مرارا وتكرارا، على ان جميع القباطين ملزمين باستقبال المنكوبين، لكن الموجودين منهم في الماء حصرا، وليس الموجودين على متن سفن اخرى كما هو الحال في قضية سفينة الشحن مرسك مانغو التي تبحر تحت علم سنغافورة الرخيص واستقبلت اكثر من عشرين منكوبا، تريد ان تتخلص منهم الآن... على الفور... لانها تحمل، حسب الخبر اللاسلكي الوارد منها، فواكه قابلة للتلف ولا يمكن لها تغيير وجهتها. ومع ذلك اكدتُ لها مرارا ان نقل هؤلاء المنكوبين الناجين الى سفينة كاب أنامور هو انتهاك لقانون البحر الدولي.

ضحكت مني وهي واقفة قرب الفرن تقطع الجزر وتضعها في قدر الطبخ. قالت ان هذه القوانين عائدة الى زمن التايْتنك. اما الكوارث الحالية فلها ابعاد اخرى. وعلينا ان نحسب منذ الآن حساب ثلاثمائة الف لاجيء ماتوا غرقا او جوعا. وحتى لو قلنا ان كاب أنامور استطاعت الى الآن ان تنقذ المئات، لا يمكن الاكتفاء بذلك... وحين اعترضتُ عليها مشيرا الى ان هذه الارقام تقديرات غير دقيقة، اسمعتني: "ما هذا الكلام! لا يهمني اطلاقا ما اذا كان بين اللاجئين تجار في السوق السوداء او قوّادون او مجرمون او متآمرون مع الولايات المتحدة..." إن جميع هؤلاء بالنسبة لها بشر يغرقون يوميا، في حين ان دائرة الخارجية والسياسيين عامة يتمسكون بمراسيم تعود الى قديم الزمان. قبل سنة واحدة فقط، حين بدأت المأساة، ظهر بعض من امراء البلدان في هانوفر وميونيخ واستقبلوا على شاشة التلفزيون عدة مئات من "ضحايا الارهاب الشيوعي"، كما قيل يومها، لكن اليوم يتكلم الجميع بلا حياء على لاجئين اقتصاديين واستغلال حقّ اللجوء...

لا، يا سيد سكرتير الدولة، لم استطع ان اهدئَ السيدة الكريمة. أعني، انها لم تكن منفعلة، بل منشرحة ورزينة بالاحرى، وناشطة في الوقت عينه، امام الفرن في طبخ اليخنة – "خضراوات على لسان خروف"، على حدّ قولها – وعلى الهاتف... الى

ذلك، لم ينقطع سيل الزوار... بينهم أطباء يعرضون خدماتهم... مناقشات طويلة حول قائمة الانتظار، تحمل المناخ الاستوائي، تطعيم وقائي، الخ... وبين هذا وذاك الاطفال الثلاثة. كما ذكرتُ، كنت واقفا في المطبخ. اردت الانصراف، لكني لم انصرف. لم اجد كرسيا فارغا للجلوس. عدة مرات طلبتْ اليّ أن احرّك اليخنة بملعقة خشب بينما كانت تتكلم في الصالون على الهاتف. حين قررتُ اخيرا ان اجلس على سلة الغسيل، لم انتبه الى اللعبة الموضوعة عليها، فقعدتُ على البطة المطاطية التي اصدرت صريرا بائسا اضحك الجميع. لا، كان الضحك خاليا من التهكم او السخرية. فهؤلاء الناس، يا حضرة سكرتير الدولة، يحبون الفوضى. وقالوا لي ان الفوضى تزيد من ابداعهم. نتعامل في هذه القضية مع مثاليين لا يحفلون البتة بالمراسيم والقوانين القائمة والخ. بل انهم مقتنعون – مثل هذه السيدة الكريمة في بيتها العادي – اقتناعا راسخا بانهم قادرين على تحريك العالم. في الحقيقة وجدتُهم جديرين بالاعجاب، مع اني لم أكن مرتاحا للعب دور مَن يتصرّف على نحو لاانساني ومن عليه ان يرفض باستمرار، لكونه ممثلا لدائرة الخارجية. فبلا شك، ما من امر آخر يثير التبرّم اكثر من رفض المساعدة.

لحظة الوداع اقبلت عليّ طفلة من الاطفال وقدمت إليَّ البطة المطاطية المصرَّة هديةً، قالت: انها تعرف السباحة. واثار ذلك عاطفتي وحرجي ايضا.

زوجته: كريستْل نويدْك، زوجة روبرْت نويدْك، مؤسس اللجنة الالمانية "سفينة من اجل فيتنام". بدأت اللجنة عملها في عام ١٩٧٩. بين عام ١٩٧٥، سنة مغادرة الجيش الامريكي فيتنام، وعام ١٩٨٠ هرب اكثر من مليوني نسمة من فيتنام – معظمهم عن طريق البحر – للنجاة من الظروف المعيشية اللاانسانية. بلغت موجة اللاجئين ذروتها بين ١٩٧٩ و ١٩٨٠.

كونوا عقولين...: شعار غرافيتي منقوش على الحيطان في باريس.

جزيرة الجراذين بولاو بيدونغ: احتشد عليها ٣٥ الف لاجيء فيتنامي على كيلومتر واحد مربع.

كاب أنامور: سفينة استأجرتها اللجنة المذكورة.

أمراء البلدان: رؤساء وزارات بلدان الاتحاد الالماني.

يمكن لك ان تصدقيني، يا روزي، احرجتني الرحلة... لم ار يوما هذا العدد الكبير من صلبان الفرسان... رأيتُ صليبا واحدا فقط: حول رقبة عمي كونْراد على صورة فتوغرافية له... أما هناك فكانت تتدلّى كميات من الصلبان، حتى الممتازة منها المزيّنة باغصان البلوط، كما شرحت لي جدتي بصوت عال لانها قليلة السمع، وهي واقفة الى جانبي في المقبرة... فهي التي قد ارسلت إليَّ تلك البرقية: "سافر حالا الى هامبْورغ. واركب قطار المدينة الى المحطة الاخيرة في اومولِه. هناك سيجد اميرنا البحري مقرّه الاخير..."

طبعا، كان علي الحضور. لا تعرفين جدتي! حين تقول "حالا"، لا تقبل اي جدل... مع اني لا أسمح لاحد بان يفرض عليّ شيئا ما، وانا منتم، كما تعلمين، الى مشهد محتلي البيوت في كرويتْسْبِرْغ حيث علينا ان نتوقع كل يوم ان يرسل هذا الـ لومر الينا شرطته: مفرزة الطرد في شارع هيرمسدْورف. على كل حال، احسستُ بالاحراج، حين اريت البرقية لجماعتي السكنية. طبعا، صاروا يسخرون: "امير البحر الاكبر...!" على كل حال، كنتُ واقفا الى جانب جدتي، بين اولئك الاجداد كلهم الذين صفوا سياراتهم من طراز مرسيدس امام المقبرة... كانوا يصطفّون على جانبي الطريق على شرف المرحوم – كما قالت جدتي – من الكنيسة الصغيرة الى القبر... وكل ثان منهم متقلّد صليب الفرسان المعلق حول الرقبة، فوق الملابس المدنية. كنت أحسّ بالبرد. اما الاجداد، فكان معظمهم لا يرتدون المعاطف، مع ان الثلج غطى المكان والطقس كان بارداً رغم شروق الشمس. لكنهم كانوا يلبسون قبعات خاصة بالبحرية.

كان جميعهم من طواقم الغواصات، شأنهم شأن الرجال الكهول الذين حملوا النعش الحاوي على جثمان امير البحر الاكبر – والمغطّى بقماش العلم الاسود والاحمر والذهبي – ومرّوا به امامنا بخطوات بطيئة... شأنهم شأن شقيقَي ابي الذي كان في النهاية عنصرا في الدفاع المدني "الهجوم الشعبي" وحسب، في حين

ان الاثنين كانا ايضا على متن الغواصات: اولهما قُتل في البحر الجليدي والثاني في المحيط الاطلسي، او، على حد قول جدتي المفضل، انهما يرقدان رقدهما الاخير في "قبر البحارة البارد." ترقى الاول الى ما يشبه رتبة القبطان، وكان الثاني، اعني عمّي كارل، مجرد بحّار متفوق.

لن تصدّقيني، يا روزي. يقال ان ما يقرب من ثلاثين الفا غرقوا يومها على متن خمسمائة غواصة... كلهم بامر امير البحر الاكبر هذا، الذي كان في الواقع مجرما حربيا. هذا ما يقوله ابي، على كل حال. ويقول ايضا ان معظمهم، وشقيقَيه ايضا، ركبوا "هذه النعوش السابحة" طوعا. ويحس ابي ايضا بالحرج، حين تمارس جدتنا طقوسها قبيل اعياد الميلاد، "من أجل ابنائها الابطال الاموات"، فيتشاجر معها باستمرار... وانا الوحيد الذي يزورها احيانا في أكرنفْورده. تعيش هناك في بيتها وتبجّل من زمان امير البحر الاكبر، وظلت على عادتها بعد الحرب ايضا... لكن ما عدا ذلك، لا تشكو جدتنا من شيء. وفي الحقيقة اتفاهم معها على نحو افضل مما اتفاهم مع ابي الذي لا يوافق على احتلالنا للبيوت. لذلك ارسلت جدتي برقيتها اليّ، ولم ترسلها الى ابي، نعم ارسلتها الى شارع هيرمسدْورف رقم ٤، حيث نقيم منذ اشهر بمساعدة بعض المتعاطفين – اعني اطباء ومعلمين يساريين ومحامين – واسّسنا وفرشنا كل شيء على نحو مريح. طبعا، لم يتحمّس هيربي وروبي، افضل صديقيّ، كما كتبت لك مؤخرا، حين أريتُ لهما البرقية. "هل جننت"!، قال هيربي وانا أهيِّيء اغراضي. "واحد نازي قديم بالناقص!" لكني قلت: "لا تعرفان جدتي. حين تقول تعال حالا، لا تقبل اي اعتذار."

وفي الحقيقة انا مسرور باني شاهدت على التمثيلية في المقبرة – صدّقيني، يا روزي – حضر الجميع تقريبا الذين نجوا من حرب الغواصات. بدا المشهد فكاهيا ومروّعاً قليلا ومحرجا ايضا، حين غنّى الجميع حول القبر ومعظمهم يبدون وكأنهم لا يزالون في مطاردة العدو ويبحثون في الافق عن ذيل من الدخان... وغنَت جدتي ايضا بصوت عال جدا، طبعا... في البداية... "فوق كل شيء في العالم" ومن ثم "كان لي رفيق." كان المشهد مروّعا حقا. والاسوأ ان بعضا من شباب

الطبول اليمينيين احتشدوا هناك ايضا، بجوارب الى الركبة في ذلك الصقيع! وامام القبر القوا خطبا، حول شتى الامور خاصة حول الاخلاص والوفاء. لكن النعش نفسه كان مخيبا للامل. كان نعشا عادي المظهر. وتساءلت: أ لم يكن من الاجدر لو صنعوا له نعشا خاصا على شكل غواصة صغيرة، من الخشب طبعا، لكن مصبوغا مثل سفينة حربية... ولو دفنوا امير البحر الاكبر فيه؟

بعد ان غادرنا المكان ورجال صلبان الفرسان قد انطلقوا بمرسيدساتهم سألتُ جدتي التي دعتني في محطة القطارات الهمبورغية لتناول البيتسا ووضعت في جيبي ما يزيد عن مصاريف السفر: "أتعتقدين حقا، يا جدتي، ان قصة العم كونْراد والعم كارل وقبر البحارة تستأهل الثمن الذي دفعوه؟ "بعد ذلك أحسستُ بالاحراج لطرحي عليها هذا السؤال المباشر. ظلت صامتة لدقائق، ثم قالت: "ايه يا بنيّ، لا بد ان تكون لها معنى ما..."

كما تعرفين منذ فترة: لقد خلعتنا مرتزقة لومر فور عودتي الى البيت... بالقوة والقضبان. الآن احتللنا في كروتسيْرغ بعض البيوت الاخرى وجهّزناها. ترى جدتي ايضا ان قصة البيوت السكنية الكثيرة الفارغة فهي "فضيحة كبيرة." لكن، اذا اردتِ، يا روزي يمكن لنا، اذا خلعوني مرة اخرى، ان نسكن عند جدتي، في بيتها الصغير. قالت ان ذلك سيسعدها كثيرا.

صليب الفرسان: اعلى وسام للبسالة في الحرب العالمية الثانية، على شكل قلادة حول العنق.

أمير البحر الاكبر: كارل دونيتْس (١٨٩١–٢٤/١٢/١٩٨٠) في الحرب العالمية الاولى قائد غواصة، منذ ١٩٣٦ قائد أسطول الغواصات، منذ ١٩٤٣ امير البحر الاكبر وبصفته قائدا اعلى للبحرية الحربية على تعاون وثيق مع هتلر الذي عيّنه بموجب وصيته خليفة له. شكّل في الثاني من ايار ١٩٤٥ حكومة "قائمة بالاعمال." أعتقل في اواخر ايار ١٩٤٥ من قبل الانكليز وحكمت عليه في عام ١٩٤٦ محكمة حربية دولية في نورنْبرغ بالسجن لمدة عشر سنوات.

مشهد محتلي البيوت: رغم الازمة السكنية بقيت في اوائل الثمانييات بيوت كثيرة في المدن الالمانية فارغة. احتجاجا على هذا الوضع تشكّل مشهد محتلي البيوت: عمد الشباب الى احتلال بيوت غير مسكونة تدهورت احوالها، وقاموا بتجديدها لتكون صالحة للسكن.

لومر، هاينْرِش: سياسي يمثل حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي، يومها مسؤول الداخلية في برلين. اشتهر بردّه العنيف على محتلي البيوت.

"الهجوم الشعبي": انظر عام ١٩٤٦.

"فوق كل شيء في العالم": انظر عام ١٩٥٤.

"كان لي رفيق": أغنية معروفة للجنود.

بصرف النظر عن سوء الفهم الذي اثاره، على ما يبدو، استشهادي بالـ"ألبيون الغادر"، فاني راض عما كتبتُه من شهادة تقنية لترسانة السفن هوفالت ولفرع تقنية البحرية التابع لشركة ...AEG في فيدل، تحت العنوان "نتائج حرب فولكْلاند"، وذلك حتى عند معاينتها من منظور الحاضر.

فلو فرضنا جدلا ان الغواصتين من طراز ٢٠٩، اللتين صدّرتهما الترسانة الى الارجنتين – ويعدّ نظامهما الطوربيدي الالكتروني قويا وفعالا للغاية – نجحتا عند استخدامهما ضد الـ تاسك فورس الانكليزية دفعة واحدة، واغرقتا، على سبيل المثال، حاملة الطائرات إنْونْسِيبِل وحاملة القوات كوين اليزابيث... لكان لهذا النجاح المزدوج عواقب وخيمة جدا بالنسبة الى الحكومة الاتحادية، رغم موقفها الايجابي المعلن من قرار الحلف الاطلسي المزدوج وبغض النظر عن تبديل رئيس الحكومة المستحق يومها... لقيل "أنظمة الاسلحة الالمانية تثبت فعاليتها ضد الحلفاء الاطلسيين"!

"إن ذلك أمر غير معقول"!، كتبتُ في تقريري واشرت في الوقت عينه الى ان اغراق المدمرة شفيلد والسفينة الحربية سير غالاهاد بواسطة طائرات ارجنتينية من صنع فرنسي لم يكن ليخفّف من وطأة نجاح محتمل تحرزه غواصات من صنع الماني... بل إن المعاداة لالمانيا، المبطنة والمخفية بصعوبة، كانت ستظهر في بريطانيا علنا بلا شك... ومعها اللقب "الهون" الذي اطلقوه علينا منذ زمان.

لحسن الحظ، كانت زالتا، غواصة هوفالت الاولى، وقتَ اندلاع حرب فولكْلانْد راسية في الميناء لعطب في المحرك بينما استخدمت الثانية، سان لويس، لكن بطاقم غير مؤهل، اذ تبين انهم عجزوا عن تشغيل انظمة توجيه الطوربيد الالكترونية المعقدة من شركة ...AEG. "وهكذا – كتبتُ في شهادتي – نجت البحرية البريطانية، ونجونا نحن كأمة، ببعض الذعر من تجربة فادحة"، مع العلم ان الانكليز، شأنهم شأننا، لا يزالون يذكرون معركة فولكلاند الاولى التي وقعت في الثامن من كانون

الاول عام ١٩١٤، وفيها دمّرت القوة البحرية البريطانية المتفوقة الاسطولَ الشرق آسيوي الالماني، الناجح الى ذلك الحين تحت امرة نائب أمير البحر الاسطوري الكونْت فون شپْيه غير أنهم يستذكرونها معركة المجد.

لتدعيم ما دوّنته من تقييمات في شهادتي التي تتجاوز تقنية الاسلحة لانها مؤسّسة على اوجه تاريخية، اضفت الى تحليلي الحيادي – وذلك قبل ثماني سنوات، حين كان على شمْيت ان يرحل وبدأت العطفة مع كول – نسخةً مصورة للوحة زيتية. انها "قطعة بحرية"بريشة الرسام البحري المعروف هانْس بورتْ، تصوّر اغراق طرادة في مجرى المعركة المذكورة. بينما تغرق السفينة من ناحية المؤخرة في خلفية اللوحة، يطفو في مقدمة اللوحة بحّارٌ الماني يتمسّك بقضبةٍ خشبية ويرفع باليد اليمنى علَمًا – علم المدرّعة الغارقة على الارجح – بايماءة مؤثرة لا تنسى.

انه، كما ترى، علَمٌ خاص. لذلك، ايها الصديق والزميل، اكتب لك مسترسلا ومتذكرا الماضي... اذ يمكن التعرّف في اللوحة على علم الرايخ الحربي الذي عاد مؤخرا الى الظهور على مسرح الاحداث خلال تظاهرات يوم الاثنين في لايبْتْسغ. للاسف شهدنا اثناءها مشاهد عنف بشعة. واني اتأسف على ذلك. فكما اقترحتُ في شهادتي، التي طُلبتْ منّي في صدد صيرورة التوحيد، وحسبما بيّنتُ في عرضي للوضع، كان يجب تبديل الشعار قليل المعنى: "نحن الشعب"! بالنداء الدافع السياسة نحو النجاح الجلي: "نحن شعب واحد"! بطرق سلمية ومتحضّرة. أما من ناحية اخرى، فلنا ان نفرح من ان اولئك الشباب الصلعان والمصمّمين على الاقصى – المعروفين عامة بـ سكْنْهادز – نجحوا باعلام الرايخ الحربية التي حصلوا منها على كميات كبيرة، في السيطرة على مشهد الاثنين اللايبْتْسغي دفعة واحدة، وفي التأكيد على النداء الى وحدة المانيا، وإن بصراخهم العالي...

هكذا يتضح لنا ان التاريخ قد يفضل اللف والدوران. وعلينا ان نسعفه احيانا. لحسن الحظ، تذكّرتُ في خير الاوان شهادتي السابقة حول حرب فولكلاند واللوحة البحرية المذكورة. يومها برهن موقف السادة من شركة ...AEG على انهم،

كالعادة، مفتقرون الى اي علم تاريخي وبالتالي الى اي فهم لقفزتي الزمنية الجريئة. لكن الآن قد يستدركون، على الارجح المعنى العميق لعلم الرايخ الحربي. ويمكن لنا ان نراه في اعداد متزايدة. يرفعه الشباب القادرون على التحمّس للقضية. ومنذ ان صارت الوحدة مضمونة، لي ان اقرّ لك، يا صديقي العزيز بانّي كلّي فخر لانّي ادركت اشارة التاريخ واسهمت بشهادتي في اسعاف الوطن، حين دار الامر على تذكر القيم الوطنية واظهار العَلَم اخيرا للعيان كله...

...الـ ألبيون الغادر: ألبيون هو اسم قديم لانكلترا. درج الشعار عام ١٧٩٣ في فرنسا، بعد انضمام بريطانيا الى التحالف المعادي لفرنسا. اعيد استعماله في ألمانيا في عهد القيصر و" الرايخ الثالث".

قرار الحلف الاطلسي المزدوج: في قانون الاول عام ١٩٧٩ قرر وزراء الخارجية والدفاع للدول الاعضاء في الحلف الاطلسي تحديث الاسلحة الامريكية متوسطة المدى الموجودة في اوربا وتركيب المزيد من صواريخ بيرشينغ ٢ وكروس ميسايلز في مختلف الدول الغربية، في حال رفْض الاتحاد السوفياتي نزع انظمة الاسلحة متوسطة المدى المركبة منذ عام ١٩٧٧.

تبديل رئيس الحكومة: عام ١٩٨٢ عين هلْموت كول رئيسا بدل هلْموت شميت. كان كول رئيس حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي منذ عام ١٩٧٣. شغل منصب رئيس الاتحاد بين ١٩٨٢ و١٩٩٨.

اندلاع حرب فولكْلاندْ: في نيسان عام ١٩٨٢ احتلت القوات الارجنتينية جزر فولكلاند الواقعة على بعد ٦٠٠ كيلومتر عن الشواطيء الارجنتينية. كانت القوات البريطانية قد احتلت هذه الجزر عام ١٨٣٣ واعلنتها مستعمرة للمملكة البريطانية. في حين ان الارجنتين تطالب بها منذ عام ١٨٢٠. في حزيران عام ١٩٨٢ نجحت القوات البريطانية في اعادة احتلالها.

شبيه، ماكسيميليان: (١٨٦١-١٩١٤)، منذ ١٩١٢ قائد الاسطول الالماني الشرق اسيوي.

تظاهرات يوم الاثنين: بين ايلول ١٩٨٩ وآذار ١٩٩٠ نظم معارضون في لايْبْتسغ كل يوم اثنين مظاهرة ازداد حجمها من مرة الى اخرى. في البداية طالبوا بمزيد من الحقوق السياسية (نحن الشعب)!، ومن ثم التوحيد مع المانيا الاتحادية (نحن شعبٌ واحد.)!

سْكِنْهادْز: شباب يتميزون بمظهرهم (الشعر القصير جدا او الصلعة) وسلوكهم العنيف. تميل معظم الفرق الى التطرف اليميني.

١٩٨٣

لن نحصل على واحد مثله يوما! منذ ان فات عليه صيحة الـ هالالي! الاخيرة – اين تعتقدون؟ – في لقاء صيد وسط الغابة، ومنذ ان رحل ايضا صاحبه الخاص ، التاجر باللحم والجبن والبيرة، لم يبق إلاّ الثالث في الجماعة الذي جاء من الجهة الاخرى قبل فوات الاوان – بيته قرب بحيرة تيغرنْ مسكون بالاسماء والاوزان الثقيلة – فتنقصنا، نحن ممثلي الكاباريه، المادةُ، لان الوزن الثقيل الحاكم لا يستطيع ان يعوّض عن هذا الثالوث. منذ ذلك الحين يسود الضجر. لم يبق سوى الكلام المعسول و"قهوة الزهورات" والمزح بالحواجب وما يشبه ذلك من تحذلقات. لم يعد يُضحك اي شيء. فقررنا، نحن مهرّجي الامة المحترفين، ان نتشاور لتبديد الهموم... طبعا في مطعم في منطقة بافاريا... تسمّى الضيعة "بشر الخشب الكبار". وقد اجتمع فيها آخرون من قديم الزمان، يحملون اوراقهم المخشخشة بطريقة قد تليق بجائزة.... أما نحن فقبعنا حائرين في حلقة تجمع اسماء كبيرة. والقى احدنا بكل جديّة خطبة – "حول وضع الكاباريه الالماني بعد وفاة فْرانْتس يوسف شْتراوْس الكبير، بمراعاة الوحدة التي تم تنفيذها بعيد رحيله –" لكنها لم تسلّنا كثيرا... في احسن الاحوال صرنا نحن الاضحوكة، المهرجين المجتمعين على جديّة البيرة.

اواه! كم اشتقنا اليه! شْتراوْس، فْرانْتس يوسف، يا من اعطى عملا ومادة لاختصاصيي الفكاهة المضطرين الى التقاعد بعد غيابه...! صفقاتك العوجاء كانت قوتنا اليومي... أدار الامر على دبابات مزيّتة من كل الجهات ام على زجاج المرايا المحطم، على علاقات اميغوس عويسة ام على علاقاتك الغرامية مع الطغاة في العالم اجمعه... كل مرة زوّدتَنا بقطعة للكاباريه. كان الكاباريه الالماني دائما خدوما، كلما دار الامر على رفع الهمّ عن اكتاف المعارضة المسكينة المثقلة بالاوزار. وفي صددك، الرجل الذي بلا رقبة، خطرت على بالنا النوادر دائما. وعند الضرورة، كنا نزيد عليك السيد فينر، كاسر البندق الكهل... لكنه وصفّارته ما

عادا ينفعان.

كان يمكن الاتكال عليك وعلينا ابدا. مرة واحدة فقط، حين دار الامر على مليار – صدقة حليمة، بالطبع، للاشقّاء والشقيقات المساكين في الشرق – كنا نائمين، اي لم نكن منتبهين حين اجتمع ثالوثٌ لا مثال له في روزنْهايْم في دار الضيافة شبوك... هنا شتْراوْس بجثته الضخمة، هناك رسول الشرق شالك، وفي وسطهما رجل الاعمال العالمي والتاجر باللحم والجبن والبيرة مارتْس. مزودا باحسن النوايا، ظهر ثالوث من الدجّالين والمهربين في تمثيلية كانت ستكون ملهاة مبتذلة ومسلية لامسية كاملة. ذلك ان المبلغ المتألف من رقم وتسعة أصفار، الذي سيتدفق من الصندوق الغربي، كان من المفترض الا يسعف الدولة الشرقية المفتقرة الى العملة الصعبة وحسب، بل ان يضمن ايضا حصول صاحب البيت والمضيف بوصفه مستوردا كبيرا من بافاريا، على قطعان كاملة من ثيران ملكية الشعب سابقا، والجاهزة الآن للذبح بسكينه.

كان الثلاثة يحسبون أنفسهم إخوانا. لا معنى للكلام على "آكلي الشيوعيين" و"عدو الرأسمالية"، اذا ضبط حساب اللحم والجبن والبيرة تحت الطاولة وامكن للسيد شالك – او"المتندر": اسم على مسمى – ان يزوّد رئيس دولته المسقّف اضافة الى الصفقة باحدث نوادر كول الواردة من المصدر. لا أدّعي ان اللقاء شهد معانقات لكن غمزة عين المانية شاملة تخلّلته بين الحين والآخر. وجرى كل شيء بالطريقة المعهودة عند احداث كبرى في اماكن سرية. كان لكل واحد ما يمكن عرضه: مزايا السوق، سحر ريفي أصيل، مصارين من بون، قطع خنزير رخيصة، اسرار دولة معلقة من زمان، والى ما هنالك من لقم غير ذكية الرائحة وعائدة الى الثمانينيات ومحتوية على قدر من الحوامض الكفيلة بافراح قلب وكالتَي المخابرات على الجهتين.

كان اللقاء بلا شك وليمة للعيون والانوف والآذان وملهاة المانية موحّدة. وبالطبع، مُدّت مائدة غنية: اللحم والجبن والبيرة. لكننا لم نكن مدعوين الى المائدة. فالحاضرون اليها اكتفوا بما مثّلوه لبعضهم بعضا من مادة دسمة للسخرية. ولم

يستطع مقلّدنا المحترف للاصوات، الذي يجيد الى اليوم تقليد دمدمة شتْراوْس على نحو لا يرقى اليه آخر، سوى ان يخمّن كيف يرنّ صوت شالك الرفيع. اما سائق الثيران مارتس، فكان في مخيلتنا لا يعدو عن كونه استاذا للغة الاصابع الدالة الى الارقام والاعداد. وهكذا تدفّق القرض بالمليار من دون تدخّلنا، نحن محترفي الكاباريه. وهو امر مأسوف عليه في الواقع، اذ فاتتنا الفرصة لاخراج اللقاء على مسرحنا كمقدمة متأخرة للتوحيد الالماني تحت الشعار "يدُ ائتمان مخلصة تغسل الاخرى." لكن شتْراوْس ومارتْس استقالا قبل سقوط الحائط، ومبهج الجميع شالك، الذي لا تزال تزهر شركاته "كوكو" في المخفي، يقعد آمنا في بيته قرب بحيرة تيغرن، لانّه يعرف اكثر مما يفيد بافاريا وعافيتها، فيُحسب صمته من ذهب.

حين اجتمعت حلقتنا من القدامى في جو قروي وبليد، قيل: لا أمل بعد الآن للكاباريه الالماني. لكن اسم فْرانتْس يوسف يظل حيا، اذ سُمّي به مطار مونيخ الكبير، ليس لحيازة صاحب الاسم على اجازة طيران الى جانب اجازة الصيد وحسب، بل من اجل ابقائه حيا في ذاكرتنا لدى كل اقلاع وهبوط ايضا. ذلك انه يرمز بالنسبة لنا الى امور كثيرة في الوقت عينه: كان من ناحية شخصيتنا الفكاهية الاكبر وزنا، ومن ناحية اخرى – لحظةَ طمعه بالرئاسة في العام ثمانين – مجازفة من النوع الذي لم نكن مستعدّين لخوضها... لاننّا منتخبون حذرون ومحترفو كاباريه خوّافون.

صيحة الـ هالالي الاخيرة: فْرانتْس يوسف شتْراوْس (١٩١٥–١٩٨٨) من مؤسسي حزب الاتحاد الاجتماعي المسيحي، منذ ١٩٧٨ رئيس وزراء بافاريا. تعرّض في الاول من تشرين الاول عام ١٩٨٨ لذبحة قلبية خلال نزهة صيد، توفي بعدها بيومين.

صاحبه الخاص، التاجر باللحم والجبن والبيرة: يوسف مارتْس، مواليد (١٩٢٥)، عضو في الحزب عينه، قامت شركته بالتجارة الناشطة مع المانيا الديمقراطية.

الثالث في الجماعة: الكْسنْدر شالك- غولودكوفْسكي مواليد (١٩٣٢) قضائي واقتصادي، نقيب في وزارة امن الدولة ومدير قسم التنسيق التجاري "(كوكو)"، مسؤول عن تدبير العملة

الصعبة لالمانيا الشرقية. من خلال الكوكو وفروعه قامت المانيا الشرقية ايضا بتجارة الاسلحة غير المشروعة. تفاوض شالك ومارتْس وشتْراوس في سرّية حول قرض بالمليارات لالمانيا الشرقية بضمانة المانيا الغربية.

الوزن الثقيل الحاكم: هلْموت كول.

الكلام المعسول: تلميح الى السيدة زوسمْونْت (حرفيا: الفم الحلو)، سياسية واستاذة جامعة، بين ١٩٨٨ و ١٩٩٨رئيسة البرلمان الاتحادي.

قهوة الزهورات: لقب شعبي للقهوة الخالية من الكوفيين تلميح الى السيد بلوم (حرفيا: الزهر)، سياسي، بين ١٩٨٢ و ١٩٩٨وزير العمل والشؤون الاجتماعية.

المزح بالحواجب: تلميح الى السيد فايْغل وحواجبه الكثيفة، سياسي، بين ١٩٨٩و ١٩٩٨وزير المالية.

بشر الخشب الكبار: بلدة اجتمع فيها ادباء جماعة ٤٧. عام ١٩٥٨ حصل غراس على جائزة جماعة ٤٧ لقراءته من "الطبل الصفيح."

دبابات مزيّتة...: بين ١٩٥٥ و ١٩٥٧قدمت وزارة الدفاع طلبية لبضعة آلاف من الدبابات بوساطة الحزب المذكور، قبل ان يُنتج من الطراز المطلوب اي نموذج اوّلي. واشارت الدلائل الى دفع الرشوات. لكن التحقيق لم يسفر عن اثبات الشبهة او ازالتها.

زجاج المرايا المكسّر: تلميح الى قضية مجلة "شبيغل" (حرفيا: المرآة.) في اواخر تشرين الاول عام ١٩٦٢ قامت الشرطة والنيابة العامة بتفتيش مكاتب تحرير المجلة التي نشرت مقالة حول مناورة للحلف الاطلسي. أُعتقل الناشر وبعض المحررين بتهمة خيانة وطنية ورشوة موظفين، غير انهم بُرئوا من التهمة. على اثر القضية اضطرّ شتْراوس للاستقالة من منصبه، لان الرأي العام رأى انه كان وراء الحملة على المجلة الناقدة سياسته.

علاقات "أميغوس": شعار لاقتران الصداقة بالسياسة والتجارة الدارج في اوساط حزب الاتحاد الاجتماعي المسيحي. اسفرت هذه العلاقات المشبوهة احيانا عن استقالة سياسيين من مناصبهم.

رئيس دولته المسقّف: أريش هونيكر (١٩١٢-١٩٩٤)، تعلم مهنة المسقّف، منذ ١٩٧١ السكرتير الاول للجنة المركزية للحزب الاشتراكي الالماني الموحّد (الحزب الشيوعي في الشرق)، بين ١٩٧٦ و ١٩٨٩رئيس مجلس الدولة.

١٩٨٤

أعرف، أعرف! يقال عادة بلسان مفرط في الخفّة "أذكروا الشهداء." لكن الامر يستلزم عددا من التدبيرات التنظيمية على الارض. وبعد ان اتفق البرزيدان والرئيس امام دار الاطراف على ايماءة اليد باليد الرمزية – في ذلك النهار الجدير بالذكرى، اي في الثاني والعشرين من ايلول عام – ١٩٨٤ تزداد الحمية لانشاء عدد اكبر من طرق التنزّه في ميدان معركة فردون السابق. واحاول من ناحيتي، مساعدة المتنزهين باشارات في اللغتين وتدليلهم الى اماكن تليق اهدافا لتجوالهم، وعلى سبيل المثال موقع "مور اوم"، اي "الرجل الميت"، الذي لا يزال يحوي، على ما يقال، بين منحدرات تلاله التي باتت مغطاة بالنبات الاخضر الكثيف، على الالغام والقنابل غير المتفجرة، شأنه شأن غابة الغربان (بوا ديه كوربو) الناضحة بالدماء. لذا وجب تكرار التحذير الموجود بالفرنسية باشارات تقول في لغتنا "ممنوع العبور!." ولا ارى داعيا للتردّد في الاشارة الى مواقع معينة، وعلى سبيل المثال الى الموقع الذي يمكن فيه تبيان بقايا القرية فلوري وتدعو فيه كنيسةٌ صغيرة الى التصالح، او الى التلة ٣٠٤ ("كوت" ٣٠٤) التي تعرّضت بين شهري ايار وآب عام ١٩١٦ الى موجة من الاقتحامات والاقتحامات المضادة، وفي تذكير المتنزهين بان تلك المواقع تستحق وقفة تفكّر لائقة.

يجب الالحاح على تلك الملاحظة وسيل الزوار يزداد مطردا منذ ان زار الرئيس مقبرة جنودنا في كونْسانْفوي وبعدها المقبرة الفرنسية في موقع فور دومونت، حيث شهدنا المصافحة التاريخية بينه وبين رئيس الجمهورية الفرنسية. يأتون بباصات كبيرة في جماعات متعددة الرؤوس، وتثير بعض الجماعات الاعصاب بسلوكها السياحي، فتأتينا الشكاوى. وهكذا يختبرون دار الاطراف التي يعلو على قبتها برج مستوحى من قذيفة الهاون، بوصفها موقع اثارة مرعبة. فتُسمع امام نوافذها الزجاجية التي لا تكشف إلا عن قسم ضئيل من عظام وجماجم الفرنسيين المقتولين المائة وثلاثين الفا، الضحكات حينا، والاسوأ من ذلك،

الملاحظات القذرة حينا آخر. وتعلو احيانا كلمات مفرطة في الوقاحة تعلن عن ان مشروع التصالح الكبير بين شعبينا الذي اسهم فيه رئيسنا والبريزيدان بايماءة معبرة بليغة، لم يكتمل بعد البتّة. في هذا الصدد يستنكر بعضٌ من أبناء بلدي بحقّ امرًا لا يمكن اغفاله، اعني انه خُصّص لذكرى الشهداء الفرنسيين خمسة عشر الف صليب ابيض حُفر على كل منها "مور بور لا فرانس" وزرع امام كل منها شتلة ورد، في حين ان ضحايانا الاقل عددا لم يحصلوا سوى على صلبان سوداء من دون كتابة عليها ومن دون زينة ورود.

يجب القول هنا انه يصعب عليّ ان اجد جوابا على تلك الشكاوى. كذلك اجدني حائرا حين يدور الموضوع حول مسألة عدد ضحايا الحرب. لزمن طويل ساد الاعتقاد ان عدد الضحايا على الجانبين بلغ ثلاثمائة وخمسين الفا. لكننا نعتقد ان الكلام على مليون ضحية على مساحة خمسة وثلاثين كيلومترا مربعا، مبالغة. على الاجمال لا يزيد عدد الضحايا عن نصف مليون، على الارجح – اي في مراكز المعارك سبعة او ثمانية قتلى في المتر المربع –، وفاضت ارواحهم في المعركة الشنيعة حول فورت دومون وفور فو في جوار فلوري، وعلى التلة ٣٠٤ وعلى الارض الباردة (فرواد تير)، اللقب الذي يعبر عن الارض الطينية الموحلة في ميدان معركة فردون كله. ففي الاوساط العسكرية أستعمل عامة المصطلح "حرب الاستنزاف."

لكن رئيسنا ورئيس فرنسا فتحا صفحة جديدة – ومهما ارتفعت الخسائر في السابق – حين وقفا اليد باليد امام دار الاطراف "(اوسيْيار)"مترفّعين عن الارقام والاعداد كلها. لكن رغم كوني عضوا في الوفد المرافق الذي ضم ايضا ارنْسْت يونْغر، الاديب الكهل والشاهد على زمن المجزرة التي تبدو الآن بلا معنى، لم يتسنّ لي سوى ان المح الرئيسين من الخلف.

فيما بعد زرعا معا شجرة قيقب جبلية. ووجب التحقق مسبقا من صلاح الارض، لئلاّ يقع هذا الفعل الرمزي في ربع لا يزال مزروعا بالالغام. اعجب الجميع بهذا القسم من البرنامج، في حين ان قلة استحسنت المناورة الالمانية الفرنسية الجارية بتزامن في المنطقة المجاورة: دباباتنا في شوارع فرنسا وطائراتنا

في التحليق المنخفض فوق فردون – امر غير محبذ في هذه البلاد. بالتأكيد، لو اتبع رئيسنا طريقا من الطرق المعلّمة – بدل اجراء المناورة –، تقوده، على سبيل المثال، الى بقايا الخندق الذي يطلق عليه "ملجأ المداخن الاربع" ("ابري ده كاتر شمينيه") والذي تقاتل عليه في الثالث والعشرين من حزيران عام ١٩١٦ كتائب من بافاريا وسلاح القنّاصة الفرنسيين من جبال الالب تقاتلا مريرا وموقعا خسائر بشرية فادحة، لكان ذلك احفل معنىً. لتسنّى للرئيس ان يتوقّف هناك وقفة تفكّر لائقة، مجاوزا الرمزية الرسمية كلها وبعيدا عن طقوس البروتوكول.

البرزيدان: فرانْسوا ميتران (١٩١٦–١٩٩٦)، رئيس الدولة الفرنسية بين ١٩٨١ و١٩٩٥.
رئيسنا: هلْموت كول، انظر عام ١٩٨٢.

١٩٨٥

ابني العزيز، تريد ان تعرف كيف عشتُ واختبرتُ الثمانينيات لان هذه المعلومات الشخصية مفيدة جدا لعمل الماجستير التي تحضّرها تحت العنوان "حياة المتقاعدين اليومية." يسرّني مساعدتك. غير انك تكتب لي ان الموضوع يدور ايضا على "عجز في السلوك الاستهلاكي." لا أظن انه يمكن لي الاسهام في ذلك بالكثير المفيد. فجدتك راضية ولا تشتكي. لا ينقصني اي شيء، بغض النظر عن جدك، أحبّ انسان الى قلبي، الذي لا يمكن لاحد ان يعوّض عنه... في البداية كان المشي لا يزال هيّنا عليّ، فساعدتُ لبضع ساعات يوميا في محلّ التنظيف السريع، وعملتُ ايضا في خلية الكنيسة. لكن، اذا سألتني عن اوقات الفراغ، فعليّ ان اعترف باني قضيت الثمانينيات امام الشاشة او ضيعتها احيانا في تسلية مريحة. منذ ان خاذلتني رجليّ ما عدت اخرج من البيت كثيرا. وكما يعرف ابواك العزيزان، لم اكن يوما انسانة تحبّ السهرات والجلسات الاجتماعية.

ما عدا ذلك لم يحدث الكثير. ولا باي حال في السياسة التي تسأل عنها بتكرار واصرار... الوعود المعهودة، لا اكثر... في هذا الموضوع كنتُ دائما متفقة مع جارتي، السيدة شولتْس. وهي اهتمّت بي، على فكرة، طوال هذه السنين، بمحبّة مؤثّرة، تفوق اهتمام اطفالي بي، كما يجب الاعتراف صدقا. وينطبق هذا، للاسف على ابيك العزيز ايضا. كان يمكن الاتكال على السيدة شولتْس وحسب. احيانا، كانت تعمل في دوامها الصباحي في البريد، فتأتي اليّ منذ العصر وتجلب معها حلويات من صنع البيت. فكنا نجتمع في جلسة مريحة اليفة، نشاهد حتى المساء ما يُعرض على الشاشة. أذكر جيدا "دالاس" و"مستشفى الغابة السوداء." كانت إلْزه شولتْس معجبة بالبروفسور بْرينكْمان، اما انا فلم يرق لي كثيرا. وحين بدؤوا في اواسط الثمانينيات بعرض مسلسل "شارع الزيزفون" الذي لا يزال يُعرض الى اليوم، قلتُ لها: هذا شيء جديد... من صلب الحياة... يصوّر الامور كما تجري فعلا... البلبلة المستمرة، بين المرح والحزن، المشاجرة والمصالحة... لكن الكثير

من الهمّ ووجع القلب ايضا... نعم، كما تجري الامور هنا عندنا في شارع غوترمان... مع ان بيلفيلد ليست مونيخ، والحانة على زاوية الشارع هي عندنا مطعمٌ، لا يديره يوناني، بل تديره عائلة ايطالية منذ سنين. لكن حارسة البناية عندنا تشبه ألْزه كْلينغْ في "شارع الزيزفون" رقم ثلاثة. تشاجر زوجها باستمرار وتصير احيانا خبيثة جدا. بالمقابل تمثل الام بايمر الرفق بعينه. وهي حاضرة ابدا لتعالج مشاكل الآخرين، شأنها شأن جارتي، السيدة شولتس، التي تحمل همّا كافيا باطفالها... وابنتها ياسمين على علاقة مع مواطن اجنبي –ويمكن القول صدقا ان هذه العلاقة معقدة – شأنها شأن ماريون ابنة العائلة بايْمر على الشاشة.

على كل حال، كنا نشاهد منذ البداية، حين بدأ المسلسل في شهر كانون، على ما أظن. في الحلقة المعروضة وقت اعياد الميلاد نشب شجار بين هيني وفرانتس بسبب شجرة الميلاد الهزيلة. لكنهما تصالحا بعد ذلك. وصحيح ان عائلة بايْمر كانت حزينة ليلة الميلاد، لان ماريون اصرّت على مرافقة صاحبها فاريلي الى اليونان، لكن هانس بايْمر جاء بطفلين يتيمين الى البيت. ولانهما عزما ايضا الفيتنامي الوحيد غونغ، نجحت الحفلة رغم كل شيء.

احيانا وانا أعاين شارع الزيزفون مع السيدة شولْتس اتذكر سنوات زواجي الاولى حين كنا نشاهد، انا وجدك، مسلسل "العائلة شولرمان" في احد المطاعم المزودة بجهاز تلفزيون. طبعا، بالابيض والاسود وحسب... على ما أظن، في اواسط الخمسينيات.

لكنك اردت ان تعرف من اجل عمل شهادة الماجستير ما هي الامور المهمة التي حصلت في الثمانينيات. صحيح، في السنة عينها التي شهدت عودة ماريون الى بيت عائلة بايْمر في احدى الليالي متأخرة وبجرح في الرأس ينزف دما، بدأت قصة المشاكل مع بورس وشتيفي. صح، اني لم اكن مهتمة بالتنس كثيرا، هذه الحركة المستمرة من اليمين الى اليسار والخ، لكننا تفرجنا غالبا لساعات طويلة، حين ازداد الاثنان نجاحا وشهرة، لما صارا في" اللوج " على ما قيل. بعد حين صارت

السيدة شولتس خبيرة في قوانين اللعب»، في البدء والريتورن. اما انا فلم افهم البتة ماذا يعني تاي-برايك، فكان عليّ ان اسأل مرارا. لكن، حين اقيمت الدورة في ومبلدن واستطاع بورس ان يفوز على لاعب من افريقيا الجنوبية وفي السنة التالية على التشيكي لاندل الذي حسبه الجميع لاعبا لا يقهر، حينها توترت اعصابي على مفضلّي بورس الذي دخل عامه السابع عشر فقط. ولما لعب في عام تسعة وثمانين، وقتما عادت تتحرك الامور في السياسة، مرة اخرى في ومبلدن ضد السويدي ادبْرغ وفاز عليه، بكيتُ، صدقا، وجارتي العزيزة ايضا.

اما شتيفي التي سمّتها السيدة شولتس دائما "آنسة اليد الامامية"، فلم تكن قريبة على قلبي يوما، ولا باي حال، السيد ابوها، هذا المختلس اموال الضريبة بعلاقاته المشبوهة. لكن مفضلي بوريس لم يرضخ للاغراءات... كان يتصرف احيانا بوقاحة او جسارة... لكنه خيّبنا ايضا، حين اراد التملص من دفع الضرائب فهاجر الى موناكو. يومها سألت السيدة شولتس: "أكان عليه ان يفعل ذلك؟" وفيما بعد، حين بدأ يفشل – وبدأت شتيفي تفشل ايضا –، وافق على تصوير اعلان تلفزيوني لـ نوتيلا. صحيح انه بدا جذابا على الشاشة وهو يلحس السكين بابتسامة الصبي الطائش، لكن ذلك كله لم يكن ضروريا ايضا، اذ كان يجني بلا شك اكثر مما استطاع ان يصرف.

لكن ذلك حدث في التسعينيات، في حين انك، يا بنيّ العزيز، اردت ان تعرف ماذا جرى لي في الثمانينيات. على كل حال، بدأت مشاكلي مع نوتيلا منذ الستينيات، حين كان اطفالنا كلهم يريدون دهن خبزهم بهذا المزيج الذي بدا لي مثل صبغ الاحذية. إسأل اباك! لعله يتذكر الشجارات اليومية بين إخوته الصغار... يومها علت عندنا الاصوات وصُفقت الابواب بانفعال والخ... مشاهد مشابهة بـ"شارع الزيزفون" الذي لا يزال يعرض...

شارع الزيزفون: مسلسل تلفزيوني ألماني بدأ عرضه في اواخر ١٩٨٥ ويساهم في اخراجه السينمائي المعروف غايْزنْدورفْر.

بوريس: بيكر.

شتيفي: غراف.

لاعب من افريقيا الجنوبية: كفن كوزن.

لانْدل: إيفان.

أدبْرغ: شتيفان.

١٩٨٦

يقال إننا، نحن سكان بفالتس العليا، نتحمل الكثير ولا نزعل. لكن ذلك فاق طاقتنا. بدأت القصة في فاكرسدورف حيث ارادوا اعادة إنتاج تلك المادة الشيطانية، ثم اتى علينا تشرنوبيل ايضا. حتى اوائل ايار ظلت الغيمة مخيّمة فوق بافاريا كلها... وفوق فرانكن ومناطق اخرى لا أعلمها ايضا... قلّت الغيمة كثافة ناحية الشمال، ولم تجتز، على حد قول الفرنسيين، الحدود الالمانية الغربية...

اي نعم، يريدوننا ان نصدق ذلك! صح، يوجد اينما كان أناس يؤمنون بالقديس فلوريان. لكن قاضي المحكمة الابتدائية عندنا في أمبرغ كان دائما ضد الـ م إ س، مما يعني منشآت اعادة الإنتاج. لذلك أيّد الشباب الذين خيموا يوم الاحد امام اسوار المنشآت ودقوا عليها بقضبان حديد – وسمّت الصحف هذه الجلبة "ابواق اريحا" – وزوّدهم بوجبة دسمة. ولذلك هاجمه بكشتاين من محكمة الدرجة الثانية – وكان دائما كلبا شرسا وصار فيما بعد وزيرا للداخلية – وقذفه قذفا لئيما على طريقته الكلبية: "إن اناسا من امثال القاضي فلهالم، يجب القضاء عليهم وعلى اسباب عيشهم..."

وكل ذلك بسبب منشآت فاكرسدورف. لقد ذهبتُ اليها بدوري. لكن، بعد ان جاءت الغيمة من تشرنوبيل لتخيّم فوق بفالتس العليا وغابة بافاريا الجميلة... ذهبت مع العائلة كلها. قيل لي الآ يجدر بي ان اهتم بذلك كله وانفعل وانا طاعن في السن. لكننا ترعرعنا على تقليد جني الفطر كل خريف... والآن قيل لنا إن الحذر واجب، لا بل دقّ ناقوس الخطر! ومطرت هذه المادة الشيطانية، التي تسمّى سازيوم، من الاشجار على ارض الغابة وشحنت التراب بكل ما عليه من طحالب واعشاب واوراق على نحو مرعب بالفاعلية الاشعاعية... فأفقت انا ايضا ورحت بمنشار حديد الى الأسوار، مع ان احفادي جميعا صاحوا بي: "دعك من ذلك، جدّاه! لا يعنيك الامر!"

ربما كان معهم حق. فمرة انضممت الى الشباب وصحت معهم: "مطبخ البلوتونيوم، مطبخ البلوتونيوم!"، فعصف بي قاذف المياه الذي ارسله السادة من ريغنسبورغ خصيصا، وطرحني أرضا. وكانت المياه محتوية على مادة مثيرة، كما قيل، اي على نوع من السم اللعين، وإن كان اقل اساءة من ذلك السازيوم الذي نقط من غيمة تشرنوبيل على فطرنا ويدوم مفعوله الآن ويدوم.

لذلك قاموا فيما بعد، في غابة بافاريا والغابات المحيطة بـ فاكرسدورف كلها، بقياس فعالية الفطر، لا انواع الفطر الصالحة للاكل وحسب، مثل فطر المظلة و البوفيست، بل الانواع كلّها، لان الغزلان تأكل انواعا اخرى لا يذوقها الانسان فانتقلت الفاعلية الاشعاعية اليها ايضا. اما نحن الذين اردنا مع ذلك ان نجمع الفطر، فعرضوا علينا قوائم تبيّن ان فطر المارون الذي يطلع في تشرين الاول ويُعدّ لقطة للذوّاقة، امتص اكبر كمية من السازيوم المركّز. وكان الهاليماش الفطر الاقل اصابة بالاشعاع لانّه لا ينبت في الارض، بل في جذوع الاشجار التي يتغذّى منها. وسلم فطر الحبر ايضا وهو لذيذ الطعم طازج. اما انواع اخرى تنبت عادة تحت اشجار الصنوبر، مثل لسان الماعز والرِجل الحمراء، فما تزال مشحونة الى اليوم، كذلك فطر البتولا، وبدرجة اقل فطر القبعة الحمراء، لكن بدرجة قصوى فطر الكانتاريل الذي يطلق عليه في مناطق اخرى رغوة البيض. كذلك اصيب بضرر كبير فطر السادة الذي يسمى ايضا فطر الحجر، وهو بركة حقيقية إن عثر عليه المرء...

اي نعم، في النهاية لم ينجح مشروع فاكرسدورف، لان اصحاب الصناعة النووية صدروا موادهم الشيطانية الى فرنسا حيث يعاد إنتاجها بتكلفة اقل ومن دون الهموم التي شاكست المشروع في بفالتس العليا. الآن عاد الهدوء الى المنطقة. ولا احد يتكلم على تشرنوبيل والغيمة التي جاءت علينا. لكن عائلتي والاحفاد جميعهم ما عادوا يذهبون لجمع الفطر البتة، وهذا امر مفهوم جدا، مع ان ذلك وضع حدًا لتقليدنا العائلي.

اما انا فلا ازال اذهب. تمتد غابات كثيرة في المنطقة المحيطة بدار المتقاعدين

التي ارسلني اليها الاطفال. هناك أجني كل ما اعثر عليه: فطر الخبز والقبعة البنية، وفي الصيف فطر السادة، وحين يحلّ تشرين فطر المارون. ثم اقليها في مطبخي الصغير واعدّها وجبةً لي ولبعض الاصدقاء من المتقاعدين الذين لا يقوون على المشي. وقد قطعنا جميعنا السبعين من زمان. فنقول لانفسنا: كيف سيضرّ بنا السازيوم وايامنا باي حال معدودة.

الغيمة مخيمة فوق بافاريا كلها: بعد الانفجار في مفاعل الطاقة النووية في تشرنوبيل (اوكرانيا) انتشرت كميات كبيرة من مادة السازيوم الفاعلة في الاجواء، مما ادى الى امطار نووية في مناطق اوربية واسعة.

القديس فلوريان: قُتل غرقا عام ٣٠٤، يُستنجد به لدرء خطر الحرائق.

منشآت اعادة السيكلة: للمواد النووية الحارقة.

فيهالم، هلْموت: مواليد (١٩٤٦)، قاضٍ في محكمة أمْبرغ، مثّل حزب "الخضر" في مجلس المدينة، نشط في حركة المواطنين المعارضة للمنشآت المذكورة.

١٩٨٧

ماذا جاء بنا الى كالكوتا؟ ماذا جذبني الى هناك ؟... تركتُ "الجرذة" والضجر من حفلات الذبح الالمانية وراء ظهري، وكنتُ أرسم تلال الزبالة والنائمين في الشوارع والالهة كالي التي تمدّ لسانها بحياء، واراقب الغربان على قشور جوز الهند المتراكمة، وأرى البريق الاخير للامبراطورية فوق اطلال مغطاة بالاخضر الكثيف، ولم اجد، اولّ الامر، كلمة او لغة... وكل شيء يعبق بالنتن حتى السماء. فحلمتُ...

لكن قبل ان احلم ذلك الحلم الذي له عواقبه، عليّ الاعتراف بغيرة ملتهبة... كانت أُوته المولعة بالكتب عامة تقرأ كتابا اثر كتاب بقلم فونْتّانه، بينما كان قوامها ينحل وينحل مصارعا مناخ كالكوتا. كنا نحمل في امتعتنا كتبا كثيرة لتخفّف من وقع حياة الهند اليومية علينا. لكن، لماذا كانت تقرأ كتبه حصرا كتب البروسي الهوغونوتي؟ لماذا انكبّت بهذا الشغف، وتحت المروحة الدائرة، على مؤرّخ منطقة مارك براندْنبورغ الثرثار؟ لماذا، تحت سماء بنغالية وبعامة: تيودور فونْتّانه؟ فحلمتُ ظهرا...

لكن، قبل ان ادع الحلم يكرّ من البكرة، عليّ ان اقول اني لم اكن ضد الكاتب فونْتّانه وضد رواياته على الاطلاق. واني لاتذكر بعضا من مؤلفاته بفضل قراءة متأخّرة: أفي على الأرجوحة... نزهة في قارب التجديف على نهر هافل... رحلات مع السيدة جيني ترايبْل الى بحيرة هالن... عطلات صيفية في جبال هارتس... لكن أُوته كانت تعلم بكل صغير وكبير، بكل قول لاحد القساوسة وبسبب كل حريق اينما نشب، من اشتعال تانغرمونده الى عواقب سخونة الجمر في "لا يُعوّض." ظلت تقرأ حتى اثناء فترات تقنين الكهرباء المستديم ومدينة كالكوتا غارقة في الظلام، ظلت تقرأ تحت مروحة صامتة، على ضوء شمعة... تعود الى "سنوات الطفولة" وتلجأ، رغم انف البنغال الغربي، الى حصن سفينهمْونْده او تفزع مني الى شواطيء بحر البلطيق في بومرن.

اذ ذاك حلمتُ ظهرا، وانا مستلق تحت الناموسية، حلما شماليا منعشا. كنت انظر من نافذة محترفي تحت السقف الى حديقة فيولسفْليت المتظللة باشجار الفواكه. صحيح اني رويت هذا الحلم مرارا بتنويعات وامام جمهور متبدّل، لكني نسيت احيانا ان اذكر ان قرية ويولسفْيلت تقع في شليسفْيغ – هولْشتاينْ بجوار نهر شتور، والاخير رافد لنهر البه. رأيتُ في الحلم اذن حديقتنا... وفيها شجرة الاجاص الحاملة فواكه غنية... وتحت سقفها الظليل تجلس أُوته على طاولة مستديرة مقابل رجل.

اعلم انه يصعب رواية الاحلام، وبخاصة تلك التي نحلمها غارقين في العرق تحت الناموسية: فكل شيء يبدو لحظة السرد مفرطا في المعقولية. لكن هذا الحلم لم يكن مشوّشا باحداث جانبية ولا متخللا بفيلم ثان او ثالث، بل انساب في خط مستقيم له عواقبه مع ذلك، لانّ ذلك الرجل الذي جالسته أُوته محاورة اياه تحت شجرة الاجاص، بدا لي معروفا: سيدٌ أشيب الشعر تناجيه بلا كلل وهي تزداد جمالا على جمال.

خلال موسم الامطار تبلغ رطوبة الجو في كالكْوتا ثماني وتسعين درجة. لا عجب اذن، اني حلمت تحت شبكة الموسْكيتو التي تحرّكها المروحة قليلا، حلما شماليا منعشا. لكن، أكان على السيد الكهل الذي ناجى أُوته مبتسما واليفا تحت شجرة الآجاص، بينما تراقصت على شعره الابيض ومضات ضوئية، أكان عليه ان يشبه تيودور فونْتانه؟

كان هو المعني بعينه. وأُوته تغازله. وهي اذن على علاقة بزميل لي شهير، لم يؤلّف رواية اثر رواية إلاّ وهو طاعن في السن؛ وتدور بعض رواياته على الخيانة الزوجية... الى ذلك الحين لم اكن واردا في قصة الحلم او لم ارد فيها سوى كمراقب بعيد. فالاثنان كانا مكتفيين بصحبتهما. لذلك حلمتُ نفسي غيورا. وعليّ الاعتراف بانّ الذكاء والحنكة اوصياني في الحلم بان أستّر الغيرة المتصاعدة في لبي واتصرّف بحكمة ووسع الحيلة، اي بان اتناول كرسيا قريبا مني في الحلم وانزل به السلم، لاجلس عليه في الحديقة متفيئا في ظلّ شجرة الاجاص المنعش

العليل، الى جانب زوج الحلم: أُوته وفونْتانه.

منذ ذلك الحين – واقول هذا الكلام دائما حين اقصّ الحلم – صارت حياتنا زواجا بين ثلاثة. فما عاد بامكان الاثنين التخلص مني. ووافقت أُوته راضية على هذا الحل ولم تمانع، فبدأتُ اتعرّف الى فونتانه عن كثب، وشرعتُ، ونحن لا نزال في كالكوتا، بقراءة كل ما يقع من مؤلّفاته بين يديّ، وعلى سبيل المثال، رسائله الى انكليزي يُدعى موريس، تبيّن انّه ملمّ بالسياسة العالمية. فانتهزت فرصة نزهة مشتركة الى مركز المدينة – مبنى الكتّاب – في سيارة من سيارات ركشى، لاستنطقه حول رأيه في النتائج الطويلة الاثر المترتبة على سيطرة الاستعمار البريطاني وتقسيم البنغال الى بنغلادش والبنغال الغربي... وافقتُه الرأي: يصعب مقارنة هذا التقسيم بالتقسيم الالماني الحالي والتفكير في اعادة التوحيد البنغالي. وحين رجعنا، فيما بعد، على طرق ملتوية الى فيولسفْليت بجوار نهر شتور، صحبتُه معي عن طيبة خاطر، اي تعوّدتُ عليه رفيقا مسلّيا ومزاجيا احيانا، وحسبتُ نفسي هاويا لـ فونْتانه، ولم اتخلّص منه إلاّ حينما اعلن التاريخ في برلين وفي غير محل بانه يحبّ الاجترار... فقررتُ، بعد الحصول على استحسان أُوته، ان احمله وثرثرته محملَ الجدّ واتابع كتابة حياته الخرِبة وصولا الى قرننا المشرف على نهايته... منذ ان يعيش فونْتانه خالدا – مسجونا في الرواية "حقلٌ فسيح" – لا يعود بامكانه ان يثقل احلامي، وخاصة منذ ان انتحل شخصية فونتي والتجأ، في ختام الرواية الى منطقة سيفين، ليتوارى هناك، بعد ان اغوته صبية، تحت جناح هوغونوتيين آخرين لا يزالون على قيد الحياة الى اليوم...

... بنا: عاش غونتر غراس مع زوجته أُوته في كالكوتا بين آب ١٩٨٦ وكانون الثاني عام ١٩٨٧.

"الجرذة" والضجر من حفلات الذبح الالمانية: في ربيع ١٩٨٦ تلقت رواية غراس "الجرذة" استقبالا سيئا جدا من قبل غالبية النقّاد الذين مزّقوها رمزيا.

فونْتانه، تيودور: (١٨١٩–١٨٩٨)، صيدلي، ثم صحفي وشاعر، عمل مراسلا حربيا وناقدا مسرحيا قبل ان يشتهر كأديب.

١٩٨٨

... لكن قبل ذلك، في العام الذي سبق سقوط الحائط وموجة الفرح العارمة والشاملة – وقبل ان يختبر الواحد الآخر كغريب – بدأتُ ارسم ما لا يمكن اغفاله: اشجار الصنوبر المتساقطة واشجار الزان المستأصلة والخشب الميت. فمنذ بضع سنوات دار الكلام في الهامش على "موت الغابات." وادّى رفع التقارير المختصّة الى رفع تقارير مضادة. ومن جديد طالب بعضهم عبثا بتقييد سرعة السوق القصوى بمائة كيلومتر في الساعة، لان غازات السيارات تضر بالغابات. تعلمتُ الفاظا جديدة: المطر الحامضي، فروع الخوف، عفونة الجذيرات، اصفرار الاوراق... وكانت الحكومة تصدر كل سنة تقريرا حول تضرُّر الغابات سُمّي فيما بعد باسم اخفّ اقلاقاً: "تقرير حول حالة الغابات."

وبما اني لا أؤمن إلاّ بما يمكن رسمه، فقد سافرتُ من غوتينْغن الى جبال هارتس العليا ونزلتُ في فندق شبه خال لسياح الصيف او متزلجي الشتاء، ورسمتُ بالفحم السيبيري – وهو من المنتجات الخشبية – ما سقط من الاشجار فوق التلال والمنحدرات. في المواقع التي قد ازالت فيها مديرية شؤون الغابات الاضرار ورفعت الاخشاب المتساقطة، ظلّت بقايا الجذور والقُرَم منتشرة في الارض بكثافة وانتظام يوحى بمقابر ممتدّة على مساحات واسعة. تقدّمتُ الى ربوع وُضعت فيها لافتات انذار، فرأيتُ ان موت الغابات هاهنا ظاهرة تتفشّى متغافلة الحدود، متعدّية الأسوار الحديد الممتدّة فوق الجبال والوديان وقطاع الموت الملغَم، اي "الستار الحديدي" الذي لا يقسم جبال هارتس المتوسّطة العلو وحسب، بل المانيا او بالاحرى اوروبا اجمعها، تتعدّاه من دون جلبة ومن دون اطلاق رصاصة واحدة. وسمحت لي الجبال القاحلة برؤية الى الشطر الآخر لا يحجبها حاجب.

لم اصادف احدا، لم ار ساحرة او فحّاما متوحّدا. لم يحدث اي شيء. فكل شيء كان قد حدث. لم تنفع قراءتي لاي كتاب من كتب غوته او هاينه لتحضّرني لهذه الرحلة الى الـ هارتس. كانت عدّتي الوحيدة هي ورق الرسم الخشن

والصندوق الصغير المليء باصابع الفحم وعلبتان من الـ فيكساتيف تدّعي تعليمات استعماله انه مادة خالية من الغاز السام وغير مضرّة بالبيئة على الاطلاق.

بعد هذه الرحلة بامد قصير، سافرتُ برفقة أوته وبالزوادة عينها الى مدينة دريسدْن – وكان ذلك قبل انتهاء عهد اطلاق النار. وقد استلمنا من هناك دعوة كتابية ساعدتنا في الحصول على تأشيرة الدخول. في درسدْن سلّمنا المضيفان، رسامٌ جدّي وراقصةٌ مرحة، مفتاحا لكوخ مريح في جبال ارتسغْهبْيرغه. قرب الحدود التشيكية بدأتُ حالا – كما لو اني لم ار بعد كفاية – برسم الغابة المحتضرة هناك ايضا... على المنحدرات كانت الاخشاب متناثرة ومتشابكة حسب تلقائية سقوطها. وعلى القمم عصفت الرياح بالجذوع الميتة وقطعتها على علو بني آدم. هنا ايضا، لم يحدث شيئا، عدا ان الفئران كانت تتكاثر في كوخ الرسام غوشل من درسدْن. ما عدا ذلك، كان كل شيء قد حدث. كانت الغازات السامة ورواسب منطقتين صناعيتين من ملكية الشعب، المتراكمة على مساحات واسعة، قد ادّت مفعولها واجهزت على كل شيء ينبت على جهتَي الحدود. بينما كنتُ املأ صفحة اثر صفحة بالرسوم، كانت أُوته تقرأ كتبا لم تعد بقلم فونْتانه.

بعد ذلك بسنة واحدة، قرأنا على لافتات يحملها مواطنون متظاهرون في لايبْتْسغ وفي غير محلّ: "انشروا عِرض القادة، احموا الاشجار!" لكن يومها لم يئن الاوان بعد. كانت الدولة لا تزال تسيطر على تماسك مواطنيها بشق النفس. وكانت الاضرار المتعدّية للحدود لا تزال تبدو مستديمة.

في الحقيقة، كنا نحب المنطقة. كانت البيوت في قرى جبال ارتسغْهبْيرغه مغطاة بالواح خشب صغيرة. واسماء القرى فيها على وزن "ربع الامير" و"مخلص الربّ" و"حجرة العثرة." من بلدة الحدود "غابة القصدير" يمرّ طريق الترنْزيت الى براغ. على هذه الطريق التي لا يسافر عليها السياح وحدهم انطلقت قبل عشرين عاما في يوم من ايام شهر آب، وحداتٌ سيّارة لـ جيش الشعب الوطني متبعة اوامرها بالزحف على براغ؛ وانطلقت عليها قبل خمسين عاما – في يوم تشريني للعام –

١٩٣٨ وحدات الجيش الالماني لتزحف على الهدف نفسه... فلا بدّ للتشيكيين من ان يتذكروا مرة تلو مرة... الانتكاس... العنف في المثنّى... كم يحبّ التاريخ تلك التكرارات، مع ان الامور كانت مختلفة يومها... وعلى سبيل المثال، كانت الغابات لا تزال سالمة...

موت الغابات: اتلاف مختلف انواع الاشجار على مساحات واسعة بسبب المطر الحامضي الذي يتكوّن من الغازات السامة للسيارات والمنشآت الصناعية والتدفئة المنزلية.

أنا: غونتْر غرْاس.

غوته: بين ١٩/١١/١٧٧٧ و ٢٩/١٢/١٧٧٧اجتاز غوته لوحده جبال هارتْس على صهوة جواده. انظر قصيدته: "رحلة شتائية في هارتس."

هاينْه، هاينْرِش: (١٧٩٧-١٨٥٦)، أديب وناشر بعد تجواله سيرا على الاقدام في جبال هارتس نشر هاينْه عام ١٨٢٦ "الرحلة الى هارتس."

١٩٨٩

حين عدنا من برلين الى لاونْبورغ، كنا نستمع في راديو السيارة الى البرنامج الثالث حصرا، فطرق الخبر آذاننا متأخرًا. لكني صحتُ – مثل آلاف غيري على الارجح – "جنون..."! صحتُ سروراً وصدمةً "هذا جنون..."! ثم استرسلتُ، شأني شأن أوته التي كانت تسوق السيارة، في افكار تعود الى الماضي او تستبق القادم. تنامت الاسطورة غير المعقولة متأخرةً ايضا الى صديق لي كان يسكن في الشطر الآخر وراء الحائط ويعمل حارسا للمخلّفات في ارشيف اكادمية الفنون، أعني، تنامت اليه مثل قنبلة موقوتة.

وفقا لروايته، كان عائدا من رياضة الركض في حدائق فريدرْشسهْاينْ وهو يتصبب عرقا. وذلك امر عادي، لان البرلينيين الشرقيين تعوّدوا ايضا على الـ جوغِن، هذا التعذيب الذاتي من اصل امريكي. على تقاطع شارعَي كاته- نيدركيرشنْر / بوتْسو التقى بصديق كان يلهث ويعرق ايضا بعد قيامه بدورة من الركض. فاتّفقا وهما يحاكيان حركة الركض واقفَين محلّهما، على اللقاء مساءً لشرب البيرة في صالون الصديق الثاني الفسيح. كان للاخير عمل جيد وآمن في "الانتاج المادي"، كما قيل في الشرق، فلم يندهش صديقي، حين زاره مساء، ان يجد المنزل مجهّزا بارضية جديدة من الخشب الاصلي. اما صديقي الذي كان في الارشيف يرفع ويضع الاوراق وحسب، ويختصّ في احسن الاحوال بالهوامش، فكانت تكلفة ارضية من ذلك النوع الفخم تفوق طاقته المالية.

شربا زجاجة من بيرة بلْزنر، وزجاجة ثانية. ثم جاء دور الخمر الابيض ماركة نوردْهويزْر كورن. دار الحديث على الماضي على الاطفال الذين يكبرون والحواجز الايديولوجية في اجتماعات الاهل. اراد صديقي المتحدر من جبال ارتسغْهبْيرغه – حيث رسمتُ في السنة الفائتة خشبا ميتا على القمم – ان يذهب الى هناك للتزلج على الثلج مع زوجته في عطلة الشتاء القادمة، على ما اخبر صديقه. لكنه احتار من تدبّر الامر ودواليب سيارته الامامية والخلفية مستهلكة تماما. فخالجه الامل ان

يحصل بوساطة صديقه على دواليب شتائية جديدة: فمن يستطيع، في ظل الاشتراكية الواقعية، ان يفرش ارضية منزله بالخشب، يمكن له ايضا ان يدبّر دواليب خاصة معلّمة بالحرفين ث ج، مما يعني "ثلج وجليد."

بينما كنا نقترب من بيلنْدورف وفي قلبَينا البشرى السارّة كان يدور في ما اطلقنا عليه "الغرفة البرلينية" لصديق صديقي جهازُ التلفزيون، لكن بعلو صوت قارب الحد الادنى. وبينما كان الاثنان منشغلين بشرب البيرة والخمر، والثرثرة على مشكلة الدواليب وذكر صاحب الارضية الخشبية ضمن الحديث ان الدواليب الجديدة لا تُحصَّل مبدئيا إلاّ في حال الدفع الكريم، وعرض خدماته ليحصل على منافث لكاربوراتور الـ وارتْبورغ من دون ان يثير آمالا في صدد الدواليب، انتبه صديقي بعد نظرة قصيرة الى الشاشة، الى ان المحطة تعرض على ما يبدو فيلما تريد احداثه ان يتسلّق الشباب الحائط ويجلسوا على حافته العليا وتتفرّج شرطة الحدود على هذه التمثيلية مكتوفة الايدي. وقال صديق صديقي بعد ان لَفت الاخير انتباهه الى سوء الاحترام هذا لـ سدّ الحماية: "على الطريقة الغربية المعهودة!"، ثم علّق الاثنان على البرنامج الدائر التافه: "بالتأكيد فيلم من افلام الحرب الباردة!"، وعادا حالا الى الدواليب الصيفية المستهلكة والدواليب الشتائية الناقصة. لم يأت الحديث على ذكر الارشيف ومخلّفات ادباء واسعي الشهرة او قليليها.

في حين اننا كنا نتخيّل الزمن القادم، الزمن الـ بلا حائط – ففتحنا التلفزيون ما إن وصلنا الى البيت – مضى على الجهة الاخرى وراء الحائط مدة من الوقت الى ان قرّر صديق صديقى اخيرا ان يجتاز الغرفة ويخطو الخطوات القليلة فوق الارضية الجديدة ليعلّي صوت التلفزيون الى الاقصى: اذ ذاك سكن الكلام على الدواليب الشتائية... فليحلّ الزمن الجديد هذه المشكلة، فليحلها "الدفع الكريم...!" المهم الآن الخروج سريعا: لنكرع بقايا الخمر ونذهب الى شارع إنْفاليدن... هناك ازدحمت السيارات – معظمها من طراز ترابانت لا من طراز وارتْبورغ –، لان الجميع تدفقوا نحو المعبر الذي فُتح على نحو عجيب ورائع.

وسمع المنصت بدقّة انّ كلّ من اراد الذهاب الى الغرب سيرا على الاقدام او بالسيارة، كان يصيح او يهمس "جنون!"، مثلما سبق لي ان صحت "جنون!" قبيل بيلنْدورف وقبل ان استرسل في فراري الفكري الى غير زمن.

نسيتُ ان أسأل صديقي كيف ومتى وبايّ ثمن حصل أخيرا على الدواليب الشتائية. وكان بودّي ان اعلم ايضا ما اذا احتفل برأس السنة والانتقال من تسعة وثمانين الى تسعين مع زوجته التي كانت في عهد ج أ د متزلّجة ناجحة على الجليد، في جبال أرتسغْهبْيرغه... فان الحياة مستمرة ابدا، بطريقة ما او بغيرها...

ترابنْت: سيارة صغيرة من انتاج الماني شرقي.

وارتْبورغ: سيارة متوسطة الحجم من انتاج الماني شرقي.

سدّ الحماية: اطلقت قيادة الدولة في جمهورية ألمانيا الديمقراطية (ج أ د) على الحدود بين الدولتين الالمانيتين مصطلح "سدّ الحماية من الفاشية".

لم نلتق في لايبْتْسِغ للمشاركة في عدّ الاصوات وحسب. وصل الزوجان يعقوب و ليونوره زول قادمين من البرتغال ونزلا في فندق مركور قرب المحطة. اما أُوته وانا القادمين من شترالزّونْت، فنزلنا عند صيدليّ كنت اعرفه من طاولة لايْبْتْسِغ المستديرة التي اقيمت في حي فيدرْيتْش بضواحي المدينة. قضينا العصر مقتفين آثار يعقوب الذي ترعرع في حي عمالي سُمّي سابقا اويتْش، ويطلق عليه الآن مارْكليبرغ... كان ابوه، ابراهام زول، المعلم للغتين الالمانية واليدّية في الثانوية اليهودية، أولّ من هاجر. رحل مع إخوان يعقوب الاصغر سنّا الى أمريكا. في عام ثمانية وثلاثين لحق بهم يعقوب وهو في الخامسة عشرة من عمره. ظلت الام وحدها في اويتْش، بسبب مشاكل زوجية... الى ان كان عليها ان تهرب ايضا... الى بولونيا ولتوانيا ولاتْفيا. هناك لحق بها الجيش الالماني في اواخر صيف واحد واربعين... وقيل فيما بعد إن فرقة حراسة اطلقت عليها النار اثناء محاولة الفرار... لم ينجح الزوج والابناء المقيمون في نيويورك في توفير ما يكفي من المال لتدبير تأشيرة دخول الى الولايات المتحدة – الامل الاخير للزوجة والام. احيانا يتحدّث يعقوب متردّدا حول تلك الجهود التي باءت بالفشل.

مع ان المشي كان يصعب عليه، قادنا الى المبنى السكني المتألّف من بيوت للايجار والى الباحة المسيّجة خلف المبنى التي استعملت لنشر الغسيل. ثم أرانا بلا كلل مدرسته، وفي شارع فرعي قاعة الرياضة التابعة لها. في الباحة الخلفية اعاد يعقوب اكتشاف قطعة من مخلفات شبابه: قضيب تُعلّق عليه السجادات للتنظيف. فاشار اليه مسرورا مرة تلو مرة. ثم مال برأسه، وأغمض العينين كما لو انصت الى الضربات المنتظمة، كما لو كانت الباحة لا تزال تضجّ بالحياة. ثم طلب الى ليونوره ان تصوّره تحت لافتة من الميناء الازرق حُفر عليها فوق تاريخ الاول من ايار ١٩٨٢ الثناء الرسمي: "جماعة سكنية مثالية لبلدة ماركْليبْرغ." كذلك توقّف امام الباب الازرق، المؤدّي الى قاعة الرياضة، المغلق، للاسف... طلّ

من ركن فوقه تمثالٌ نصفي لأب الجمباز يان، مؤسس حركة الجمباز الالمانية الشابة، وهو يتطلع الى الافق البعيد في صرامة "... لا – قال يعقوب – لم نختلط على الاطلاق بيهود الفرو الاغنياء الساكنين في مركز المدينة. هنا كان الجميع، اليهود وغير اليهود، والنازيون ايضا، عمالا او موظفين صغار." ثم اراد مغادرة المكان، اذ اكتفى بما شاهد.

حضرنا كارثة الانتخابات في "دار الديموقراطية" في شارع برنْهارت غورينغ. وقد استدللنا اليها برفقة مهندس بناء شاب. هناك جُهّزت منذ امد قصير مكاتب حركات حقوق المواطنين. في البداية مررنا على الخضر ثم على تحالف ٩٠. هنا وهناك وقف وجلس وقعد اناس في عمر الشبيبة امام اجهزة التلفزيون. التقطت ليونوره هنا ايضا صورا فوتوغرافية، يرتسم عليها الى اليوم الصمت والصدمة لحظةَ عدّ الاصوات الاولى. سترت امرأة شابة وجهها. وشاهد الجميع ان حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي مقبل على انتصار كاسح. "اي نعم – قال يعقوب – هكذا تجري الامور في الانظمة الديمقراطية."

في اليوم التالي وجدنا امام مدخل جانبي الى كنيسة نيكولاي التي انطلقت منها في خريف العام الفائت تظاهرات يوم الاثنين لافتةً معلقة على اسيجة من الصفيح المموج تحاكي باطرافها وحروفها الزرقاء لافتة من لافتات اسماء الشوارع. فقرأنا: "ساحة المخدوعين." وتحت العبارة كُتب بخط صغير: "سلامات من اطفال تشرين. اجل لا نزال في الساحة".

قبل ان ودّعنا مضيفنا الصيدلي الذي انتخب الاتحاد المسيحي – "نعم، لأجل المال. لكني ندمان..."، ارانا الاخير، بفخر الساكْسوني الطيب الذي ظل حتى في الاشتراكية حركا وشاطرا بيته مع المسبح والحديقة. الى جانب بركة منمنمة رأينا رأسا برونزيا لـ غوته يبلغ طوله مترا ونصف، وبادله مضيفنا بكمية كبيرة من السلك النحاسي لتفادي صهر هامة الشاعر الضخمة المزمع عليه. وفي الحديقة دُهشنا لرؤية شمعدان كان سيتم بيعه مع قطع اخرى الى هولاندا مقابل العملة الصعبة، لو لم يخطر على بال صيدليّنا ان يخطف هذه القطعة، او على حد قوله، ان

ينتشلها. كذلك رفع عمودين من الـ لبرادوريت وحوضا من الرخام البْرفيري من مقبرة مهدّدة بالطمس، وضمّ هذه القطع الى حديقته. وفي كل الاركان صادفنا مقاعد منحوتة من الحجر او مصبوبة من الحديد، قلّ استعماله لها، وهو يكاد لا يستريح البتة.

ثم قادنا صيدليّنا الذي ظل مستقلا رغم انف الاشتراكية، الى مسبحه المسقوف، الذي ستدفئه بطاريات شمسية ابتداء من نيسان المقبل. لكن اكثر من هذه المنتوجات الغربية التي حصل عليها بالمبادلة دهشتنا تماثيل من الحجر الرملي تفوق حجم الانسان العادي وتصوّر المسيح والرسل الستة، بينهم الانجيليين. اكّد لنا الصيدلي بانه استطاع انقاذ هذه التماثيل في الدقيقة الاخيرة، اي قبل تحطيم كنيسة ماركوس على ايدي "البرابرة الشيوعيين"، كما قال، شأنها شأن كنائس لايبْتسِغية اخرى. فاذا بالمسيح المنحوت باحساس القرن التاسع عشر المتأخّر، ينتصب الآن مع بعض من رسله في نصف دائرة حول المسبح المتلألئ في اللون الفيروزي، ويبارك رجلين آليين (من صنع ياباني) ينظّفان باجتهاد جدران المسبح المبلّطة، ويباركنا ايضا، نحن الذين جئنا الى لايبْتسغ لنصحو، في الثامن عشر من آذار، من حلم الانتخابات الاولى الحرّة لمجلس الشعب... ويبارك، على الارجح، التوحيد المقبل، منتصبا تحت سقف تحمله، على حدّ قول الصيدليّ، "أعمدة دورية" رشيقة. اضاف: "هنا تلتقي عناصر هيلينية ومسيحية بالروح الساكسونية العملية."

اثناء رحلة العودة، مرورا بكروم العنب على ضفتي نهر اونْستروت وبلدة مولْهاوزْن في جوار الحدود، نام يعقوب زول منهك القوة من رجوعه الى لايبْتسِغ – اويتْش. لقد شاهد بما فيه الكفاية.

يعقوب وليونوره زول: زوجان من اصدقاء أوته وغونتْر غراس. عاشا في السنوات الاخيرة، قبل وفاة يعقوب في عام ١٩٩٨، في البرتغال.

الطاولة المستديرة: هيئة حوارية تشكّلت في الاشهر الاخيرة لقيام جمهورية المانيا الديمقراطية (الشرقية)، التقى فيها معارضون وكوادر حزبية لمناقشة تصوراتهم وايجاد حلول للمشاكل

القائمة.

أب الجمباز يان: فريدرش لودفيغ يان (١٧٧٨–١٨٥٢) مربّ، بادر بادراج حركة الجمباز بوصفها وسيلة لتربية الشبيبة الالمانية. نادى في عام ١٨١١ للانتفاضة الشعبية على سيطرة نابوليون ولقيام الدولة الوطنية الالمانية.

تحالف ٩٠: تكتّل لفرق المعارضة في ألمانيا الشرقية انشئ عام ١٩٩٠، انضم اليه "الخضر" عام ١٩٩٣.

ساحة المخدوعين: في عام ١٩٩٠ كتب غرس مقاله "بعض النظرات من ساحة المخدوعين" الذي نشر في ١١/٥/١٩٩٠ في جريدة "تسايْت" تحت العنوان "ماذا أقول. من يبقى مستمعا."

"لا يرى الواحد قتلى... احداثيات متذبذبة، لا غير، واصابات دقيقة جدا، حسب ما يزعمون. يبدو الامر مثل لعبة اطفال..."

"طبعا، لانّ س ن ن حائزة على حقوق البث التلفزيوني لهذه الحرب، وللحرب القادمة... وللحرب التي تليها ايضا..."

"لكن الواحد يشاهد حقول النفط المحترقة..."

"لان الامر يدور على النفط، على النفط فقط..."

"حتى الاطفال في الشوارع يعرفون ذلك... مدارس باكملها فارغة ونزلت الى الشوارع... غالبا بلا معلم، في هامبُورغ وبرلين وهانوفر..."

"حتى في شفيرين ورستُوك. يحملون الشموع، لان قبل سنتين سقط عندنا..."

"في حين أنّنا لا نزال نثرثر على ثمانية وستين، وكيف وقفنا يومها بصرامة ضد الحرب في فيتنام والنابالم و... و..."

"واليوم لا نرفع مؤخرتنا، بينما الاطفال في الخارج"...

"ما من مقارنة. كان عندنا على الاقل افق معين وبرنامج ثوري في حين ان هؤلاء لا يحملون سوى الشموع..."

"لكن المقارنة بين صدام وهتلر ممكنة، أليس كذلك؟ الاثنان في خانة واحدة، وهكذا يمكن لكل واحد ان يفهم اين الخير واين الشر."

"صحٍ، لكن هذه المقارنة مقصودة بالمعنى المجازي. كان عليهم ان يتفاوضوا لمدة اطول، اطول بكثير... ويمارسوا من ثم ضغطا بالحصار الاقتصادي، كما جرى في افريقيا الجنوبية، لان الحرب..."

"واي حرب هذه؟ الاستعراض الذي دبّره الـ س ن ن مع البنتاغون ويشاهده المستهلك العادي الآن على الشاشة، يبدو مثل العاب نارية أُخرجت لصالون البيت خصيصا... بكل نظافة، من دون قتلى... يشاهدها أحدنا وكأنّه برنامج من الخيال العلمي بينما يقضم المكسّرات."

"لكن الواحد يشاهد حقول النفط المحترقة والصواريخ المتساقطة على اسرائيل والناس النازلين الى الملاجىء بأقنعة الغاز..."

"ومن زوّد صدام طوال السنوات بالاسلحة ضد ايران؟ بالضبط. الامريكيون والفرنسيون..."

"... والشركات الالمانية. هاك، قائمة طويلة: من زوّدهم بكذا وكذا... افضل الانواع، بلا بُخل: لوازم الصواريخ ومطابخ السموم بما فيها وصفات الطبخ..."

"...لذلك يؤيّد حتى بيرمان الحرب، وانا ظننتُه من انصار اللاعنف. وهو يقول ايضا..."

"لا يقول شيئا، لكنه يشي بكل واحد لا يتبع خطه..."

"... والاطفال حاملو الشموع للسلام، يسمّيهم بكائيين..."

"لان هؤلاء الاولاد... ما عندهم غاية اجتماعية ولا افق ولا حجج بينما كنا يومها..."

"... لكن الشعار "لا للدمّ مقابل النفط!" هو قول له معنى..."

"لكن هذا لا يكفي. حين كنا ضد حرب فيتنام..."

... "لكن، هتاف الـ"هو هو هو تشي منه!" لم يكن حجة مقنعة جدا..."

"على كل حال، ينزل الاولاد الآن الى الشوارع والساحات... في مونيخ وشتوتْغارت ايضا... اكثر من خمسة آلاف... حتى اطفال الرياض ينضمّون اليهم... في تظاهرات صمت تتخلّلها دقائق صراخ. "انا خائف! انا خائف!" لغاية الآن لم يعترف احد هنا في المانيا بانه... فبرأيي..."

"الآراء خراء! عاينوا هؤلاء الاولاد! من تحت آديداس ومن فوق ارماني. اولاد مدلّلون يخافون فجأة على ثيابهم الانيقة، بينما كنا ثمانية وستين وفيما بعد، حين كنا ضد مدرج الاقلاع الغربي او ضد صواريخ بيرشينغ ٢ في موتْلانْغن وغير محل... كانت الاوضاع قاسية... والآن يجيئنا هؤلاء الاولاد متخطلين بشموعهم..."

"واذا؟ أ لم تبدأ الاحداث في لايبْتسِغ بالطريقة نفسها ؟ اشتركتُ، حين كنا

ننطلق كل يوم اثنين من كنيسة نيكولاي مسالمين... كل اثنين، اقول لك، الى ان بدأ الزعماء يرجفون..."

"لا يمكن مقارنة تلك الاحداث بما يجري اليوم."

"لكن يمكن المقارنة بين هتلر وصدام. الاثنان معا على طابع بريدي. هذا ممكن، أليس كذلك؟"

"على كل حال، تحترق حقول النفط... "

"وملجأ مليء بالمدنيين في بغداد..."

"لكن عند س ن ن يدور فيلم آخر كليا..."

"لماذا لا تفهم... هذا هو المستقبل. قبل ان تندلع حرب ما تُباع حقوق البث التلفزيوني في المزاد..."

"واليوم يمكن تحضير الانتاج قبل الحدث الفعلي، لان الحرب القادمة ستندلع حتما. في غير محل ام في الخليج ايضا."

"لكن بالتأكيد، ليس في البلقان ضد الصرب او الكرواتيين..."

"لا، في البلاد الغنية بالنفط حصرا..."

"وساعتها لن نرى قتلى ايضا..."

"والاطفال وحدهم سيخافون فعلا..."

لا يرى الواحد قتلى: حرب الخليج الثانية في ١٩٩٠/٨/٢. دخلت القوات العراقية الكويت. بعد فشل الحصار الاقتصادي وقرارات الامم المتحدة المطالبة بالانسحاب من الكويت، شنّت القوات الامريكية بالتعاون مع وحدات اوربية وعربية في كانون الثاني عام ١٩٩١ الحرب ضد العراق التي انتهت الى هزيمة العراق في شهر شباط .

س ن ن: شركة بث خاصة في الولايات المتحدة تعرض الاخبار على مدار الساعة. اطّلع الرأي العالمي على مجريات حرب الخليج من خلال موادها المصورة التي صرّحت الولايات المتحدة ببثّها العالمي.

مدارس باكملها فارغة: تحت الشعار "لا للدم مقابل النفط!" تظاهر التلاميذ والطلاب وآخرون من اجل وقف الحرب ضد العراق.

لان قبل سنتين سقط عندنا...: الحائط.

صدام: صدام حسين، مواليد (١٩٣٧)، منذ ١٩٧٩ رئيس مجلس الثورة ودولة العراق.

ومن زوّد صدام بالاسلحة ضد ايران: خلال حرب الخليج الاولى، تمّ تسليح العراق بمساعدة الدول الغربية.

بيرمان، فولف بيرمان: انظر ١٩٧٧. برّر حرب الخليج في جريدة "تسايْت" ١٩٩١/٢/١. اتخذ بعض المثقفين اليساريين الذين كانوا في السابق من انصار اللاعنف، موقفا مشابها.

مدرج الاقلاع الغربي: مشروع لتوسيع مطار فرانْكفورت. اقيمت ضده تظاهرات احتجاج في العامين ١٩٨١ و١٩٨٢، ادت مرارا الى اعمال الشغب والعنف. رأى اعداء المشروع انه سيقضي على الغابات الاخيرة الكبيرة في منطقة نهرَي راين وماين.

١٩٩٢

بقليل من الدهشة لبّيتُ الدعوة التي جاءتني من جماعة من السيدات والسادة الكبار في العمر الذين قدّموا خدماتهم في الماضي لشؤون الدولة الساقطة. فغادرتُ فتنبْرغ وسافرتُ اليهم. كنتُ، لكوني قسيسا، متمرّسا الى حد بعيد في سبر أغوار النفوس وأهوائها التي انكشفت مؤخّرا في طول البلاد وعرضها. بعيد سقوط الحائط ضممتُ صوتي الى اصوات من يؤيّدون فضح اجتهاد جهاز أمن الدولة السابق، فاتحمّل الآن مسؤولية مزدوجة.

بفضل الصحافة كنتُ على علمٍ بالقضية المعنية لا يقتصر على العنوان العريض: "زوج يتجسّس على زوجته لمدة سنوات." لكن طالبي نصيحتي لم يكونوا الزوجين المصابين بالنكبة، او بالاحرى، بمخلّفات سيطرة أمن الدولة، بل ان الذين ناشدوا عوني هاتفيا، مؤكدين لي في الوقت عينه ان لا حوافز او روابط دينية لديهم، كانوا أهل الزوجين المعنيين. فاكّدتُ لهم بدوري انّي ساقوم بالرحلة الى برلين من دون اية نوايا تبشيرية.

جلس الزوجان المضيفان على الكنبة، وجلس ابوا الزوجة على مقاعد منفردة، وانا كذلك. قالوا لي: "لا يمكن لنا البتة ان نصدّق رواية الصحف. لكن المعنيين لا يكلّموننا." وقالت ام الزوجة المتجسس عليها: "اكثر من يعاني من القصة هم الطفلان، طبعا، لان الاثنين يحبّان اباهما كثيرا." واتفق اهل الزوجين المنكوبين على ان الابن او زوج الابنة كان دائما ابا جيدا وصبورا. الى ذلك، أكّدوا لي ان الابنة او زوجة الابن كانت الشخصية الاقوى، بل المهيمنة. مع العلم ان الاثنين كانا متفقين في نقدهما للحزب ومن ثمّ للدولة. وانهما رفضا التعقّل كلما قيل لهما إنّ لدولة العمال والفلاحين فضلا كبيرا عليهما. فلو لا العناية الاشتراكية، لما وجدا عملا ملائما في مجال تخصّصهما العلمي العالي...

في البداية اكتفيتُ بالاصغاء. قيل فيّ اني اجيد ذلك. وهكذا علمتُ ان اب الابن كان يعمل باحثا معترفا به في مجال الادوية وان اب الابنة المتجسَّس عليها كان

يعمل حتى النهاية في خدمة جهاز أمن الدولة في مجال تعليم الكوادر. وتأسّف الضابط السابق في أمن الدولة، العاطل عن العمل الآن، على تورّط زوج ابنته، وذلك لاسباب تعود الى معرفته بالجهاز من الداخل: "يا ليته ذكر لي شيئا قبل فوات الاوان. كنتُ نصحته بالعدول عن لعبته المزدوجة المجازفة. فمن ناحية اراد ان يكون مخبرا مفيدا ومخلصا للدولة، ومن ناحية اخرى اراد حماية زوجته من اجراءات محتملة ضدها من قبل الدولة، اذ كانت مفرطة في الانتقاد والميّالة دائما الى ردات فعل تلقائية. سبّب له ذلك الوضع صعوبات. كان اضعف من ان يتحمّل هذا الضغط كله... وأنا أعرف بالنهاية على ما اتكلّم... عدة مرات تلقيتُ انذارات من جهة عالية، لانّي، بعد قيام ابنتي باستفزازها الاول، رفضتُ خلال لقاء سري في كنيسة في حي بانكو ان امتنع عن الاتصال بها، اي ان اقطع علاقتي بها. لا، بقيتُ اساعدها ماليا حتى النهاية، مع انها سمّت مكتبي دائما باحتقار "الاخطبوط."

على نحو مشابه اشتكى الباحث الجديد. إن ابنه لم يسأل نصيحته يوما. وإنه، وهو مناضل محنك في الكفاح ضد الفاشية وعضو في الحزب منذ زمن وملمّ منذ ايام المنفى بشتى انواع الزندقة وبالعقوبات الملائمة الشديدة، كان يلحّ على ابنه بالنصيحة ان يحسم الموضوع بهذه الطريقة او تلك: "لكنه كان يحلم بطريقة ثالثة..."

اما الام والحماة فاكتفيتا بالكلام والتعليق على مزايا الجاسوس المتزوج في دور الاب المثالي وعلى قلقهما على الحفيدين. وقالت ام الابنة التي وقعت ضحية التجسس لكونها منشقّة: "هنا، على هذه الكنبة جلس الاثنان مع طفليهما قبل اشهر قليلة... بانسجام ووئام... والآن تخرّب كل شيء..."

بقيتُ متحفظا، ألتزم بدور المصغي المتمرّس. تناولنا القهوة والكعك الذي كان، على فكرة، من صنع غربي ماركة بالزْن. سمعتُ انهم عاشوا نهاية الجمهورية بشيء من الألم، لكن من دون دهشة كبيرة. وان ما ادهشهم هو ان الابن او زوج الابنة تمسّك حتى النهاية، رغم دوره المزدوج او بسببه، باعتقاده ان "دولتنا" قابلة

للاصلاح، قابلة للتغيير. وكذلك الابنة او زوجة الابن: في وقت كان فيه الرفاق القائدون قد استسلموا، طلعت الابنة على المتاريس، مؤمنة بـ"اشتراكية ديمقراطية ما." وإن ذلك كله يبرهن على سذاجة الاثنين. "كلا -! صاح الآن ضابط أمن الدولة العاطل عن العمل – لم نفشل لمعارضة اطفالنا، بل لعجز في انفسنا." بعد استراحة صُبَّ فيها المزيد من القهوة، سمعتُه يقول: "منذ عام ثلاثة وثمانين، حين سافرت ابنتي مع زوجها في انسجام ظاهر الى مدينة غوتا لحضور الاجتماع التأسيسي لما اطلق عليه "الكنيسة من تحت"، كان على المسؤولين في الحزب والدولة ان يقيّموا هذه المبادرة ايجابيا ويحولّوها الى حركة "الحزب من تحت"....."

ثم جاءت اتهامات ذاتية... وانا الذي انضممتُ، رغم تحفظات ادارة كنيستنا، بدوري الى حركة "الكنيسة من تحت"، بذلتُ جهدا لتفادي اي شعور بالانتصار والشماتة ازاء ذلك التفهّم العميق الذي جاء متأخرا، بل بعد فوات الاوان... لكن بعد حين اتّهم عالِمُ الادوية ضابطَ جهاز الامن الذي تولّى سابقا تدريب الكوادر بان الجهاز سلّم شعبه المستضعف لرحمة الغرب وادارته بسبب ما خلّفه من ملفّات متراكمة باجتهاد مفرط. فاعترف حمو جاسوس امن الدولة بتقصير اجهزة الامن في هذا الخصوص. وقال انهم تناسوا حماية المخبرين المخلصين وبينهم افراد من عائلاتهم... من خلال اتلاف التقارير والمعلومات الشخصية قبل فوات الاوان... وإن اتخاذ هذه التدابير الوقائية كان واجبا عليهم... "او ما هو رأيك، يا سيد القسيس؟"

احترتُ في الجواب، فقلتُ: "صحيح، صحيح... لكن الغرب كان يجب ان يدرك بدوره اية قنبلة موقوتة تتك في شارع نورمانن. كان يجب ختم المركز بكل ما فيه من سقط بالشمع الاحمر... مهلة حجز – عشرين سنة، على الاقل... لكن الغرب لم يكتف، على ما يبدو، بالنصر المادي... من منظور مسيحي كان الاجدر ايضا ان... لحماية الاحفاد، كما في قضية عائلتكم..."

على اثر ذلك، عُرض عليّ الالبوم العائلي. في بعض الصور الصغيرة رأيتُ المنشقّة الشهيرة منذ عدة سنوات وزوجها المعروف الآن ايضا صاحب لحية

سوداوي السيماء... وبينهما الطفلان. كانت العائلة المصورة جالسة على الكنبة التي جلس عليها الآن اهل الابنة في دور جدّي الحفيدين المعذّبين. لم اعلم إلاّ وقتها بطلاق الزوجين المقبل. ووافق الاهل على هذه النية. قال ابوا احد الزوجين: "الامر ماش..."، وقال الابوان الآخران: "لا أمل في المصالحة." ثم شكروني على اصغائي الصبور.

القضية المعنية: فيرا وكنْود ولُنبْرغر، مواليد (١٩٥٢). قام السيد ولنبْرغر لمدة عشر سنوات بالتجسس على زوجته فيرا لصالح جهاز أمن الدولة "شتازي". كانت زوجته من اشهر المناضلات في حركة حقوق المواطنين في جمهورية ألمانياالديمقراطية. تزوج الاثنان عام ١٩٨١ ورزقا بطفلين كانا في التاسعة والسابعة من عمرهما حين فُضح أبوهما كجاسوس في عام ١٩٩١.

في اختصاصهما العلمي العالي: هي: فيلسوفة، هو: عالم رياضيات.
باحث معترف به: ألبرت فيلنبْرغر، بروفسور في علم الادوية.
أب الابنة المتجسس عليها: فرانتْس لانْغسْفلد، نقيب في الـ"شتازي".

١٩٩٣

كشرطي صغير – لا حول لك ولا قوة... أعني، من حيث المبدأ تختلف الامور، فقبل عدة سنوات، حين كانت المعابر الى الغرب مقفلة ودوائر دولتنا تفي بما تعد، اي ان تحافظ على النظام والحياة العادية، لم تكن عندنا ظواهر من ذلك النوع: خمسمائة او ستمائة شباب أصلع، جميعهم من اليمين المتطرّف، بينهم مسلّحون بمضارب الباسبْول، يهبّون بالتنكيل كلّما لاحظوا ظلا لزنجي من الزنوج... يومها كنا نسمع في أسوأ الحالات تذمّرا من البولونيين الذين تغلغلوا الى البلاد واشتروا كل ما يقع بين ايديهم. اما نازيون حقيقيون، في تنظيم صارم وباعلام الرايخ الحربية والخ، فلم يظهروا عندنا إلا قبيل النهاية، حين عمّت الفوضى... فيومها صار رفاقنا القائدون مصابين بالاستياء وروح الاستسلام. أما في الغرب فكانوا موجودين منذ زمن، كانوا ظاهرة عادية. لكن، حين بدأ الشغب عندنا ايضا – نعم، في البداية في هويرسفْردا ومن ثم هنا في روستْوك – ليشتْنْهاغن، لانّ مركز استقبال اللاجئين، بالمختصر م ا، ودار الفيتناميين المجاور ازعجا السكان – كنا، نحن الشرطيين، عاجزين الى حدّ كبير: كانت اعدادنا غير كافية وكنا نفتقر الى قيادة حازمة. فقيل حالا: "طبيعي في الشرق!" او "والشرطة هناك تصرف النظر..." – اي نعم، هذا ما كنا نسمعه. اتّهمونا بالتعاطف المضمر او المعلن مع المشاغبين. الآن فقط، بعد ان اشتعل حريق في مولن حصد ثلاثة ضحايا وافتُعل مؤخّرا حريق في زولينغن اوقع ايضا ضحايا – خمسة هذه المرة –، اي منذ ان شقّ الارهاب طريقه اينما كان، او اذا اردتم، على كامل الاراضي الالمانية، الآن فقط صار الزعم "هذه الامور لا تحدث إلاّ في الشرق" باطلا: مع العلم ان سكان روستْوك الذين كانوا سابقا من الشغيلة وصُرف معظمهم فصاروا عاطلين عن العمل، هم الآن مرتاحون جدا – مع انهم لا يكرهون الاجانب مبدئيا – لانّ دور اللاجئين أُخليت منذ احداث الشغب، والزنوج والفيتناميين نُقلوا الى غير محل ولا يلفتون الانظار بعد الآن.

صحيح، شهدنا هنا في ليشتْنْهاغن – كما في هويرسفْردا من قبل – مناظر قبيحة فعلا... وسلوك الناس لم يسهّل علينا العمل كشرطيين... تزاحموا خلف النوافذ يتفرّجون على الشباب الصلعان المسلّحين بمضارب الباسبْول، او يصفقون لهم، وهم يطاردون اولئك المساكين، بينهم لاجئون من البلقان، ويضربونهم وينكّلون بهم... فصارت الاحوال هنا بكل صراحة فالتة وخربة تماما... بشق النفس استطعنا ان ننقذ الفيتناميين ونتفادى الاسوأ... فلم تقع عندنا ضحايا... لكن في الغرب، كما قلتُ، أعني في مولن وزولينْغن... كان الضحايا من الاتراك. وليس عندنا منهم. لكن الامور يمكن ان تتغير، اذا ظن هؤلاء في الغرب ان بامكانهم ان يحطّوا اتراكهم عندنا، وكل ما يتدفّق اليهم من البلقان، من بوسنيين وألبانيين وبينهم مسلمون متعصّبون... يضعونهم عندنا، اي نعم، لانّ لدينا، كما يقال، متّسعا من المكان... فكشرطيّ صغير مثلي لا حول لك ولا قوة، حين ياتي هؤلاء الأشقياء وينجزون ما يجب أصلا على السياسة ان تنجزه في الحالات العادية: اغلاق الحدود وضمان استتباب الامور قبل فوات الاوان... لكن الزعماء يكتفون بالكلام ويتركون لنا العمل القذر.

ماذا تقولون؟ مسيرات؟ مئات الآلآف تظاهروا بالشموع ضد كره الاجانب؟ ما رأيي في ذلك؟... دعوني اسألكم: وما الفائدة؟ حصل ذلك عندنا ايضا، على فكرة... كميات هائلة من الشموع... في لايْبتسِغ وحتى في روستْوك... وبعد؟ ماذا استفدنا..؟ صحيح: سقط الحائط... وبعد؟ فجأة يتكاثر هنا اليمينيون المتطرّفون... يوما عن يوم... شموع شموع! الشموع تحلّ المشكلة! دعوني اضحك...! روحوا واسألوا الناس الذين كانوا في السابق كلهم يشتغلون في بناء السفن او في غير محل، إسألوهم ما رأيهم في الشموع وفيما يحدث على الارض... اي ماذا يحسّ الانسان الذي يصير بين ليلة وضحاها عاطلا عن العمل...! او اسألوا زملائي، لا، ليس زملائي من هامبْورغ: سحبوهم من هنا حالما بدأ الشغب... بل أسألوا شرطيينا، ولهم خبرة في الخدمة من ايام شرطة الشعب، اسألوهم عن رأيهم في سحر الشموع وطنطنة السلام...! ماذا تقولون؟ هكذا

اعطينا لجيراننا الاوربّيين دليلا جليا على حيائنا... لانّ الرعاع البنّيين عادوا في المانيا...

دعوني اسأل بكل تواضع وبصفتي شرطيا صغيرا: أتجري الامور في فرنسا على نحو مختلف؟ ام في لندن، على سبيل المثال؟ أيعاملون جزائرييهم او باكستانييهم هناك برفق مثل البيض النيء؟ ام كيف يعامل الامريكي زنوجه؟... فاذن الامور مفهومة... والآن ساقول لكم بكل صراحة: ان ما جرى هنا في ليشتْنهاغن وبلغ حده الاقصى فيما بعد في مولن وزولينغن، هو امر مؤسف، صحيح، لكن من حيث المبدأ يمكن حسبانه مجرى عاديا. ونحن الالمان بعامة – والآن اقصد الالمان على كامل الاراضي الالمانية – شعب عادي جدا، مثل الفرنسيين والانكليز والامريكيين ايضا. ماذا تقولون؟... حسنا، اذا اردتم: عادي الى حد الترك....

الصلعان: سكنْهادز، انظر عام ١٩٨٤.

هويرسفيردا: ١٩٩١/٩/١٧. عند اعتداء على دار من الدور المخصصة لسكن الاجانب جُرح ١٧ من السكان.

روستوك – ليشتْنهاغن: ١٩٩٢/٨/٢٢. اشعل انصار من اليمين المتطرف حريقا في مبنى سكني للفيتناميين وصفّق لهم مواطنون المان ساكنون في الحي. لم تتمكن الشرطة من السيطرة على الاعتداءات العنيفة إلا بعد مرور ليال من الشغب المتواصل.

دار من دور الفيتناميين: في عهد جمهورية ألمانيا الديمقراطية تم "استيراد" اعداد كبيرة من الفيتناميين كايد عاملة. سكن هؤلاء في مبان سكنية خاصة بهم ومعزولين عن الالمان الى حد بعيد.

مولن: ١٩٩٢/١١/٢٣. شابّان من اليمين المتطرف اشعلا حريقا في مبنى سكني للعائلات التركية.

زولينغن، ١٩٩٣/٥/٢٩: اشعل بعض الشباب بيتا سكنيا لعائلة تركية.

شموع: يومها احتشد في معظم المدن الكبيرة مئات الآلاف من المتظاهرين الحاملين الشموع للاحتجاج السلمي على كره الاجانب.

١٩٩٤

يقال اني صلبة العود. واذا...؟ أكان عليّ بالاحرى ان اظهر بمظهر الضعف، لمجرد كوني امرأة؟... إنّ ذلك الذي يدوّنني هنا ويظنّ ان له الحق في تقييمي – "سلوكها الاجتماعي غير مرض" – عليه ان يقرّ، قبل ان يحرّف نشاطاتي الناجحة لحظة الحساب الاجمالي ويلوّنها بالوان الافلاس، بانّي خرجتُ من اجتماعات لجان التدقيق كلّها في افضل صحة، اعني من دون ان يُلحق بي اي ضرر وبانّي ساكون في العام ٢٠٠٠، عام اقامة الـ اكسبو، على قدر جميع المتفذلكين والمتحذلقين... لكن، إن كُتب لي السقوط، لان الرُمَنْطقيين الاجتماعيين يستلمون السلطة، فاني ساسقط سقوطا طريا... فانسحب الى املاكنا العائلية، المطلّة على نهر البه، التي ظلت في حوزتي بعد ان اضطرّ ابي، واحد من آخر المصرفيين الكبار، الى اعلان افلاسه... ساعتها ساقول "واذا!..." وساصبّ اهتمامي على مراقبة السفن، وخاصة سفن الشحن: أتأمل كيف تصعد النهر في اتجاه هامبْورغ وتبحر من هناك ثقيلة ومحمّلة في اتجاه مصبّ النهر، ومن ثم الى البحر، فالى البحار الكثيرة. وحين يضفي غروب الشمس جوا فريدا على المشهد ويجرّب النهر متلهّيا الوانه كلها... حينها سأئن وساستسلم لصور سريعة الزوال، وسأكون كلي شعور وشاعرية وطرية العود جدا...

أجل! احبّ الشعر، لكنّي احبّ ايضا المجازفة المالية وما لا يُحسب له حسبان، مثل هيئة الائتمان، او حرفيا "اليد الامينة"، التي حرّكت تحت اشرافي المليارات، واعني تحت اشرافي وحسب، وصفّت آلاف المصانع العاطلة في وقت قياسي، فخلقت مساحةً لاستقبال الجديد... لذلك يخطّط هذا السيد، الذي ينوي على ما يبدو ان يقيّد الاجور القياسية التي دفعتُها للقائمين بالتصفية الناجحة، على اضرار الاصلاح التي لا مفر منها... لذلك يخطّط اذن لتأليف رواية ضخمة – كالمعهود – يريد ضمن حبكتها ان يقارنني بشخصية من عمل الاديب فونتانه، لان سيدةً يُطلق عليها جيني ترايبْل استطاعت شأنها شأني، ان تقرن التجاري

بالشعري...

ولمَ لا؟ من الآن فصاعدا! لن اكون اذن "سيدة اليد الامينة" الصلبة العود – والملقّبة ايضا بـ"الليدي الحديدية" – وحسب بل ساكون وجها من وجوه التاريخ الادبي... يا لهذا الحسد الاجتماعي والكراهية ضدنا، نحن القابضين اجورا اعلى!... وكأنّي اخترتُ هذا العمل او ذاك! كلّ مرة كان الواجب يناديني، كل مرة عُيّنت: وزيرة للاقتصاد في هانوفر وفيما بعد مسؤولة في الدار الكبيرة في شارع فلْهلْم، وذلك بعد ان تمّ تصفية المسؤول السابق باطلاق الرصاص عليه – على يد من، يا ترى ؟–، فصارت "اليد الامينة" في حاجة الى من يديرها... ويصحّ هذا ايضا بالنسبة للـ أكسبو: ٢٠٠٠ فُرض المشروع عليّ، لانّي لا اخشى المجازفات ولانّي لست تابعة لاحد، او للسوق وحسب في اسوأ الحالات، ولانّي استطيع ان اهضم الخسائر واراكم ديونا تستحقّ الجهد، ولانّي انفّذ كل شيء بصلابة عود، مهما كلّف من ثمن...

يجب الاعتراف: اوقع نشاطي الضحايا: أعني العاطلين عن العمل... ولا يزال يوجد منهم. يريد السيّد الذي يدوّنني ان يقيّد عليّ مئات الآلاف. واذا! اقول في سرّي. تبقى لهؤلاء المخدّة الاجتماعية في حين يجب عليّ ان اواجه ابدا، ومن دون استراحة، مهام جديدة. اذ حين أنجزت "اليد الامينة" عملها الفريد من نوعه، وصفّت في عام اربعة وتسعين البقايا المتبقّية من اقتصاد التخطيط الشيوعي كان عليّ ان أتهيّأ حالا للمغامرة القادمة: المعرض العالمي. وماذا يعني اتهيأ؟ كان المطلوب مني بالاحرى ان امتطي الحصان الراكض: الـ اكسبو. وابثّ نَفَس الحياة في شبح الفكرة الضبابية... بينما كان بودّي في الواقع، اذ كنتُ نوعا ما عاطلة عن العمل ان اتكاسل على حساب الدولة على المخدّة المذكورة. وكنتُ افضّل بالطبع ان اتنعّم بهذه العطلة على شرفة مقرّنا العائلي المطلّ على نهر البه، والذي لا يمكن لي التمتع به إلا نادرا او بعد غروب الشمس حصرا، لانّ "اليد الامينة" لا تزال معلقة بي، ولانّهم يهدّدونني من جديد بلجنة تدقيق، ولانّ ذلك السيد الذي يريد ان يقيّدني في خانة عام ١٩٩٤، ينوي الآن ان يحسب عليّ الحساب الكبير، مدّعيا: بانّني –

وليس مصانع البوتاس الالمانية الغربية – مسؤولة عن صرف آلاف من عاملي منجم البوتاس في بيشوفرْروده؛ بانّني – وليس كروب باي حال – اجهزتُ على معمل الصلب في اورانينبْورغ؛ بانّني – وليس صيّادي الربح من شفاينْفورت على الاطلاق – أهلكتُ جميع المصانع المنتجة محامل الكريات في عهد المانيا الشرقية الرمادي الى الهلاك؛ انا المتّهمة بتنفيذ الحيلة التي اسعفت مصانع غربية ضعيفة – مثل الترسانة البحرية في بريمن – باموال من الدولة الشرقية؛ اما، سيدة اليد الامينة، الملقبة ايضا بـ جيني ترايبْل، متّهمة – من خلال قلمه المشتط في التشبيه – بتنفيذ اختلاس يُقدّر بالمليارت... وعلى حساب اناس صغار يتخبّطون بلا حيلة...

لا. لا احد قدّم لي شيئا على طبق من فضّة. كان عليّ ان اغزو واستولي. كانت المهام العملاقة وحدها تحدّيا لي، ليس الرقع المزركشة بالشناشيل الاجتماعية. فاني احبّ المجازفة، والمجازفة تحبّني... وفي يوم من الايام، حين يصمت الكلام على نسبة البطالة العالية المزعومة، وعلى الاموال المتبخّرة بلا اثر – اؤكّد: "بلا أثر!" – وحين تخفض اصوات الاحتجاج على دعم بطاقات دخول الـ اكسبْو وصغائر مشابهة – بدءا بعام ٢٠٠٠ على الارجح –، حينها سيبيّن الجميع حجم المساحات المترامية التي كافحتْ من اجلها اليد الامينة بتصفيتها الصلبة العود، وسيفهم الجميع ان خسائر المعرض العالمي المحتملة يمكن ان تحسب بلا تردد على حساب المستقبل، مستقبلنا المشترك. اما انا، فسيكون لي اخيرا أن اتنعّم من مقرنا العائلي بالاطلال على نهر البه، واتمتع بشعرية النهر الناشط وغروب الشمس المجاني... ذلك في حال إعفائي من القيام بمجازفات اخرى... وقد يغريني، على سبيل المثال، الاشراف على تبديل المارك الالماني القوي بالـ يورو...

واذا! ساقول عندها في سرّي، وامسك الامور بصلابة... وعند الضرورة، بصلابة العود... ولا احد، ولا انت ايضا، ايها السيد الذي يريد تدويني، سيعفي المرأة التي لا تعرف الضعف من افلاس يتعدّى المألوف، ويبشّر، بما هو كذلك، بالنجاح الاكيد...

أنا: بيرغيت برويل، مواليد (١٩٣٧)، سياسية اقتصادية، بين ١٩٧٨ و١٩٨٦وزيرة اقتصاد اقليمية، بين ١٩٨٦ و١٩٩٠وزيرة مالية اقليمية ووزيرة الشؤون النسائية، بين ١٩٩١ و ١٩٩٤رئيسة هيئة الائتمان.

الذي يدونني هنا: غونتْر غرْس.

اكسبو: ٢٠٠٠ المعرض العالمي في هانوفر.

"اليد الامينة: "تأسست في آذار عام ١٩٩٠ في برلين الشرقية كـ"هيئة مؤتمنة على ادارة ملكية الشعب"، لتقوم، اثناء عملية توحيد الدولتين الالمانيتين، بخصخصة مصانع القطاع العام او "الملكية الشعبية" وبتجديدها او اغلاقها. عام ١٩٩٥ أعلن ان هيئة الائتمان انجزت مهمتها.

يخطط لتأليف رواية ضخمة: "حقل فسيح."

السيدة جيني ترايبل": رواية (١٨٩٢) لـ تيودور فونْتانه.

المسؤول السابق: السيد روهْويدر (١٩٣٢-١٩٩١) اداري صناعي، بين ١٩٦٩ و ١٩٧٨سكرتير دولة في وزارة الاقتصاد الاتحادية، ١٩٩٠ رئيس هيئة الائتمان، اغتيل من قبل عناصر لـ جناح الجيش الاحمر.

١٩٩٥

... والآن، ايها المستمعين والمستمعات، الآن تفلت الامور او كما يقال مزاحا هنا في برلين، يفلت الدب"– رمز العاصمة. اسمعوا المائتي او الثلاثمائة الف الذين يتزاحمون في الـ كوهدْام – الشارع الذي شهد الكثير من الساعات المصيرية – من كنيسة الذكرى صعودا الى حي هالنْزيه، في كامل طوله وعرضه، وهم يدفعون الجو فيه الى الغليان، لا بل الى الفوران ... ان امرا كهذا لا يمكن ان يحدث إلاّ في هذه المدينة. هنا فقط، في برلين، حيث تحولّت مؤخّرا ظاهرة لا مثيل لها الى حدث جذب مئات الآلاف، اعني تحجيب مبنى برلمان الرايخ السابق باللمسات الساحرة للفنان العالمي الشهير كريستو؛ هنا فقط حيث رقصت الشبيبة قبل سنوات قليلة فوق الحائط واحتفلت بالحرية احتفالا صاخبا ورفعت النداء "جنون!" شعارا للسنة ؛ اقول: هنا فقط، يمكن لـ "لوف باراد" ان يجد من جديد مسرحا له فتتدفّق المسيرة هذه المرة بمشاركة غامرة وجنون طلق الاعنة وتعطّش الى الحياة... مع ان حكومة المدينة كانت في البداية مترددة بين اجازة المسيرة ومنعها لجبال النفايات المنتظرة، فقد وافق وزير الداخلية اخيرا – ونحترم بلا شك تحفظاتكم، ايها المستمعين والمستمعات – وسمح لراقصي الـ تكنو المهوسين، او الـ"رافرز" الماجنين الفالتين تماما، بان يحتشدوا هنا ويحولّوا برلين اجمعها هذه المدينة الرائعة الفاتحة ابوابها لكل جديد، الى مسرحٍ لاكبر حفلة في العالم، يحسبها بعضهم نعمة ولذة وبعضهم الآخرون صدمة... فما يجري هنا منذ ساعات – اسمعوا هذه الجلبة –! لا يُضاهى ويفوق اي حدث آخر قوةَ صوتٍ وفرحاً بالحياة ومسالمةً مفعمة باللذة... فشعار هذا "الكارنفال ده ريو" المحتفل به على ضفاف نهر شبريه هو هذه المرة "بيس اون ارث." اجل، ايها المستمعين من الجنسين، هذا ما تريده هذه الشبيبة المتزيّنة بازياء خيالية والتي جاءت من انحاء العالم كلها، حتى من اوستراليا، هذا ما تريده بالتأكيد وقبل كل شيء: السلام على الارض! وفي الوقت عينه تريد ان تقول للعالم اجمعه: انظروا! نحن موجودون. نحن كثيرون.

نريد اللهو. لا شيء سواه. وذلك ما يفعلون، يلهون من دون روادع لانهم مختلفون، كما سبق وقلتُ، لانّهم ليسوا أشقياء من اليسار او اليمين، ولا ورثة موجة ثمانية وستين التي كانت دائما تمردًا على شيء ما ولم تكن ايجابا لاي شيء، ولا اناسا طيبين يريدون درء خطر الحرب، كما شاهدنا، بصيحات الخوف ومسيرات الشموع. لا، ان شبيبة التسعينيات من طينة مختلفة، مثل موسيقاها، التي قد تبدو لكم، ايها المستمعين والمستمعات الاعزاء، مجرد ضجيج مرهق، مقرع طبل الاذن، اذ عليّ ان اعترف بدوري ورغما عني، بان هذه الدمدمة المدويّة، المزلزلة للساحة، هذا الـ بوم بوم بوم والـ تشامكا تشاكا تشاكا، بالمختصر موسيقى الـ تكنو، ليست على ذوق الكل. لكن هذه الشبيبة مغرمة بنفسها وبالفوضى، وتريد ان تعيش الموسيقى ونشوتها. ترقص الى حد الارهاق، الى ان تتصبّب عرقا وبخارا، الى ان تبلغ الحد الاقصى وتتعداه، وتدفع شارع الـ كودام – اسمعوا هذا –! لا بل المدينة كلها الى الفوران، ترقص على عربات وشاحنات وباصات مستأجرة ومزيّنة باطرف الطرق، تكاد لا تتقدم في هذه اللحظات من شدة الازدحام، فيصعب عليّ الآن ان اعبّر عما يجري وانا اخوض زحمة الناس المطربين الذين يدقّون الارض بارجلهم... وأقترب من بعض الراقصين والراقصات المهوسين، حاملا ميكروفوني لاطرح عليهم السؤال: ماذا جذبك للمجيء الى هذه المدينة، الى برلين؟ – "لان التجربة غير معقولة، لما ترى الاعداد الهائلة وتكون وسط الناس" – ... وانتِ، يا آنستي في اللباس الوردي –: "لان هنا، في اللوف باراد، استطيع اخيرا ان اكون كما انا على حقيقتي" – ... وماذا يقول الشاب ؟ – "طبعا، لاني اؤيّد السلام، وما يجري هنا ينسجم مع تصوري للسلام" – ... وانت، يا جميلتي في الغلاف البلاستكي الشفّاف؟ ماذا جاء بك الى هنا؟ – "انا وصرتّي، نريد ان يكون لنا متفرّجون" – ... وانتما، في التنورتين الصغيرتين اللامعتين ؟ – "الجو هنا رهيب" – "... مذهل فعلا "... – "هذا الجو يمسك الواحد كليا" – "... هنا فقط، ينجح لباسي تماما –" ...تسمعونه، ايها المستمعين الاعزاء، صغارا وكبارا، اناثا وذكورا، ان الشعار هو اللباس، الـ "اوتْفِت!" لان هذه الشبيبة المنطلقة الفالتة لا

ترقص وحسب، وكأن الجنون ركبها... انها تريد ان تعرض وتصدم وتنال الاعجاب وتكون ذاتها... وما تلبسه، وغالبا لا يعدو ان يكون ملابس داخلية، يجب ان يكون ضيّقا وملاصقا للجسم. فلا عجب ان مصمّمي الازياء الكبار يستمدّون إلهامهم من الـ "لوف باراد." ولا عجب ان صناعة التبغ، وفي مقدمتها شركة "كَمَل"، تستخدم راقصي الـ تكنو منذ الآن ليحملوا اعلاناتها. ولا احد هنا ينزعج من هذه الطنطنة الاعلانية، لان هذا الجيل تصالح مع الرأسمالية من دون اي تشنّج. فشباب التسعينيات هم اطفال الرأسمالية. هم من لحمها ودمها. هم منتجات اسواقها. يريدون ابدا ان يكونوا ممثّلي الأحدث ومرتديه.... الامر الذي يدفع بعضهم الى تفعيل أحدث نشوة بتناول أكْسْتازي، أحدث انواع المخدّرات. وقبل حين قال لي رجل شاب في افضلِ مزاج: "لا يمكن انقاذ العالم باي حال، دعونا نقيم حفلة اذن..." وهذه الحفلة، ايها المستمعين والمستمعات، تقام هاهنا اليوم... ومن دون حاجة الى شعارات ثورية بل الى الـ "بيس" وحده، حاضرا ومستقبلا، حتى لو دار في محل ما على البلقان، في توسلا او سريبرينيكا او في غيره، تبادل النار والقتل... دعوني اختم تقريري الصوتي عن الجو في كورفورستنْدام اذن بنظرة الى المستقبل: المستقبل الذي هو منذ الآن حاضر في برلين، هنا، حيث نادى رئيس البلدية، السيد رويتْر الاسطوري، يوما بشعوب العالم: "انظروا الى هذه المدينة!"، هنا، حيث اعترف الرئيس الامريكي جون ف. كندي يوما: "اني برليني ايضا!"، هنا في هذه المدينة المقسومة سابقا التي تلتئم الآن وتشبه ابدا ورشة بناء كبرى، والتي ستنطلق منها الآن "جمهورية برلين" – مسبقة اطلالة العام ٢٠٠٠ – هنا يكون لجيل ان يرقص حتى النشوة، عاما بعد عام، – وبعد سنة حتى في حديقة الحيوانات؟ – جيل يملك منذ الآن المستقبل، في حين انه لنا، نحن الاكبر سنا، لو سمحتم لي ختاما بهذا المزاح ان نعتني بالنفايات، بجبال النفايات التي ستخلّفها لنا، مستقبلا كما في العام الفائت، مسيرة الحبّ وحفلة الـ تكنو الكبيرة.

كريستو: مواليد (١٩٣٥) فنان تغليف بلغاري-امريكي غلّف في صيف ١٩٩٥ مبنى برلمان

الرايخ في برلين باشرطة قماش كبيرة.

جون ف. كندي: (١٩١٧-١٩٦٣)، الرئيس الخامس والثلاثون للولايات المتحدة، ادلى بتصريحه أني برليني ايضا!" خلال زيارته الرسمية في ١٩٦٢/٦/٢٦.

١٩٩٦

في الاساس كان البروفسور فانْدرْبروغه الذي الححتُ عليه منذ امد باسئلة ساذجة، مستعدا لان يكتب لي بمناسبة هذه السنة قطعة في الجينات وتحليلها تتضمّن معلومات حول النعجتين التوأمين المستنسختين ميغان وموراغ - فالنعجة دوللي الاسكتلاندية لم تكن لتولّدها والدة مستعارة إلاّ في العام التالي -، لكن البروفسور اعتذر لوجوب السفر الطاريء الى هايدْلبْرغ حيث عليه ان يشارك في مؤتمر باحثي الجينوم، لكونه فطحلا مرغوبا فيه هنا وهناك. وعلى حدّ قوله، لا يدور البحث في المؤتمر على نعجات مستنسخة وحسب، بل في الدرجة الاولى ومن منظور علم اخلاق الاحياء، على مستقبلنا الذي يمكن قراءته منذ الآن مستقبلا خاليا من الآباء.

لذلك اقصّ بديلا قصة تدور عليّ، او بالاحرى على بناتي الثلاث وعليّ، انا ابوهن المثبّت، وعلى رحلة قمنا بها قبيل عيد الفصح رحلة لم تخل من المفاجآت وجرت مع ذلك حسب رغبتنا ومزاجنا. إن لاورا وهيلينه ونيله هن بناتي من ثلاث امهات هن في صميمهن ومظهرهن - وانا انظر اليهن نظرة حبّ - على اختلاف شديد، لا بل على تناقض لا يفوقه اي تناقض - لو تسنى لهن ان يتحادثن يوما. - لكن بناتهن اتفقن بسهولة على هدف الرحلة التي دعاهن الاب اليها: هيّا بنا الى ايطاليا! سمحن لي بان اختار فلورنسيا واومبريا؛ واعترف بان اختياري كان عائدا لاسباب عاطفية، واني قد زرتُ تلك المناطق قبل عقود، وبالتحديد في صيف واحد وخمسين، حين تجولتُ فيها سيرا على الاقدام او بسيّارات مَن تكرّم باصطحابي. يومها كانت جعبتي المحمولة على الظهر خفيفة الوزن تحوي كيس النوم وقميصا للتبديل ودفتر الرسم وصندوق الالوان المائية وبدت لي كل شجرة زيتون وكل حبة حامض تنضج على شجرة جديرةً بالدهشة. هذه المرة سافرتُ مع البنات، وهن سافرن معي من دون امهاتهن. (اما أوته التي لم ترزق بناتا، بل صبيان وحسب فودّعتني بنظرة شكّاكة وداعا موقّتا). كانت لاورا، ام الاطفال الثلاثة التي قلّما

تبتسم او تجرّب ابتسامة خفيفة، قد حجزت لنا غرفا في الفنادق وسيارة تنتقل بها بدءا من مدينة فلورنسيا. كانت هيلينه، الطالبة نافدة الصبر في معهد من معاهد التمثيل، تجيد محاكاة ادوار وايماءات، هزلية في الغالب وهي تسند ظهرها الى أعمدة عتيقة او تقف امام آبار وعلى درجات رخامية. اما نيله فادركت على الارجح ان هذه الرحلة هي فرصتها الاخيرة للتمشّي على يد الاب مثل بنت صغيرة. وهكذا امكن لها ان تنظر بخفّة واطمئنان الى ما ينتظرها من اضطرابات، وان تتّكل على اختها لاورْا في اقناعها بانجاز البكالوريا رغما عن انف المدرسة السخيفة. على درجات بيروغياس الشديدة الانحدار وعند صعود الجبال في آسيسي و اورفْياتو، كانت الثلاثة قلقات على الاب الذي فضحت رجلاه المدخّن لدى كل خطوة وذكّرتاه بالدخان المتصاعد والمندثر على مدى العقود. كان عليّ ان اقوم باستراحات وانتبه في الوقت عينه الى الاّ تفوتنا مشاهدة ما يستحقّ الدهشة والاعجاب: هنا بوابة، هناك جدار عتيق متفتّت تلفت لعبة الوانه الشديدة السطوع، واحيانا مجرد واجهة ملأى بالاحذية...

في استهلاك التبغ كنت اقل بخلا من بخلي في التنظيرات حول الفن الذي احاط بنا من كل جهة واوحى اليّ بابداء ملاحظات وتعليقات، بدءا من أوفيسيا، ثمّ امام الكتدرائية في أورفْياتوس وامام الكنيستين الفوقانية والتحتانية في آسيسي اللتين كانتا في العام ستة وتسعين لا تزالان سالمتين؛ لكن، في الواقع، كانت بناتي هن اللواتي قدّمن لي دروسا عملية وحيوية في الفنّ، اذ ما إن رأيتهن امام تحف لـ بوتيتشيلي او لـ فرا أنجيليكو امام لوحات او نقوش للمعلمين الايطاليين تظهر ابداعهم في تصوير رونق النساء من شتى الزوايا، وفي جمع او حلقة او سلسلة تتألّف غالبا من ثلاث حسنوات، حتى شاهدتُ لاورا وهيلينه ونيله يحاكين العذارى والملائكة والفتيات الرامزة الى الربيع وكأنهن انعكاسات لها في المرآة، مرة مثل حوريات، ومرة ثانية في خشوع صامت، ومرة اخرى ايضا بايماءات بليغة، يقفن امام اللوحات او يتراقصن او يتمايلن يمينا وشمالا او ناحية بعضهن بعضا وكأنهن ايضا من ريشة بوتيتشيلي وغيرلانْدايوس وفرا أنجيليكوس

وجيوتو (في أسيسي.) باستثناءات قليلة عرض لي، اذن في كل محل حفلة راقصة.

فاحسست، انا المراقب عن بعد، بان البنات يحتفلن بي ابا على طريقتهن الخاصة. لكن ما إن عدنا الى بيروغيا التي استقررنا فيها، حتى بدا لي، حالما تنقلنا صعودا ونزولا في محاذاة اسوار المدينة الاتروسكية، كما لو ان أحدا يراقبني من شقوق الاسوار المخرمة، انا الذي كنت قبل لحظات ابا متعجرفا، كما لو ان نظرة مكثّفة ثاقبة تستهدفني، كما لو ان الامهات الثلاث المختلفات هن في حالة حذر وترقب واتفقن – بالنظر اليّ – على قلق يقول: هل الامور كلها على ما يرام؟ أ يفضل بنتا من البنات؟ أيسعى الى التعويض عما فاته في الماضي؟ أهو أب قادر على تحمّل واجبه...؟ خلال الايام التالية كنت اتجنّب التنزّه قرب الاسوار المخرمة على منوال تروسكي قحّ. وبعد امد حلّ عيد الفصح ودقّت اجراسه. فتنزّهنا في شارع كورسو وكأننا انتهينا بدورنا من الذهاب الى الكنيسة وحضور التراتيل: تأبّطتني لاورا ومسكت نيليه يدي، وتراقصت هيلينه امامنا. ثم انطلقنا في نزهة وسط الطبيعة الخضراء. فوجدنا حرج زيتون دعانا لاستراحة ووجبة. فأخذتُ أخبّئ مفاجآت قد اخترتها بعناية الاب الحنون، بين جذور الاشجار التي تكوّن اعشاشا ومغارات صغيرة. لم يكن بينها بيض العيد التقليدي بل حلويات الجوز، اكياس ملأى بالفطر المجفّف، عشبة الحبق المطحونة كؤوس صغيرة ملأى بالزيتون والكبر والأنشوجة والى ما هنالك من مطيّبات توفّرها ايطاليا للذواقة. بينما كنت اذن مشغولا بين الاشجار امرتُ البنات بالتطلّع الى الطبيعة وعدم مراقبتي.

بعد ذلك عمّ جو من اللهو يذكّر بايام الطفولة او يعوّض عن بعضها: اجتاحت بناتي الثلاث الربوع باحثات عن مخابئ الاب، وبدا لي انهن سعيدات في نشاطهن، مع ان هيلينه زعمت بان بعضا من الافاعي، السامّة بلا شك! زحفت بين جذور الاشجار في العش الذي وجدتْ فيه ضمة من الخزامى، إلا أن الأفاعي فرّت والحمد لله!

في الحال تذكّرت الامهات المتواريات في الربع الاتروسكي وكأنهن سلطة الامومة المتكتّلة. لكن في طريق العودة رأينا بعد حين، وبعد المرور بملصقات

للانتخابات تطبّل إما لصاحب من اصحاب وسائل الاعلام ولحلفائه الفاشيين وإما لتحالف بين الوسط واليسار تحت شعار الزيتونة، رأينا عن بعد ومن ثم عن كثب قطيعا من الاغنام يقوده الكبش وتتبعه النعجات مع خرفانها الصغار، خرفان الفصح، وجميعها تمرّ امامنا متظاهرة بِلامبالاةٍ وطمأنينة على طريقة الخرفان، كما لو ان نعجات مستنسخة على نسق ميغان و موراغ لن تولد يوما، كما لو ان النعجة دوللي المفتقرة الى والد لن تخلق قريبا، كما لو ان الآباء سيبقون مفيدين في المستقبل ايضا...

الراوي: غونتر غراس.

ميغان وموراغ: آذار ١٩٩٧.

دوللي: شباط. ١٩٩٧ المؤتمر العالمي لباحثي الجينوم: في اواخر آذار ١٩٩٦ اجتمعت "منظمة الجينوم البشري" التي تأسّست عام ١٩٩٠، للمرة الاولى في المانيا.

بوتيتشيلي، ساندرو: (١٤٤٥–١٥١٠)، رسام ايطالي.

فرا، أنجيليكو: حوالي (١٤٠٠–١٤٥٥)، رسام ايطالي من الرهبان الدومينيكيين.

غيرلانْدايو، دومينيكو: (١٤٤٩–١٤٩٤)، رسام ايطالي.

جيوتو، جيوتو دي بندونه: (١٢٦٦–١٣٣٧)، رسام ومهندس معماري ايطالي، خلق النقوش في كنيسة القديس فرانتشيسكو في آسيسي.

صاحب من اصحاب وسائل الاعلام: سيلْفيو برلوسكوني، مواليد (١٩٣٦)، رجل اعمال وسياسي ايطالي. يملك ثلاث محطات تلفزيونية ودورا لنشر الصحف والكتب فيحتل موقعا مهيمنا في المشهد الاعلامي الايطالي. أسس في العام ١٩٩٣ الحركة اليمينية "فورسا ايطاليا." ١٩٩٤ رئيس الوزراء.

١٩٩٧

حضرة السيد المحترم، الآن فقط، بعد عودتي من مؤتمر أدنْبرغ حيث كان لي ان اتحدّث الى الدكتور فيلْموت، عالم الاجنّة الذي ملأت شهرته الارجاء، وقبل ان اغادر بعدَ غدٍ الى بوستون لتبادل الاراء مع الزملاء، الآن فقط اجد وقتا لتبديد مخاوفك التي لا تخلو من اسباب وجيهة، بلا شك، إلاّ انها تشتطّ وتتيه في الخرافيّ. إنك تميل الى ترك خيالك يلهو على سجيته المسلية، في حين ان المطلوب هنا موضوعية حيادية لخير الجميع.

لنبدأ بما قد يكون مفهوما لغير المختصّ ايضا، مع ان المنهج التركيبي البسيط قد يبدو في حد ذاته مثل السحر. تدين دوللي بوجودها المتواضع لثلاث امهات: الام الجينية التي استُخرجت من ثديها خلايا مكّن سجلها الوراثي من توجيه انتاج نعجة جديدة كاملة ؛ امّ البويضة التي استُخرجت منها خلايا البويضة. من ثم نُزع من خلية البويضة المنفردة السجل الوراثي وتم مزج هذه الخلية الخالية من النواة بخلية الثدى بواسطة نبضات كهربائية، مما يعني انّ السجل الوراثي للامّ الجينية، دون غيرها، اعطى لخلية البويضة الامرَ بتقسيم ذاتها ؛ أما الجنين المتنامي فزُرع في رحم النعجة الثالثة، الامّ المستعارة، التي ولدت نعجتنا دوللي، المتطابقة مع امّ الجينة، بعد مدة الحمل المعهودة، ومن دون ان يُطلب – وهذا هو الامر المثير – اي استزادة من الذكور.

وهذا كل ما في الامر. لكن ذلك الاستغناء عن المشاركة الذكرية هو – إن فهمتُ قصدك – سبب قلقك المستديم. إنك تخشى امكان دفع التسيّر الجيني، الغنيّ الحصاد والمستغني عن الآباء، نحو آفاق جديدة عاجلا ام آجلا: من النعجة مرورا بالخنزير والقرد الى الانسان او ادق، الى النساء. بالفعل، لا يمكن استبعاد ذلك. فهناك أمل كبير بتوسيع منهج التركيب الذي لم يعد مجرد احتمال نظري، وهناك خوف ايضا. لقد أخبرني الدكتور فيلْموت، الاب الفكري للنعجة دوللي المستنسخة، عن نساء متحمّسات جدا يعرضن انفسهن منذ الآن ليلعبن دور امّ الجينة وامّ

كلا، يا سيدي العزيز، إن ذلك كله يبقى في الوقت الحاضر في حيز التأمّل النظري، مع ان الباحث الجديد في المادة الوراثية والحائز على جائزة نوبل، جايمزْ وتْسن، تنبأ في اوائل السبعينيات بالاستنساخ البشري من اجل انتاج نسخ عن افراد افذاذ، اي عباقرة مثل اينْشتاينْ او كالاس او بيكاسو، لا بل طالب به صراحة. أ لم تؤلّف بنفسك رواية، لا أعرف منها – للاسف – سوى مقتطفات، اثارت عند صدورها، على ما أظن، جدالا عنيفا؟ وقد ابتكرتَ لحبكتها الخيالية بشر الجرذان المستنسخين. ثم اطلقتَ على تلك المخلوقات الناتجة عن هندسة جينية خبيثة لا تعرف رادعا الاسم الساخر "وتْسنْ كركْس!"

لكن، لنعد الى الجدّ. إن ما نفتقر اليه، يا سيدي الكريم، هو علم اخلاق للاحياء مؤسّس على اساس العلم المتين ؛ فمن ناحية سيضع علم الاخلاق هذا حدًّا لموجة اثارة المخاوف العارمة، وذلك لكونه اكثر نفوذا من تصورات اخلاقية بائدة، ومن ناحية اخرى سيكون مخوّلا لتخطيط نظام اجتماعي جديد للاجيال المستنسخة القادمة التي ستترعرع في يوم غير بعيد من الايام الى جانب الاجيال البشرية العادية، لان ذلك التعايش لن يكون خاليا من النزاعات. وسيكون ايضا من مهام اخلاقيي الاحياء ان يضبطوا نمو سكان الارض، او في الواقع، ان يحدّوا من نموهم. فنحن، بلا جدل، على مفترق. ولا بدّ لنا من التساؤل: اي قسم من السجل الوراثي البشري يستحقّ التشجيع بموجب اخلاق الاحياء، واي قسم منه يستحقّ التصفية؟ يستلزم ذلك كله حلولا وتخطيطا طويل الامد. ولا تفيد البرامج الفورية، مع ان الحدّ من تطور العلم وسرعته غير ممكن، كما هو معلوم.

وها نحن في حقل فسيح، افسح من اللازم، ربما، تتطلب فلاحته ادوات زراعية يجب تطويرها قريبا. بل قريبا جدا، إن امكن... فالوقت يداهمنا!

اما بالنسبة لمخاوفك من "مجتمع خال من الآباء"، على حد قولك فانها تبدو لي، بعد استلام رسالتك الاخيرة، – ومع عدم المؤاخذة –! نابعة اما عن سجية طفلية، وإما عن هوس ذكورية منتفخة. لكن لنا ان نفرح من ان فعل التلقيح المعهود الذي

استقطب دائما مشاحنات ونزاعات، يفقد تدريجيا من اهميته! إنه لمدعاة للفرح ان ينعتق الرجل في ذاته من قهر المسؤولية وواجب البرهان على طاقته الجنسية. أجل، لنا ان نغتبط لانّ الرجل القادم، "المتحرر"، على ما أسمّيه سيكون حرا. حرا لبطالة محبّبة. حرا للتلهّي والدعابة. سيكون اذن مخلوق رفاهية سيبيحها المجتمع القادم. وأرجّح، يا سيدي الكريم بانّك بالذات ستكون من افضل من يستثمر تلك الفسحات والفضاءات التي ستنفتح قريبا، لئلاّ تتكاثر فيها دوللي وشركاؤها وحسب بل لان تجد فيها ذريّتك الفكرية مراعي تكاد تكون لامتناهية.

على فكرة: ما رأيك في طوفان نهر أودر؟ لا يسعني إلا ان امدح جهود جيشنا الاتحادي. لكن، اذا كنا مقبلين على تغيّر فعال للمناخ العالمي، وهو امر تؤيده معطيات مثيرة، فستصيبنا طوفانات اشد واوسع حجما. وهنا لي مخاوفي، بدوري، غير اني اتميّز عامة بعقلية التفاؤل.

على أمل ان اكون قد شذّبت مخاوفك المستقبلية قليلا، ومبلّغا تحياتي الى عقيلتك العزيزة التي كان لي مسرة اللقاء بها مؤخّرا عند تاجر نبيذ في لوبك، ابقى

المخلص هوبرتْوس فونْدربْروغه

جايمز وتْسن: مواليد (١٩٢٨)، باحث امريكي في كيمياء الاحياء، اقام فرضيات مهمة حول انتظام السجل الوراثي وشكله (في العام ١٩٥٣ بالتعاون مع فرانْسيس هاري كريك)، ثبتت صحتها فيما بعد في المختبر ١٩٦٢. جائزة نوبل في الطب.

كالاس، ماريا: (١٩٢٣–١٩٧٧)، مغنية امريكية من اصل يوناني.

في رواية لك: "الجرذة"، ١٩٨٦.

طوفان نهر أودر: بين حزيران وآب ١٩٩٧ في المانيا وبولونيا، وصف في الصحف بـ طوفان القرن.

١٩٩٨

صوتنا بالمراسلة. إلاّ اننا عدنا من جزيرة هيدنزيه الى بيلندورف عشية السابع والعشرين من ايلول. حاولنا ان نستّر احساسنا بالغثيان الذي جلبناه معنا مسترسلين في المشاغل اليومية. طبخت أوته شوربة عدس كانت ستكون مهدِّئة للاعصاب في امسية الانتخابات، مهما جاءت النتائج. اخبرنا ابن من الابناء بنيّة حضوره مساءً مع صديق له، واخبرتنا كذلك عائلة رومكورف. أما انا، فلجأت بعد الظهر الى الغابات القريبة لاجمع الفطر، كما اعلنت ببعض تفاخر.

ان حرج بيلندورف الذي يمتد على منطقة هضاب الى بحيرة كبيرة، هو جزء من غابات لوبش ويبدو في الخريف جذّابا وواعدا بالخيرات لكونه حرجا مختلطا. لكن تحت اوراق الخريف لم اجد ايَّ نوع من الفطر. وفي الربوع التي جنيتُ منها في منتصف الشهر وجبة دسمة من فطر الزعفران، لم يعد ينبت اي شيء. اما انواع الفطر البنفسجي التي تنبت على طرف الغابة، فصارت كبيرة الحجم ومصفرّة. لم تبشّر نزهتي بحصاد غني. وحتى الكلب رفض مرافقتي.

على الارجح، ستشكّكون فيما اقول: ان ما بقي لي من ايمان بالخرافات اتعلّق به بديلا عن ايمان آخر، شأني شأن العديد من المتنورّين المتأخّرين - ان ذلك الايمان وحده حثّني على متابعة البحث رغما عن كل شيء، وعلى افتراض تعالق مبهم بين ما أتمنّى حصاده من الفطر وبين نتيجة الانتخابات المرجوة. لكن السكين ظل عاطلا عن العمل، والسلة بقيت فارغة. فاوشكتُ على الاستسلام، واردتُ ان اصرف ما بقي من وقت في التدرّب على موقف قدري: رأيتُ نفسي قاعدا على مقعد الخاسرين، متمرّنا في التعاطي مع الاحباط والهزيمة كدتُ استرسل في تخيّل التحالف الكبير المتوقّع او المهدِّد، محاولا التخفيف من وقعه ووزره ببضعة غرامات بِقبول تنازلات براغماتية كدتُ اكفّر عن ايماني الخرافي... واذا بالبياض يتلألأ بين اغصان ذابلة وعلى جذور مكسوة بالطحالب، ينبت فرادى وجماعات، يرسل اشارات باهرة لا لبس فيها: البراءة في هيئة الفطر.

أتعرفون فطر الـ بوفيست؟ أ التقيتم بالـ بوفيست يوما؟ لا تقاطيع دقيقة على شكل مراوح او قصبات تميّزه. لا تحمله ساق رفيعة ولا مخشبّة، ولا له جذع غليظ مدوّر. لا تظلّله قبعة عريضة الحاشية ولا قبعة مقعرة ولا مقبّبة. ينبت الـ بوفيست اصلع الرأس ويمكن خلطه بـ بوفيست البطاطا الطازج وحسب ويُحسب الاخير ايضا من الانواع التي تؤكل، لكنه اقل لذة على اللسان واقل جمالا في مظهره. أما الـ بوفيست الاصيل فيحمل رأسَه الاصلع الكروي الذي يبدو غالبا مرشوشا بحبيبات الدقيق الأبيض على عنق ينهض ناعما ورشيقا. واذا ما قصصته من اسفل العنق، فوق تراب الغابة مباشرة، كان كثيف اللب وابيضه برهانا على فتوّته؛ إلاّ ان صباه الغضّ لا يدوم سوى ايام قليلة، لان الرأس الكروي والعنق يشيخان ويشيبان بعد حين، فيتفتّت اللبّ ويتميّع ويخضرّ كالاسفنج، ثم يسمرّ الـ بوفيست في حلّته العتيقة ويتحلّل تحت ايهابه الورقي الى غبار. مع ذلك، يجدر ان تعلموا ان الـ بوفيست لذيذ المذاق ولا يسبّب أحلاما ثقيلة.

وجدتُ ووجدت... يحبّ هذا النوع الخشب المهترئ. ويبّشر واحد منه بآخرين. فهو نوع اجتماعي. ومن الممكن نظريا لملمته جماعا. لكنّه يجب جني كلّ واحد منه برقّة وعناية. ومهما تشابهت افراده امتاز كل فرد منه بهيئة خاصة. فبدأتُ اعدّ كلّ بوفيست قطعتُ رأسَه بسكيني. وبعد امد تناثر على اوراق الجريدة المنبسطة - "فرانكفورتر رونتشاو" - الملآى باخبار وتعليقات قديمة وتنبأت بنتائج الانتخابات، اكثر من عشرين فُطرة من الحجم الصغير والمتوسّط ومن الصنف المختمر الناضج اللب. اذ ذاك، دقّ ايماني الخرافي المتبقّي الباب: تلاهى باللعب بالارقام. وبدأ بافتراض تعالق عددي بين اعداد الفطر المقطوف والنسبة المئوية لنتيجة الانتخابات المتوقعة في افضل الحالات واسوئها. وهمّ بابصار محصلة تلائمني... لكن، بعد خمسة وثلاثين فُطرة انتهى الحصاد. فبدأت اقلق على التحالف الاحمر الاخضر. اينما اتجهتُ، لم اجد اثرا للفطر او وجدت في احسن الاحوال بعضا من الفطر قليل القيمة. لكن، بعد حين عثرتُ على المنشود في منحدر

يتشكّل في جوار الينبوع الذي هو في الواقع رافد يقرن بحيرة بيلنْدورف بالقناة بين نهري ألبه و ترافه.

لكن، لئلاَ اطوّل عليكم الكلام والتشويق، وانتم تعلمون الآن ما اجمل الـ بوفيست ويمكن لكم ان تحذروا ما اشهى مذاق وجبة منه، ملوّحة بالزبدة، على ألسنة قاطف الفطر وزوّاره، اؤكد لكم باني حملتُ - بصرف النظر عن النماذج غير الصالحة المخضرة اللبّ - سبعا واربعين فطرة من نوع بوفيست ملفوفة في جريدة قديمة الى البيت والمطبخ.

بعد قليل حضر الضيوف: برونو وصديقه مارتْين، وإيفه وبيتر رويمكْورف. بعيد اول خبر عن جو الانتخابات المبشّر بالخير وقبيل اعلان عدّ الاصوات الاولي، قدّمتُ وجبتي من الفطر مقبلاتٍ تناول منها الجميع، واثقين في المامي بالفطر ؛ تناول منها حتى ب. ر. الذوّاق الصعب ارضاؤه. ولأنْ قطعتُ الفطر الى شرحات مموّهاً عدده، ظلّ جدول ضربي السحري مخفيا عن الانظار، إلا انّه ظل فاعلا جدا. اندهش الضيوف. حتى أوته نفسها التي تعلم دائما بكل شيء قبل حدوثه وتتعلّق بايمان خرافي من نوع آخر كليا، تخلّت عن آخر شكّ لها. فوجدتُ نفسي مثبّتا في ايماني الخرافي، حين بانت نتيجة الانتخابات الضامنة الانتصار للتحالف الاحمر الاخضر، وامكن توقع الحصول على مقاعد اكثر من اللازم: لقد قطفتُ العدد المناسب من فطر الـ بوفيست، لا أكثر ولا أقل.

اذ ذاك قدّمت أُوته شوربة العدس الفائحة برائحة المردقوش والملائمة للتخفيف من ايّ كبرياء محتمل. على شاشة بدت صغيرة على الحدث، شاهدنا الرئيس المستقِلّ يبكي بكاء حقيقيا. أما دهشة المنتصرين من فوزهم بالسلطة التي لا يتقنون التصرّف بها بعد، فانقصت من اعمارهم واضفت عليهم سيمياء الفتوّة. بعد قليل كانوا سيسترسلون في ميلهم الى التجادل. وأفرحنا تصوُّر تلك المجادلات ايضا. أجل إنّ الحساب قد ضبط؛ لكني لم اعثر على مزيد من فطر الـ بوفيست حتى اواخر تشرين.

عائلة رويمكْورف، بيتر: مواليد (١٩٢٩)، كاتب ؛ إيفا، سياسية (عن الحزب الاجتماعي الديمقراطي.)

فطر الـ بوفيست: الاسم العلمي: ليكوبردون غيماتوم.

فرانكفورتر رونتْشاو: جريدة يومية لليسار الليبرالي.

الرئيس المستقل: هلموت كول.

المنتصر: غيرهْارت، شرويدْر: مواليد (١٩٤٤)، قضائي وسياسي (الحزب الاجتماعي الديمقراطي)، ١٩٩٠-١٩٩٨ رئيس وزراء نيدرزاكْسن.

لم يجبرني الصبي... لكنّه اقنعني. كان يجيد ذلك دائما... فوافقتُ في النهاية. وها انّي على قيد حياة مزعومة: اتمتّع بالعافية ولي من العمر مائة سنة ونيف. وذلك كلّه، لانّه يريد ان تكون الامور هكذا. كان منذ الاولّ، وهو بطول شبرين، ملكا في الاختلاق، يكذب بمهارة ويعدني وعودا في منتهى الجمال: "حين اكون كبيرا وغنيا، سوف نسافر الى حيثما تشائين، يا ماما، حتى الى نابولي." لكن، يومها اندلعت الحرب. اضطررنا الى الاخلاء والنزوح الى القطاع السوفياتي، ومن ثم الى الفرار ناحية الغرب. هناك آوانا فلاّحون من رِ اينْلانْت في مطبخ بارد للعلف وزادوا على بؤسنا بالقول: "اذا لم يعجبكم الامر، عودوا الى محل ما جئتم منه...!" مع العلم انهم كانوا كاثوليكيين مثل حكايتي.

لكن منذ العام اثنين وخمسين – وكنا ساكنين، انا وزوجي، في منزل خاص بنا قد انتقلنا اليه من زمان – عرفنا ان مرضي هو سلطان خبيث. بقيتُ صامدة لعامين آخرين، بينما كان الصبي في دوسلْدورف يدرس فنّه الذي لا يطعم الخبز، بقيتُ صامدة الى ان انهت ابنتنا تعليمها في الاعمال المكتبية وتخلّت عن سائر احلامها... ابنتي المسكينة... لم اصمد لابلغ الثامنة والخمسين من عمري. والآن يريدون الاحتفال بعيد ميلادي المئة وكذا... لانّه يريد ان يعوّض أمّه المسكينة عن كلّ ما فاتها.

وصراحةً: يعجبني ما يختلقه سرًا. كنتُ دائما طويلة الباع، حين كان يكذب او "ينزّل الزرقة من السماء"، على حد قول زوجي. لكن الـ"اوغستّينوم"، دار مخصصة للمتقاعدين ومطلة على البحر اقيم فيها الآن، لانّه يريد ذلك، لهي فعلا من الدرجة الاولى، ولا اتشكى على الاطلاق. عندي غرفتان ونصف وحمّام ومطبخ وشرفة. جلب لي تلفزيونا ملونا وجهازا للاستماع الى الاسطوانات الفضية الجديدة وبعضا من الاسطوانات التي عليها موسيقى من الاوبرا والاوبريت. كنت دائما احبّ هذا النوع، وقبل قليل سمعت اغنية "جندي على ضفاف الفولغا"... من

اوبريت "تساروْيتْش..." يقوم معي ايضا برحلات كبيرة وصغيرة... رحنا مؤخّرا الى كوبنْهاغن، وفي العام القادم سنسافر أخيرا الى الجنوب، الى نابولي، إن بقيتُ على عافيتي...

أما الآن فيريدني ان احكي عما حدث في الماضي، في قديم الزمان. مثلما قلتُ: كانت عندنا حرب، حرب على طول، وبين كل حرب وحرب بعض الهدنات. قتل ابي الذي اشتغل حدّادا في معمل للبنادق، اولَ الحرب في جوار تاننْبرغ. ثم قتل اثنان من اخوتي في فرنسا. كان اولّهما يرسم ويؤلف الثاني قصائد تنشرها الجرائد. بالتأكيد، ورث ابني مواهبه من الاثنين، لان أخي الثالث كان نادلا وحسب. صحيح انه دار حول العالم ورأى الكثير، لكنه هلك مع ذلك في محل ما. ويقال انه اصيب بمرض من الامراض الجنسية... لا ارغب في تسميته. وقتها ماتت امي حزنا على ابنائها وقبل ان يأتي السلام، فصرتُ يتيمة في هذه الدنيا، مع اختي الصغيرة بيتّي، تلك البنت المدلّلة. لحسن الحظ كنتُ قبل ذلك بائعة في مقهى كايْزر وتعلمتُ قليلا من المحاسبة. هكذا استطعتُ ان افتح محل بقالة، بعد زواجي من فيلي وبعد التضخّم، حين اعطونا في دانْتسِغ عملة الـ غولدن الجديدة. في البداية سارت الامور جيدة. وفي العام سبعة وعشرين، وقد تجاوزت الثلاثين، رزقت بالصبي، وبعد ذلك بثلاث سنوات بـأبنتي الصغيرة...

الى جانب المحل كانت لدينا غرفتان فقط. فلم يكن للصبي الصغير سوى ركن تحت النافذة، يحفظ فيه كتبه والوانه ومعجونه. لكنه كان راضيا مكتفيا، يجلس هناك يختلق ويبتكر. والآن يجبرني على ان احيا ثانية: يدلّعني كل حين بـ"يا ماما الحبيبة"، ويزورني مع احفاده في دار المتقاعدين، ويريد ان يكونوا أبناءَ احفادٍ لي، وان أعايشهم ايضا. صحّ انّهم اطفال طيّبون، لكنهم يتشيطنون احيانا... فارتاح حين ينزل العفاريت الصغار الى الحديقة – بينهم توأمان، ذكيان وطويلا اللسان – يحملون معهم تلك الاحذية الغريبة للتزلج بلا جليد التي يسمّونها اليوم سكاترزْ – ويذكّرني اللفظ بلعبة الورق سكات – فيسرعون بها ذهابا وايابا... يمكن لي ان اطلّ عليهم من الشرفة، وارى ان احد التوأمين يريد دائما ان يسبق الآخر...

سكات! أحببتُ تلك اللعبة طوال عمري... كنت العبها في الاغلب مع زوجي وابن عمي الكاشوبي، فرانتس، الذي اشتغل في البريد البولوني، وقُتل بالرصاص اولَ ما عادت. اندلعت الحرب. كانت مصيبة... مصيبة للجميع... لكن، هكذا كانت الاحوال يومها... ومنها ايضا ان فيلي انضمّ الى الحزب وانّي التحقت بعصبة النساء، لامارس فيها التمارين الرياضية مجانا، وان الصبي انضمّ الى تنظيم الشباب وحصل على زي انيق... فيما بعد كان حمي في معظم الاحيان، الرجل الثالث في لعبة الـ سكات. لكنه كان دائما مفرطا في العصبية... السيّد النجّار. فكان لا ينتهز فرصه في اللعب، فكنتُ اردّ عليه حالا. لا ازال أحبّ لعب الورق الى الآن، وانا مجبرة على العيش من جديد... ألعب مع ابني حين يأتيني في زيارة مع ابنته هيلينه التي سمّوها على اسمي. انها لاعبة ماهرة، تلعب افضل من ابيها، مع اني علّمتُه اللعب حين كان في العاشرة او الحادية عشرة، إلا انه لا يزال يلعب مثل اي مبتدىء. يراهن على القلب، ورقته المفضلة، حتى لو كانت معه عشرة كاملة...

وبينما نلعب ونلعب وابني يخطأ باستمرار، يتزلّج أبناء احفادي باحذية الـ سكاترز في حديقة الـ"اوغوستْينوم"، يتزلّجون بسرعة مقلقة مخيفة. لكنّ ركبهم واكواعهم وايديهم محمية بالمخدات. وعلى رؤوسهم خوذات حقيقية، لئلاّ يصيبهم اي مكروه، لا سمح الله! وكل هذه الاغراض غالية! آوه، لما أتذكّر إخواني الذين قضوا في الحرب الاولى او هلكوا في محل ما... كانوا في صغرهم، اي في عهد القيصر، يدبّرون برميلا قديما من معمل البيرة لانغفْور، يفكّكون قضبانه ويدهنونها بالصابون ويثبتونها تحت احذيتهم المتينة ويروحون مثل متزلّجين حقيقيين على الثلج الى غابة يكشنتّال، يطلعون تلة البزلاء وينزلونها بلا كلل. كان ذلك وافيا بالغرض، ولم يكلّفهم قرشا...

اوه، لما أتذكّر، كم صعب عليّ، كصاحبة محل صغير، شراء احذية حقيقية للتزلّج على الجليد لكلا الطفلين، اعني من النوع الذي يتركّب بالمفتاح...! ففي الثلاثينيات لم تمش امور المحلّ بشكل جيد... منافسة قوية والكثير من البيع بالدين... ثم أتى علينا تضخّم العملة ايضا... صحيح ان الناس غنّوا يومها:

"شهر ايار يجدّد كل شيء، يحوّل الـ غولدن الى اثنين!". لكن الحال ضاقت بنا مع ذلك. كانت لدينا في دانْتسِغ عملة الـ غولدن، لانّنا كنا دولة حرة الى ان بدأت الحرب التالية واعادنا الـفوهرر مع رئيس مديريته – وكان اسمه فورستْر – الى "وطن الرايخ." منذ ذلك الحين تم البيع والشراء بمارك الرايخ حصرا. لكن البضائع صارت تقلّ وتقلّ... بعد اغلاق المحل مساء، كان علي ان أصنّف بطاقات المواد الغذائية والصقها على جرائد قديمة. واحيانا كان الصبي يساعدني... الى ان البسوه ايضا ملابس عسكرية. وهو لم يرجع اليّ سالما إلاّ بعد ان اتى علينا الروس ومن ثم البولونيون الذين اخذوا آخر ما بقي لنا، فصرنا مهجّرين واستقرّ البؤس. كان عمره وقتها تسع عشرة سنة، لكنه ظن نفسه رجلا. بعد ذلك عشتُ ايضا ايام اصلاح العملة، حين اعطوا لكل واحد اربعين ماركا من العملة الجديدة... كانت بداية قاسية جدا بالنسبة لنا نحن المهجّرين من الشرق... اذ لم يبق لدينا اي شيء... كل ما استطعتُ انقاذه: البوم الصور الفوتوغرافية... والبوم الصبي للطوابع البريدية... وحين متُّ...

والآن يريد ابني ان اعيش زمن الدفع بالـ يورو ايضا. لكن قبل ذلك يريد ان يحتفل، من كل بد، بعيد ميلادي، الثالث بعد المائة بالتحديد. حسنا، ليس عندي مانع. تجاوز عمر الصبي السبعين الآن وصار شهيرا من زمان. لكنّه لا يقدر على التخلي عن قصصه. واعترف بان بعضها يعجبني. اما بعضها الآخر، فكنت حذفتُ منه مقاطع باكملها. لكن الحفلات العائلية الحقيقية، بما فيها من مشاجرات ومصالحات كانت دائما على ذوقي... فلما نحتفل، نحن اللكاشوبيين تكرّ الدموع من الضحك والبكاء ايضا. في البداية رفضت ابنتي التي تقرب الآن السبعين ايضا، حضور حفلتي، لانها لا تستحسن فكرة اخيها ان يحييني لأجل قصصه، وتعتقد انها فكرة سوداء. فقلتُ لها: "لا عليك، يا داداو... اذا لم توافقي، قد يخطر على باله أمر أسوأ." فهذه جبلته. يختلق اغرب الاشياء واقلها احتمالا. عليه ان يبالغ ويشتطّ. فيصعب على الواحد تصديق ما يؤلّفه...

لكن ابنتي وافقت على المجيء في اواخر شباط. فانتظر بفرح رؤية ابناء احفادي

من جديد، وهم يتزلّجون في الحديقة وانا اطلّ عليهم من الشرفة. واترقب بفرح العام ٢٠٠٠ ايضا. فلنر، بماذا سيأتينا... ان شاء الله ما ترجع الحرب... بالاولّ في المناطق البعيدة... ومن ثم في كل محل...

الراوية: هيلينه غراس (١٨٩٦–١٩٥٤) النزوح الى القطاع السوفياتي: بعد الحرب العالمية الثانية هُجَر المواطنون الالمان من المناطق الشرقية السابقة للرايخ الالماني.

زوجي: فيلي غراس (١٨٩٩–١٩٧٩).

في جوار تاننْبرغ: في معركة تاننْبرغ بين ٢٣ و٣١/٨/١٩١٤ انتصر الجيش الالماني الثامن بقيادة باول فون هندنْبورغ ورئيس اركانه أريش لودنْدورف على الجيش الروسي الثاني.

ابنتنا: فالْتراود، مواليد (١٩٣٠).

"تساريفيتس": انظر هوامش (١٩٢٧).

عصبة النساء: منظمة نسائية للفاشيين

منظمة الشبيبة، "الشعب الفتي": "فرع للشبيبة الهتلرية (للصبيان بين ١٠ و ١٤سنة.)

رئيس المديرية فورْستر: ألبرت (١٩٠٢–١٩٤٨).